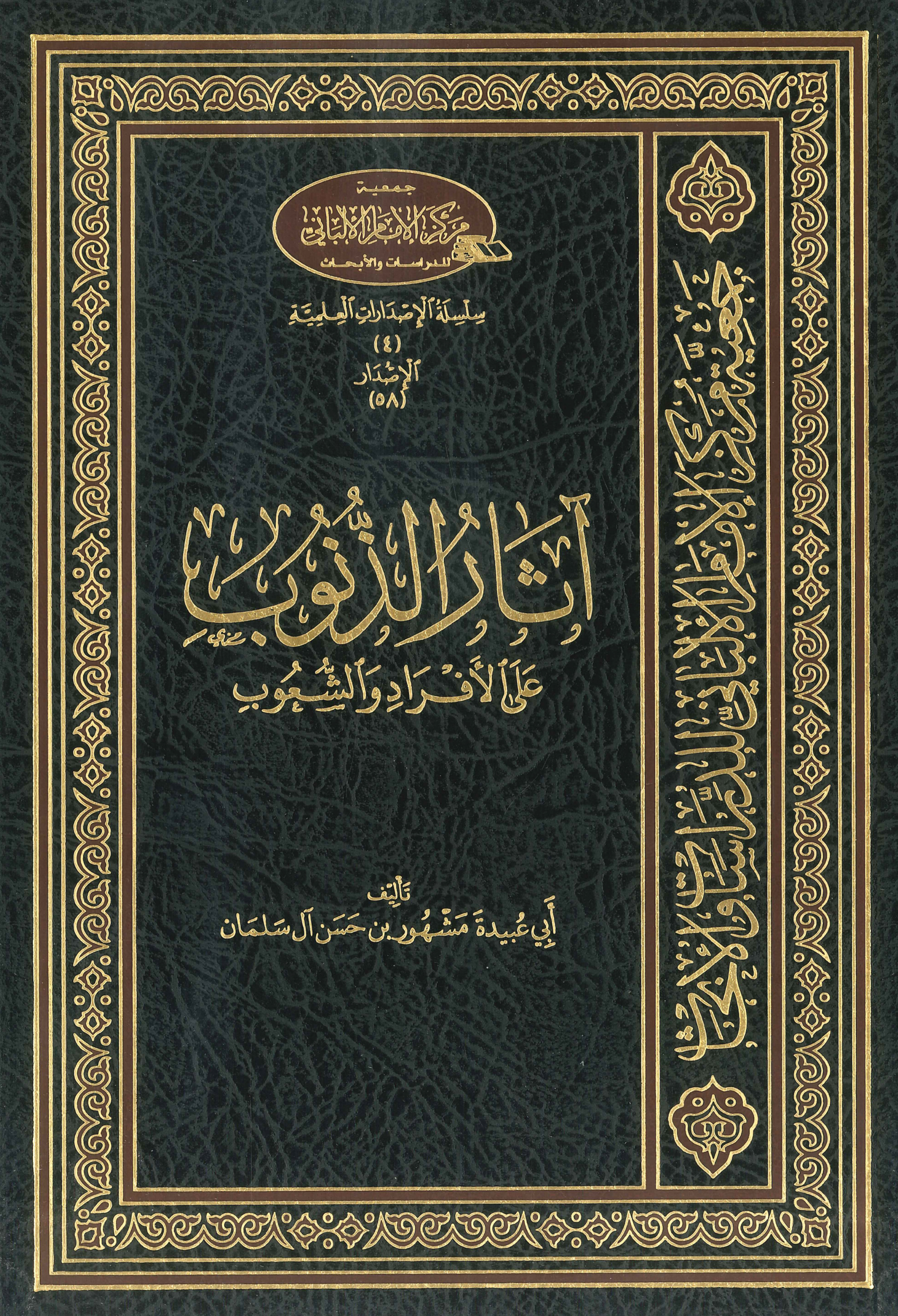
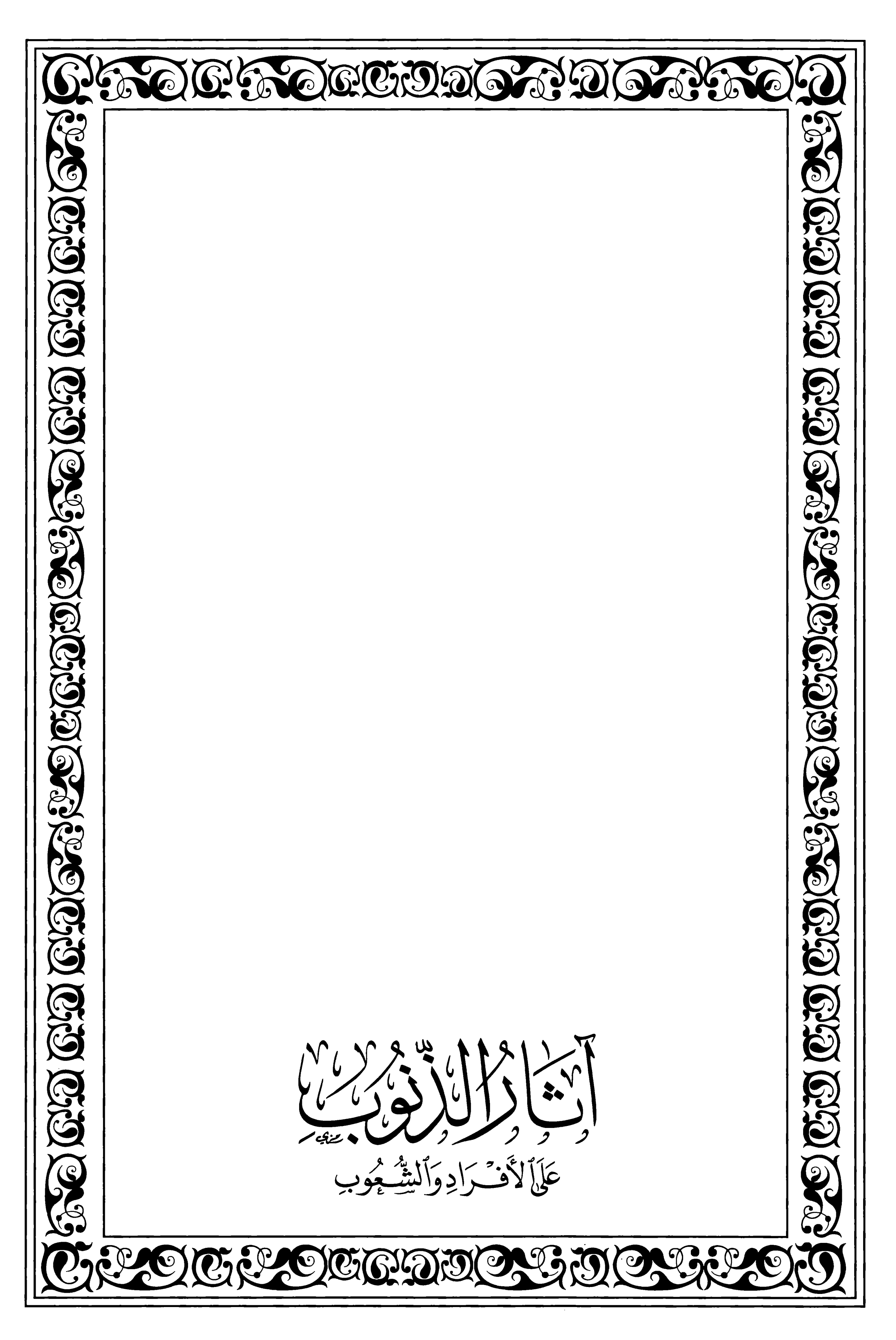
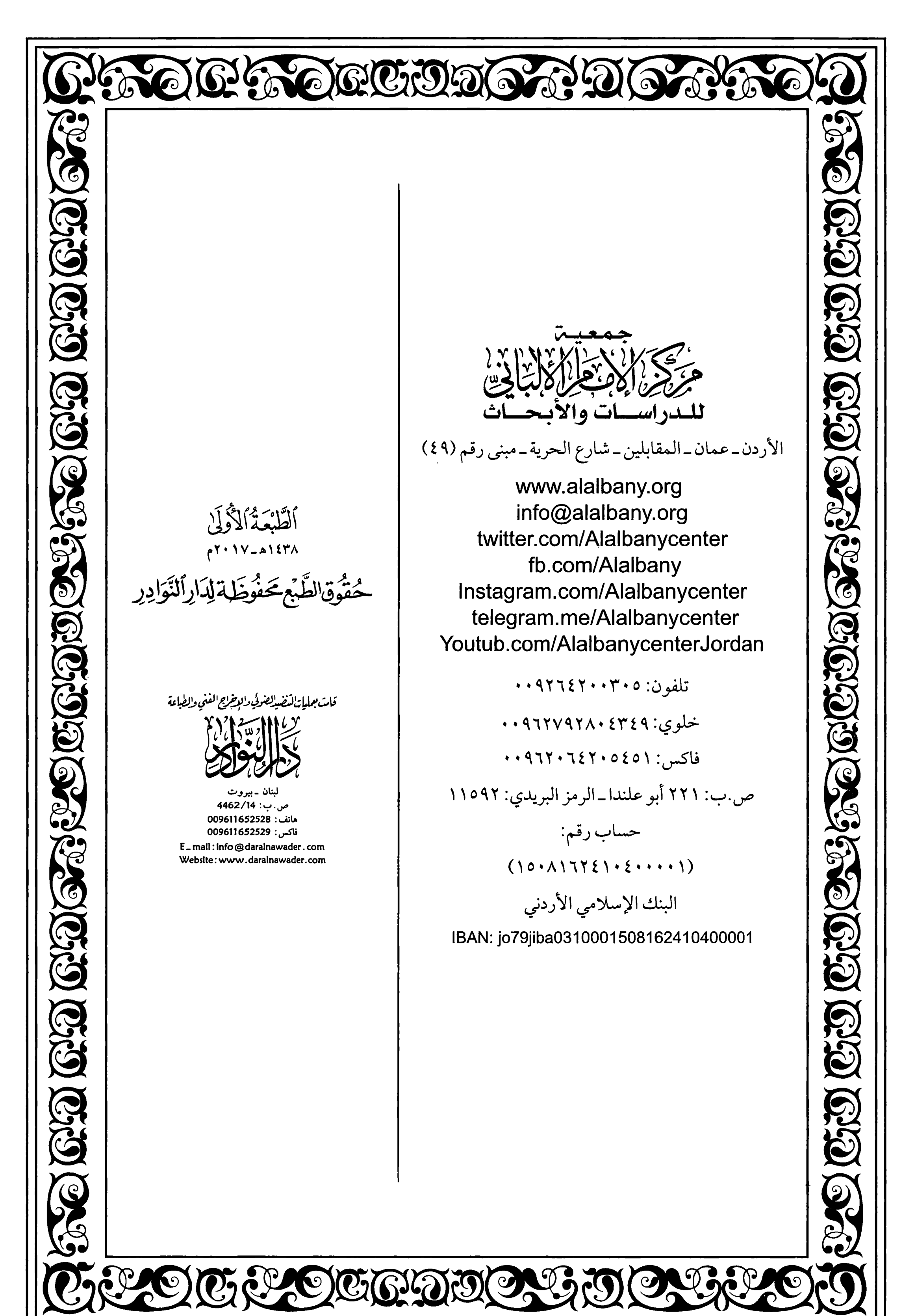

جمعية
مركز الإمام الألباني
للدراسات والأبحاث
سلسلة الإصدارات العلمية
(٤)
الإصدار
(٥٨)
آثار الذنوب
على الأفراد والشعوب
تأليف
أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان


آثار الذنوب
على الأفراد والشعوب



جمعية
مركز الإمام الألباني
للدراسات والأبحاث

الأردن ـ عمان ـ المقابلين ـ شارع الحرية ـ مبنى رقم (٤٩)

www.alalbany.org
info@alalbany.org
twitter.com/Alalbanycenter
fb.com/Alalbany
Instagram.com/Alalbanycenter
telegram.me/Alalbanycenter
Youtub.com/AlalbanycenterJordan

تلفون: ٠٠٩٢٦٤٢٠٠٣٠٥

خلوي: ٠٠٩٦٢٧٩٢٨٠٤٣٤٩

فاكس: ٠٠٩٦٢٠٦٤٢٠٥٤٥١

ص.ب: ٢٢١ أبو علندا ـ الرمز البريدي: ١١٥٩٢

حساب رقم:

(١٥٠٨١٦٢٤١٠٤٠٠٠٠١)

البنك الإسلامي الأردني

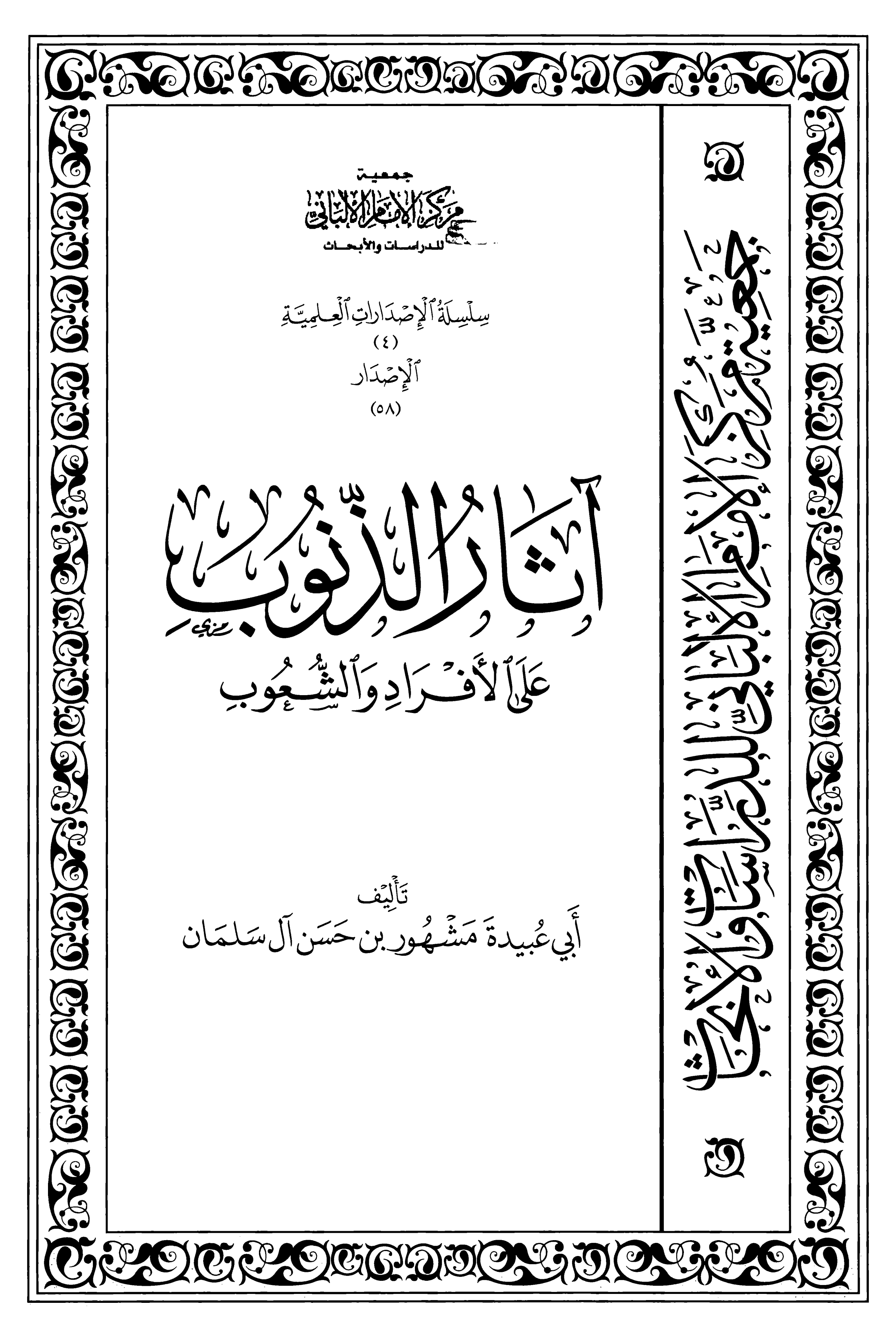
IBAN: jo79jiba0310001508162410400001

الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م

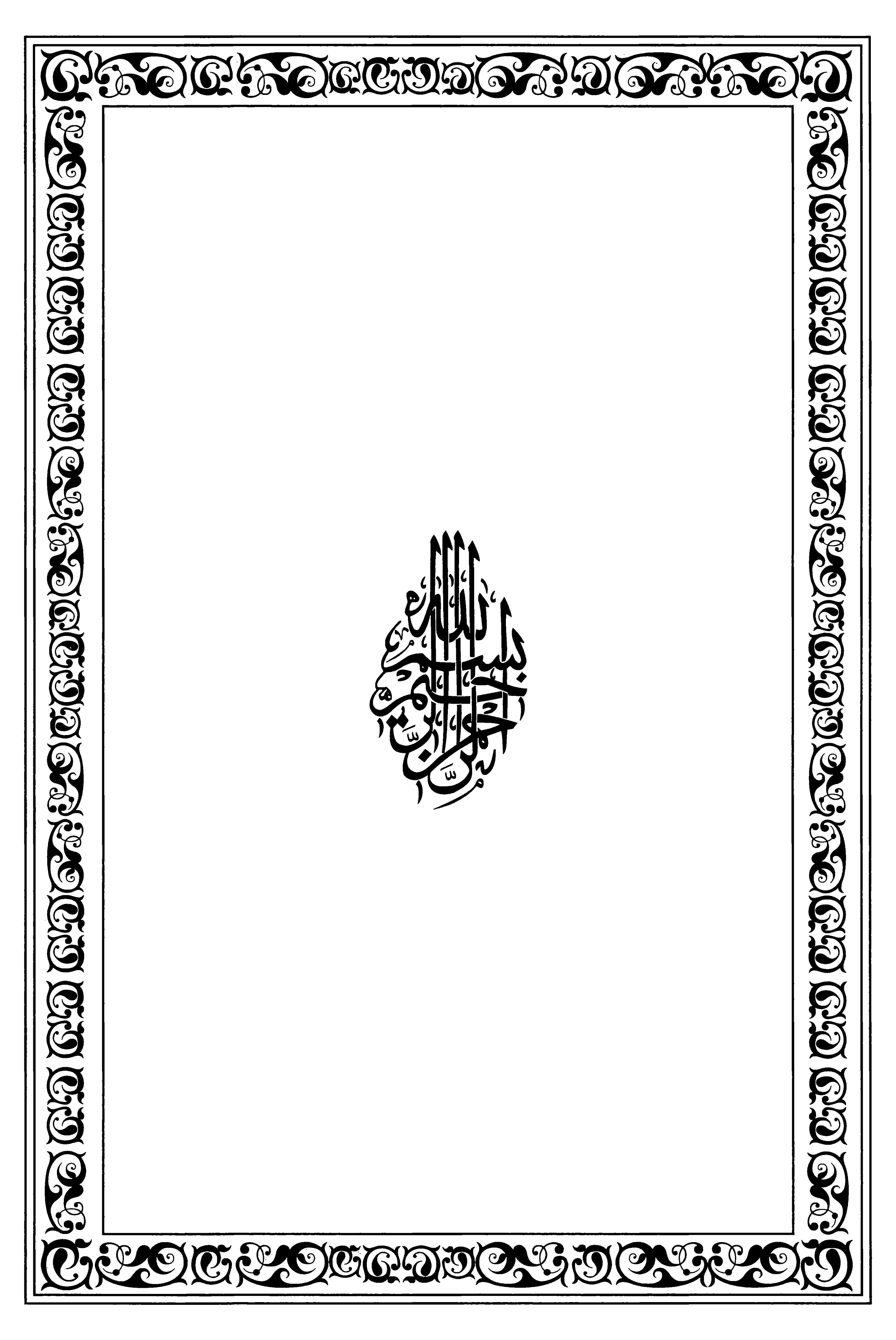
قامت بعمليات التنضيد الضوئي والإخراج الفني والطباعة

دار النوادر

لبنان ـ بيروت
ص.ب: 4462/14
هاتف: 009611652528
فاكس: 009611652529
E_mail: info@daralnawader.com
Website: www.daralnawader.com



جمعية
مركز الإمام الألباني
للدراسات والأبحاث
سِلْسِلَةُ ٱلْإِصْدَارَاتِ ٱلْعِلْمِيَّةِ
(٤)
ٱلْإِصْدَار
(٥٨)
آثارُ الذُّنوبِ
عَلَى ٱلأَفْرَادِ وَٱلشُّعُوبِ
تأليف
أَبِي عُبيدةَ مَشْهُور بن حَسَن آل سَلمَان
جمعية مركز الإمام الألباني للدراسات والأبحاث


بسم الله الرحمن الرحيم



«إلى صاحبي القديم...

وَقَالَ لِي: قد علمتَ من أَيْن غَلطتَ! أَحْسَنتَ الظَّن بِنَفْسِك فتاقت إلى دَرَجَات الـمُحْسِنِينَ بِخِلَاف سِيرتهم، مِن غَير إِنْكَار مِنْك عَلَيْهَا لـمساوئ أعمالها، وَلَا دَفعَ لما ادَّعَتْهُ من أعمالِ الصَّادِقِين.

وأسأتَ الظَّن بغيرك فأنزلتهم فِي دَرَجَة المسيئين إغفالًا مِنْك لشأنِك، وتفرغتَ للنَّظَر فِي عُيُوب غَيْرك.

فَلَمَّا كَانَ ذَلِك مِنْك كَذَلِك عوقبتَ بِأَن غارت عُيُون الرأفة وَالرَّحْمَة من قَلْبك، وانفجرت إِلَيْهِ أَنهَار الغلظة وَالقَسْوَة، فَأَحْبَبْتَ أَن تنظرَ إِلى النَّاس بالإزراء عَلَيْهِم والاحتقار لَهُم وَقلة الرَّحْمَة، وَأَرَدْتَ أَن ينْظرُوا إليك بالتعظيم والمهابة وَالرَّحْمَة، فَمن وَافقَك مِنْهُم على ذَلِك نَالَ مِنْك قُربًا ومحبة، ونلتَ أَنْت من الله ـ تَعَالَى ـ بُعدًا وسَخَطًا، ومَن خالفكَ فِيهِ ازْدَادَ مِنْك بُعدًا وبُغضًا، وازددتَ أنت من الله بُعدًا وسَخَطًا.

وأطلتَ فِي ذَلِك كُلِّه أملَكَ فطاب لَك المسير فِي طَرِيق التسويف ومدارج الحَيرات، فاشتدَّت رَغْبَة نَفسك واستمكن الحِرْص من قَلْبك فعظُمَت لـذَلِك فِي

الدُّنْيَا رغبتُك، وشَحَّت فجمحت إلى شهواتها واحتَوَشَت قَلْبك لذَّاتُها، فحال ذَلِك بَيْنك وَبَين أن تَجِد حَلاوة سلوك طَرِيق الآخرة، فقلبُك حَيرانُ على سَبِيل حَيرة، قد اشتبَهَت عَلَيْك سُبل النجَاة، وشقَّق حِجاب الذُّنُوب فأنِسْت لقُربها وطاب لَك شم رِيحِهَا، فوصلتَ بذلك الى مَحْض المعْصِيَة، فادَّعيتَ مَا لَيْسَ لَك وتناولتَ مَا يبعد مرامُه من مِثلِك.

ثمَّ أخرجكَ ذَلِك إلى أن تَكَلَّمت لغير الله، وَنظرتَ الى مَا لَيْسَ لَك، وعملتَ لغير الله فَكنتَ مخدوعًا مسبوعًا[1] عِنْد حسن ظَنِّك بِنَفسِك وأنت لَا تشعُر، ومُستدرجًا من حَيْثُ لَا تعلم، فَكَانَ مِيرَاث عَمَلك الخُبثَ والجريرةَ والغِشَّ والخديعةَ والخيانةَ والمداهنةَ وَالمَكْرُوهَ وَتركَ النَّصِيحَةِ، وأنت فِي ذَلِك كُلِّه مُظهِر لمباينة ذَلِك.

فَمن كَانَت هَذِه سيرته؛ فَلَا يُنكِر أن يَبْدُو لَهُ مِن الله مَا لم يكن يحْتَسب.

فَلَو كَانَ لَك يَا مِسْكين! أدنى تخوُّف لبَكَيتَ على نَفسك بكاء الثَّكلى المُحِبَّة لمن أثكلَت، ونُحتَ عَلَيْهَا نياحة المَوْتَى حِين غَشِيَك شُؤْم الذُّنُوب.

وَلَو بَكَى عَلَيْك أهلُ السَّمَوَات وأهلُ الأرضِ لَكُنْتَ مستوجبًا لذَلِك لعِظَم مُصيبتك.

وَلَو عزَّاك عَلَيْهَا جَمِيع الخَلق تَعْزِيَة المَحروب المَسلوب لَكُنْتَ مُسْتَحقًّا لذَلِك؛ لِأَنَّك قد حُرِمتَ دينَك وسُلِبتَ معرفتكَ بشؤم الذُّنُوب، فركبكَ ذُلُّ

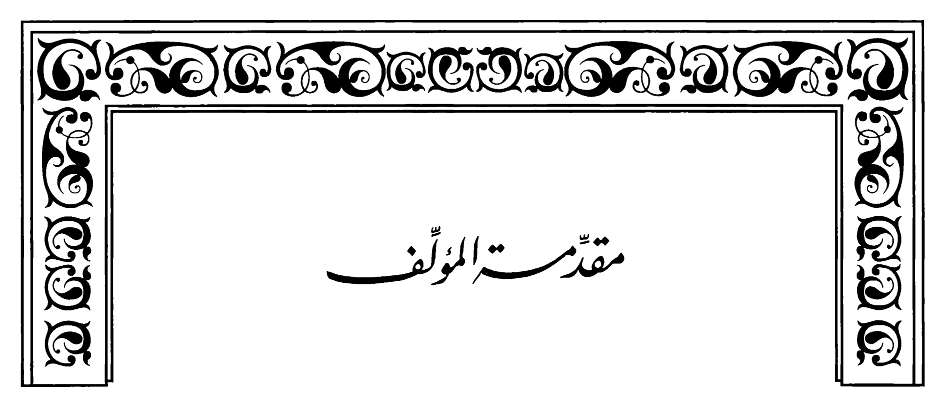
---

(١) المسبوع: الذي ذعره السبع، والعامَّة تطلقه على كل مذعور. «تكملة المعاجم العربية» (٦/ ٢٤).

المَعْصِيَة، وَأُثبتَ اسْمكَ فِي ديوَان العاصين، واستَوحَشَ مِنْك أهلُ التَّقْوَى إِلَّا من كَانَ فِي مِثالك».

«آداب النفوس» (٦٥ ـ ٦٦)





مقدِّمة المؤلِّف

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

أمّا بعد:

فهذه مجموعةُ كلماتٍ ونُقولاتٍ ومدوَّنات على ظهور الكتب، وإشاراتٌ في أثناء البحث والتحضير للدُّروس، ورسائلُ وصلتني عبر (الواتس)، وكلماتٌ ودروسٌ ومحاضراتٌ، تخصُّ المعاصي والذنوب وأثرها في خراب الدُّول وفساد الشُّعوب، تشمل الناس جميعًا بلا استثناء، ذكرتُ فيها سُننًا لله ـ عز وجلَّ ـ في المدمنين على الذنوب، الذين استسلموا لها وما جاهدوا أنفسهم للخلاص منها،

وآثار ذلك عليهم، أفرادًا وشعوبًا، آحادًا وجماعاتٍ، في جميع مناحي حياتهم، ودلَّلْتُ على ذلك بنصوص الكتابِ وصحيحِ السُّنَّةِ وآثار السّلف، وعبارات المجرِّبين من الثِّقات، والأئمَّة الهُداة، وأرشدتهم إلى أسباب الوقوع فيها وتمكُّنها منهم، وطُرق الخلاص وإنْ وصل الأمر إلى حدِّ الإدمان.

وكانت متفرِّقةً مبعثرةً، فأحببتُ أن يجمعَها عقدٌ وينظمها سلكٌ، لعلَّ الله ـ عز وجل ـ ينفعُ بها، فإنَّ المزبور فيها يوضِّحُ شيئًا ممَّا بُعث به النبيُّون الذين أُرسلوا إلى الله داعين، وبه معرِّفين، ولمن أجابَهُم مبشِّرين، ولمن خالفهم منذرين.

فدفعتُ بها بما تجمَّع عندي لبعض إخواننا الحريصين، وطلبة العلم النَّابهين، فبيَّضها وحرَّرها وبوَّبها، فكان هذا الكتاب المهمُّ ـ إن شاء الله ـ، الذي أنصحُ بإدمانِ النَّظر فيه، وعرض محتواه على جماهير النَّاس، ونشر عباراته المؤثِّرة، ودرره الغالية، وحِكَمِه السامية، وتحريراته الماتعة، وتقريراته النافعة، ونصائحه المُنجية، عبر وسائل الاتصال، وأسأل الله الأجر له، وأن ينفع بنا جميعًا دينَ الله ـ عز وجلَّ ـ، وأن يمُنَّ علينا بخدمة كتابه وسنَّة نبيِّه ﷺ، وأن يستخدمنا لنُصرة دينه، ونشر سُنَّة نبيِّه ﷺ.

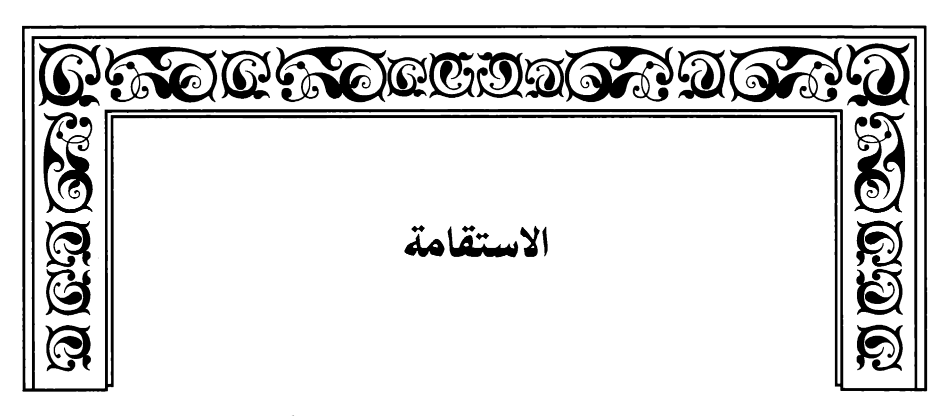
هذا، وآخرُ دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

وكتب

أبو عبيدة

مشهور بن حسن آل سلمان

❐ ❐ ❐



الاستقامة

فقد أمر اللهُ نبيَّه محمدًا ﷺ بقوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[هود: ١١٢].

ومن المعلوم بإجماع علماء الأمة أنَّ الأمر الذي يُخاطَبُ به النبيُّ ﷺ إنما هو خطابٌ له ولأمَّته، ما لم تأتِ قرينةٌ تخصُّ أحدهما، فالخطاب للنبيِّ خطابٌ لأُمَّته، والخطاب للأُمَّةِ خطابٌ للنبيِّ ﷺ، ولعِظَمِ شأن الاستقامة على مُراد الله، جاء الخطابُ موجَّهًا لرسول الله ﷺ، فأمر اللهُ نبيَّه بقوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾، وهذا الذي يسمِّيه بعض أهل العلم: تنبيهٌ بالأعلى على الأدنى؛ أي: إن كان أشرفُ الخلق ﷺ مأمورًا بالاستقامة، فمَنْ سواه أَوْلَى بأن يتوجَّه إليه هذا الأمر.

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «...الأصلُ فيما خُوطب به النَّبي ﷺ في كل ما أُمر به ونُهي عنه وأُبيح له؛ سارٍ في حق أمَّته، كمشاركة أمَّته له في الأحكام وغيرها حتى يقوم دليل التَّخصيص، فما ثبت في حقِّه من الأحكام ثبت في حقِّ الأمَّة إذا لم يخصَّص، هذا مذهب السَّلف والفقهاء، ودلائل ذلك كثيرة؛ كقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾[الأحزاب:٣٧]، ولما أباح له الموهوبةَ قال: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأحزاب:٥٠]»[1].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٨٢).

وأوَّل ما يُستفادُ من هذا: أنَّ الاستقامة لا تكون على وَفقِ العادات والتقاليد، ولا على وَفقِ المألوف، ولا على وَفقِ العقلِ المجرَّد، ولا على وَفقِ الأهواء والسياسات، وإنَّما تكون على وَفق الوحي؛ فإنَّ الله ـ تعالى ـ قال: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾.

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ فمع كَون الأصلِ أنَّ الخطابَ عامٌّ للأمَّة، إلَّا أنَّ هذا الأمر لا يقدر عليه إلا ثُلَّة؛ هم المنعوتون بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾، فالاستقامة ثقيلةٌ، لا يقدر عليها إلا من كان تَوَّابًا أَوَّابًا، كثير المحاسبةِ لنفسه، وكثير الرجوع إلى ربِّه.

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ فحتى تتَّضح حقيقة الاستقامةِ أمر اللهُ باجتنابِ ضدِّها؛ وهو الطغيان، والغلوُّ، والخروج عن الصراط المستقيم.

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فالوسيلةُ لحصولِ الاستقامةِ إنَّما تكونُ باستشعارِ أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بصيرٌ، فلا يمكن أن يحقِّقَ أحدٌ الاستقامة إلا باستشعاره أن الله ـ عز وجل ـ بصيرٌ به ومطَّلعٌ على ظاهره وباطنه.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «يأمر ـ تعالى ـ رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد، ونهى عن الطغيان، وهو البغي، فإنه مَصْرَعَةٌ حتى ولو كان على مُشرك! وأَعْلَمَ ـ تعالى ـ أنَّه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء»[1].

وجاء الأمرُ للأمَّة بالاستقامة في آيةٍ ثانية، نحتاج أن نتدبرَّها، وأن نعرف المعاني المشتركة بينها وبين الآيةِ آنفة الذكر، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٥٤).

﴿بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾[فصلت: ٦ ـ ٧].

قبل أن يأمرَ اللهُ هذه الأمةَ بالاستقامة بقوله: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، وهذا معناه: لا تَغْلوا في رسول الله، ولا تتوجهوا إليه بالعبادة، فتقعوا في الطغيان، فرسول الله ﷺ بشرٌ مثلكم، يمتازُ عنكم بأنه يوحى إليه، فذُكر الوحيُ ـ أيضًا ـ مرةً أخرى، للتأكيد على أنَّ الدعوة التي ندعوا إليها دعوةُ وَحْيٍ، وليست دعوةَ فكرٍ، ولا دعوةَ رأيٍ وتركٍ للنصوص الشرعية الواضحة الـمُبَيَّنة في كتاب ربنا وأحاديثِ نبيِّنا ﷺ، عياذًا بالله.

﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فهو الذي يستحق أن يُستقامَ على أمره؛ لأنهُ معبودٌ بحقٍّ، واحدٌ لا ثانيَ له، فهو الخالق، ومن خلق مَلَك، ومن مَلَكَ أمَر ودبَّر، فإنَّه يأمر الناس بما شاء ـ سبحانه وتعالى ـ.

﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ فجاء هنا أمرُ الأمَّة بأن تستقيمَ على أمر الله ـ عز وجل ـ.

* * *

*** حقيقة الاستقامة وحدُّها:**

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «فالاستقامة كلمةٌ جامعةٌ آخذةٌ بمجامع الدِّين، **وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد**، والاستقامة تتعلَّق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيَّات؛ فالاستقامة فيها: وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله، قال بعض العارفين: كُن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة، فإنَّ نفسك متحرِّكة في طلب الكرامة، وربُّك يطالبك بالاستقامةِ، وسمعتُ شيخَ الإسلام

ابن تيميَّة ـ قدس الله ـ تعالى ـ روحه ـ يقول: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة»[1].

وقال ابن رجب الحنبلي ـ رحمه الله ـ: «والاستقامةُ هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدِّين القيِّم من غير تعريج عنه يَمْنَةً ولا يَسْرَةً، ويشمل ذلك فعلَ الطَّاعاتِ كلِّها، الظاهرةِ والباطنةِ، وتركَ المنهيَّات كلِّها كذلك، فصارت هذه الوصيَّةُ جامعةً لخصال الدِّين كلِّها»[2].

ومن لطيفِ ما ذُكرَ في حقيقتها: أنَّها «توبة بلا إصرار، وعمل بلا فتور، وإخلاص بلا التفات، ويقين بلا تردد، وتفويض بلا تدبير»[3].

* * *

*** من آثار السَّلف الواردة في معناها، وبيان مظاهرها وخصائصها[4]:**

قال أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وقد سُئل عن الاستقامة: «أن لا تشرك بالله شيئًا».

وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تَرُوغ رَوغان الثعالب».

وقال عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ: «استقاموا: أخلصوا العمل لله».

وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «استقاموا: أدَّوا الفرائض».

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٠٦).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص٢٠٥).

(٣) «شرح الأربعين النووية» للنووي (ص٦٤)، «هداية المرشدين» (ص٦٤) لعلي محفوظ.

(٤) تُنظر هذه الآثار في «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٦٤ وما بعدها).

وقال الحسن: «استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته».

وقال مجاهد: «استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله».

وهذه التَّفسيراتُ كلُّها من قبيل تنويع العبارة، أو الذي يسمِّيه أهل العلم: (اختلاف التنوُّع)، فهي عباراتٌ متغايرةٌ في الألفاظ، يدلُّ كلٌّ منها على صورةٍ من صور الاستقامة، ومظهرٍ من مظاهرها، أو تلخيصٍ لروحها ومعناها، وكلُّها لا تعارُض بينها.

وأسوقُ ههنا ـ قبل أن نمضي في الكلام ـ فائدةً من كلام شيخ الإسلام ابن تيميَّة ـ رحمه الله ـ، تُفيد عند النَّظر في آثار السلف في التفسير.

قال ـ رحمه الله ـ: «فالسَّلَفُ كثيرًا ما يعبِّرون عن الـمُسَمَّى بعبارةٍ تدلُّ على عَينِه، وإن كان فيها من الصِّفَةِ ما ليس في الاسمِ الآخَر؛ كمن يقول: أحمد هو الحاشرُ والماحي والعاقِبُ، والقُدُّوسُ هو الغفور والرحيم؛ أي: أنَّ الـمُسَمَّى واحدٌ، لا أنَّ هذه الصِّفَةَ هي هذه، ومعلومٌ أنَّ هذا ليس اختلافَ تَضَادٍّ كما يظنُّه بعضُ النَّاس، مثالُ تفسيرهم للصِّراطِ المستقيم؛ فقال بعضهم: هو القرآن؛ أي: اتِّباعُه، لقول النبي ﷺ في حديث عليٍّ الذي رواه الترمذي، ورواه أبو نعيم من طرق متعددة: «**هو حبلُ الله المتين، والذِّكرُ الحكيم، وهو الصِّراط المستقيم**»[1]. وقال بعضُهم: هو الإسلام؛ لقوله ﷺ في حديث النَّوَّاس بن سمعان الذي رواه الترمذي وغيره: «**ضربَ اللهُ مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلى جَنْبَتَي الصِّراط سُوران، وفي السُّورَيْن أبوابٌ مُفَتَّحَةٌ، وعلى الأبوابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، ودَاعٍ يدعو من فوق الصِّراط، وداعٍ يدعو على رأسِ الصِّراط**».

قال: «**فالصِّراطُ المستقيمُ هو الإسلام، والسُّورانِ حدودُ الله، والأبوابُ**

(١) رواه الترمذي (٢٩٠٦)، وسنده ضعيف.

الـمُفَتَّحَةُ محارمُ الله، والدَّاعي على رأسِ الصِّراطِ كتابُ الله، والدَّاعي فوقَ الـصِّراطِ واعظُ اللهِ في قلبِ كلِّ مؤمنٍ»[1].

فهذانِ القَوْلانِ متَّفقَان؛ لأنَّ دينَ الإسلامِ هو اتِّباعُ القرآن، ولكنْ كلٌّ منهما نبَّهَ على وَصْفٍ غيرِ الوَصْفِ الآخَر.

كما أنَّ لفظَ (صِراط) يُشْعِرُ بوصْفٍ ثالثٍ، وكذلك قولُ من قال: هو السُّـنَّةُ والجَماعة، وقـولُ من قال: هو طريقُ العبوديّة، وقـولُ مـن قـال: هـو طاعـةُ الله والرَّسول ﷺ، وأمثالُ ذلك، فهؤلاء كلُّهم أشاروا إلى ذاتٍ واحدةٍ، لكن وَصَفَهَا كلٌّ منهم بصِفَةٍ من صِفَاتِهَا»[2].

فالعباراتُ المنقولة أعلاه ـ إذن ـ في معنى الاستقامة، لا تعارُض بينها، وكلُّها صحيحة.

قال ـ تعالى ـ: ﴿**فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ**﴾ هذا المقام عَسِرٌ صـعبٌ، إلَّا من يسَّره الله عليه؛ فقولـه: ﴿**وَاسْتَغْفِرُوهُ**﴾ في مقـام قولـه ـ تعـالى ـ: ﴿**وَمَن تَابَ مَعَكَ**﴾ في الآية الأولى، فوسيلةُ التوبة إنَّما هي الاستغفار، ولأنَّ الاستقامةَ أمرُها عَسِرٌ تحتاجُ إلى توبة دائمة، فانظر إلى الصلاة ـ مثلًا ـ؛ فإنَّه لعِظَمِ مقامها، ومقـام مناجاة الله بها، فإنك تقول بعد الفراغ منها: (أستغفرُ الله، أستغفرُ الله، أستغفرُ الله)، وذلك لـما يعتري صلاة العبد ـ غالبًا ـ من خللٍ وذهـولٍ ونسـيانٍ، وعـدمِ استشعارٍ لعظم الحال والمقام الذي كان فيه.

ولذا، فمن رحمة ربِّنا بنا أن أرسل لنا نبيَّنا ﷺ، وأمرنا فقال: «**سَدِّدُوا وَقَـارِبُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّهُ لا يُدْخِلُ أَحَدًا الْـجَنَّةَ عَمَلُهُ**». قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ الله؟ قَـالَ:

---

(١) رواه ـ بنحوه ـ: الترمذي (٢٨٥٩) والنَّسائي في «الكبرى» (١١٢٣٣)، **وسنده صحيح**.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦).

«وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ الله بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ»[1].

سدِّدْ وقارِبْ؛ والمعنى: ابذُل وسعك في إصابة الهدف بعَينه، فإن لم تصب الهدف، فحُمْ حول الهدف، وكن قريبًا منه ما أمكن.

والمقصود: أنَّك إذا كنت لا تستطيع أن تلتزم الصراط المستقيم لزومًا كاملًا، فابذل كلَّ ما في وسعك لتكون أقرب شيءٍ إلى التَّمام والكمال.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ومَنزلُ التَّوبةِ أوَّلُ المنازل وأوسطها وآخرها، فلا يفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى المهات، وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به واستصحبه معه ونزل به، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية كما أن حاجته إليها في البداية كذلك، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[النور: ٣١]، وهذه الآية في سورة مدنيَّة، خاطب الله بها أهلَ الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم؛ ثم علَّق الفلاح بالتوبة تعليق المسبَّب بسببه؛ وأتى بأداة (لعلَّ) المشعرة بالترجِّي، إيذانًا بأنَّكم إذا تُبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاحَ إلا التائبون، جعلنا الله منهم.

قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ**﴾[الحجرات: ١١] قسَّم العبادَ إلى تائب وظالم، وما ثَمَّ قسم ثالثٌ البتَّة، وأَوقع اسم الظالم على من لم يتب، ولا أظلم منه؛ لجهله بربه وبحقه وبعيب نفسه وآفات أعماله، وفي «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال: «**يا أيها الناس! توبوا إلى الله، فوالله! إنِّي لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[2]، وكان أصحابُه يعدُّون له في المجلس الواحدِ قبل أن يقوم: «**ربِّ اغفِرْ لي**

(١) «صحيح البخاري» (٦٤٦٧).

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٧) من حديث أبي هريرة وليس في أوَّله: «**يا أَيُّها النَّاس! توبوا إلى**=

وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّك أنتَ التَّوَّابُ الغَفُور» مئة مرة[1]»[2].

﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ فيها: أنَّ من أهمِّ ما يعين على الاستقامة: الصدقة، فالصدقة برهان، والزكوات تعين على لزوم طريق الاستقامة، فإنَّ المتصدِّق لا يتصدَّق إلا وهو على يقين بالرجوع إلى الله، وأنّ الله سيجزيه إحسانًا بإحسانه، ولذا كان الحسن البصريُّ ـ رحمه الله ـ إذا أتاه سائلٌ رحَّب به، وقال: «مرحبًا بمن يحمل زادي إلى الآخرة»[3]، فالسائل الذي يسألك فتعطيه، يقدِّم لك زادك إلى دارك في الآخرة، وبغير أجرة.

والشاهد أنَّ الصدقة برهانٌ على الإيمان، وأمَّا الذي لا يؤمن باليوم الآخر فمقام الاستقامة عسيرٌ عليه، ومن أعسر صور الاستقامة عليه أن يعطي الصدقة، ولذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾.

وممَّا يُعين على الاستقامة ـ أيضًا ـ: «الاعْتِبَارِ؛ فَإِن الأمر لَا يزَال مَسْتُورًا مِنْك أو غَائِبًا عَنْك، فَإِذا نظرتَ إِلَيْهِ نظر الـمُعْتَبِر كَاد أن يقوم لَك الاعْتِبَار مقَام الـمُخبِر الـمُعاين لِمَا قد غَابَ عَنْك، ومقام الكاشِف لَك عَن الـمَستور عَنْك، حَتَّى تنظر إِلى زَين الأمور وشَينِها، وحَسنِها وقَبيحها، وتعرف مِن أَينَ صَار الحَسَن حسنًا

= الله»، وروى مسلمٌ في «صحيحه» (٢٧٠٢) من حديث الأغرّ المزني مرفوعًا: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! تُوبُوا إِلَى الله، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي اليَوْمِ إِلَيْهِ مِئَةَ مَرَّة».

(١) رواه الترمذي (٣٤٣٤)، وسنده صحيح.

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٧٨).

(٣) «صفة الصفوة» (٢/ ٩٥).

والقبيح قبيحًا، فتَتَبَّع مِن ذَلِك مَا فِيهِ نجاتَك وتجتنِب مَا فِيهِ هلكَتَك»[1].

* * *

*** ثمار الاستقامة:**

الاستقامة لها بركاتٌ وثمار، ودونها تقع المصائب والنكبات، وتظهر آثارٌ سلبيَّةٌ على الأمم والشعوب، ومن ثمارها ما بيَّنه الله ـ عز وجلَّ ـ بقوله: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ**﴾[فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ**﴾ فالاستقامة تكون أوَّل ما تكون على التوحيد، لأنَّها حقُّ كلمة التوحيد: لا إله إلا الله.

وفي «سنن ابن ماجه» سأل سفيان بن عبد الله الثقفي رسول الله ﷺ أن يوصيه، فقال له: «**قُلْ: رَبِّيَ الله، ثُمَّ اسْتَقِمْ**»[2]، فالاستقامة من مقتضيات العلم، فبدون علم لا يمكن تحصيل الاستقامة، والاستقامة تقتضي الإخلاص، والاستقامة تقتضي التزام السنة، فالاستقامة هي الثبات على هذا الطريق، ولذا قال أبو بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ في تفسير قول الله ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا**

---

(١) «آداب النفوس» (١٢٥ ط الكتب الثقافية).

(٢) «سنن ابن ماجه» (٣٩٧٢)، والترمذي (٢٤١٠)، وأحمد (٣/ ٤١٣)، **وصححه** الترمذي وابن حبان والألباني، وهو في «صحيح مسلم» بلفظ: «**قُل: آمنتُ بالله، فاستقِم**».

﴿ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ قال: «على لا إله إلا الله»[1].

(لا إله إلا الله) أعظم كلمةٍ يقولها العبد، وأثقل من السماوات والأرض في الميزان، وحقُّها على قائليها عظيم، حتى إنَّ الإنسان لو قالها ثمَّ أراد أن يرجع عنها فثمنها دمه؛ فقد جاء في الحديث «**مَنِ ارْتَدَّ عَنْ دِينِهِ، فَاقْتُلُوهُ**»[2]، فهذه الكلمة حقُّها على قائليها عظيم.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ في النَّزع، والإنسان في النزع مدبرٌ عن دار ومقبلٌ على أخرى، والذي يدبر عن دار وينتقل إلى دار أخرى يحتاج أن يطمئنَّ إلى ما هو مقبلٌ عليه، ويحتاج إلى أن يُطَمْأَنَ على ما ترك، والله ـ عز وجل ـ ينزِّل الملائكة على أهل الاستقامة وهم في النزع، ليُذهب عنهم القلق على ما خلَّفوا وراءهم، وممَّا هم مقبلون عليه.

﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فلا تخافوا مما أنتم مقبلون عليه، ولا تحزنوا على ما تركتم خلفكم، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾.

تعلَّم يا عبد الله! من هو وليُّ الله؟

قال الإمام الشافعيُّ ـ رحمه الله ـ: «إن لم يكن العلماء العاملون هم أولياء

---

(١) أخرجه الطبراني في «الدعاء» (١٥٩١).

(٢) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٨٥٦٣)، وهو في «البخاري» (٣٠١٧) بلفظ: «**مَن بدَّل دينَه؛ فاقتلوه**».

الله، فلا أعلم لله وليًّا»[1].

من هم الذين قال الله عنهم: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾؟

هم أهل الاستقامة، فهم أهل ولاية الله وأهل حفظه ورعايته، فرادى كانوا أم مجتمعين.

فنعوذ بالله الرحمن الرحيم من أن يحلَّ علينا سخطه ومقته، فيحرمنا ولايته وحفظه، ويكِلَنا إلى أنفسنا، ويمنع عنَّا توفيقه، فإنَّ الله إذا مقت عبدًا أو شعبًا أو دولةً؛ حرمها توفيقه، ونزع عنها تدبيره، ووكَل كُلًّا إلى نفسه، نسأل الله السلامة والعافية.

ما معنى: «**تَعَرَّفْ على اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ**»[2]؟

تَعَرَّفْ على الله في الأمن، يَعْرِفْكَ الله في وقت القلاقل والفتن.

تَعَرَّفْ على الله في القوَّة، يَعْرِفْكَ الله في الضعف.

تَعَرَّفْ على الله في الشباب، يَعْرِفْكَ الله في الشيخوخة.

تَعَرَّفْ على الله في الغِنى، يَعْرِفْكَ الله في الفقر.

وعلى كلِّ حال، فإذا حصلت الاستقامة فالثَّمرات عظيمة ومدهشة، وهذا نموذجٌ منها فتأمَّله:

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾[الجن:١٦] لو استقام الناس لكفاهم الله ـ جلَّ في علاه ـ صعوبة العيش، ولجعلهم يعيشون في

---

(١) ذكره ابن كثير في «البداية والنِّهاية» (١٣/ ١١٨).

(٢) رواه أحمد (١/ ٣٠٧) من حديث ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ.

رغد، وفي بحبوحة.

الاستقامة تتولَّد عنها الخيراتُ على مستوى الأفراد والشعوب والحكومات، وفي المقابل تتولَّد الشرور والكوارث والنَّكبات على الأفراد والشعوب عن الذنوب والمعاصي.

ومن المناسب أن نتعرَّض ـ مستنيرين بالقرآن والسُّنَّة، ومسترشدين بهدايتهما ـ إلى بعض الثمار الكلِّيَّة لا التفصيلية للاستقامة والطاعة التي لا يمكن أن يكفينا في الحديث عنها يومٌ ولا بعضُ يوم، **ونحن نقصد بطبيعة الحال: الثَّمرات الطيِّبة المباركة المعنويَّة أو المحسوسة، التي وعد الله بها أهل طاعته ورضوانه في الدنيا.**

وإنَّما اخترتُ أن يكون أكثرُ الكلامُ عن بركات الطاعة وآثار الذُّنوب على دُنيا الإنسان وحياته، لا تعلُّقًا بالدُّنيا ولا دعوةً للنَّاس للعكوف على إصلاحها وحدَها، ونعوذ بالله من ذلك، فإنَّ هذا هو الجهل والحُمْقُ، كيف لا؟! ونبيُّنا ﷺ يقول: «**ما لي وللدُّنيا؟! ما أنا في الدُّنيا إلا كراكبٍ استَظَلَّ تحتَ شجرةٍ ثمَّ راحَ وترَكَهَا**»(1).

وإنَّما نختار التركيز على الآثار الدنيويَّة والمحسوسة، لا لشيءٍ إلَّا لأنَّ **النُّفوسَ مجبولةٌ على الـمَيلِ إلى الحظوظ العاجلة، ومطبوعةٌ على الاستزادةِ ممَّا ترى مقدِّماتِ منافِعِه، ويسهُلُ عليها التصديق به والإقرار بحقِّيَّته.**

وهذا كما قيل لعكرمة بن أبي جهل لما هربَ من النَّبيِّ ﷺ وهو مشرك يوم فتح مكة، فركبَ البحرَ وهو هائجٌ، فقال أصحاب السفينة: «أَخْلِصُوا! فإنَّ آلِهَتَكُم لا تغْنِي عنْكُم شيئًا ها هنا!». فقال عكرمة: «واللهِ! لَئِنْ لم يُنَجِّنِي من البَحْرِ إلَّا

(1) رواه الترمذي (٢٣٧٧) وابن ماجه (٤١٠٩).

الإخلاصُ؛ لا يُنَجِّينِي في البَرِّ غيرُه، اللهمَّ! إنَّ لك عَلَيَّ عَهْدًا إنْ أنتَ عافَيْتَنِي ممَّا أنا فيه، أنْ آتِي محمدًا حتى أَضَعَ يَدِي في يَدِهِ، فَلَأَجِدَنَّه عَفُوًّا كريمًا»، فجاءَ فأسلمَ(١).

* * *

*** كلماتٌ جامعاتٌ في بركاتِ الطَّاعات:**

نوردُ بعضَ الكلماتِ المجملةِ لأهلِ العلم حول ثمراتِ الطَّاعةِ والاستقامةِ ومنافعها وبركاتها، فإنَّ لأهل العلمِ كلماتٍ رائقةً حرِيَّةً بالتأمُّل والقراءةِ بالقلب.

قال ابن الجوزيِّ ـ رحمه الله ـ: «من تأمَّل عواقب المعاصي رآها قبيحةً، ولقد تفكَّرتُ في أقوامٍ أعرفُهم يقرُّون بالزِّنا وغيره، فأرى من تعثُّرهم في الدنيا ـ مع جلادتهم ـ ما لا يقف عند حدٍّ! وكأنَّهم قد أُلبسوا ظُلْمةً، فالقلوب تنفر عنهم! فإنِ اتَّسع لهم شيء فأكثره من مالِ الغَيْر، وإن ضاقَ بهم أمرٌ أخذوا يتسخَّطون على القَدَر، هذا، وقد شُغلوا بهذه الأوساخِ عن ذكر الآخرة.

ثم عكستُ فتفكَّرتُ في أقوامٍ صابَرُوا الهوى، وتركوا ما لا يحلُّ؛ فمنهم من قد أينعت له ثمراتُ الدنيا من قوتٍ مُستَلَذٍّ، ومِهَادٍ مُسْتَطَابٍ، وعَيشٍ لذيذٍ، وجاهٍ عريض، فإن ضاقَ بهم أمر وسَّعه الصبر، وطيَّبَه الرِّضى، ففهمتُ بالحالِ معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾»(٢).

وقال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ في مقدِّمته لكتابه العظيم «إعلام الموقِّعين»: «فإنَّ أَوْلَى ما يتنافس به المتنافسون، وأحرى ما يتسابق في حلبة سباقه المتسابقون،

---

(١) رواه النَّسائي (٤٠٦٧)، وسنده صحيح.

(٢) «صيد الخاطر» (ص١٤٠ ط دار القلم).

ما كان بسعادة العبد في معاشه ومعاده كفيلًا، وعلى طريقِ هـذه السَّـعادةِ دلـيلًا، وذلك العلمُ النَّافعُ والعملُ الصَّالحُ، اللَّذان لا سعادة للعبد إلا بهما، ولا نجاة له إلا بالتعلُّق بسببهـما، فمن رُزقهما فقد فاز وغَنِمَ، ومن حُرمَهُمَا فالخيرَ كلَّـه حُـرِم، وهما مورد انقسام العباد إلى مرحوم ومحروم، وبهما يتميز البَرُّ من الفاجِرِ، والتقيُّ من الغَوِيِّ، والظَّالـمُ من المظلومِ»[1].

وقال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «العبدُ إنما خُلِـقَ لعبـادةِ ربِّـه، فصـلاحُه وكماله ولذَّته وفرحُه وسـرورُه في أنْ يعبدَ ربَّه وينيبَ إليه، وذلك قَدْرٌ زائـدٌ عـلى مسألتِه والافتقارِ إليه؛ فإنَّ جميعَ الكائناتِ حادثةٌ بمشيئتِه، قائمةٌ بقدرته وكلمتـه، محتاجةٌ إليه، فقيرة إليه، مسلِّمَةٌ له طَوْعًا وكَرْهًا، فإذا شهدَ العبدُ ذلك وأسلم لـه وخضع، فقد آمن بربوبيَّته ورأى حاجته وفقره إليه، وصار سائلًا له متوكِّلًا عليـه، مستعينًا به إما بحاله أو بقَالِه، بخلافِ المستكبر عنه المعرضِ عن مسألته»[2].

ولا ريب أنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ بيَّن عناوين سعادة المرء بيانًا شافيًا، وكـذلك رُسُله الكرام ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، فقد رُفعت منـارات السَّـعادة وأعـلام الهداية لطُلَّابها، وهذا من لُطف الله ورحمته بعباده، فالله هدانا لـمُراده وأرسل لنا رسله لأنَّه ـ سبحانه وتعالى ـ الرحمن الرحيم.

يقول ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ معدِّدًا دَلالات سورة الفاتحة:

«وتضمنت إثباتَ النُّبوَّات من جهاتٍ عديدةٍ:

أحدُها: كونُه ربَّ العالمين، فلا يليقُ به أن يترك عباده سُدًى هَمَلًا، لا يُعرِّفهم

---

(١) «إعلام الموقعين» (٢/ ٧ ـ ٨ بتحقيقي).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣٢).

ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وما يضرُّهم فيهما، فهذا هضمٌ للربوبيةِ ونسبةُ الرَّبِّ ـ تعالى ـ إلى ما لا يليق به، وما قَدَرَه حقَّ قَدْره من نسبه إليه.

الثاني: أخذُها من اسم (الله)، وهو المألوه المعبود، ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله.

الموضع الثالث: من اسمه (الرحمن)، **فإنَّ رحمته تمنعُ إهمالَ عباده وعدمَ تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم، فمن أعطى اسم الرحمن حقَّه عرفَ أنَّه متضمِّنٌ لإرسالِ الرُّسل وإنزال الكتب؛ أعظمَ من تضمُّنه إنزالَ الغَيث وإنباتَ الكلأِ وإخراجَ الحَبِّ، فاقتضاءُ الرَّحمة لِـمَا تحصُلُ به حياة القلوبِ والأرواحِ، أعظمُ من اقتضائها لِما تحصل به حياة الأبدان والأشباح**، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظَّ البهائم والدوابِّ، وأدرك منه أولو الألباب أمرًا وراء ذلك»[1].

والله ـ تبارك وتعالى ـ يقول: ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ**﴾[النور: ٥١ ـ ٥٢].

فالفوز والفلاح، ثمراتٌ مباركةٌ للإذعان لحُكم الله وحُكم رسوله، ونتائجُ سعيدةٌ لطاعة الله، وخشيته، وتقواه، وطاعة رسوله ﷺ.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «أخبر ـ تعالى ـ عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، الذين لا يبغون دينًا سوى كتاب الله وسنَّة رسوله، فقال: ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ**﴾ أي: سمعًا وطاعة؛ ولهذا وصفهم ـ تعالى ـ بالفلاح؛ **وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب**، فقال: ﴿**وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ**﴾، وقوله ﴿**وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ**﴾ أي: فيما أمراه به

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٧ ـ ٨).

وترك ما نهياه عنه ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ فيما مضى من ذنوبه ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما يستقبل، وقوله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ يعني: الذين فازوا بكل خير، وأَمِنُوا من كلِّ شرٍّ في الدنيا والآخرة»[1].

وقال العلَّامة السَّعدي ـ رحمه الله ـ: «أي: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حقيقةً، الذين صدَّقوا إيمانهم بأعمالهم حين يُدْعَوْن إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، سواءً وافقَ أهواءهم أو خالفها ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعنا حكم الله ورسوله، وأجبنا من دعانا إليه، وأطعنا طاعة تامة، سالمة من الحرج.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ حصرَ الفلاح فيهم؛ **لأنَّ الفلاح: الفوزُ بالمطلوب، والنجاة من المكروه، ولا يفلح إلا من حكَّمَ الله ورسوله، وأطاع الله ورسوله.**

ولما ذكر فضل الطاعة في الحُكْمِ خصوصًا، ذكر فضلَها عمومًا في جميع الأحوال؛ فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيصدِّق خبرهما ويمتثل أمرهما ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ أي: يخافه خوفًا مقرونًا بمعرفةٍ، فيترك ما نهى عنه، ويكفُّ نفسه عما تهوى، ولهذا قال: ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ بترك المحظور؛ لأن التقوى ـ عند الإطلاق ـ يدخل فيها فعلُ المأمورِ وتركُ المنهيِّ عنه، وعند اقترانها بالبرِّ أو الطَّاعة ـ كما في هذا الموضع ـ تفسَّر بتَوَقِّي عذابِ الله بترك معاصيه، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين جمعوا بين طاعة الله وطاعة رسوله، وخشية الله وتقواه ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بنجاتهم من العذاب لتركهم أسبابه، ووصولهم إلى الثواب لفعلهم أسبابه، فالفوز محصور فيهم، وأما من لم يتصف بوصفهم فإنه يفوته من الفوز بحسب ما قَصَّرَ عنه من هذه الأوصافِ الحميدةِ»[2].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٧٥).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٥٧٢).

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ:

« فَفِي الْـقَلْبِ شَعَثٌ لَا يَلُمُّهُ إِلَّا الإِقبَالُ عَلَى اللهِ.

وَفِيهِ وَحشَةٌ لَا يُزِيلُهَا إِلَّا الأُنْسُ بِهِ فِي خَلوَتِهِ.

وَفِيهِ حُزنٌ لَا يُذهِبُهُ إِلَّا السُّرُورُ بِمَعرِفَتِهِ وَصِدقِ مُعَامَلَتِهِ.

وَفِيهِ قَلَقٌ لَا يُسَكِّنُهُ إِلَّا الاجتِمَاعُ عَلَيْهِ، وَالفِرَارُ مِنهُ إِلَيهِ.

وَفِيهِ نِيرَانُ حَسَرَاتٍ لَا يُطفِئُهَا إِلَّا الرِّضَا بِأَمرِهِ وَنَهيِهِ وَقَضَائِهِ، وَمُعَانَقَةُ الصَّبرِ عَلَى ذَلِكَ إِلَى وَقتِ لِقَائِهِ.

وَفِيهِ طَلَبٌ شَدِيدٌ لَا يَقِفُ دُونَ أَنْ يَكُونَ هُوَ وَحدَهُ مَطلُوبَهُ.

وَفِيهِ فَاقَةٌ لَا يَسُدُّهَا إِلَّا مَحَبَّتُهُ، وَالإِنَابَةُ إِلَيْهِ، وَدَوَامُ ذِكرِهِ، وَصِدقُ الإِخلَاصِ لَهُ.

وَلَوْ أُعْطِيَ الدُّنيَا وَمَا فِيهَا لَمْ تَسُدَّ تِلكَ الفَاقَةَ مِنهُ أَبَدًا »[1].

وقد قال حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنهما ـ: «من أراد أُنْسًا بلا جماعة، وعِزًّا بلا عشيرةٍ، فليتَّخِذْ طاعةَ الله بضاعةً»[2].

وقال الحسين بن أحمد الهروي: سمعت الشبلي يقول: «أَطِعْ اللهَ، يُطِعْكَ كلُّ شيءٍ»[3].

وقال يحيى بن معاذ: «من سُرَّ بخدمةِ الله، سُرَّتْ الأشياءُ كلُّها بخدمتِه،

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ١٥٦ ط الكتاب العربي).

(٢) «الزهد الكبير» للبيهقي (ص٢٨٢).

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

ومن قَرَّتْ عينُه بالله، قَرَّتْ عيونُ كلِّ شيءٍ بالنَّظَرِ إليه»[1].

ومن الكلمات المؤثرة قول بعضهم: «أيَّ شيءٍ وجدَ من فقدَ الله؟! وأيَّ شيءٍ فقدَ من وجدَ الله؟! لا يستويانِ أبدًا! من وجدَ اللهَ وجدَ كلَّ شيء، ومن فقدَ اللهَ فقدَ كلَّ شيء».

ثمرات الطَّاعة وآثار الاستقامة على الفرد لا يمكن أن تُحصى، ولا نقدر على إحصاء آثارها على ظاهر الإنسان؛ من العافية في بدنه والسِّعة في رزقه، فضلًا عن أن نحصي آثارها على باطنه وعلى قلبه، وفي ذلك من الصور والأحوال ودقيق المسائل ما لا يحصيه إلَّا من هو قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كسبت ـ سبحانه وتعالى ـ، ولذا فإنِّي أقتصرُ فيما أورده على بضع ثمراتٍ كلِّيَّةٍ تتَّسم بأنَّها تعمُّ الناس، وتشمل المجتمع، وتمسُّ منافعها جماعة المسلمين، حكَّامًا ومحكومين، إذا ما تعاونوا على مراعاة أسبابها وما يوصل إليها.

فمن ذلك:

أوَّلًا ـ النَّصر على العدوِّ:

قال ـ تعالى ـ: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ** ﴾ [محمد: ٧ ـ ٩].

قال العلَّامة محمد الأمين الشنقيطي ـ رحمه الله ـ: «ومعنى نصر المؤمنين لله: نصرُهم لدينه ولكتابه، وسعيهم وجهادهم في أن تكون كلمتُه هي العليا، وأن تقام حدودُه في أرضه، وتُتَمثل أوامره وتُجتنب نواهيه، ويُحكم في عباده بما أنزل

---

(١) «الزهد الكبير» للبيهقي (ص٢٨٢).

على رسوله ﷺ»(١).

وقال ابن عطيَّة: «وقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ فيه حذف مضافٍ؛ أي: دين الله ورسوله، والمعنى: تنصروه بجدِّكم واتِّباعكم وإيمانكم ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ بخلق القوة لكم، والجرأة، وغير ذلك من الـمَعَاوِنِ»(٢).

وقال العلَّامة السَّعدي ـ رحمه الله ـ: «هذا أمرٌ منه ـ تعالى ـ للمؤمنين، أن ينصروا الله بالقيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، والقصد بذلك وجه الله، فإنهم إذا فعلوا ذلك، نصرهم الله وثبت أقدامهم؛ أي: يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات، ويصبِّر أجسامهم على ذلك، ويعينهم على أعدائهم، فهذا وعد من كريم صادق الوعد، أن الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاه، وييسر له أسباب النصر، من الثبات وغيره.

وأما الذين كفروا بربهم، ونصروا الباطل، فإنهم في تعس؛ أي: انتكاس من أمرهم وخذلان»(٣).

وللعلَّامة البقاعي ـ رحمه الله ـ كلمةٌ رائقةٌ مفصَّلةٌ جميلةٌ، قال:

«﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ أي: يتجدَّد لكم نيَّةٌ مستمرةٌ وفعلٌ دائمٌ على نصرة دين الملك الأعظم؛ بإيضاحِ أدلَّته وتبيينها، وتوْهِيَةِ شُبَهِ أهل الباطل وقتالهم، ويكون ذلك خالصًا له لا لغيره من النيَّات الفاسدةِ المعلولةِ بطلب الدنيا أو الشهرة بالشجاعة والعلم وطيب الذكر والغضب للأهل وغير ذلك ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ فإنَّه النَّاصر لا غيره من عُدَدٍ أو عَدَدٍ، فيقمع أعداء الدين بأيديكم.

(١) «أضواء البيان» (٧/ ٤٥٢).

(٢) «المحرر الوجيز» (٥/ ١١٢).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٧٨٥).

ولما كان النَّصر قد يكون مع العجز والكسل والجبن والفشل؛ بيَّن أنه يحميهم من ذلك فقال: ﴿وَيُثَبِّتَ أَقْدَامَكُمْ﴾ أي: تثبيتًا عظيمًا؛ بأن يملأ قلوبكم سكينة واطمئنانًا، وأبدانكم قوة وشجاعة في حال القتل، ووقت البحث والجدال، وعند مباشرة جميع الأعمال، فتكونوا عالين قاهرين، في غاية ما يكون من طيب النفوس وانشراح الصدور، ثقة بالله واعتزازًا به، وإن تمالأ عليكم أهل الأرض»[1].

وهذا المعنى من قطعيَّات الشريعة كما نعلم جميعًا، ولذا جاء تقريره بأوضح عبارة في مجموعة من النصوص، قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[الحج: ٤٠ ـ ٤١].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[آل عمران: ١٦٠].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الروم: ٤٧].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[غافر: ٥١]، وغير ذلك.

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «وقد أخبرَ ـ سبحانه ـ أنَّ كثيرًا من الأنبياءِ قُتل معه رِبِّيُّون كثيرٌ؛ أي: ألوف كثيرة، وأنَّهم ما ضَعُفوا ولا استكانوا لذلك، بل استغفروا من ذنوبهم التي كانت سبب ظهور العدوِّ، وأنَّ الله آتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، فإذا كان هذا قتلى المؤمنين، فما الظنُّ بقتلى الأنبياء؟! ففيه لهم ولأتباعهم من سعادة الدنيا والآخرة ما هو من أعظم الفلاح.

---

(١) «نظم الدرر» (١٨/ ٢٠٩).

وظهور الكفار على المؤمنين ـ أحيانًا ـ هو بسبب ذنوب المسلمين؛ كيوم أُحد، فإن تابوا انتصروا على الكفار وكانت العاقبة لهم، كما قد جرى مثل هذا للمسلمين في عامة ملاحمهم مع الكفار، وهذا من آيات النبوة وأعلامها ودلائلها، فإنَّ النبيَّ إذا قاموا بعهوده ووصاياه نصرهم الله وأظهرهم على المخالفين له، فإذا ضيَّعوا عهوده ظهر أولئك عليهم، **فمدار النصر والظُّهور مع متابعةِ النبيِّ وجودًا وعدمًا، من غير سبب يزاحم ذلك، ودوران الحكم مع الوصف وجودًا وعدمًا من غير مزاحمة وصف آخر، موجبٌ للعلم بأنَّ المدارَ علَّة للدائر**»[1].

وقال ـ رحمه الله ـ: «وكذلك الشام، كانوا في أوَّل الإسلامِ في سعادةِ الدنيا والدِّين، ثمَّ جرت فتنٌ وخرج الـمُلْكُ من أيديهم، ثـمَّ سُـلِّطَ عليهم المنافقون الملاحدةُ والنَّصارى بذنوبِهِم، واستَوْلَوْا على بيتِ المَقْدِسِ وقَبْرِ الخليلِ، وفتحوا البِنَاءَ الذي كان عليهِ وجعلوه كنيسةً، ثمَّ صَلَحَ دينُهُم، فأَعَزَّهُم الله ونَصَرَهُم على عدوِّهِم لـمَّا أطاعوا اللهَ ورسولَه واتَّبَعُوا ما أُنْزِلَ إليهم من ربِّهم، فطاعةُ الله ورسولِه قُطْبُ السَّعادةِ، وعليها تدور»[2].

ونقف هنا وقفةً أخرى مع شيخ الإسلام ابن تيميَّة، وهو يؤرِّخ تأريخًا واقعيًّا لهذه الصِّلة بين نصر دين الله، واعتناق العقيدة الصحيحة، وتحقيق توحيد الله، وتجريد المتابعة للرسول ﷺ، وبين النَّصر على الأعداء، وهو نقلٌ قيِّمٌ خطيرٌ حريٌّ بالتأمُّل، ينقل فيه شيخ الإسلام ما وقع أيَّام التَّتار.

قال شيخ الإسلام: «ولهذا، ما بيَّنتُ هذه المسألة قطُّ لمن يَعرف أَصلَ الإسلام، إلا تفطَّن وقال: هذا أصل دين الإسلام، وكان بعض الأكابر من الشيوخ

---

(١) «الجواب الصحيح» (٦/ ٤١٥ ـ ٤١٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٤٣٧).

العارفين من أصحابنا يقول: هذا أعظم ما بيَّنتَه لنا، لعلمه بأنَّ هذا أصلُ الدِّين.

وكان هذا وأمثاله في ناحيةٍ أخرى يدعون الأموات ويسألونهم ويستجيرون بهم ويتضرعون إليهم، وربما كان ما يفعلونه بالأموات أعظم؛ لأنَّهم إنَّما يقصدون الميِّت في ضرورةٍ نزلت بهم، فيدْعونه دعاء المضطر راجين قضاء حاجتهم بدعائه والدعاء به أو الدعاء عند قبره، بخلاف عبادتهم الله ـ تعالى ـ ودعائهم إيَّاه، فإنَّهم يفعلونه في كثيرٍ من الأوقات على وجه العادة والتكلُّف!

حتى إنَّ العدوَّ الخارج عن شريعة الإسلام لـمَّا قدم دمشق؛ خرجوا يستغيثون بالموتى عند القبور التي يرجون عندها كشفَ ضُرِّهم!!

وقال بعض الشعراء:

يا خائفين من التتر ... لوذوا بقبر أبي عمر

أو قال:

عوذوا بقبر أبي عمر ... ينجيكم من الضَّرر

فقلتُ لهم: هؤلاء الذين تستغيثون بهم لو كانوا معكم في القتال لانهزموا كما انهزم مَن انهزم من المسلمين يوم أحد، فإنَّه كان قد قُضِيَ أنَّ العسكر ينكسر لأسبابٍ اقتضت ذلك، ولحكمة الله ـ عز وجل ـ في ذلك، ولهذا كان أهل المعرفة بالدِّين والمكاشفة لم يقاتلوا في تلك المرة، لعدم القتال الشرعيِّ الذي أمر الله به ورسوله، ولِـمَا يحصل في ذلك من الشرِّ والفساد وانتفاء النصرة المطلوبة من القتال، فلا يكون فيه ثواب الدنيا ولا ثواب الآخرة، لمن عرف هذا وهذا، وإنَّ كثيرًا من القائلين الذين اعتقدوا هذا قتالًا شرعيًّا أُجِرُوا على نيَّاتهم.

فلما كان بعد ذلك؛ جعلنا نأمر الناس بإخلاص الدين لله ـ عز وجل ـ

والاستغاثة به، وأنَّهم لا يستغيثون إلا إياه، لا يستغيثون بمَلَكٍ مقرَّب ولا نبيٍّ مرسل، كما قال ـ تعالى ـ يوم بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]، وروي أنَّ رسول الله ﷺ كان يوم بدر يقول: «**يا حيُّ يا قيُّوم! لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث**»، وفي لفظ: «**أصلح لي شأني كلَّه، ولا تكِلني إلى نفسي طرفة عينٍ، ولا إلى أحد من خلقك**»[1].

فلما أصلح الناس أمورهم وصدقوا في الاستغاثة بربهم، نصرهم على عدوِّهم نصرًا عزيزًا، ولم تهزم التتار مثل هذه الهزيمة قبل ذلك أصلًا، لِما صحَّ من تحقيق توحيد الله ـ تعالى ـ وطاعة رسوله ما لم يكن قبل ذلك، فإنَّ الله ـ تعالى ـ ينصر رسوله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد»[2].

ويزيدُ ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ هذا المعنى بَسْطًا، فيقول: «قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٩]، فللعبد من العلوِّ بحسب ما معه من الإيمان.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون: ٨]، فله من العزة بحسب ما معه من الإيمان وحقائقه، فإذا فاتَهُ حَظٌّ من العلوِّ والعزة، ففي مُقابلة ما فاته من حقائق الإيمان علمًا وعملًا، ظاهرًا وباطنًا.

وكذلك الدفعُ عن العبد هو بحسب إيمانه، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[الحج: ٣٨]. فإذا ضَعف الدفعُ عنه فهو من نَقْص إيمانه.

وكذلك الكفاية والحَسْبُ هي بقَدْرِ الإيمان، قال ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال: ٦٤] أي: حَسْبُك الله وحَسْبُ

---

(١) انظر: «الصحيحة» (٢٢٧، ٣١٨٢).

(٢) «الرد على البكري» (٢/ ٧٣١ ـ ٧٣٣).

أتباعك، أي كافيك وكافيهم، فكفايته لهم بحسب اتّباعهم لرسوله، وانقيادهم له، وطاعتهم له، فما نقص من الإيمان عاد بنقصان ذلك كلِّه...

وكذلك النصر والتأييد الكامل إنما هو لأهل الإيمان الكامل، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[غافر: ٥١]، وقال: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾[الصف: ١٤]، فمن نقص إيمانُه نقص نصيبه من النصر والتأييد.

ولهذا إذا أصيبَ العبد بمصيبةٍ في نفسه أو ماله أو بإِدَالَةِ عَدُوِّه عليه، فإنما هي بذنوبه، إما بترك واجبٍ، أو فعل محرم، وهو من نقْص إيمانه.

وبهذا يزول الإشكال الذي يُورده كثير من الناس على قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[النساء: ١٤١]، ويجيبُ عنه كثيرٌ منهم: بأنه لن يَجْعَلَ لهم عليهم سبيلًا في الآخرة، ويجيب آخرون: بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلًا في الحجة.

والتحقيق: أنها مثل هذه الآيات، وأن انتفاء السبيل عن أهل الإيمان الكامل، فإذا ضَعُفَ الإيمان صار لعدوِّهم عليهم من السبيلِ بحسب ما نقص من إيمانهم، فهم جعلوا لهم عليهم السبيلَ بما تركوه من طاعة الله ـ تعالى ـ.

فالمؤمن عزيز عالٍ مُؤَيَّدٌ منصور مَكْفِيٌّ مَدْفوعٌ عنه بالذَّاتِ أينَ كان، ولو اجتمع عليه مَنْ بأقطارها، إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته، ظاهرًا وباطنًا»[1].

وقال ـ رحمه الله ـ: «فلولا أنّه ـ سبحانه ـ يداوي عبادَه بأدويةِ المِحَنِ والابتلاء، لطَغَوا، وبَغَوْا، وعَتَوْا، واللهُ ـ سبحانه ـ إذا أراد بعبدٍ خيرًا سقاه دواءً

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٩٢٦ ـ ٩٢٧) مع حذفٍ يسير.

من الابتلاءِ والامتحانِ على قَدْرِ حالِه، يستفرِغُ به من الأَدْوَاءِ الـمُهْلِكَةِ، حتى إذا هذَّبـه ونقَّـاه وصفَّاه، أهَّلَه لأشرفِ مراتب الدُّنيا، وهي عبوديتُه، وأرفـعِ ثـوابِ الآخرةِ، وهو رؤيتُه وقُربه»[1].

وما أجمل مـا خرَّجه أبو نُعيم في «الحلية»[2] بسنده عن عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ أنَّه كتب إلى بعض عمّاله:

«عليك بتقوى الله في كلِّ حال ينزل بك، فإنَّ تقوى الله أفضل العُدَّة، وأبلـغُ المكيدة، وأقوى القوَّة، ولا تكن في شيء من عداوة عدوِّك أشدَّ احتراسًا لنفسـك ومن معك من معـاصي الله، فإنَّ الذنوب أخوف عندي على النـاس مـن مكيـدة عدوِّهم، وإنَّما نعادي عدوَّنا ونستنصر عليهم بمعصيتهم، ولولا ذلك لم تكن لنـا قوَّة بهم، لأنَّ عددنا ليس كعددهم، ولا قوَّتنـا كقـوَّتهم، فـإنْ لا نُنْـصَر علـيهم بمقتنا[3] لا نغلبهم بقوَّتنا.

ولا تكونَنَّ لعداوة أحد من النَّاس أحذرَ منكم لذنوبكم، ولا أشدَّ تعاهدًا منكم لذنوبكم، واعلموا أنَّ عليكم ملائكةَ الله حفظةً عليكم، يعلمون ما تفعلـون في مسيركـم ومنـازلكم، فاسـتحيوا مـنهم وأحسـنوا صـحابتهم، ولا تـؤذوهم بمعاصي الله وأنتم ـ زعمتم ـ في سبيل الله!

ولا تقولوا: إنَّ عدوَّنا شرٌّ منَّا، ولن يُنصروا علينا وإن أذنبنا، فكم من قومٍ قد سُلِّطَ ـ أو سُخِطَ ـ عليهم بأشرَّ منهم لذنوبهم، وسلوا الله العونَ على أنفسكم،

---

(١) «زاد المعاد» (٤/ ١٩٥).

(٢) «حلية الأولياء» (٥/ ٣٠٣).

(٣) كذا في «الحلية»، ولعلَّها مصحَّفة عن (بحقِّنا).

كما تسألونه العون على عدوِّكم، نسأل الله ذلك لنا ولكم».

ثانيًا - تحقيق الأمن في المجتمع، والتمكين له واستقراره:

تبذل الدُّول اليوم جهودًا كثيرةً متتابعةً، وميزانيَّات استثنائية، كلُّ ذلك لكي تُصنَّف في عداد الدُّول الآمنة، وتنخفض فيها مؤشِّرات الجرائم على اختلاف أشكالها وتنوُّع مرتكبيها، فالأمن من أعظم المقاصد التي يسعى خلفَها الإنسان بفطرته، وهو من الأمور التي راعاها الشرع مراعاة منقطعة النَّظير، وشرع لأجل تحقيقها في النُّفوس والمجتمعات تشريعاتٍ لا مثيل لها في إِحْكَامِهَا وحِكَمِهَا، ولسنا بصدد التعرُّض لتفاصيل ذلك، وإنَّما نذكر الأمن باعتباره ثمرةً عامَّة لعموم الطاعات، ونتيجة لاستقامة المجتمعات على توحيد الله، واتِّباع الرسول ﷺ.

قال ربُّنا - تبارك وتعالى - عن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - في مناظرته لقومه: ﴿وَحَاجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[الأنعام: ٨٠ - ٨٢].

فأهل التوحيد والإيمان، هم أهل الأمن والاطمئنان، لأنَّهم يركنون إلى القويِّ العزيز ويتوكَّلون عليه، ومن يتوكَّل عليه فهو حسبُه - سبحانه -.

قال - تعالى -: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي ٱنتِقَامٍ﴾[الزمر: ٣٦ - ٣٧].

قال ابن جُزيٍّ: «﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥۖ﴾ تقويةٌ لقلب محمد ﷺ، وإزالةٌ

للخوفِ الذي كان الكفَّار يخوِّفونه»[1].

وهناك قراءة متواترة مشهورة صحيحة بالجمع: ﴿أليس الله بكافٍ عِبَادَه﴾[2]، والقراءة الأولى لا تعارضها، فإنَّ قوله ـ تعالى ـ ﴿عَبْدَهُۥ﴾ يصحُّ حمله على أشرف العباد وهو نبيُّنا ﷺ، ويصحُّ حملها على الجنس، وهي مفردٌ مُضافٌ فتكون من صيغ العموم، لتكون عامَّةً في كلِّ من حقَّق العبودية لله ـ تعالى ـ، فإنَّ الله يكفيه شرَّ الكائدين، ويؤمِّنه على نفسه، فإذا تحقَّقت العبوديَّة في المجتمع، كان الأمان عامًّا، ودفع الشرور عامًّا، والكفاية الربَّانيَّة عامَّة.

قال ابن عطيَّة: «وقرأ حمزة والكسائي ﴿عباده﴾ يريد: الأنبياء المختصين به وأنت أحدهم، فيدخل في ذلك المطيعون من المؤمنين، والمتوكِّلون على الله»[3].

وقال العلَّامة السَّعدي: «﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ أي: أليس من كرمه وجوده، وعنايته بعبده، الذي قام بعبوديته، وامتثل أمره واجتنب نهيه، خصوصًا أكمل الخلق عبودية لربه وهو محمد ﷺ، فإن الله ـ تعالى ـ سيكفيه في أمر دينه ودنياه، ويدفع عنه من ناوأه بسوء»[4].

ولذا يقول الله ـ تعالى ـ مادحًا إيمان الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ به، وركونهم إلى كفايته، ثقةً بتوحيدهم واتِّباعهم لنبيِّهم ﷺ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» (٢/ ٢٢١).

(٢) انظر: «معجم القراءات» (٨/ ١٦٠) لعبد اللطيف الخطيب.

(٣) «المحرر الوجيز» (٤/ ٥٣٢).

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٧٢٤).

﴿... عَظِيمٍ ۝١٧٤ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٥].

وكذلك وعد الله أهل الطاعات من الإيمان والعمل الصالح بالتمكين لهم، واستقرار سلطتهم؛ فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[النور: ٥٥].

قال العلَّامة الشنقيطي: «أي: ليجعلنَّهم خلفاء الأرض، الذين لهم السيطرة فيها، ونفوذ الكلمة، والآيات تدلُّ على أنَّ طاعة الله بالإيمان به، والعمل الصالح، سببٌ للقوَّة والاستخلاف في الأرض، ونفوذ الكلمة»(١).

وقال العلَّامة الآلوسي: «والمعنى: ليجعلنَّ دينهم ثابتًا مقررًا بأن يعلي ـ سبحانه ـ شأنه، ويقوِّي بتأييده ـ تعالى ـ أركانه، ويعظِّم أهله في نفوس أعدائهم الذين يستغرقون النهار والليل في التدبير لإطفاء أنواره، ويستنهضون الرجال والخيل للتوصل إلى إعفاء آثاره، فيكونون بحيث ييأسون من التجمُّع لتفريقهم عنه ليذهب من البَيْن، ولا تكاد تحدثهم أنفسهم بالحيلولة بينهم وبينه ليعود أثرًا بعد عين.

وقيل: المعنى ليجعله مقررًا ثابتًا بحيث يستمرون على العمل بأحكامه، ويرجعون إليه في كل ما يأتون وما يذرون، وأصل (التمكين): جعلُ الشيء مكانًا لآخر، والتعبير عن ذلك به للدلالة على كمال ثبات الدين ورصانة أحكامه، وسلامته عن التغيير والتبديل، لابتنائه على تشبيهه بالأرض في الثبات والقرار،

---

(١) «أضواء البيان» (٦/ ٢٧٣).

مع ما فيه من مراعاة المناسبة بينه وبين الاستخلاف في الأرض»[1].

فالأمن واستقرار الحال على الخير ثمرتان للاستقامة والطَّاعة، كما يوضِّحه ـ أيضًا ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[البقرة: ١١٢].

عن يحيى الغسانيِّ قال: «لـمَّا ولَّانِي عمرُ بن عبد العزيز الـمَوْصِلَ، قدِمْتُها فوجَدْتُها من أكبرِ البِلَادِ سَرْقًا ونَقْبًا، فكتبتُ إلى عمر أُعْلِمُهُ حالَ البَلَد، وأسألُه: آخُذُ من النَّاسِ بالـمَظِنَّةِ وأضربُهُم على التُّهْمَةِ؟ أو آخُذُهُم بالبَيِّنَةِ وما جَرَتْ عليهِ عادَةُ النَّاس؟ فكَتَب إليَّ أن آخُذَ النَّاسَ بالبَيِّنَةِ وما جَرَتْ عليه السُّنَّةُ، فإنْ لم يصلحهم الحقُّ فلا أصلحهم الله!

قال يحيى: ففعلتُ ذلك، فما خرجتُ من الـمَوْصِلِ حتى كانت من أصلحِ البِلادِ وأقلِّهَا سَرْقًا ونَقْبًا»[2].

وكتب الجرَّاح بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز: «إنَّ أهلَ خُراسانَ قومٌ ساءت رَعِيَّتُهُم، وإنَّه لا يصلِحُهم إلا السيف والسَّوط، فإنْ رأى أميرُ المؤمنين أن يأذن لي في ذلك. فكتب إليه عمر: أما بعدُ! فقد بلَغَنِي كتابُك تذكر أنَّ أهلَ خراسانَ قد ساءت رَعِيَّتُهم، وأنَّه لا يصلِحُهم إلَّا السَّيف والسَّوط، فقد كذبتَ! بل يصلحهم العدل والحقُّ فابْسُطْ ذلك فيهِم، والسَّلام»[3].

فانظُر كيفَ آلَ أمرُ المجتمع إلى الخير والعافية، عند تحكيم القرآن والسُّنَّة، وتأميرهما على كلِّ صغيرةٍ وكبيرة، والثِّقة بحُسْن العاقبة لمن أطاع الله.

---

(١) «روح المعاني» (١٨/ ٢٠٣).

(٢) «حلية الأولياء» (٥/ ٢٧١).

(٣) «المتفق والمفترق» (٣/ ١٧٣١)، و«تاريخ دمشق» (٧٢/ ٥٩).

ثالثًا ـ البركةُ في الرِّزق، وتيسير أسبابه:

قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ**﴾[الأعراف: ٩٦].

وهذه قاعدةٌ مطردةٌ في معاملة الله ـ تبارك وتعالى ـ لخلقه، وسنَّةٌ ماضيةٌ فيهم، عامل الله ـ تعالى ـ بها من قبلنا، ويعاملنا ويعامل بها من بعدنا، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ**﴾[المائدة: ٦٥ ـ ٦٦].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ**﴾[النحل: ٩٧].

﴿**فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً**﴾ في الدنيا، ويدلُّ عليه بقيَّة الآية: ﴿**وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم**...﴾ فإنَّ هذا الجزاء هو الذي يكون في الآخرة.

وروى الإمام الترمذي ـ رحمه الله ـ في «جامعه»[1] عن عمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ أنَّه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «**لو أنَّكم تتوكلون على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِمَاصًا وتروح بِطَانًا**».

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «**وحقيقة التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله ـ عز وجل ـ في استجلاب المنافع ودفع المضارِّ**، من أمور الدنيا والآخرة كلِّها، وكِلَةُ الأمور كلِّها إليه، وتحقيقُ الإيمان بأنَّه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه»[2].

---

(١) رقم (٢٣٤٤)، وصححه ابن حبان والضياء وشيخنا الألباني في «الصحيحة» (٣١٠).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٩٧ ط الرسالة).

وقال في فوائد الحديث: «ويدلُّ على أنَّ الناس إنَّما يُؤْتَوْنَ من قلَّة تحقيق التوكُّل، ووقوفهم مع الأسباب الظاهرة بقلوبهم، ومساكنتهم لها، فلذلك يتعبون أنفسهم في الأسباب ويجتهدون فيها غاية الاجتهاد، ولا يأتيهم إلا ما قُدِّرَ لهم.

فلو حقَّقوا التوكُّل على الله بقلوبِهم لساق إليهم أرزاقهم مع أدنى سببٍ، كما يسوق الطير إلى أرزاقها بمجرَّد الغُدُوِّ والرَّوَاحِ، وهو نوعٌ من الطَّلب والسَّعي، لكنَّه سعي يسير»[1].

قال البيهقي ـ رحمه الله ـ: «و ليس في هذا الحديث دلالة على القعود عن الكسب، بل فيه ما يدلُّ على طلب الرِّزق، لأنَّ الطَّير إذا غدت فإنما تغدو لطلب الرزق.

وإنما أراد ـ والله ـ تعالى ـ أعلم ـ: لو توكَّلوا على الله ـ تعالى ـ في ذهابهم ومجيئهم وتصرُّفهم، ورأوا أنَّ الخير بيده ومن عنده؛ لم ينصرفوا إلَّا سالمين غانمين، كالطَّير تغدو خماصًا وتروح بِطانًا، لكنَّهم يعتمدون على قوَّتهم وجَلَدِهم، ويغشُّون ويكذبون ولا ينصحون، وهذا خلاف التوكُّل»[2].

بل إنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**أيُّها النَّاس! اتقوا الله وأَجْمِلُوا في الطَّلَبِ، فإنَّ نفسًا لن تموت حتى تستوفي رزقَها وإنْ أبطأَ عنها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب، خذوا ما حَلَّ، ودعوا ما حَرُم**»[3].

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٠٢ ط الرسالة).

(٢) «شعب الإيمان» (٢/ ٦٦).

(٣) رواه ابن ماجه (٢١٤٤)، وصححه ابن حبان والحاكم وشيخنا الألباني في «الصحيحة» (٢٦٠٧).

ومعنى «**أجملوا في الطَّلب**»: اعتدلوا ولا تُفرِطُوا، «وإذا تكفَّلَ الله برزقه وجبَ أن لا يبالغَ في الطّلب، وأن يعوِّلَ على وعد الله ـ تعالى ـ وإحسانه، فإنَّه أكرمُ من أن يُخلِف وعدَه»[1].

وذلك لأنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ قد طَمْأَنَ أهل الإيمان بما يكفي على أرزاقهم، وأنَّها مضمونةٌ لهم، حتى قال النبيُّ ﷺ: «**لو أنَّ ابن آدم هرب من رزقه كما يهرب من الموت، لأدركه رزقه كما يدركه الموت**»[2].

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ:

«وكذلك شؤم تأثيرِ الذُّنوبِ في نقص الثِّمار وما تُرْمى به من الآفات، وقد ذكرَ الإمام أحمد في «مسنده»[3] ـ في ضِمْنِ حديثٍ ـ قال: وُجِدَتْ في خزائنِ بعضِ بني أميَّةَ حِنْطَةٌ، الحبَّةُ بقَدْرِ نَوَاةِ التَّمْرَةِ، وهي في صُرَّةٍ مكتوبٌ عليها: هذا كان ينبُتُ في زمنِ العدل!

وكثيرٌ من هذه الآفاتِ أحدَثَهَا الله ـ سبحانه وتعالى ـ بما أحدثَ العبادُ من الذُّنوبِ، وأخبَرَنِي جماعةٌ من شيوخِ الصَّحراءِ أنَّهم كانوا يَعْهَدُونَ الثِّمارَ أكبرَ ممَّا هي الآن، وكثيرٌ من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها! وإنَّما حدثت من قُرْبٍ.

...فإذا أرادَ الله أنْ يطهِّرَ الأرضَ من الظَّلَمَةِ والخَوَنَةِ والفَجَرَةِ، ويُخْرِجَ عبدًا

---

(١) قاله الفخر الرازي في «تفسيره» (١٢/ ٧٧).

(٢) انظر: «الصحيحة» (٩٥٢) لشيخنا الألباني ـ رحمه الله ـ.

(٣) (٢/ ٢٩٧) بسندٍ صحيحٍ إلى أبي قحذم قال: وُجِدَ في زمن زياد أو ابن زياد صُرَّةٌ فيها حبٌّ أمثالُ النَّوى عليه مكتوبٌ: هذا نبتَ في زمنٍ كان يُعمل فيه بالعدل.

من عبادِه من أهلِ بيتِ نبيِّه، فيملأُ الأرضَ قِسْطًا كما مُلِئَتْ جَوْرًا، ويقتلُ المسيحُ اليهودَ والنَّصارى، ويقيمُ الدِّينَ الذي بعثَ اللهُ به رسولَه؛ تُخْرِجُ الأرضُ بركاتِها وتعود كما كانت، حتى إنَّ العِصَابَةَ من النَّاسِ ليأْكُلُونَ الرُّمَّانَةَ ويستظلُّونَ بقِحْفِهَا، ويكونُ العُنْقُودُ من العِنَبِ وِقْرَ بعيرٍ، وإنَّ اللِّقْحَةَ الواحدةَ لتكفي الفِئَامَ من النَّاس!

وهذا لأنَّ الأرضَ لـمَّا طَهُرَت من المعاصي؛ ظهرت فيها آثار البركةِ من الله ـ تعالى ـ، التي محَقَتهَا الذُّنُوبُ والكُفْرُ»[1].

وقال ـ رحمه الله ـ:

«وتأمَّل قوله ﷺ: **«الكَمْأَةُ من الـمَنِّ الذي أنزله الله على بني إسرائيل»**[2]، فجعلها من جملته، وفردًا من أفراده، والتَّرَنْجَبين الذي يسقط على الأشجار نوع من الـمَنِّ، ثمَّ غلب استعمال الـمَنِّ عليه عُرْفًا حادثًا.

والقول الثاني: أنه شَبَّهَ الكَمْأَةَ بالـمَنِّ الـمُنَزَّل من السماء، لأنه يُجمع من غير تعبٍ ولا كُلْفَةٍ ولا زَرْعِ بِزْرٍ ولا سَقْيٍ.

فإنْ قلت: فإذا كان هذا شأنَ الكَمْأَةِ، فما بالُ هذا الضَّرَرِ فيها، ومن أين أتاها ذلك؟

فاعلم أنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ أتقن كُلَّ شيءٍ صَنَعَه، وأحسَنَ كُلَّ شيءٍ خَلَقَه، فهو عند مبدإِ خَلْقِه بريءٌ من الآفات والعلل، تامُّ المنفعة لما هُيِّئ وخُلِق له، وإنما تعرِضُ له الآفاتُ بعد ذلك بأمورٍ أُخَر من مجاوَرَةٍ، أو امتزاجٍ واختلاطٍ، أو أسبابٍ

---

(١) «الجواب الكافي» (ص١٦٠ ـ ١٦٢).

(٢) رواه مسلم (٢٠٤٩) وابن ماجه (٣٤٥٤).

أُخَر تقتضي فسادَه، فلو تُرِكَ على خِلقته الأصلية من غير تعلق أسباب الفساد به، لم يفسُد.

ومَنْ له معرفة بأحوال العالَم ومبدئه يعرِف أنَّ جميع الفساد في جَوِّه ونباته وحيوانه وأحوالِ أهله، حادثٌ بعد خلقه بأسباب اقتضت حدوثَه، ولم تزل أعمالُ بني آدَم ومخالفتُهم للرُّسُل تُحدث لهم من الفساد العامِّ والخاصِّ ما يجلب عليهم من الآلام، والأمراض، والأسقام، والطواعين، والقُحُوط، والجُدُوب، وسلب بركات الأرض، وثمارها، ونباتها، وسلب منافعها، أو نقصانها أُمورًا متتابعة يتلو بعضُهَا بعضًا.

فإن لم يَتَّسِعْ علمك لهذا، فاكتفِ بقوله ـ تعالى ـ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾[الروم:٤١]، ونَزِّلْ هذه الآيةَ على أحوالِ العالَم، وطابِقْ بين الواقع وبينها، وأنت ترى كيف تحدث الآفاتُ والعلل كل وقت في الثمار والزرع والحيوان، وكيف يحدُث من تلك الآفات آفاتٌ أُخَرُ متلازمة، بعضُها آخِذٌ برقاب بعض، وكُلَّما أحدث الناسُ ظلمًا وفجورًا، أحدث لهم ربهم ـ تبارك وتعالى ـ من الآفات والعلل في أغذيتهم، وفواكههم، وأهويتهم، ومياههم، وأبدانهم، وخِلَقِهِم، وصُورهم، وأشكالهم، وأخلاقهم من النَّقص والآفات، ما هو مُوْجَبُ أعمالهم وظلمهم وفجورهم»(١).

قال مالك بن دينار: «إنَّ لله ـ تعالى ـ عقوباتٍ، فتعاهدوهنَّ من أنفسكم في القلبِ والأبدانِ، ضَنكًا في المعيشةِ، ووَهَنًا في العبادةِ، وسُخْطَةً في الرِّزْقِ»(٢).

---

(١) «زاد المعاد» (٤/ ٣٦٢).

(٢) «حلية الأولياء» (٢/ ٣٦٤).

بل قال أبو خلَّاد ـ رحمه الله ـ: «ما من قومٍ فيهم من يتهاون بالصَّلاة، ولا يأخذون على يديه؛ إلَّا كان أوَّل عقوبتهم أن يُنْقَصَ من أرزاقِهِم!»[1].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «الصلاة مجلبة للرزق، حافظة للصحة، دافعة للأذى، مطردة للأدواء، مقوِّية للقلب، مبيِّضة للوجه، مفرحة للنفس، مذهبة للكسل، منشطة للجوارح، ممدة للقوى، شارحة للصدر، مغذية للروح، منوِّرة للقلب، حافظة للنعمة، دافعة للنقمة، جالبة للبركة، مُبعدة من الشيطان، مقرِّبة من الرحمن»[2].

رابعًا ـ تحقيق الأخوَّة، وتحقُّق الوحدة:

وهذا كذلك من أعظم بركات الطَّاعات، فإنَّ الأمَّة الإسلاميَّة الممزَّقة قد أُشبعت وأُتخمت بأُطروحات السِّياسيِّين ونظريَّات من يسمُّونهم بالمفكِّرين، الذين يحاولون الخروج بالأمَّة العربيَّة من حالة التَّشرذم والتَّفرُّق، ولا ندري كيف يقوى هؤلاء على نسيان الأسباب التي وحَّد الإسلامُ بها كلَّ المُنضوين تحت رايته توحيدًا واجتماعًا عزَّ نظيره.

قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[الأنفال: ٦٢ ـ ٦٣].

قال ابن عطيَّة: «وكلُّ تآلُف في الله فتابعٌ لذلك التآلف الكائن في صدر الإسلام، وقد روى سهل بن سعد عن النبي ﷺ أنه قال: «**المؤمن مَأْلَفَة، لا خير**

(١) «فتح الباري» (٣/ ١٤٤) لابن رجب.

(٢) «زاد المعاد» (٤/ ٣٠٤ ط الرسالة).

فيمن لا يَأْلَفُ ولا يُؤْلَفُ»[1]. قال القاضي أبو محمد: والتَّشابه هو سبب الألفة، فمن كان من أهل الخير أَلِفَ أشباهَه وأَلِفُوه»[2].

وقال ابن كثير: «﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لـِما كان بينهم من العداوة والبغضاء، فإنَّ الأنصار كانت بينهم حروبٌ كثيرة في الجاهلية بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل في الشرِّ، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان»[3].

وانظر إلى هذا الوصف البديع الذي ساقه أبو محمَّد بن حزم ـ رحمه الله ـ لحال العرب في تفرُّقها وتشتُّتها قبل الإسلام، قال:

«وأما محمد ﷺ، فلا يختلف أحدٌ في مشرق الأرض وغربها أنه ـ عليه السلام ـ أتى إلى قوم لِقَاحٍ لا يُقِرُّونَ بمَلِك، ولا يطيعون لأحد، ولا ينقادون لرئيسٍ، نشأ على هذا آباؤهم وأجدادهم وأسلافهم منذ ألوف من الأعوام، قد سرى الفخر والعزُّ والنَّخوةُ والكِبْرُ والظُّلمُ والأَنَفَةُ في طباعهم، وهم أعدادٌ عظيمةٌ قد ملؤوا جزيرة العرب، وهي نحو شهرين في شهرين، قد صارت طباعهم طِبَاعَ السِّبَاعِ، وهم ألوفُ الألوفِ، قبائلُ وعشائرُ يتعصَّب بعضُهم لبعضٍ أبدًا.

فدعاهم ـ بلا مالٍ ولا أتباعٍ، بل خذله قومُه ـ إلى أن ينحطُّوا من ذلك العزِّ إلى غُرْمِ الزكاة، ومن الحرِّيَّة والظُّلم إلى جَرْي الأحكام عليهم، ومن طول الأيدي بقتل من أحبُّوا وأَخْذِ مالِ مَن أحبُّوا إلى القصاص من النَّفس ومن قطع الأعضاء

---

(1) رواه أحمد (٥/ ٣٣٥)، وصححه شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٤٢٥).

(2) «المحرَّر الوجيز» (٢/ ٥٤٩).

(3) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٨٤).

ومن اللَّطْمَةِ، من أَجَلِّ مَن فيهم لأقلِّ عِلْجٍ غريبٍ دخل فيهم، وإلى إسقاط الأَنَفَةِ والفخر إلى ضربِ الظُّهور بالسِّياط أو بالنِّعال إن شربوا خمرًا أو قذفوا إنسانًا، وإلى الضَّرب بالسَّوط والرَّجم بالحجارةِ إلى أن يموتوا إن زَنَوْا.

فانقادَ أكثرهم لكلِّ ذلك طوْعًا، بلا طَمع ولا غَلَبَةٍ ولا خوف، ما منهم أحدٌ أُخِذَ بغَلَبَةٍ إلَّا مكَّة وخيبر فقط! وما غزا قطُّ غزوةً يقاتل فيها إلا تسعَ غزوات، بعضُها عليه وبعضها له.

فصحَّ ضرورةً أنَّهم إنَّما آمنوا به طوْعًا لا كرْهًا، وتبدَّلت طبعائهم بقدرة الله ـ تعالى ـ من الظُّلم إلى العدل، ومن الجهل إلى العلم، ومن الفِسْق والقسْوة إلى العدْل العظيم الذي لم يبلغه أكابر الفلاسفة، وأَسقطوا كلُّهم أوَّلُهم عن آخرِهم طلبَ الثَّأرِ، وصَحِبَ الرَّجل منهم قاتل ابنه وأبيه وأعدى النَّاس له؛ صُحْبَةَ الإخوةِ المتحابِّين، دون خوف يجمعهم، ولا رئاسةٍ ينفردون بها دون من أسلم من غيرهم، ولا مالٍ يتعجَّلونه.

فقد علم الناس كيف كانت سيرة أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ، وكيف كانت طاعةُ العرب لهما بلا رزق ولا عطاء ولا غلبة، فهل هذا إلا بغلبةٍ من الله ـ تعالى ـ على نفوسهم، وقَسْرِه ـ عزَّ وجلَّ ـ لطِبَاعِهِم»[1].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٣].

قال الإمام القرطبي: «أمر ـ تعالى ـ بتذكُّر نِعَمِه، وأعظمُها الإسلام واتِّباع

(١) «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (٢/ ٧٣).

نبيه محمد ـ عليه السلام ـ؛ فإنَّ به زالت العداوة والفرقة، وكانت المحبة والألفة، والمراد: الأوس والخزرج، **والآية تَعُمُّ**.

ومعنى ﴿**فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا**﴾ أي: صرتُم بنعمةِ الإسلامِ إخوانًا في الدِّين، وكلُّ ما في القرآن (**أصبحتم**) معناه: صرْتُم»[1].

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وهذا السِّياق في شأن الأوْس والخَزْرَج، فإنه كانت بينهم حُروبٌ كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن، وإحَنٌ وذُحُولٌ[2] طالَ بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم، صاروا إخوانًا متحابِّين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البرِّ والتقوى»[3].

وقال شيخ المفسِّرين أبو جعفر بن جرير: «وتأويل ذلك: واذكروا أيها المؤمنون! نعمة الله عليكم التي أنعمَ بها عليكم، حين كنتم أعداءً في شرْكِكُم، يقتل بعضكم بعضًا، عصبيةً في غير طاعة الله ولا طاعة رسوله، فألَّف الله بالإسلام بين قلوبكم، فجعل بعضَكم لبعضٍ إخوانًا بعد إذ كنتم أعداءً، تتواصلون بألْفَةِ الإسلام واجتماع كلمتكم عليه»[4].

بل تأمَّل معي أخي في الله! قولَ ربِّنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ١٦٤).

(٢) الذَّحْلُ: الحقد والعداوة. يقال: طلب بذحله؛ أي: بثأره. والجمع: ذُحُولٌ. «مختار الصحاح» مادة (ذ ح ل).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٩٠).

(٤) «تفسير الطبري» (٧/ ٧٧).

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

تأمَّل! كيف جعل الله ـ تبارك وتعالى ـ تركَهُم بعضَ ما أنزل إليهم سببًا في تفرُّقهم، وسبب ذلك واضحٌ؛ وهو أنَّ الأمَّة التي ألزمها الله ـ تعالى ـ باتِّباع نبيٍّ معصومٍ، وضمنَ لها سلامة العاقبة في الدُّنيا والآخرة إن هي اتَّبعته، فإنَّها إنْ تركت شيئًا ممَّا جاء به، احتاج النَّاس أن يملؤوا مكانه من آرائهم وبنات أفكارهم، فحين ذلك يختلفون، ويتدابرون، ويتباغضون، ويقتتلون.

قال ابن أبي زمنين: «وتأويل العداوة والبغضاء: أي صاروا فرقًا يكفِّر بعضُهُم بعضًا»[1].

فانظر ـ على سبيل المثال ـ اعتقاد النَّصارى في عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، والقولُ الحقُّ فيه ما قال الله: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

لكنَّهم افترقوا فيه على أقوالٍ باطلةٍ عندما فارقوا القول الحقَّ، فالنُّور واحد، والظُّلماتُ كثيرة!

قال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «فالنصارى ـ عليهم لعنة الله ـ من جهلهم ليس لهم ضابط، ولا لكفرهم حدٌّ، بل أقوالهم وضلالهم منتشر، فمنهم من يعتقده إلهًا، ومنهم من يعتقده شريكًا، ومنهم من يعتقده ولدًا، وهم طوائف كثيرة لهم

---

(١) «تفسير ابن أبي زمنين» (٢/ ١٧).

آراء مختلفة، وأقوال غير مؤتلفة، **ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا على أحد عشر قولًا!**

ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير، وهو سعيد بن بَطْرِيق ـ بَتْرَكُ الإسكندرية ـ في حدود سنة أربع مئة من الهجرة النبوية، أنَّهم اجتمعوا المجمع الكبير الذي عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم، وإنما هي الخيانة الحقيرة الصغيرة، وذلك في أيام قسطنطين باني المدينة المشهورة، وأنهم اختلفوا عليه اختلافًا لا ينضبط ولا ينحصر، فكانوا أزيد من ألفين أَسْقُفًا، فكانوا أحزابًا كثيرة، كل خمسين منهم على مقالة، وعشرون على مقالة، ومئة على مقالة، وسبعون على مقالة، وأزيد من ذلك وأنقص.

فلمَّا رأى عصابةً منهم قد زادوا على الثلاث مئة بثمانية عشر نفرًا، وقد توافقوا على مقالة، فأخذها الملك ونصرها وأيَّدها ـ وكان فيلسوفًا ذا هيئة ـ ومَحَقَ ما عداها من الأقوال، وانتظم دَسْتُ أولئك الثلاث مئة والثمانية عشر، وبنيت لهم الكنائس، ووضعوا لهم كتبًا وقوانين، وأحدثوا الأمانة التي يلقنونها الولدان من الصغار ليعتقدوها ويُعَمِّدونهم عليها، وأتباع هؤلاء هم الملكية.

ثم إنهم اجتمعوا مجمعًا ثانيًا فحدث فيهم اليعقوبية، ثم مجمعًا ثالثًا فحدث فيهم النسطورية!

وكل هذه الفرق تثبت الأقانيم الثلاثة في المسيح، ويختلفون في كيفية ذلك، وفي اللاهوت والناسوت ـ على زعمهم! ـ: هل اتَّحدا؟ أو ما اتحدا، بل امتزجا؟ أو حلَّ فيه؟ على ثلاثِ مقالات، وكلٌّ منهم يكفِّر الفرقةَ الأخرى، ونحن نكفِّر الثلاثة»[1].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٤٧٩).

وما أصاب هؤلاء النَّصارى هو ما أصاب الخوارج المارقين على هذه الأمَّة؛ فإنَّهم فارقوا الأمَّة بالاعتقاد والقول، وردُّوا الحقَّ، وطعنوا في أصحاب النبيِّ ﷺ، وكفَّروا عثمان وعليًّا وغيرهما، فآل أمرهم إلى افتراقٍ واقتتالٍ وتكفيرٍ متبادَل، وما زالت هذه سنَّتهم إلى اليوم، وها هي هذه الجماعات والتنظيمات المسلَّحة مثل داعش وتنظيم القاعـدة، وبناتها وأخواتها وضرائرهما، ما تلبث أن تنقسم على نفسها أقسامًا، يكفِّر بعضها بعضًا، وتسيل بينها أنهارُ الدِّماء، ولا تستمرُّ لهم شوكةٌ قطُّ ولا يستقرُّ لهم حال، مع أنَّهم من أجلد النَّاس على القتال ومن أصبرهم على العنف وشظف العيش! وكلُّ ذلك لأنَّهم خسروا بَرَكَةَ السُّنَّةِ، ولحقهم شؤم البدعة.

قال قتادة ـ رحمه الله ـ: «﴿**فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ**﴾[آل عمران: ٧] إن لم تكن الحروريَّة والسبئيَّة؛ فلا أدري من هم! ولعمري! لقد كان في أصحاب بدر والحديبية، الذين شهدوا مع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان من المهاجرين والأنصار؛ خبر لمن استخبر، وعبرة لمن اعتبر، لمن كان يعقل أو يبصر.

إنَّ الخوارج خرجوا وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ كثير، بالمدينة وبالشام وبالعراق، وأزواجه يومئذ أحياء، والله! إنْ خرج منهم ذكر ولا أنثى حَرُوريًّا قطُّ، ولا رضوا الذي هم عليه، ولا مالؤوهم فيه، بل كانوا يحدِّثون بعَيْبِ رسول الله ﷺ إياهُم، ونعْتِه الذي نعَتَهُم به، وكانوا يبغضونهم بقلوبهم، ويعادُونهم بألسنتهم، وتشتدُّ والله! أيديهم عليهم إذا لَقُوهم.

ولعَمْرِي! لو كان أمرُ الخوارج هُدًى لاجتمع، ولكنَّه كان ضلالةً فتفرَّق، وكذلك الأمر إذا كان من عند غير الله وجدتَ فيه اختلافًا كثيرًا.

فقد أَلَاصُوا[1] هذا الأمر منذ زمان طويل، فهل أفلحوا فيه يومًا قطُّ أو

---

(١) أي: لَزِمُوا هذا الأمرَ وداروا عليه وأصرُّوا على حمله. انظر: «لسان العرب» مادة (لوص).

أنجحوا؟! يا سبحان الله! كيف لا يعتبر آخر هؤلاء القوم بأوَّلهم! إنَّهم لو كانوا على حقٍّ أو هُدًى؛ قد أظهره الله وأفلجه ونصَرَه، ولكنَّهم كانوا على باطِلٍ فأكْذَبَه الله ـ تعالى ـ وأدْحَضَه، فهم كما رأيتَهم، كلَّما خرج منهم قرن أدْحَضَ الله حُجَّـتَهُم، وأَكْذَبَ أُحْدُوثَتَهُم، وأهْرَاقَ دماءَهُم، وإنْ كَتَمُوهُ كـان قَرْحًـا في قلـوبِهم، وغَـمًّا عليهم، وإن أظهروه أهْراقَ الله دماءَهم، ذاكم والله! دين سَوْءٍ فاجتنبوه.

فوالله! إنَّ اليهوديَّة لبدعة، وإنَّ النَّصرانيَّة لبدْعة، وإنَّ الحروريَّة لبدعة، وإنَّ السبئيَّة لبدعة، ما نزل بهنَّ كتابٌ، ولا سَنَّهُنَّ نَبِيٌّ»[1].

فتأمَّل أخي في الله! هـذا الفقـه الدَّقيق، والاعتبارَ الجميل، والنَّظر الرَّاقي، كيفَ قَرَنَ هذا الإمام الحافظ المفسِّر الجبل، بين هذه الضَّلالات الكبيرة، وهي مِلَلٌ ونِحَلٌ متهارشةٌ مختلفة، لكنَّ سبب تولُّدها واحدٌ، وهو الإعراضُ عن الحقِّ الذي أنزله الله على أنبيائه، واستبداله بالآراء والأفكار.

فإنَّ وصفَ اليهوديَّة والنّصرانيَّة بكونِهِما من البِدَعِ غيرُ مألوفٍ، ولا شائعٍ، ولكنَّه صحيحٌ، بل عميقٌ ودقيقٌ إلى الغايةِ، فإنَّ فيـه إشـارةً إلى اتّصـالِ الابتـداع بتحريف الدِّيـن، والسَّطْوِ على مفاهيمه، والتَّلاعُب بنصوصه ـ لفظًـا ومعنـىً ـ، وهذا كلُّه معروفٌ عن اليهود والنَّصارى والخوارج والروافض على السَّواء!

قال الإمام ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ:

«وإنما كثر الاختلاف وتفاقم أمره بسبب التقليد وأهله، وهم الذين فرَّقوا الدِّين وصيَّروا أهلَه شيعًا، كلُّ فرقةٍ تنصُرُ متْبُوعَها وتدعو إليه، وتذمُّ من خالفها،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٨١ ـ ٣٨٢)، ومن طريقه الطبري في «تفسـيره» (٦/ ١٨٧ ـ ١٨٨)، **وإسناده صحيح**.

ولا يرون العمل بقولِهم، حتى كأنَّهم مِلَّةٌ أخرى سواهم، يدأبون ويكدحون في الردِّ عليهم، ويقولون: كتبهم وكتبنا، وأئمتهم وأئمتنا، ومذهبهم ومذهبنا!

هذا، والنبيُّ واحدٌ، والقرآن واحدٌ، والدِّين واحدٌ، والرَّبُّ واحدٌ، فالواجبُ على الجميع أن ينقادوا إلى كلمة سواءٍ بينَهم كلِّهم، وأنْ لا يطيعوا إلَّا الرسول، ولا يجعلوا معه من يكون أقواله كنصوصه، ولا يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله.

فلو اتفقت كلمتهم على ذلك، وانقاد كل واحد منهم لمن دعاه إلى الله ورسوله، وتحاكموا كلُّهم إلى السُّنَّةِ وآثار الصَّحابةِ لَقَلَّ الاختلافُ، وإن لم يُعْدَم من الأرض.

ولهذا تجدُ أقلَّ النَّاس اختلافًا أهلَ السُّنَّة والحديث، فليس على وجه الأرض طائفةٌ أكثرُ اتِّفاقًا وأقلُّ اختلافًا منهم، لمَّا بَنَوْا على هذا الأصل، وكلَّما كانت الفرقة عن الحديث أبعد، كان اختلافهم في أنفسهم أشدَّ وأكثر، **فإنَّ من ردَّ الحقَّ، مَرِجَ عليه أمرُهُ واختَلَطَ عليهِ، والتبَسَ عليهِ وجه الصَّواب، فلم يدْرِ أين يذهب**، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ **بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ** ﴾[ق: ٥]»[١].

فطاعة الله إذن طاعةً عامَّة، خضوعًا لدينه الكامل، وامتثالًا لكلِّ المطالب الشرعيَّة، هي التي تجمع القلوب، وتؤلِّف بين العقول، وتجمع شتات الآراء، وتهذِّب الأفكار.

فرضي الله عن صدِّيق هذه الأمَّة الأكبر أبي بكر، الذي قال: «لستُ تاركًا

---

(١) «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٥٦ ـ ٥٥٧ بتحقيقي).

شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملتُ به، فإنِّي أخشى إن تركت شيئًا من أمرِه أن أزيغ»(١).

فنسأل الله العافية من الزَّيغ، ومن الافتراق، ومن عموم الفِتَن، ومن أن تستحكم بنا عقوبة الله التي توعَّد بها في قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾[الأنعام: ٦٥].

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «﴿شِيَعًا﴾ معناه: فِرَقًا. وقيل: يجعلُكم فِرَقًا يقاتِلُ بعضُكم بعضًا؛ وذلك بتخليطِ أمرِهم وافتراقِ أمرائِهم على طلب الدُّنيا، وهو معنى قوله: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي: بالحرب والقتل في الفتنة؛ عن مجاهد.

والآية عامَّةٌ في المسلمين والكفار، وقيل: هي في الكفَّار خاصَّة، وقال الحسن: هي في أهل الصَّلاة.

قلت: **وهو الصحيح**؛ فإنَّه الـمُشَاهَدُ في الوجود، فقد لَبِسَنَا العَدُوُّ في ديارِنَا واستَوْلى على أنفُسِنَا وأموالِنا، مع الفتنةِ المسْتَوْلِيَةِ علينا بقتلِ بعضِنا بعضًا واستباحةِ بعضِنَا أموالَ بعضٍ! نعوذُ بالله من الفِتَنِ ما ظهرَ منها وما بَطَنَ»(٢).

لا ريبَ أنَّ أمثالَ هذه المعاني القرآنيَّة الشريفة، والحقائق الشرعيَّة الخطيرة، هي التي حجزت الكثيرَ من الصالحين والعلماء عن الفِتَن على تنوُّع شعاراتها وكثرة مغرياتها، وليت شعري! ما الذي يدفعُ السَّيِّدَ الهاشميَّ الحسنَ بن عليٍّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ أن يتنازلَ عمَّا كان به خَلِيقًا، وله أهلًا، لـمَّا تنازلَ عن

(١) رواه البخاري (٣٠٩٣)، ومسلم (٥٥٩).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٩ ـ ١٠).

الخلافة لمعاوية ـ رضي الله عنه ـ؟

عن الشعبيِّ، أنَّ الحسن بن عليٍّ خطبَ، فحمد الله وأثنى عليه، وتشهَّدَ، ثمَّ قال: «إنَّ أَكْيَسَ الكَيْسِ التُّقى، وإنَّ أَحْمَقَ الحُمْقِ الفُجُورُ، وإنَّ هذا الأمرَ الذي اختلفتُ فيه أنا ومعاوية، إمَّا أنْ يكونَ حقَّ امرئٍ كان أحَقَّ به منِّي، أو كان حقًّا لي تركتُه الْتِماسًا لصلاحِ أمرِ هذه الأُمَّةِ، ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[الأنبياء: ١١١]»(١).

وعن صدقة بن المثنَّى، عن جدِّه، أنَّ النَّاسَ اجتمعوا إلى الحسن بن عليٍّ بالمدائنِ بعد قتْلِ عليٍّ، فخَطَبَهم، فحمد اللهَ وأثنى عليه، ثمَّ قال: «أمَّا بعدُ: إنَّ كلَّ ما هو آت قريب، وإنَّ أمرَ الله واقعٌ إذْلالَهُ وإنْ كَرِهَ النَّاس ـ يعني: دافعٌ ـ، وإنِّي واللهِ! ما أحببتُ أنْ أَلِيَ من أمرِ أمَّةِ محمَّدٍ ﷺ ما يَزِنُ مثْقَالَ حبَّةِ خرْدَلٍ تُهْرَاقُ فيها مِحْجَمَةٌ من دَمٍ، فقد عَقَلْتُ ما ينفعُني ممَّا يضُرُّني! فالْحَقُوا بمَطِيَّتِكُم»(٢).

وعن أبي الغَرِيفِ قال: كُنَّا مقدِّمة الحسن بن عليٍّ، اثنيْ عشر ألفًا بمَسْكَنٍ مستَمِيتِينَ تَقْطُرُ أسيافُنا من الجِدِّ على قتال أهلِ الشَّام! وعلينا أبو العَمَرَّطَة، فلما جاء صُلْحُ الحسن بن عليٍّ كأنَّما كُسِرَت ظُهُورُنا من الغيظ! فلمَّا قَدِمَ الحسنُ بن عليٍّ الكوفةَ، قال له رجلٌ منَّا يُقال له أبو عامر سفيانُ بن ليلى:... السلامُ عليكَ يا مُذِلَّ المؤمنين! فقال: «لا تقُلْ ذاكَ يا أبا عامر! لستُ بِمُذِلِّ المؤمنين، ولكنِّي

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٠٦٩٨)، و«تاريخ دمشق» (١٣/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤).

(٢) رواه أحمد في «فضائل الصحابة» (١٣٦٤)، وابن أبي شيبة (٣٧٣٥٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٣/ ٢٧٣).

كَرِهْتُ أن أَقْتُلَكُم على الـمُلْكِ»[1].

فنسأل الله أن يجمع بين قلوبنا على الحقِّ، ويؤلِّف بيننا، وأن يقينا نزغات الشيطان، ويكفينا شرَّ القطيعة والمناكدة والهجران، ولا قوَّة إلا بالله.

وهل تريد أكثر من أن تكون المعاصي سببًا في التفريق بين الزوجَيْن، وسببًا في إفسادِ أولادهما إن رُزِقَا بالولد؟!

قال ابن الحاجِّ ـ في شأن تهاون الزَّوجَيْنِ في الصَّلاة ـ: «لا جرم أن التوفيق بينهما قلَّ أن يقعَ، وإن دامت الأُلْفَةُ بينهما فعَلَى دَخَنٍ، وإن قُدِّرَ بينهما مولودٌ فالغالبُ عليه ـ إنْ نَشَأَ ـ العقوقُ وارتكابُ ما لا ينبغي، كلُّ ذلك بسبب تركِ مراعاةِ ما يجب من حقِّ الله ـ تعالى ـ منهما معًا»[2].

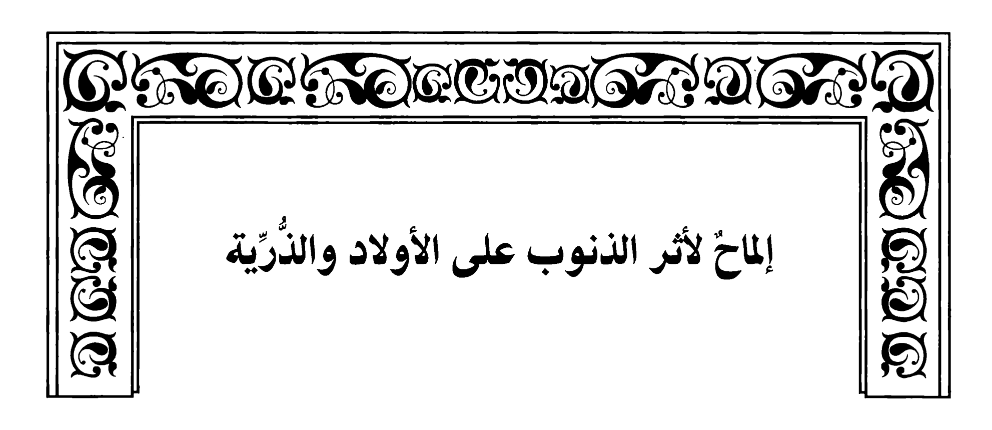
وصدقَ! فقد قال رسولُ الله ﷺ: «**والذي نفسُ محمَّدٍ بيَدِه! ما تـوَادَّ اثنانِ فَفُرِّقَ بينَهُما، إلا بذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أحدُهُمَا**»[3].

* * *

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (١٥/ ٩٣)، و«تاريخ دمشق» (١٣/ ٢٧٩)، و«تاريخ بغداد» (١٠/ ٣٠٥).

(٢) «المدخل» (٢/ ١٧٠).

(٣) رواه أحمد (٢/ ٦٨) من حديث ابن عمر، وفيه ابن لهيعة، وله شاهدٌ من حديث أنس عند البخاري في «الأدب المفرد» (٤٠١) وسنده حسنٌ في الشواهد.



إلماحٌ لأثر الذنوب على الأولاد والذُّرِّية

قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[الكهف: ٤٦]، وهذه الزِّينَـةُ مكانتُهَا في نفوسِ البَشَرِ لا يكادُ يضاهيها شيءٌ ممَّا يُشتهى، حتى إنَّ بعضَ الـذين يُحرمُونَ منها يسلكـونَ لتحصيلِهَا مسالكَ تقفُ بهم على حافَّة الجنون! من شـدَّة الرغبة فيها والشعور بالنَّقص من دونها، حتى إذا حصَّلُوهَا فَسَدَت على أكثرهم، ثـمَّ يملؤون السَّهْلَ والجَبَلَ بالشكوى من عقوقِ الأولادِ وتطاوُلِهم علـيهم، غـافلين عن أنَّ معاصي الآباء من أهمِّ الأسبابِ الـمُفضِيَةِ إلى إفسادِ الأبناء.

وقد تتابعت الإشارات القرآنيَّة دالَّةً عـلى ارتبـاطِ صـلاحِ الولَـدِ بصـلاحِ الوالدِ، ليس على سبيلِ أنَّ الوالِدَ هو محلُّ التأسِّي بالنِّسبَةِ للوَلَدِ فحَسْب! بل بكـونِ نَفْسِ اتِّصافِ الوالدِ بالصَّلاحِ والطَّاعةِ سببٌ شرعيٌّ في حفظِ ذرِّيَّتِـهِ وسـلامَتِهِم من الآفات والأمراضِ، الظاهرة والباطنة، على القلوب وعلى الأبدان، وهو كـذلك سببٌ في جريانِ الأرزاقِ عليهم، وصلاحِ دُنياهُم وأمر آخرتِهم من بعدِهِ.

كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[النساء: ٩].

خرَّجَ ابن جرير عن ابنِ عبَّاسٍ، قال: «يعني بذلك الرجلَ يموت وله أولاد صغارٌ ضعاف، يخاف عليهم العَيْلة والضيعة، ويخاف بعده أن لا يحسن إليـه مـن

يليهم، يقول: فإن وَلِيَ مثلَ ذرِّيَّتِهِ ضِعَافًا يتامى، فليُحْسِن إليهم، ولا يأكُلْ أموالَهم إسرافًا وبدارًا خشية أن يكبروا، فليتقوا الله وليقولوا قولًا سديدًا»[1].

وقد جاءت هذه الآيةُ في سياقِ الكلامِ على أموال اليتامى، وأحكامِ الأولياء، وبيان حقوقهم وواجباتِهم، وقد أفاضَ جمعٌ من المفسِّرين[2] في بلاغتِهَا إفاضاتٍ حسنةً، فمن ذلك أنَّه ـ تعالى ـ قال: ﴿وَلْيَخْشَ﴾ وهو أمرٌ بخشيتِهِ للَّذين يتوقَّعون عندَ موتِهِم أن يتركوا ذرِّيَّةً صغارًا ضعافًا يخافون ضياعَهُم من بعدهم، فليتَّقِ هؤلاء ربَّهُم، ولا يعتدوا على أموال الأيتام بأكلها بالباطِلِ، لأنَّهم إنْ فعلوا ذلك فستؤول حالُ أولادِهِم إلى مثلِ حالِ الأيتامِ الذين اعتدَوْا عليهم من الاستضعافِ والمهانة.

فلم يبيِّن الله لهم من أيِّ عذابٍ يخشونَ! فأبْهَمَ العذابَ والجزاء، وإبهامُه من أسباب تهيُّبِهِ وتعظيمِ أمرِه، لكي تذهبَ كلُّ نفسٍ في تقديرِه وتصوُّره كلَّ مذهبٍ.

وجاءَ بأداة الشرطِ (لو)، ووجهُ انتقائها من بين أدواتِ الشرطِ، أنَّ إنشاءَ الشرطِ بها يصحُّ دونَ تعرُّضٍ لفعل الشرطِ (لو تركوا) من حيثُ إمكانُه أو استبعادُه أو امتناعُهُ، فيدخُلُ في ذلك من كان يتوقَّع تركَ ذريةٍ ضعيفةٍ بعدَه، ومن يستبعدُ ذلك، ومن يراهُ ممتنعًا.

قال أبو حيَّان: «وقالت فرقة: المرادُ جميعُ النَّاس، أُمروا باتقاء الله في الأيتام وأولاد الناس، وإنْ لم يكونوا في حَجْرِهِم، وأن يسدِّدوا لهم القولَ، كما يحبون أنْ

---

(1) «تفسير الطبري» (٧/ ٢٤).

(2) انظر ـ على سبيل المثال ـ: «التحرير والتنوير» (٤/ ٢٥٢ وما بعدها).

يُفْعَلَ بأولادِهِم»[1].

«ومن هذا ما حكاه الشيباني قال: كنَّا على قسطنطينية في عسكر مسلمة بن عبد الملك، فجلسنا يومًا في جماعةٍ من أهل العلم فيهم الدَّيْلَمِيُّ، فتذاكروا ما يكونُ من أهوالِ آخِرِ الزَّمان، فقلت له: يا أبا يسر! وُدِّي أنْ لا يكون لي ولدٌ! فقال لي: ما عليك! ما من نَسَمَةٍ قضى الله بخروجِها من رجل إلا خرجت، أحبَّ أم كَرِهَ، ولكن إن أردتَ أنْ تأْمَنَ عليهم؛ فاتَّقِ اللهَ في غيرِهِم، ثم تلا هذه الآية...»[2].

وقال العلَّامة البقاعي: «﴿لَوْ تَرَكُوا﴾ أي: شارفوا التَّرْكَ بموتٍ أو هَرَم، وصوَّر حالَهم وحقَّقَه بقوله: ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: بعد موتهم أو عجزِهم العجزَ الذي هو كموتهم، ﴿ذُرِّيَّةً﴾ أي: أولادًا من ذكورٍ أو إناثٍ ﴿ضِعَافًا﴾ أي: لصِغَرٍ أو غيرِه، ﴿خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: جَوْرَ الجائرين.

ولما تسبب عن ذلك التصوير في أنفسهم خوفهم على ذرِّيَّةِ غيرِهم كما يخافون على ذرِّيَّتِهِم، سواءً كانوا أوصياءَ أو أولياءَ أو أجانب، وكان هذا الخوفُ ربَّما أدَّاهم في قصدِ نفعِهِم إلى جَوْرٍ على غيرهم؛ أَمَرَ بما يحفَظُهُم على الصراط السَّوِيِّ بقوله: ﴿فَلْيَتَّقُوا﴾، وعبَّرَ بالاسمِ الأعظمِ إرشادًا إلى استحضارِ جميعِ عظمته، فقال: ﴿اللَّهَ﴾ أي: فليعدِلوا في أمرهم ليقيِّض الله لهم من يعدل في ذرِّيَّتِهِم، وإلا أوشك أن يُسَلَّطَ على ذرِّيَّتِهِم من يجورُ عليهِم، ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ أي: في ذلك وغيره ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي: عدلًا قاصدًا صوابًا، ليدلَّ هذا الظَّاهرُ على صلاحِ ما ائتمره من الباطِنِ»[3].

---

(١) «البحر المحيط» (٣/ ١٨٥).

(٢) «المحرر الوجيز» (٢/ ١٧).

(٣) «نظم الدُّرر» (٢/ ٢١٩).

وكذلك ما جاء في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[الأحقاف: ١٥].

فجعلَ ـ سبحانَه ـ صلاحَ الوالدِ كالمقدِّمَةِ والتَّوطِئَةِ لسؤالِ الوالدِ من ربِّه صلاحَ ذرِّيَّتِهِ، لا سيما صلاح الوالد في برِّهِ بوالدَيه، لأنَّ الآيةَ في سياقِه، ولأنَّ الجزاءَ من جنس العمل.

وقد قال تعالى ـ أيضًا ـ في سياق قصَّة موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[الكهف: ٨٢].

فكانَ كونُ أبيهما صالحًا كالعِلَّةِ للقيامِ على حفظِهِمَا وحفظِ مالِهِمَا.

قال ابن عبَّاس: «حُفِظَا بصَلَاحِ أبيهِمَا، وما ذُكِرَ منهُما صلاحٌ!»[1].

قال القرطبي: «ففيهِ ما يدُلُّ على أنَّ الله ـ تعالى ـ يحفظُ الصالح في نفسِه وفي ولده وإنْ بَعُدُوا عنه، وقد رُوِيَ أنَّ الله ـ تعالى ـ يحفظ الصالح في سبعةٍ من ذرِّيَّتِهِ؛ وعلى هذا يدلُّ قولُه ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]»[2].

وقال الزمخشري: «﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا﴾ اعتدادٌ بصلاحِ أبيهِما، وحفظٌ لحقِّهِ فيهما»[3].

---

(١) «تفسير الطبري» (١٨/ ٩١).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٨ ـ ٣٩).

(٣) «الكشاف» (٢/ ٦٩).

أمَّا الآثار فهي كثيرةٌ طيِّبةٌ تدلُّ بوضوحٍ على رعاية السَّلف الصالح لهذا المعنى، وأنَّه كان متقرِّرًا في أذهانهم.

قال سعيد بن المسيَّب لابنه: «لأزيدنَّ في صلاتي من أجلِك، رجاءَ أنْ أُحْفَظَ فيك، ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾»[1].

وقال سعيد بن جبير: «إنِّي لأزيدُ في صلاتي من أجلِ ابني هذا»[2].

وعن مجاهدٍ قال: «إنَّ اللهَ لَيُصلِحُ بصلاحِ العبدِ ولَدَه، وولَدَ وَلَدِه»[3].

ورأى مالك بن دينار رجلًا يسيءُ صلاتَه، فقال: ما أرحمني بعيالِه! فقيل له: يا أبا يحيى! يسيءُ هذا صلاتَه، وترحَمُ عيالَه؟! قال: إنَّه كبيرُهُم، ومنه يتعلَّمون[4].

وعن مالك بن مِغْوَل قال: شكا أبو معشر ابنَه إلى طلحةَ بنِ مُصَرِّف، فقال: استعن عليه بهذه الآية: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾[الأحقاف: ١٥][5].

وقال يحيى بن يمان: خرجتُ إلى مكَّة، فقال لي سعيد بن سفيان: أقرئ أبي السَّلام، وقلْ له يَقْدُمُ، فلقيتُ سفيان بمكَّة، فقال: ما فعلَ سعيد؟! فقلت: صالحٌ،

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٨٧).

(٢) «حلية الأولياء» (٤/ ٢٧٩)، وهو في «السنن الكبرى» للنسائي (١١٨٦٦) عن محمد بن المنكدر.

(٣) «حلية الأولياء» (٣/ ٢٨٥).

(٤) المرجع السابق (٢/ ٣٨٣).

(٥) المرجع السابق (٥/ ١٩).

يقرِئُك السَّلام، ويقول لك: اقدُم. فتجهَّزَ بالخروجِ، وقال: إنَّما سُمُّوا الأبرارَ لأنَّهُم بَرُّوا الآباءَ والأبناءَ[1].

قال أبو عبيدة: كان ذلـك وسفيانُ الثوريُّ ـ رحمه الله ـ مجاورٌ بمكَّة، وأهلُه بالبصرة، فما البِرُّ الذي يُسْدِيهِ سفيانُ لابنِه؟! أليسَ هو سياستُه بالموعظة، ورعايته بالحُسْنى بدلًا من أن يُعْصَى الله لأجْلِ تَسْمِينِهِ والكَدِّ في جَلْبِ قُوتِهِ من غيرِ الوجوهِ التي أحلَّهَا الله، فيهلك في ذلك الوالدُ وما ولَد، والله المستعان.

وقال أبو عبد الرحمن العمري: «من تركَ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهْيَ عن المنكـر من مخافـةِ المخلوقين، نُزِعَتْ منه هيبة الطاعةِ، فلـو أَمَـرَ وَلَـدَه أو بعـضَ مواليـه لاستَخَفَّ به»![2]

وعن الحسن قال: «إذا رأيتَ في وَلَدِكَ ما تكره، فأَعْتِـبْ ربَّـكَ، فـإنَّما هـو شيءٌ يُرَادُ به أنت»[3].

وعن مسلمٍ أبي عبد الله الحنفي قال: «بِرَّ ولدَك، فإنَّه أجدَرُ أن يبَرَّكَ، وإنَّـه من ساءَ؛ عَقَّهُ ولدُه»[4].

---

(١) «حلية الأولياء» (٧/ ٨١).

(٢) «العقوبات» (٣٨) لابن أبي الدنيا.

(٣) المرجع السابق (٦٥)، وقولـه: «فأَعْتِب» الهمزةُ فيه هي همزةُ السَّلْبِ والإزالـة، تقـول: عاتبني فـلانٌ ـ أو استعتبني ـ، فأَعْتَبْتُهُ؛ أي: أجبتُهُ إلى مُرادِهِ فيما عاتبني لأجله، فزالَـت بذلك عُتْبَاه، فمُرادُ الحسن ـ رحمه الله ـ: تُبْ إلى ربِّكَ وارجع إليه بما يرضيه حتى يزولَ ما نزلَ بولدك من المكروه، بسببِ ما أنتَ عليه من المعصية، والله أعلم.

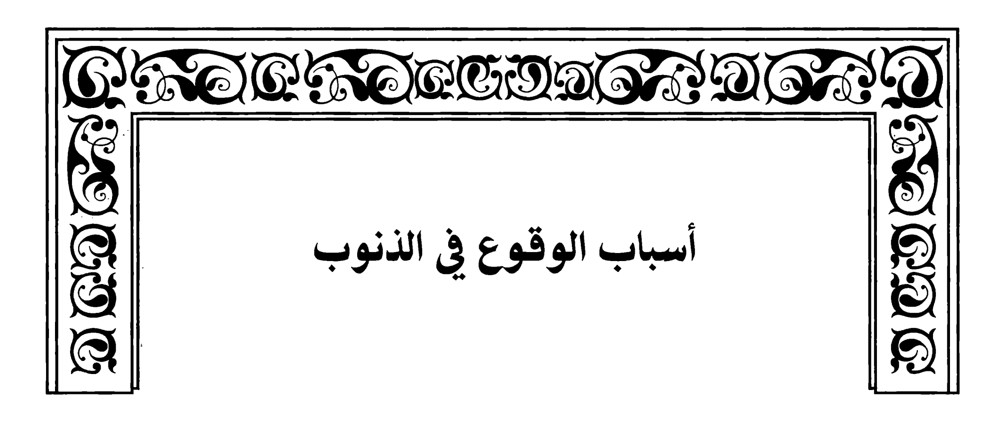
(٤) «العيال» (١٤٨) لابن أبي الدنيا.

ويعجبني صنيع بعض العلماء وولاة الملوك النظر على الأوقاف، وكانت كثيرة يجتمع منها مال جمٌّ؛ فلم يتناول منها درهمًا فما فوقه، لا لنفسه ولا لعياله، حتى ولا علف حيوانه، وكان يقول:

«كل هذا الزهد في هذا المال الدنيئ ليرزقني الله ولدًا صالحًا؛ فإني رأيتُ فساد أولاد المشايخ من تناول هذا المال الخبيث»[1].

❊ ❊ ❊

(١) «درر العقود الفريدة» (١/ ٣١١).



أسباب الوقوع في الذنوب

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّه لم يَكُنْ نَبِيٌّ قبلي إِلَّا كانَ حقًّا عليهِ أنْ يَدُلَّ أمَّتَه على خيرِ مَا يعْلَمُهُ لَهُم، ويُنْذِرَهُم شرَّ ما يعْلَمُهُ لَهُم...»(١).

بل ضربَ النبيُّ ﷺ لنفسِهِ ولما جاء به أمثالًا، حرصًا على أنْ يُفْقَهَ عنه مرادُه، ويُفْهَمَ عنه قصدُه، ويزدادَ محبَّةً له كلُّ مؤمنٍ به، وما نطقَ قطُّ عن الهوى!

فقال: «إِنَّمَا مَثَلي ومَثَلُ النَّاسِ، كمَثَلِ رَجُلٍ استوقدَ نارًا، فلَمَّا أضاءتْ ما حولَه، جعلَ الفَرَاشُ وهذه الدَّوَابُّ التي تَقَعُ في النَّارِ يَقَعْنَ فيها، فجَعَلَ الرَّجُلُ يَزَعُهُنَّ، ويَغْلِبْنَهُ فيَقْتَحِمْنَ فيهَا! فأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُم عن النَّارِ، وأنتم تَقْتَحِمُونَ فيها»(٢).

وقال ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ ما بَعَثَنِي اللهُ، كمَثَلِ رَجُلٍ أتى قومًا، فقال: رأيتُ الجَيْشَ بِعَيْنِي! وإِنِّي أنَا النَّذِيرُ العُرْيَان! فالنَّجَاءَ النَّجَاءَ! فأطاعَه طائفةٌ فأَدْلَجُوا على مهلهم فنَجَوْا، وكذَّبَتْهُ طائفةٌ، فصَبَّحَهُم الجَيْشُ فاجْتَاحَهُم»(٣).

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٤).

(٢) رواه البخاري (٦٤٨٣) ومسلم (٢٢٨٤).

(٣) رواه البخاري (٦٤٨٢) ومسلم (٢٢٨٣).

فاللهمَّ صلِّ وسلِّم وبارك عليه، ما أرحمَه وما أرأفه بنا.. فهذا مصداقُ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١٢٨]، وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧]، وقوله ـ تبارك اسمه ـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦].

بل تقطَّعت نفسُهُ على كلِّ معرضٍ عن الحقِّ الذي جاءَ به، حتى نهاهُ ربُّه عن أن تذهبَ نفسُه عليهم حسرات! في حين لا يضرُّ الـمُعْرِضُ إلَّا نفسَه، فقد سلَّاه الله ـ تعالى ـ عن جفاءِهم وغلظتهم وجهلهم، فقال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[الأنعام: ٣٣].

فحقٌّ على كلِّ عاقلٍ يؤمن بالله واليوم الآخر، ويصدِّقُ بالجنَّةِ والنَّار، ويرضى بالله ربًّا وبالإسلامِ دينًا وبمحمَّدٍ ﷺ نبيًّا ورسولًا، أن يُجْهِدَ نفسَه ويكُدَّها في فهمِ ما جاءَ به من القرآن والسُّنَّة المطهَّرَة، لا سيما ما أخبرَ فيه عن مكايد الشيطان ودسائسِه، وطبائعِ النُّفوس، وحقيقة الهوى.

وقد استقرأ أهلُ العلمِ ـ الهُدَاةُ الأعلامُ، النَّصَحَةُ البَرَرَةُ ـ ما جاء في ذلك، ونحنُ نُورِدُ منه ما يدلُّ على ما وراءَه، فإنَّ كلامَهم في هذه الأبوابِ لا يأتي عليه حصرٌ، غيرَ أنَّ الآفاتِ على نحوٍ كلِّيٍّ أربعة؛ هي: النَّفسُ، والجهلُ، والهوى، والشيطان(١).

---

(١) انظر: «شرح سنن أبي داود» (١٨/ ٢١٨) لابن رسلان الرملي، وسيأتي كلامه (ص٣٨١ ـ ٣٨٢).

فالنَّفسُ هي الأساسُ، والجهلُ والهوى من صفاتها وحالاتها، والشيطانُ عدوٌّ خارجٌ في الماهيَّةِ، لكنَّه يجري من ابن آدمَ مجرى الدَّمِ في الحقيقةِ، فإنْ ثُلِمَ حِصْنُ النَّفْسِ وَلَجَ إليها منه.

ونحنُ هنا نذكُرُ نُبَذًا عن كلِّ سببٍ، وإلَّا فكلامُ أهلِ العلمِ في هذا البابِ كثيرٌ جدًّا.

السبب الأوَّل ـ الجهل:

قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النساء: ١٧].

وقد قرَّرَ أهلُ العلمِ ـ استنباطًا من هذه الآيةِ ومثيلاتِهَا ـ أنَّ كلَّ من عصى الله فهو جاهل، وهو مأثورٌ عن ابن عبَّاس، ومجاهد، وجابر بن زيد، بل ذكرَ شيخ الإسلامِ[1] ـ رحمه الله ـ عن أبي العاليةِ أنَّه نسبَ هذا القولَ إلى عموم الصَّحابةِ ـ رضي الله عنهم ـ، فهذا أصلٌ متقرِّرٌ عند السَّلَف.

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «من عرَفَ اللهَ بأسمائِهِ وصفاتِه وأفعالِه؛ أَحَبَّه لا مَحَالَةَ»[2].

قال ابن بطَّال: «كلُّ مذنبٍ فهو عند مواقعة الذنب جاهلٌ وإن كان عالِمًا، ومن تابَ قبل الموت تاب من قريب»[3].

وأوَّلُ ما يُستفادُ من هذا، أنَّ العلمَ ـ على التحقيقِ ـ هو ما كانَ مورِّثًا لخشية

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٨٠).

(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ١٧).

(٣) «شرح ابن بطَّال على صحيح البخاري»(١٠/ ٨٠).

الله، ومانعًا وزاجرًا عن المعصية، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر: ٢٨]، وأنَّ من وقعَ فيها فهو جاهلٌ أبدًا حتى يَنْزِعَ عنها، ولو حازَ علومَ الأوَّلينَ والآخِرينَ بين جنبَيْهِ، ولو شَهِدَ له القاصي والدَّاني وأذعنوا له، فشهادةُ معصيتِهِ عليه بأنَّه جاهلٌ، أصدقُ من شهادةِ أيِّ شيءٍ، لأنَّها الشهادةُ التي قَبِلَهَا ربُّ العالمين ـ تبارك وتعالى ـ وأخبرنا عنها.

فلا عَجَبَ إذن، من أن نرى كثيرًا من المحسوبين على ما يُسَمَّى بـ (النُّخَبِ الفكريَّة والثقافيَّة) من حَمَلَةِ الشهادات العالية، ومن مُتبَوِّئي أعلى المناصبِ والمراكزِ المؤثِّرَةِ في حياةِ النَّاسِ، يرتكبونَ من القبائحِ والمعاصي ما يقعُ فيه دَهْمَاءُ العامَّةِ، وفيهم من لا يقرأ ولا يكتب، بل كثيرًا ما يكون دَهْمَاءُ العامَّةِ أحسن حالًا من أولئِكَ، لعَجْزِهِم عن أدوات المعصيةِ وتخلِّيهم من أسبابها، في حين يجدها أولئك متى ما أرادوها لكثرة الملاهي والشواغل والملَذَّات، وسرُّ وقوعِ القبائحِ من الجميعِ ـ إلا ما رحمَ الله ـ هو استواؤُهُم في الجهلِ بالله ـ تعالى ـ[1]، وبأسبابِ السعادةِ في الآخرة، وإن كانوا متفاوتين في العلمِ بما يُصلِحُ دُنْيَاهُم أعظمَ التَّفاوُت.

قال الإمام ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «فلو عرفَ العَبْدُ كلَّ شيءٍ ولم يعرِفْ ربَّه؛ فكأنَّه لم يعرِفْ شيئًا، ولو نال كلَّ حظٍّ من حظوظ الدُّنيا ولذَّاتها وشهواتها، ولم يظفر بمحبَّةِ الله والشَّوْقِ إليهِ والأُنْسِ به؛ فكأنَّه لم يَظْفَرْ بِلَذَّةٍ ولا نعيمٍ ولا قُرَّةِ عين»[2].

---

(١) يفرِّق الموفَّق بين العلم بالله والعلم بأحكامه، فقد يكون العلم ناقصًا أو غير شامل، فتُعرف الأحكام دونَ أن يُعرف الله ـ عز وجل ـ المعرفةَ الشرعيَّة الحقيقيَّة، ويتسلَّل الطُّرُقِيُّون من هذا فيزعمون معرفة الله دون العلم بمحَابِّه ومرَاضِيه من الأحكام، والأمرُ لا يقبلُ العكس، فتفَطَّن، ولا تكن من الضَّالِّين!

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ١١٢).

فاللهُ ـ تعالى ـ ما عُبِدَ إلَّا بالعلمِ، وما عُصِيَ بمعصيةٍ أعظم من الجهلِ، كما يُروى عن الإمام سهل بن عبد الله التستريِّ ـ رحمه الله ـ.

والله ـ تعالى ـ ما ذكرَ الجهلَ في كتابِهِ إلَّا مذمومًا مُنَفَّرًا عنه، وقد وردَ التَّنصيصُ صريحًا على أنَّ كبارَ المعاصي كالشِّرْكِ والكُفْرِ بالله ـ تعالى ـ سببُهَا الجهلُ في الدَّرجةِ الأولى.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ [يوسف: ٨٩]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠ ـ ١١١]، وقال ـ تبارك اسمه ـ: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [هود: ٢٩]، وقال: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [النمل: ٥٤ ـ ٥٥]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ [الزمر: ٦٤].

إذا عُلِمَ هذا، فينبغي العلمُ بأنَّ الجهْلَ يدورُ على معنيين:

الأوَّلُ: أنَّه نقيضُ العلمِ، **والثاني**: أنَّه الطَّيْشُ، والسَّفَهُ، والخِفَّةُ، والاضطرابُ، وعدمُ الطمأنينةِ.

قال ابن فارس: «الجِيم والهاءُ واللَّام أصْلانِ: أحدُهُمَا خِلاف العِلْم، والآخر الخِفَّة وخِلاف الطُّمَأْنِينة. **فالأوَّل**: الجَهْلُ نقيضُ العِلْم، ويُقَالُ للمَفَازةِ التي لا عَلَمَ بها: مَجْهَلٌ.

والثاني: قولُهُم للخَشَبَةِ التي يُحَرَّكُ بها الجَمْرُ: مِجْهَلٌ، ويُقَال: اسْتَجْهَلَت الرِّيحُ الغُصْنَ، إذا حرَّكَتْه فاضطَرَب، ومنه قولُ النَّابِغَة:

دعاك الهَوَى واستَجْهَلَتْكَ المنازلُ وكيف تَصَابِي المرءِ والشَّيبُ شاملُ

وهو من الباب؛ لأنَّ معناه: اسْتَخَفَّتْكَ واسْتَفَزَّتْكَ، والمَجْهَلة: الأمرُ الذي يحملك على الجهل»[1].

ومن تأمَّلَ هذا المقامَ وجدَ أنَّ العاصي يجتمعُ فيه معنَيَي الجهلِ في آنٍ، فإنَّ معصيتَه تعني جهلَه بأنَّ نقيضَهَا ـ وهو الطَّاعةُ ـ كانَ خيرًا له في العاقبةِ، ويكون جهلُهُ لها حالَ المعصيةِ بنسيانِها أو تناسِيها ولو سبقَ له علمٌ بذلك، وتعني ـ أيضًا ـ طَيْشَه وخِفَّتَه واضطرابَه أمامَ دواعي النَّفْسِ والهوى والشَّيْطَان.

وقد بيَّنَ النبيُّ ﷺ أنَّ الفتنةَ بكلِّ شرورها وشُؤمِها، إنَّما هي حالةٌ من ارتفاعِ العلمِ، وحلولِ الجهل محلَّه، كما في «صحيح البخاري» عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «**يُقْبَضُ العِلْمُ، ويظْهَر الجَهْلُ والفِتَنُ، ويكْثُر الهَرْجُ**». قيل: يا رسولَ الله! وما الهَرْجُ؟ فقالَ هكذا بِيَدِهِ، فَحَرَّفَهَا، كأنَّه يريدُ: القَتْلَ[2].

(١) «مقاييس اللغة» (١/ ٤٣٥).

(٢) رواه البخاري (٨٥).

آثار السلف في التحذير من الجهل:

قال ابن مسعود: «اغْـدُ عَالِـمًا، أو مـتعَلِّمًا، أو مسـتمعًا، ولا تَكُـنْ الرابـعَ فتَهْلِك»[1].

وقال عليُّ بن أبي طالب: «النَّاسُ ثلاثةٌ؛ فعالِمٌ ربَّـانِيٌّ، ومُـتَعَلِّمٌ عـلى سـبيلِ نَجَاةٍ، وهَمَجٌ رِعَاعٌ أَتْبَاعُ كلِّ نَاعِقٍ، لم يستضيئوا بنورِ العِلْمِ، ولَمْ يلجَؤوا إلى رُكْـنٍ وَثِيقٍ»[2].

وقال وكيع: «إنَّما العاقلُ مَنْ عَقَلَ عن الله أمرَه، ليسَ مَن عَقَلَ أمرَ دُنْيَاه»[3].

وقال وهب بن منبِّه: «وَلَإِزَالَةُ الجَبَلِ صخرةً صخرةً، وحَجَرًا حَجَرًا، أشدُّ على الشيطانِ من مكابدةِ المؤمنِ العاقلِ، فـإذا لم يقْـدِرْ عليـهِ تَحَـوَّلَ إلى الجاهـلِ، فيَسْتَأْسِرُه ويسْتَمْكِنُ من قِيَادِهِ حتى يُسْـلِمَهُ إلى الفَضَـائِحِ، التـي يتَعَجَّـلُ بهـا في الدنيا الجَلْدَ والحَلْقَ وتَسْخِيمَ الوَجْهِ والقَطْعَ والـرَّجْمَ والصَّـلْبَ، وإنَّ الـرَّجُلَيْنِ يستَوِيَانِ في أعمالِ البِرِّ، ويكونُ بينهما كما بينَ المشرقِ والـمَغْرِبِ أو أبعـدَ إذا كـان أحدُهُمَا أعقلَ من الآخَر، وما عُبِدَ اللهُ بشيءٍ أفضلَ من العقل»[4].

---

(١) رواه الدارمي (٢٤٨).

(٢) «جامع بيان العلم» (٢/ ٢٢٦).

(٣) «حلية الأولياء» (٨/ ٣٧٠).

(٤) «ذمُّ الهوى» (ص٩).

قلتُ: ومُرادُه بـ (العقلِ) هنا: إطلاقُ الذِّهْنِ والفِكْرِ الصحيحِ في فهمِ الكتابِ والسُّـنَّةِ، لا كما قد يظنُّهُ الجاهلونَ ـ حقيقـةً ـ ممَّن يزعمون أنهم يستعملونَ عقولَهم ليعارِضُوا بهـا القرآنَ والسُّنَّة، هذا مع ما فيهم من البَلَادَةِ، وثِقَلِ الأفهامِ، وغِلَظِ الحجابِ، وهم يظنُّـونَ أنَّهم يحسنونَ صنعًا، وإنَّما نبيِّنُ هذا لأنَّ هذه الفلسفاتِ ظهرتْ بعدَ مدَّةٍ طويلةٍ من زمن=

من كلماتِ أهل العلمِ في التحذير من الجهل:

قال ابن الجوزيِّ ـ رحمه الله ـ: «اعلَمْ أنَّ البابَ الأعظمَ الذي يدخل منه إبليس على الناس هو الجهلُ، فهو يدخل منه على الجُهَّالِ بأمانٍ، وأمَّا العَالِمُ فلا يدخل عليه إلا مُسَارَقَةً»(١).

وقال: «اعلَمْ أنَّ أوَّلَ تلبيسِ إبليسَ على النَّاسِ صَدُّهُم عن العلمِ؛ لأنَّ العِلْمَ نورٌ، فإذا أطفَأَ مَصَابِيحَهُم خَبطَهُم في الظُّلَمِ كيفَ شاء»(٢).

وقال شهاب الدين القَرَافي: «أصلُ كلِّ فسادٍ في الدنيا والآخرةِ إنَّما هو الجهلُ؛ فاجتهد في إزالته عنك ما استطعت، كما أنَّ أصلَ كلِّ خيرٍ في الدنيا والآخرةِ إنَّما هو العلمُ؛ فاجتهد في تحصيلِه ما استطعت، والله ـ تعالى ـ هو المُعِينُ على الخيرِ كلِّه»(٣).

وقال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «وغَلَبَ الشِّركُ على أكثرِ النُّفُوسِ لظهورِ الجَهْلِ، وخَفَاءِ العِلْمِ، فصارَ المعروفُ منكرًا، والمنكر معروفًا، والسُّنَّة بدعة، والبدعة سُنَّة، ونشأ في ذلك الصغير، وهَرِمَ عليه الكبير، وطُمست الأعلام، واشتَدَّتْ غُرْبَةُ الإسلام، وقَلَّ العُلماء، وغلبَ السُّفَهَاء، وتفَاقَمَ الأمرُ، واشتدَّ البأسُ، وظهر

= وهب بن منبِّه ـ رحمه الله ـ، فقد كان السلفُ إذا مَدَحُوا العقلَ أرادوا به حُسْنَ الفَهْمِ عن الله ورسولِهِ، كما سُئِلَ عطاء بن أبي رباح: ما أفضلُ ما أُعطِيَ العِبَاد؟ قال: «العقلُ عن الله ـ تعالى ـ»، رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٣١٥).

(١) «تلبيس إبليس» (ص١٢١ ط الفكر).

(٢) «تلبيس إبليس» (٢٨٣).

(٣) «الفروق» (٤/ ٤٤٩ ط العلميَّة).

الفساد في البَرِّ والبحرِ بما كسبت أيدي النَّاس، ولكن لا تزالُ طائفة مِن العِصابة المحمَّدية بالحقِّ قائمين، ولأهل الشِّرك والبِدع مجاهدين، إلى أن يرث الله ـ سبحانه ـ الأرضَ ومَن عليها، وهو خير الوارثين»[1].

وقال ـ رحمه الله ـ: «فإنَّ الجَهَالَةَ متى خَالَطَتْ العُبُودِيَّةَ أوْرَدَهَا العبدُ غيرَ مَوْرِدِهَا، ووَضَعَهَا في غيرِ مَوْضِعِهَا، وفعَلَهَا في غيرِ مستَحِقِّهَا، وفعلَ أفعالًا يعتقدُ أنَّهَا صلاحٌ، وهي إفسادٌ لِخِدْمَتِهِ وعُبُودِيَّتِه»[2].

وقال ـ رحمه الله ـ: «فالحيُّ العالـمُ الناصح لنفسه لا يُؤْثِرُ محبة ما يضُرُّه، ويشقى به، ويتألم به، ولا يقع في ذلك إلا من فساد تصوُّره ومعرفته، أو من فساد قصده وإرادته، فالأول جهل، والثاني ظلم.

والإنسان خُلق في الأصل ظلومًا جهولًا، ولا ينفكُّ عن الجهل والظلم إلا بأن يعلِّمه الله ما ينفعه، ويُلْهِمه رُشْده، فمتى أراد به الخير علَّمه ما ينفعه، فخرج به من الجهل، ونفعه بما علَّمه، فخرج من الظلم، ومتى لم يُرِدْ به خيرًا أبقاه على أصل الخِلْقَةِ...

والمقصود أنَّ محبة الظلم والعدوان سببها فسادُ العلم، أو فساد القصد، أو فسادهما جميعًا.

وقد قيل: إنَّ فساد القَصْدِ من فساد العلم، وإلا فلو عَلِمَ ما في الضارِّ من الـمَضَرَّةِ ولوازِمِها حقيقةَ العلم لما آثره، ولهذا مَن علم مِنْ طعامٍ شَهِيٍّ لذيذ أنه مسموم فإنه لا يُقْدِمُ عليه، فضعْفُ علمه بما في الضارِّ من وجوه الـمَضَرَّةِ،

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٥٠٧).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٩٨).

وضعفُ عَزمه على اجتنابه يوقعه في ارتكابه، ولهذا كان الإيمان الحقيقيُّ هو الذي يحمل صاحبه على فعل ما ينفعه، وترك ما يَضُرُّهُ، فإذا لم يفعل هذا ولم يترك هـذا، لم يكن إيمانه على الحقيقة، وإنما معه من الإيمان بحسب ذلك.

فإن المؤمن بالنار حقيقةَ الإيمان حتى كأنه يراها، لا يسلك طريقها الموصلة إليها، فضلًا عن أن يسعى فيها بجهده! والمؤمن بالجنة حقيقةَ الإيمان لا تطاوعه نفسُه أن يقعدَ عن طلبها، وهذا أمر يجدُه الإنسانُ في نفسه فيما يسعى فيه في الدنيا من المنافع، أو التخلُّص منه من المضارِّ...

إذا تبيَّن هذا، فالعبدُ أحوجُ شيء إلى معرفة ما يَـضُرُّه ليجتنبه، وما يَنفَعُه ليحرصَ عليه ويفعله، فيُحبَّ النافع، ويُبْغضَ الضارَّ، فتكون محبته وكراهته موافقتين لمحبة الله ـ تعالى ـ وكراهته، وهذا من لوازم العبودية والمحبة، ومتى خرجَ عن ذلك أحبَّ ما يُسْخِطُ ربَّه، وكره ما يحبه، فنقصَتْ عبوديته بحسب ذلك»[1].

السبب الثاني ـ الهوى:

الهوى من ثمارِ الجهلِ، ومن نتاجِ فسادِ العلمِ ونقصِهِ، وهو عدوُّ العقلِ، وغشاوةُ الفَهْمِ، وبينه وبين العقلِ عداوةٌ منصوبةٌ أبدًا، فإذا لم يُجْعَل تحت سلطانِ العقلِ أفسدَ الدُّنيا والآخرة.

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «وينبغي أنْ يُعْلَمَ أنَّ الهَوَى وحْدَه لا يستقِلُّ بفَسَادِ السَّيِّئَاتِ إلَّا مع الجَهْلِ، وإلَّا فصاحبُ الهَوَى لو جَزَمَ بأنَّ ارتِكَابَ هَوَاهُ يَضُرُّه ولا بُدَّ ضَرَرًا راجِحًا، لانصرَفَتْ نفسُه عن طاعتِه له بالطَّبْع! فإنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ جعلَ في النَّفْسِ حُبًّا لِـمَا ينْفَعُهَا وبُغْضًا لِـمَا يَضُرُّهَا، فلا تفعلُ مع حُضُورِ عقْلِهَا

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٨٥٨ ـ ٨٦١) مع حذف.

ما تجزم بأنَّه يضُرُّهَا ضَرَرًا راجِحًا، ولهذا يُوصَفُ تـاركُ ذلـك بالعَقْـلِ والحِجَـى واللُّبِّ.

فالبَلَاءُ مُرَكَّبٌ من تزيينِ الشَّيْطَانِ وجَهْلِ النَّفْسِ، فإنَّه يُـزَيِّنُ لَهَـا السَّـيِّئَاتِ ويُرِيهَا أنَّهَا في صُوَرِ الـمَنَافِعِ واللَّذَّاتِ والطَّيِّبَاتِ، ويُغْفِلُهَا عن مُطَالَعَتِهَـا لـمَضَرَّتِهَا، فتُولَدُ من بينِ هذا التَّزْيِينِ وهذا الإغفالِ والإِنْسَاءِ لَهَا إرادةٌ وشـهْوَةٌ، ثـم يَمُـدُّهَا بأنواعِ التَّزيينِ، فلا يزالُ يَقْوَى حتى يصيرَ عزمًا جازمًا يقْتَرِنُ به الفِعْلُ، كَـمَا زَيَّـنَ للأَبَوَيْنِ الأكلَ من الشَّجَرَةِ، وأَغْفَلَهُمَا عن مُطَالَعَةِ مَضَرَّةِ المعصـيةِ، فـالتزيينُ هـو سبب إيثارِ الخيرِ والشَّرِّ»[1].

«وقدْ جعلَ الله ـ سبحانه ـ للحسناتِ والطاعاتِ آثارًا محبوبةً لذيذةً طيِّبَـةً، لذَّتُها فوقَ لذَّةِ المعصيةِ بأضعافٍ مضَاعَفَةٍ لا نسـبةَ لهـا إليهـا، وجعـل للسـيئاتِ والمعاصي آلامًـا وآثـارًا مكروهـةً وحـزازاتٍ تُـرْبِي عـلى لـذَّةِ تناوُلِهَـا بأضـعافٍ مضاعَفَة»[2].

ولذا قال الحسن: «ما ضربتُ ببـصري، ولا نطقـتُ بلسـاني، ولا بطشـتُ بيَدِي، ولا نهضتُ على قدمي، حتى أنظُر! أَعَلى طاعةٍ أو على معصيةٍ؟ فإنْ كانت طاعةً تقَدَّمْتُ، وإن كانت معصيةً تأَخَّرْتُ»[3].

وعن الجهـلِ والهوى، تتولَّدُ جملةٌ من الأحوالِ التي ذُكِرَت مُحَذَّرًا منهـا في القرآنِ والسُّنَّةِ، كالضَّلالِ، والغَيِّ، والغَمْرَةِ، والغَفْلَةِ، والنِّسـيانِ، ونحـو ذلـك،

---

(١) «شفاء العليل» (ص١٧١ ط دار الفكر).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٤٢٣).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (ص٧٦).

فكلُّهَا أحوالٌ مذمومةٌ يغذِّيها الجهلُ، ويَمُدُّها سلطانُ الهوى بمَدَدِه، فإذا غَلَبَتْ على النَّفْسِ، فهي حينئذٍ أضحوكةُ إبليسَ وسَلوَتُهُ وأُلْعُوبَتُه، يتلهَّى بها كما يصنعُ الصبيانُ بالكُرَةِ، ولا عاصمَ إلا الله.

ومن هنا تكاثرت النصوصُ والآثار وكلماتُ أئمَّةِ الهُدَى في ذمِّ الهوى.

قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾[الكهف: ٢٨].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ**﴾[طه: ١٥ ـ ١٦].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[القصص: ٥٠].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾[الجاثية: ٢٣].

فهذه هي حقيقةُ الهوى، وهذا حكمُه عندَ الله.

وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ مِمَّا أخشى عليكُم؛ شهواتِ الغَيِّ في بُطُونِكُم وفُرُوجِكُم، ومُضِلَّاتِ الهَوَى**»[1].

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٤٢٠) من حديث أبي بَرْزة الأسلمي، بسندٍ رجاله ثقات، إلَّا أنَّ الراوي عن أبي بَرْزَة علي بن الحكم ـ ومدار الحديث عليه ـ يُحتمل أنَّه لم يدركه، وصححه شيخُنَا الألباني في «صحيح الترغيب» (٥٢).

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**أفضلُ الجِهَادِ أنْ تُجَاهِدَ نفسَكَ وهواكَ في ذاتِ الله ـ عز وجل ـ**»[1].

وقال النُّعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ على المنبر: «إنَّ للشَّيْطَانِ مَصَالِيَ وفُخُوخًا، وإنَّ مَصَالِي الشيطانِ وفخوخَه: البَطَرُ بأَنْعُمِ الله، والفَخْرُ بعَطَاءِ الله، والكبرياءُ على عباد الله، واتِّبَاعُ الهَوَى في غير ذات الله»[2].

وقال ابن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ محذِّرًا من الزَّمَانِ الذي يستحكمُ فيه الهوى: «إنَّكُم في زمانٍ كثيرٌ فقهاؤه، قليلٌ خُطَبَاؤُه، قليلٌ سُؤَّالُهُ، كثيرٌ مُعْطُوهُ، العَمَلُ فيهِ قائدٌ للهَوَى، وسيأتي من بعدِكُم زمانٌ قليلٌ فُقَهَاؤُه، كثيرٌ خُطَبَاؤُه، كثيرٌ سُؤَّالُهُ، قليلٌ مُعْطُوهُ، الهَوَى فيهِ قائدٌ للعَمَلِ، اعلموا أنَّ حُسْنَ الهَدْيِ في آخرِ الزَّمَانِ خيرٌ من بعضِ العَمَلِ»[3].

وقال أبو حازم الأعرج: «قاتلْ هواكَ أشدَّ ممَّا تقاتلُ عدوَّك»[4].

فالهوى هو مَيْلُ الطَّبْعِ إلى ما يلائِمُه، و«اعلم أنَّ مُطْلَقَ الهَوَى يدْعُو إلى اللَّذَّةِ الحَاضِرَةِ من غيرِ فِكْرٍ في عاقِبة، ويَحُثُّ على نيلِ الشهواتِ عاجلًا وإنْ كانت سببًا للألَمِ والأذى في العاجلِ، ومَنْعِ لَذَّاتٍ في الآجِلِ، فَأَمَّا العاقلُ فإنَّه ينهى نفسَه عن لَذَّةٍ تُعْقِبُ أَلَـمًا، وشهوةٍ تُورِثُ نَدَمًا، وكَفَى بهذا القَدْرِ مَدْحًا للعقلِ، وذَمًّا للهَوَى.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٤٩)، وصححه بشواهده شيخُنا الألباني في «الصحيحة» (١٤٩٦).

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٥٣) وحسَّنه شيخنا الألباني ـ رحمه الله ـ.

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٩)، وحسَّنه شيخنا الألباني ـ رحمه الله ـ.

(٤) «حلية الأولياء» (٣/ ٢٣١).

أَلَا ترى أنَّ الطِّفْلَ يُؤْثِرُ ما يَهْوَى وإنْ أدَّاهُ إلى التَّلَف! فيَفْضُلُ العاقل عليه بمَنْع نفسِه من ذلك، وقد يقع التساوي بينَهُما في الـمَيْلِ بالهَوَى!

وبهذا القَدْرِ فُضِّلَ الآدمِيُّ على البَهَائِمِ، أعني مَلَكَةَ الإرادةِ، لأنَّ البهائمَ وَاقِفَةٌ مع طِبَاعِهَا لا نَظَرَ لها إلى عاقبةٍ، ولا فِكْرَ في مآلٍ، فهي تتناولُ ما يدعوها إليه الطبع من الغذاء إذا حضرَ، وتفعلُ ما تحتاجُ إليه من الرَّوْثِ والبَوْلِ أيَّ وقتٍ اتَّفَق، والآدميُّ يمتنعُ عن ذلك بقَهْرِ عَقْلِهِ لِطَبْعِه.

وإذا عَرَفَ العَاقِلُ أنَّ الهَوَى يصيرُ غالبًا، وجبَ عليه أن يرفعَ كلَّ حادثةٍ إلى حاكم العقلِ، فإنَّه سيُشِيرُ عليهِ بالنَّظَرِ في الـمَصَالحِ الآجِلَةِ، ويأمُرُه عندَ وُقُوعِ الشُّبْهَةِ باستعمالِ الأَحْوَطِ في كَفِّ الهَوَى، إلى أن يَتَيَقَّنَ السَّلامةَ من الشَّرِّ في العَاقِبَة»[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإنَّ الهَوَى يُعْمِي وَيُصِمُّ، وصاحبُ الهَوَى يقْبَلُ ما وَافَقَ هَوَاه بلا حُجَّةٍ تُوجِبُ صِدْقَه، ويَرُدُّ ما خالفَ هَوَاهُ بِلَا حُجَّةٍ تُوجِبُ رَدَّه»[2].

فنسألُ الله ـ تعالى ـ أن يوفِّقَنَا لمخالفةِ كلِّ هوىً على خلافِ مُرادِهِ ومحبوبِه، وأن يكتبَ لنا السَّلامةِ من حبائِلِ الأهواءِ الـمُضِلَّة.

قال حكيمُ بن أبجَر: سمعتُ ابن عيينةَ يتمثَّلُ:

إذا ما رأيتَ الـمَرْءَ يقْتَادُهُ الهَوَى ... فقد ثَكِلَتْهُ عندَ ذاكَ ثَوَاكِلُهْ

وقدْ أَشْمَتَ الأَعْدَاءَ جَهْلًا بِنَفْسِهِ ... وقَدْ وَجَدَتْ فيهِ مَقَالًا عَوَاذِلُهْ

(١) «ذم الهوى» (ص١٢ ـ ١٣).

(٢) «منهاج السُّنَّة النبوية» (٦/ ١٩٢).

ولنْ يَنْزِعَ النَّفْسَ اللَّحُوحَ عن الهَوَى   من النَّاسِ إلَّا وَافِرُ العَقْـلِ كامِلُـهْ[1]

السبب الثالث ـ النَّفْس:

قد سبقَ أنَّ العلمَ والعقْلَ عن الله ورسولِهِ هما الـمَنْجَاةُ، وأنَّ الجهـلَ والهـوى هما الـمَهْلَكَة، فإذا اتَّصَفَت النَّفْسُ بهذين الوصفَيْنِ، فخَلَـتْ مـن العلـمِ، وحـلَّ فيها الجَهْلُ، وصارَ الهوى فيها قائدًا للعملِ، فهي النَّفْسُ الأمَّـارةُ بالسُّـوء، التـي تُورِدُ صاحبها الموارِدَ.

وقد جاء في الحديث بيانُ وجوبِ المحافَظَةِ على العَقْلِ، وهـو محـلُّ العلـمِ والفَهْمِ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**استَحْيُوا منَ الله حـقَّ الـحَيَاءِ**»، قلنـا: يا رسولَ الله! إنَّا نَسْتَحْيِي والحمدُ لله. قال: «**ليس ذاك، ولكنَّ الاستحياءَ مـن الله حَقَّ الـحَيَاءِ: أنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، والبَطْنَ ومـا حَـوَى، ولْتَـذْكُر الـمَوْتَ والبِلَى، ومن أرادَ الآخرةَ تَرَكَ زينةَ الدُّنْيَا، فمَنْ فعل ذلكَ، فقد استَحْيَا من الله حَقَّ الـحَيَاءِ**»[2].

وما وَعَاه الرأسُ هو ما حواه من الحواسِّ، وأهمُّهَا السَّمْعُ والبَـصَرُ، وهمـا مَدَاخِلُ للعَقْلِ وجنودٌ للقلبِ، فإمَّا أن يأتِيَاهُ بمادَّةِ حياتِهِ إذا كـانَ السَّـمْعُ للخـيرِ، والعلمِ، والهُدَى، وكان البَصَرُ بَصَرَ اعتبارٍ واتِّعاظٍ وتفكُّرٍ، وإمَّا أن يُدْخِلَا إلى القَلْـبِ أضْدَادَ ذلك من مادَّةِ مَرَضِهِ وهلاكِهِ، وبهذا لا تكونُ للنَّفْسِ حركةٌ إلَّا إلى الـشرِّ، وما رُسِمَ لها بالجَهْلِ والهوى من اللَّذَّاتِ العاجلةِ الزائفة.

قال شيخُ الإسلام: «ويقال: النُّفُوسُ ثلاثةُ أنواعٍ، وهي:

---

(١) «حلية الأولياء»(٧/ ٢٧٦).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٨)، وحسَّنه شيخنا الألباني ـ رحمه الله ـ.

النَّفْسُ الأَمَّارَةُ بالسُّوءِ: التي يغلبُ عليها اتِّبَاعُ هَوَاهَا بِفِعْلِ الذُّنُوبِ والـمَعَاصِي.

والنَّفْسُ اللَّوَّامَةُ: وهي التي تُذْنِبُ وتَتُوبُ، فعَنْهَا خيرٌ وشرٌّ، لكنْ إذا فَعَلَتْ الشَّرَّ تابَت وأنَابَتْ، فتُسَمَّى (لَوَّامَةً) لأنَّهَا تَلُومُ صَاحِبَهَا على الذُّنُوبِ، ولأنَّهَا تَتَلَوَّمُ، أي: تَتَرَدَّدُ بينَ الخيرِ والشَّرِّ.

والنَّفْسُ الـمُطْمَئِنَّةُ: وهي التي تحبُّ الخيرَ والحَسَنَاتِ وتُرِيدُه، وتُبْغِضُ الشَّرَّ والسَّيِّئَاتِ وتكرهُ ذلك، وقدْ صارَ ذلك لَهَا خُلُقًا وعادةً ومَلَكَةً، فهذه صفاتٌ وأحوالٌ لذاتٍ واحدةٍ، وإلَّا فالنَّفْسُ التي لكلِّ إنسانٍ هي نفسٌ واحدةٌ»(١).

فالنَّفْسُ الأَمَّارةُ بالسُّوءِ، مع الجَهْلِ ووَسْوَاسِ العدُوِّ، هي التي ذكرها الله في كتابِهِ حكايةً عن امرأةِ العزيزِ: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

وهذه النَّفْسُ الأَمَّارَةُ بالسُّوءِ هي التي سِمَتُهَا الظُّلْمُ والجَهْلُ، وهي حالُ كلِّ نفسٍ قبلَ أن يغسِلَهَا الإيمانُ، وتَطْلُعَ عليها شمسُ الرِّسالةِ الـمُحَمَّدِيَّةِ، وتُشْرِقَ فيها أنوارُ الهِدَايَةِ الـمُصْطَفَوِيَّة، قال ـ تعالى ـ عن الإنسان: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[الأحزاب: ٧٢].

فَسُوءُ هذه النَّفْسِ متولِّدٌ من نِكَاحِ الظُّلْمِ والجَهْلِ الذي يتولَّد عنه الضَّلالُ الـمُبِينُ، فشفَا اللهُ النُّفوسَ المؤمنةَ من ظلمها بتزكيتها وتطهيرِهَا، وداواها من جهلها بتعليمِهَا ما لَمْ تكُن تعلَمُ، وأرسلَ بذلكَ خاتَمَ رُسُلِه، وسيِّدَ الأوَّلِينَ والآخِرينَ من خَلْقِهِ، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٩/ ٢٩٤).

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الجمعة: ٢].

قال ابنُ القيِّم ـ رحمه الله ـ:

«فإنَّ سائرَ أمراضِ القلبِ إنَّما تنشأُ من جانبِ النَّفْسِ، فالـمَوَادُّ الفاسدةُ كلُّهَا إليها تَنْصَبُّ، ثم تنبعثُ منها إلى الأعضاءِ، وأولُ ما تنالُ القلبَ، وقد كان رسول الله ﷺ يقولُ ـ في خطبة الحاجة ـ: «**الحمدُ لله، نستعينُه ونسْتَغْفِرُه، ونعوذُ بالله من شُرُورِ أنفُسِنَا وسيِّئَاتِ أعمالِنَا**»[(١)]»[(٢)].

وقال ـ رحمه الله ـ:

«وقدْ اتَّفَقَ السَّالِكُونَ إلى الله ـ على اختلاف طُرُقِهم، وتَبَايُنِ سُلُوكِهم ـ على أنَّ النَّفْسَ قاطعةٌ بينَ القلبِ وبينَ الوُصُولِ إلى الرَّبِّ، وأنَّه لا يُدْخَلُ عليهِ ـ سبحانه ـ ولا يُوصَلُ إليهِ إلا بعدَ تَرْكِهَا، وإِمَاتَتِهَا بمُخَالَفَتِهَا، والظَّفَرِ بها.

فإنَّ النَّاسَ على قِسْمَيْنِ: قِسْمٌ ظَفِرَتْ به نفسُهُ؛ فمَلَكَتْهُ وأَهْلَكَتْهُ، وصارَ طَوْعًا لها تحتَ أَوَامِرِهَا! وقِسْمٌ ظفروا بنفوسهم؛ فقَهَرُوها، فصَارَتْ طَوْعًا لهم، مُنْقَادَةً لأَوَامِرِهِم، كما قالَ بعضُ العارفين: انتهى سَفَرُ الطَّالِبِينَ إلى الظَّفَرِ بأنفُسِهِم، فمَنْ ظَفِرَ بنَفْسِهِ أَفْلَحَ وأَنْجَحَ، ومَنْ ظَفِرَتْ به نَفْسُهُ خَسِرَ وهَلَكَ.

قال ـ تعالى ـ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[النازعات: ٣٧ ـ ٤١].

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٩٢)، وسنده منقطع؛ أبو عبيدة لم يسمع أباه ابن مسعود، والحديث صحيح وله طرق، وفي مطبوعِ كتاب ابن القيِّم بعد «نستعينه»: «ونستهديه»، وهذه لم تثبت في الحديث.

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٢٤).

فالنَّفْسُ تدْعُو إلى الطُّغيانِ وإيثارِ الحياةِ الدُّنيا، والرَّبُّ ـ تعالى ـ يدْعُو العبدَ إلى خوفِه ونَهْيِ النَّفْسِ عن الهوى، والقلبُ بينَ الدَّاعِيَيْنِ، يَمِيلُ إلى هـذا الـدَّاعِي مَرَّةً وإلى هذا مَرَّةً، وهذا موضعُ المِحْنَةِ والابْتِلَاءِ»[1].

فاللهمَّ! أَظْفِرْنَا بنُفُوسِنَا، وثبِّتْنَا على هُدَاكَ حتى نلقَاك.

وإنِّي أدعو نفسي وإخواني، إلى تأمُّلِ هذا الفصلِ البديعِ من «فوائدِ» الإمامِ ابن القيِّمِ ـ رحمه الله ـ، فإنَّ فيهِ ـ إن شاء الله ـ شفاءً للمستسلمين الذين رَكَنُـوا إلى ضعفِهِم، واستحالَت التَّوْبَةُ عندهم أُمنِيَـةً لا يَخْطُـونَ شِـبْرًا واحـدًا إلى تحقيقِهَـا، معتذرينَ بكثرة الذنوب، مستثقِلِينَ النُّهُوضَ من بين رُكَامِهَـا، واهبِـينَ الشَّـيْطَانَ منهم ـ بالـمَجَّانِ ـ خَصْلةً وَدَّ لَوْ ظَفِرَ بها[2].

قال ـ رحمه الله ـ:

«ألقى الله ـ سبحانه ـ العَدَاوَةَ بينَ الشَّيْطَانِ وبينَ الـمَلَكِ، والعـداوةَ بـينَ العقلِ وبينَ الهَوَى، والعداوةَ بينَ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ وبينَ القلب، وابتلى العبـدَ بـذلك، وجَمَعَ له بينَ هؤلاءِ، وأَمَدَّ كلَّ حزبٍ بجُنُودٍ وأعوانٍ، فلا تـزالُ الحـربُ سِـجَالًا

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٢٥ ـ ١٢٦).

(٢) خرَّجَ ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٤٥) عن جعفر بن برقان، قال: قلت لرجل من أهـل البصرة: كيف لا يشتهي أحدُنا أنَّه لا يزالُ متبرِّكًا إلى ربِّهِ يستغفرُ من ذنبٍ، ثم يعود، ثم يستغفر، ثم يعود؟ قال: قد ذُكِرَ ذلك للحَسَنِ؛ فقال: «وَدَّ الشيطانُ لو ظَفِرَ منكُم بهذِه، فلا تَمَلُّوا من الاستغفارِ».

وأخرج أحمد في «الزهد» (١٦٠٩) عن سعيد بن إياس الجريري قال: قلت للحسن: يا أبا سعيد! الرَّجلُ يذنب ثمَّ يتوب، ثمَّ يذنب ثمَّ يتوب، ثمَّ يذنب ثمَّ يتوب، ثمَّ يذنب ثمَّ يتوب! حتى متى؟! قال: «ما أعلمُ هذا إلَّا من أخلاقِ المؤمنين».

ودُوَلًا بينَ الفريقين، إلى أنْ يستولي أحدُهُما على الآخَر، ويكـونُ الآخَـرُ مقْهُـورًا مَعَه.

فإذا كانت النَّوْبَةُ للقَلْبِ والعَقْلِ والـمَلَكِ، فهنالك السرور والنعيم واللذة، والبهجة والفرح وقرة العين، وطِيب الحياةِ وانـشراحُ الصـدر والفـوز بالغنـائمِ، وإذا كانت النَّوْبَةُ للنفسِ والهوى والشيطان، فهنالك الغُمُوم والهموم والأحزان، وأنواعُ الـمَكَارِهِ وضيقُ الصَّدْرِ وحَبْسُ الـمَلِك[1].

فما ظنُّك بمَلِكٍ استولى عليه عدوُّه، فأنزلَه عن سريرِ مُلْكِه، وأَسَرَه وحَبَسَـه، وحالَ بينَه وبينَ خزائِنِه وذَخَائِرِه وخَدَمِه، وصَيَّرَهَا له، ومـع هـذا! فـلا يتحـرَّكُ الـمَلِكُ لطَلَبِ ثأْرِهِ، ولا يستغيثُ بمَنْ يُغِيثُه، ولا يستنجدُ بِمَـنْ يُنْجِـدُه، وفـوقَ هذا الـمَلِكِ مَلِكٌ قَاهِرٌ لا يُقْهَرُ، وغَالِبٌ لا يُغْلَبُ، وعزيزٌ لا يُذَلُّ، فأرسلَ إليـه: إنْ استَنْصَرْتَنِي نَصَرْتُكَ، وإنْ استَغَثْتَ بي أَغَثْتُكَ، وإنْ الْـتَجَأْتَ إِلَيَّ أخذتُ بثَأْرِكَ، وإنْ هَرَبْتَ إِلَيَّ وأَوَيْتَ إِلَيَّ سَلَّطْتُكَ على عدُوِّكَ، وجعلتُه تحتَ أَسْرِكَ.

فإنْ قالَ هذا الـمَلِكُ الـمَأْسُورُ: قدْ شَدَّ عَدُوِّي وَثَاقِي، وأَحْكَـمَ رِبَـاطِي، واسْتَوْثَقَ منِّي بالقُيُود، ومَنَعَنِي من النُّهُوضِ إليكَ، والفِرَارِ إليكَ، والـمَسِيرِ إلى بابك، فإنْ أرسلتَ جُنْدًا من عندِكَ يَحُلُّ وَثَاقِي، ويَفُـكُّ قيـودي، ويخرِجُنِـي مـن حَبْسِهِ، أَمْكَنَنِي أنْ أُوَافِيَ بابَكَ، وإلَّا لَمْ يُمْكِنِّي مفارقةُ مَحْبَسِي ولا كسرُ قيودي.

فإنْ قالَ ذلك احتِجَاجًا على ذلك السُّلطانِ، ودَفْعًا لرِسَالَتِهِ، ورِضًى بِمَا هو فيهِ عندَ عَدُوِّهِ، خَلَّاهُ السُّلْطَانُ الأَعْظَمُ وحَالَه، وَوَلَّاهُ مَا تَوَلَّى.

وإنْ قالَ ذلكَ افتِقَارًا إليه، وإظهارًا لعَجْزِهِ وذُلِّهِ، وأنَّه أضعفُ وأعجَـزُ أنْ

---

(١) والـمُرادُ به هنا: القلب.

يسيرَ إليهِ بنَفْسِهِ، ويخرجَ من حَبْسِ عدُوِّهِ ويتَخَلَّصَ منه بحَوْلِـهِ وقُوَّتِـهِ، وأنَّ مِـنْ تَمَامِ نِعْمَةِ ذلكَ الـمَلِكِ عليهِ؛ كما أرسلَ إليهِ هـذه الرِّسَـالَةَ، أنْ يَمُـدَّهُ مِـنْ جُنْـدِهِ ومَمَالِيكِهِ بِمَنْ يُعِينُهُ على الخَلَاصِ، ويَكْسِرُ بابَ مَحْبَسِهِ، ويَفُكُّ قيودَه، فإنْ فعلَ بـه ذلكَ فقدْ أَتَمَّ إنعامَه عليهِ، وإنْ تَخَلَّى عنه فَلَمْ يَظْلِمْهُ، ولا مَنَعَه حَقًّـا هـو لـه، وأَنَّ حَمْدَهُ وحِكْمَتَه اقتضى منْعَه وتَخْلِيَتَه في مَحْبَسِه، ولا سِيَّما إذا عَلِمَ أنَّ الحَبْسَ حَبْسُـه، وأنَّ هذا العَدُوَّ الذي حَبَسَهُ مَمْلُوكٌ من مَمَالِيكِهِ، وعبدٌ مـن عَبيـدِه، ناصِـيَتُه بِيَـدِهِ، لا يتَصَرَّفُ إلا بإذنِـه ومشِيئَتِه، فهو غيرُ ملتَفِتٍ إليهِ، ولا خائفٍ منه، ولا معتقـدٍ أنَّ له شيئًا من الأمرِ، ولا بِيَدِهِ نَفْعٌ ولا ضَرٌّ، بل هو ناظرٌ إلى مالِكِه ومُتَـوَلِّي أمـرِه ومَنْ ناصِيَتُه بِيَدِه، قدْ أفرَدَه بالخَوْفِ والرَّجَاءِ، والتَّضَرُّعِ إليهِ والالتِجَاءِ، والرَّغْبَـةِ والرَّهْبَةِ.. فهُنَاكَ تأتيهِ جُيُوشُ النَّصْرِ والظَّفَرِ»(١).

فالحَمْلُ على النَّفْسِ لِزَمِّهَـا عن الـمَيْلِ إلى المعاصي فرضُ عينٍ لا خيارَ فيه، فإنَّ العَطَبَ وراءُ التَّفريطِ فيه، وينبغي لمن يُريدُ الإحسانَ إلى نفسِهِ أن يعلُوَ بِهِمَّتِهَا، ويَسوسَهَا بالعلمِ، ويحارِبَ هَوَاها بالعقْلِ النَّامِي على الهُدَى، والحِكْمَةِ التي فتَقَتْهَا لِبَانُ الكتابِ والسُّنَّة.

قال ابن حزمٍ ـ رحمه الله ـ:

«لا تَبْذُلْ نفسَك إلا فيما هو أعلى منها، ولـيس ذلـك إلا في ذاتِ الله ـ عـز وجل ـ، في دُعَاءٍ إلى حـقٍّ، وفي حمايـة الحَـرِيم، وفي دَفْـعِ هَـوَانٍ لم يوجِبْـه عليـك خالِقُكَ ـ تعالى ـ، وفي نَصْرِ مظلومٍ، وبَاذِلُ نفْسِهِ في عَرَضٍ دُنْيَا، كبـائعِ اليَـاقُوتِ بالحَصَى... العاقلُ لا يرى لنفسِه ثَمَنًا إلا الجَنَّة»(٢).

---

(١) «الفوائد» (ص٨٣ ـ ٨٤).

(٢) رسالة في «مداواة النفوس» (١/ ٣٣٨ ـ ضمن «رسائل ابن حزم»).

قال أبو عبيدة: فهذا هو الخُسْرَانُ والخَيْبَةُ لِـمَن بذلَ نفسَه في حلالِ الدُّنْيَا، فكيفَ بمن جعلَهَا مِطِيَّتَه إلى حرامِهَا، بَل: موبِقَاتِهَا؟! فهل يستطيعُ لسانٌ أن يعبِّرَ عن خسارتِه، أو يقدِرُ خاطرٌ على تصوُّرِ حسرتِه؟!

ومُيُولُ النَّفْسِ في ذاتِهَا ليست منكرة! فإنَّ الله ركَّبَ في كلِّ نفسٍ غريزَتَهـا وما تنجذبُ إليه ممَّا تشتهيه، مِن مُتَمَوَّلٍ، أو مركوبٍ، أو مأكولٍ، أو مشروبٍ، أو منكوحٍ، فإنَّ تعاطي الـمُباحَ من ذلك من كمالِ الخِلْقَةِ، ومن رَسْمِ الآدمِيَّةِ، لكـنَّ الشرَّ في قضاءِ الشهوةِ فيما لم يحلَّه الله، بل منعَ منه، فهذا هو العـدوانُ، وهـذا هـو الذي يثيرُ الشيطانُ كوامِنَ النَّفْسِ لارتكابِهِ، فالإنسانُ في عداوَةٍ مع نفسِهِ الأمَّارَةِ بالسُّوءِ أبدًا، وفي حربٍ مع شيطانِهِ طُرًّا.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ **وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٧]، فبيَّنَ الحلالَ، وذكرَ أنَّ تجاوُزَه إلى ما وراءَه عدوانٌ.

وقد سُئِلَ عُمَرُ عن قومٍ يشتهون المعاصي ولا يعملون بها، قـال: ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ** ﴾ [الحجرات: ٣][١].

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ في بيان بعضِ صُوَرِ العدوانِ طاعةً لإمرةِ النَّفْسِ:

«فالعُدْوانُ في حقِّ الله، كما إذا تعدَّى ما أباحَ اللهُ له مـن الـوَطْءِ الحـلال في الأزواجِ والـمَمْلوكاتِ إلى ما حُرِّمَ عليه من سِوَاهُمَا... وكذلك تعدِّي ما أُبيحَ له من زوجته وأَمَتِه إلى ما حُرِّمَ عليهِ منها، كوَطْئِهَا في حيْضِها أو نَفَاسِها، أو في غـيرِ مَوْضِعِ الحَرْثِ، أو في إحْرَامِ أحدِهِمَا أو صِيَامِهِ الوَاجِبِ، ونحوِ ذلك.

---

(١) «فتح الباري» (١/ ٥٤) لابن رجب.

أو أُبيحَ له نَظْرَةُ الخِطْبَةِ والسَّوْمِ[1]، والشَّهادَةِ والـمُعَامَلَةِ والـمُدَاوَاةِ، فأطلقَ عِنَانَ طَرْفِهِ في ميادينِ محَاسِنِ الـمَنْظُورِ، وأَسَامَ طَرْفَ نَاظِرِه في تلك الرياضِ والزُّهُور، فتَعَدَّى الـمُبَاحَ إلى القَدْرِ الـمَحظُور، وحَامَ حولَ الحِمَى الـمَحُوطِ الـمَحْجُورِ، فصارَ ذا بَصَرٍ حائرٍ، وقلبٍ عن مكانِهِ طائرٍ.

أرسلَ طَرْفَه رائدًا يأتيهِ بالخَبَر، فخَامَرَ عليهِ، وأقامَ في تلك الخيامِ، فبَعَثَ القَلْبَ في آثارِه، فلم يشعُرْ إلَّا وهو أَسيرٌ يَحْجِلُ في قُيُودِه بينَ تلكَ الخِيَامِ، فما أَقْلَعَتْ لَحَظَاتُ نَاظِرِهِ حتى تَشَحَّطَ بينَهُنَّ قتيلًا، وما بَرِحَتْ تَنُوشُهُ سُيوفُ تلكَ الجُفُونِ حتى جَنْدَلْتْهُ تجْدِيلًا، هذا خَطَرُ العُدْوَانِ، وما أَمَامَه أعظمُ وأخطَر، وهذا فَوْتُ الحِرْمَانِ، ومَا حُرِمَهُ مِنْ فَوَاتِ ثَوَابِ مَنْ غَضَّ طَرْفَه لله ـ عز وجل ـ أجلُّ وأكْبَر.

سافَرَ الطَّرْفُ في مَفَاوِزِ محَاسِنِ الـمَنْظُورِ إليهِ، فلَمْ يرْبَحْ إلَّا أذَى السَّفَر، وغَرَّرَ بنفسِه في ركوبِ تلكَ البَيْدَاء، وما عَرَفَ أنَّ راكِبَهَا على أعظمِ الخَطَر، يا لَهَا من سَفْرَةٍ لمْ يبْلُغْ الـمُسَافِرُ منها ما نَوَاه، ولم يَضَعْ فيها عن عاتِقِه عَصَاه، حتى قُطِعَ عليهِ فيها الطَّرِيق، وقَعَدَ له فيها الرَّصَدُ على كلِّ نَقْبٍ ومَضِيق، لا يستطيعُ الرُّجُوعَ إلى وَطَنِه والإيابِ، ولا له سبيلٌ إلى الـمُرورِ والذِّهابِ، يرى هجيرَ الهَاجِرَةِ من بعيدٍ فيظُنُّه بَرْدَ الشَّرَابِ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[النور: ٣٩]، وتيقَّنَ أنَّه كانَ مغرورًا بلَامِعِ السَّرَابِ.

تالله! ما استوَتْ هذهِ الذِّلَّةُ وتلك اللَّذَّةُ في القِيمَةِ فيشتريها بها العارفُ الخبيرُ، ولا تَقَارَبَا في الـمَنْفَعَةِ فيَتَحَيَّرَ بينَهُما البَصِير، ولكنْ على العيونِ غِشَاوَةٌ فلا تُفَرِّقُ

---

(١) هذا في حقِّ الإماء.

بينَ مَواطِنِ السَّلَامَةِ ومَوَاضِعِ العُثُورِ، والقُلُـوبُ تحـتَ أغْطِيَـةِ الغفَـلَاتِ رَاقِـدَةٌ فَـوْقَ فَـرْشِ الغُـرُورِ، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]»(١).

قال أبو عبيدة: وقد عَدَلَ ربُّنَا ـ وهو الحكمُ العَدْلُ ـ تعالى وتقدَّسَ ـ في قولِهِ: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[الشمس: ١ ـ ١٠].

فأقسمَ ـ تعالى ـ أَحَدَ عَشَرَ قَسَمًا، على أنَّ من زكَّـى نفسَـه وطهَّرَهَـا بـالعلمِ النَّافعِ والعملِ الصالح فهو المخصوصُ بالفلاحِ، وأنَّ من دَسَّاها وتركها وأهملها تنحدِرُ مع الشهوات والأهواء فهو الخائبُ الخاسرُ، وقد ركَّبَ الله فيهـا قابلِيَّتَهَـا للأمرَيْنِ، وجعلَ المِحْنَةَ والابـتلاءَ في سَـوْقِهَا إلى الأخـيرِ مـن السـبيلَيْن، وبـالله التوفيق.

السبب الرابع ـ الشيطان:

قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[فاطر: ٦]، وقال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[الكهف: ٥٠]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[البقرة: ١٦٨]، وقال: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦٨]، وقال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٦٨ ـ ٣٦٩).

إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفۡرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[النساء: ١١٧ ـ ١٢٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

ولا يرسِلُ الشيطانُ سهمًا إلى إنسانٍ إلَّا وهو يريدُ قلبَه! لكنَّ اللَّعِينَ أوتيَ جَلَدًا ونَفَسًا طويلًا للوصولِ إلى غايته في إغواء ابنِ آدم، ومساعيهِ عليه متنوِّعة، ومداخلُه عليه كثيرة، ومطامعُهُ منه لا تُحصى.

* * *

مطالبُ الشيطان من الإنسان:

وقد استنارت بصائرُ أهلِ العلمِ بهُدَى القرآن والسُّنَّةِ، فانفصلوا في تأمُّلِهم لمراتِبِ مطامِعِهِ، وفي استقراءِهِم لِدَرَكَاتِ شَقَاوَتِهِ، عن أنَّهَا تنحصرُ في ستٍّ، لا يكلُّ ولا يملُّ عن أن يبذُلَ كلَّ ما في وُسْعِهِ ليظفَرَ بأحدِهَا، ولا ينتقِلُ من أعلاها ـ عنده ـ إلى أدناها إلَّا عجزًا ويأسًا.

قال الإمام ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ معدِّدًا هذه الشُّرُورَ:

«**الشَّرُّ الأوَّل:** شرُّ الكفرِ والشِّرك ومعاداةِ الله ورسولِه، فإذا ظَفِرَ بذلك من ابنِ آدمَ بَرَدَ أَنِينُه، واستراحَ من تَعَبِه معه، وهو أوَّلُ ما يريدُ من العَبْدِ، فلا يزالُ به حتى ينالَه منه، فإذا نالَ ذلك، صَيَّرَه من جنده وعسكره، واستَنَابَه على أمثاله وأشكاله، فصارَ من دعاةِ إبليسَ ونُوَّابِه، فإذا يَئِسَ منه من ذلك، وكانَ ممَّنْ سَبَقَ له الإسلامُ في بَطْنِ أُمِّه، نَقَلَه إلى:

المرتبةِ الثَّانيةِ من الشَّرِّ: وهي البِدْعَةُ، وهي أَحَبُّ إليهِ من الفُسُوقِ والـمَعَاصِي؛ لأنَّ ضَرَرَهَا في نفسِ الدِّين، وهو ضَرَرٌ مُتَعَدٍّ، وهي ذنبٌ لا يُتَابُ منه، وهي مخالفةٌ لدعوةِ الرُّسُلِ، ودعـاءٌ إلى خـلافِ مـا جاؤوا به، وهي بابُ الكُفْرِ والشِّرْكِ، فإذا نالَ منه البِدْعَةَ وجَعَلَه من أهلِهَا، بَقِيَ ـ أيضًا ـ نائِبَه ودَاعِيًا من دُعَاتِه، فإنْ أَعْجَزَهُ من هذهِ المرتبةِ، وكانَ العبدُ مِمَّنْ سبقَتْ له من اللهِ موهبةُ السُّنَّةِ ومُعَادَاةُ أهلِ البِدَعِ والضَّلَالِ، نَقَلَه إلى:

المرتبة الثالثة من الشَّرِّ: وهي الكبائرُ على اختلافِ أنواعها، فهو أَشَدُّ حرْصًـا على أن يُوقِعَه فيها، ولا سيما إنْ كانَ عالِـمًا مَتْبُوعًا، فهو حريصٌ على ذلكَ، لِيُنَفِّـرَ النَّاسَ عنه، ثم يُشِيْعُ من ذنوبِه ومعاصِيه في النَّاس، ويسْتَنِيبُ منهم مـن يُشِـيعُهَا ويُذِيعُهَا تدَيُّنًا وتقَرُّبًا بزَعْمِـهِ إلى الله ـ تعـالى ـ! وهـو نائـبُ إبلـيسَ ولا يشـعرُ، فـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[النور: ١٩]، هذا إذا أَحبُّوا إشـاعتَهَا وإذاعتَهـا، فكيـف إذا تَوَلَّـوْا هُـم إشـاعتَهَا وإذاعتَهـا؟! لا نصيحةً منهم، ولكن طاعةً لإبليسَ ونيابَةً عنه، كـلُّ ذلـك لِيُنَفِّـرَ النَّـاسَ عنـه وعن الانتفاعِ به، وذنوبُ هذا، ولو بَلَغَتْ عَنَانَ السَّماءِ أهونُ عندَ الله من ذنـوبِ هؤلاءِ، فإنَّها ظُلْمٌ منهُ لنفسِه، إذا استغفرَ اللهَ وتـابَ إليـهِ قَبِـلَ اللهُ توبَتَـه، وبَـدَّلَ سَيِّئَاتِهِ حسَنَاتٍ، وأمَّا ذنوبُ أولئكَ فظُلْمٌ للمـؤمنينَ، وتَتَبُّـعٌ لعَـوْرَتِهم، وقَصْـدٌ لفضيحتهم، والله ـ سبحانه ـ بالمِرْصَادِ، لا تخفى عليه كَمَائِنُ الصُّدُورِ، ودَسَـائِسُ النُّفوسِ.

فإنْ عَجزَ الشَّيطَانُ عن هذه الـمَرْتَبَةِ، نقلَه إلى:

المرتبةِ الرابعة: وهي الصَّغَائِرُ التي إذا اجتمعت فرُبَّما أَهْلَكَتْ صَاحِبَهَا، كما قال النبيُّ ﷺ: «**إياكم ومحقرات الذنوب، فإنَّ مَثَلَ ذلك مَثَلُ قومٍ نَزَلُوا بفلَاةٍ مـن**

الأرضِ...» وذكرَ حديثًا معناهُ أنَّ كلَّ واحدٍ منهم جاءَ **بِعُودِ حَطَبٍ** حتى **أَوْقَدُوا نارًا عظيمةً، فطَبَخُوا** واشْتَوَوْا![1] ولا يزالُ يُسَهِّلُ عليهِ أمرَ الصَّغَائِرِ حتى يستهينَ بِهَا، فيكونُ صاحبُ الكبيرةِ الخائفُ منها أحسنَ حالًا منه!

فإن أَعْجَزَه العبدُ من هذه المرتبةِ، نَقَلَه إلى:

المرتبةِ الخامسة: وهي إشْغَالُه بالـمُبَاحَاتِ التي لا ثوابَ فيها ولا عقاب[2]،

---

(١) الحديث الذي أشارَ إليه ـ رحمه الله ـ هو ما أخرجه أحمد (١/ ٤٠٢) من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «**إيَّاكم ومُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فإنَّهن يجْتَمِعْنَ على الرجل حتى يُهْلِكْنَه**، وإنَّ رسولَ الله ﷺ ضربَ لهنَّ مَثَلًا: **كَمَثَلِ قومٍ نَزَلُوا أَرْضَ فلاةٍ، فحَضَرَ صَنِيعُ القَوْمِ، فجعل الرجل ينطلقُ فيجيئُ بالعُودِ، والرجل يجيئُ بالعودِ، حتى جَمَعُوا سَوَادًا، فأَجَّجُوا نارًا، وأَنْضَجُوا ما قَذفُوا فِيهَا**»، والحديثُ حسنٌ لغيره.

قال السِّندي في «حواشي مسند الإمام أحمد» (١/ ٦٤٧ ـ ط عوض الله): «قوله: (**ومُحَقَّرات الذنوب**) بفتح القاف المشدَّدة؛ أي: صغائرها، (**يُهْلِكْنَه**) إمَّا لأنَّ اعتيادها يؤدِّي إلى ارتكاب الكبائر، من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، فيكون الهلاك بالكبائر التي تؤدِّي إليها الصغائر، وإمَّا لأنَّ تكفير الصغائر عند اجتناب الكبائر جائزٌ لا واجب، كما ذكره كثيرٌ من أهل العلم، وإن كان ظاهرُ القرآن يقتضي خلافَه، فبيَّنَ الحديثُ أنَّهنَّ إذا كَثُرْنَ يُخاف عدم المغفرة، وإمَّا لأنَّ اعتيادها يؤدِّي إلى قلَّة المبالاة بها وهو يوجب الهلاك، وإمَّا لأنَّ الإصرار على الصغيرة كبيرة، وهو محمل الحديث، والأقرب أنّ الحديث يدلُّ على أنَّ الإصرار على نوع الصغيرةِ ـ أيضًا ـ كبيرة، وإن لم يصرَّ على صغيرةٍ واحدةٍ بعينها، وهذا هو ظاهر المثل المذكور، والاحتمالات الأُخَر لا توافقه كما لا يخفى. (**صنيعُ القوم**) فُسِّرَ في «النِّهاية» الصنيعُ بالطَّعام». اهـ

(٢) لأنَّ ما أباحَه الله لا يعاقب بدخول النَّار فاعلَه، لكن يُكره الإكثار منه، مخافةَ أن تجرَّ إلى المحرَّمة، أو تقسِّي القلب، أو تجرَّ بشغلٍ عن الطاعات، أو تخرج إلى الاعتناء بتحصيل الدُّنيا ونحو ذلك، ولا ينجو منها إلَّا من تجنَّب الشهوات، ومن عُجِّلت له طيِّباتُ =

بل عِقَابُهَا فَوَاتُ الثَّوَابِ الذي ضاعَ عليهِ باشتِغَالِهِ بِها.

فإنْ أَعْجَزَه العبدُ من هذه المرتبةِ، وكانَ حافظًا لوَقْتِه، شَحِيحًا بـه، يعلـمُ مِقْدَارَ أنفَاسِهِ وانْقِطَاعَهَا، وما يقابِلُها من النَّعِيمِ والعَذَابِ، نقَلَه إلى:

المرتبةِ السادسة: وهو أنْ يشغَلَه بالعَمَلِ الـمَفْضُولِ عَمَّا هو أفضلُ منه، ليُـزِيحَ عنه الفضيلةَ، ويَفُوتُهُ ثَوَابُ العَمَلِ الفَاضِلِ، فيَأْمُرُه بفعلِ الخيرِ الـمَفْضُولِ ويحُضُّـهُ عليهِ، ويُحَسِّنُهُ له إذا تَضَمَّنَ تَرْكَ ما هو أفضلُ وأعلى منه، وقَلَّ مَنْ يَتَنَبَّهُ لهـذا مـن النَّاسِ، فإنَّه إذا رأى فيه داعيًا قوِيًّا ومُحَرِّكًا إلى نوعٍ من الطَّاعَةِ، لا يَشُكُّ أنَّه طاعـةٌ وقُرْبَةٌ، فإنَّه لا يكادُ يقول: إنَّ هذا الدَّاعِي منَ الشَّيْطَان! فإنَّ الشَّيْطَانَ لا يأمُرُ بِخَـيْرٍ! ويرى أنَّ هذا خيرٌ، فيقول: هذا الدَّاعِي من الله، وهو معْذُورٌ، ولَمْ يَصِلْ عِلْمُهُ إلى أنَّ الشَّيْطَانَ يأمُرُ بسبعينَ بابًا من أبوابِ الخير! إمَّا ليَتَوَصَّلَ بِها إلى بابٍ واحدٍ من الشَّرِّ، وإمَّا ليُفَوِّتَ بِها خيرًا أعظمَ من تلك السَّبْعِينَ بابًا، وأَجَلَّ وأَفْضَلَ!

وهذا لا يُتَوَصَّلُ إلى معرفَتِهِ إلَّا بنُورٍ منَ الله يَقْذِفُهُ فِي قَلْبِ العَبْدِ، يكونُ سَبَبُه تجريدَ متابعةِ الرَّسُولِ، وشِدَّةَ عنايتِه بمراتبِ الأعمالِ عندَ الله وأَحَبِّهَا إليهِ، وأَرْضَاهَا له، وأَنْفَعِهَا للعبدِ، وأَعَمِّهَا نصيحةً لله ـ تعالى ـ ولِرَسُولِه ولكتابِه، ولعبادِه المؤمنين خاصَّتِهم وعامَّتِهم.

ولا يعرفُ هذا إلَّا مَنْ كان من وَرَثَةِ الرَّسُولِ ونُوَّابِهِ فِي الأُمَّةِ، وخُلَفَائِـهِ في الأرضِ، وأكثرُ الخَلْقِ محجوبونَ عن ذلك فلا يخْطُرُ بقُلُوبِهِم، والله ـ تعالى ـ يَمُـنُّ بِفَضْلِهِ على من يشاءُ مِنْ عِبَادِه.

= شهواتِ الدُّنيا اقتحمَ حجابَها، فدخلَ فيها، أعاذنا الله مـن ذلـك. اهـ قاله ابـن رسـلان الرملي في «شرح سنن أبي داود» (١٨/ ٣٣٨).

فإنْ أَعْجَزَه العَبْدُ من هذهِ المراتبِ السِّتِّ وأَعْيَا عليهِ، سَلَّطَ عليهِ حِزْبَه من الإِنْسِ والجِنِّ بأنواعِ الأذى... وَلَا يَفْتُرُ ولا يَنِي، فحينئذٍ يَلْبَسُ المؤمنُ لَأْمَةَ الحَرْبِ، ولا يَضَعُهَا عنهُ إلى الموتِ، ومتى وَضَعَهَا أُسِرَ أو أُصِيبَ، فلا يزالُ في جهادٍ حتى يَلْقَى الله»[1].

فهذه مطامعُ اللَّعِينِ من عِبَادِ الله، وَقَانَا الله شُرُورَه، مستعيذينَ بربِّنَا من مُضِلَّات الفِتَنِ ما ظهر منها وما بَطَن.

وله لتحقيقها وسائلُ ومكايدُ ومسالكُ، لا يركبُ في عادتِهِ الواحدَ منها منفردًا، وإنَّمَا يركبُهَا مُثَنَّاةً ومجموعةً، ليكونَ أبلغَ في الضَّرَرِ والنِّكَايَة، وأشدَّ في الإضلالِ والغِوَاية، فمنها:

١ ـ تزيينُ الباطلِ:

قال ـ تعالى ـ: ﴿ **وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ** ﴾[الأنفال: ٤٨]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ **قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾[الحجر: ٣٩].

فإذا وافقَ هذا التزيينُ جَهلًا في النَّفْسِ، وغفلةً، وهوًى، فما مُروقُ السَّهْمِ من الرَّمِيَّةِ بأسرعَ مِنْ مُروقِ صاحبِهَا إلى الباطِلِ.

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «ومن مكايده: أنَّه يَسْحَرُ العقلَ دائمًا حتى يَكِيدَه، ولا يَسْلَمُ من سحره إلا من شاء الله، فيُزَيِّنُ له الفعلَ الذي يضُرُّه، حتى يُخَيَّلَ إليهِ أنَّه من أنفعِ الأشياءِ له، ويُنَفِّرُه من الفعلِ الذي هو أنفعُ الأشياءِ له، حتى يُخَيَّلَ له أنَّه يَضُرُّه!

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٧٩٩ ـ ٨٠٢).

فلا إله إلا الله! كم فُتن بهذا السِّحر من إنسان! وكم حَالَ بـه بـين القلـبِ وبينَ الإسلامِ والإيمانِ والإحسان! وكم جمَّل الباطلَ وأبْرَزَه في صورةٍ مُسْتَحْسَـنَةٍ، وبَشَّعَ الحَقَّ وأخرجَه في صورةٍ مُسْتَهْجَنَةٍ! وكم بَهْرَج من الزُّيُوفِ على النَّاقِـدِين، وكم رَوَّجَ من الزَّغَلِ على العارفين!»[1].

قال أبو حامد الغزالي: «اعلم أنَّ الشيطانَ مسَلَّطٌ على كلِّ ناظرٍ[2]، ومشـغوفٌ بتلبيسِ الحقِّ وتغطِيَتِـهِ، ومصرٌّ على الوفـاءِ بقولِـه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، والتَّحَذُّرُ منه شديدٌ، ولا يتيَسَّرُ إلَّا لِـمَن هو في محلِّ استثنائِه حيث قـال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[ص: ٨٣]، جعَلنـا الله وإيَّـاك مـنهم، فعليـك أنْ تأخذَ في نَظَرِكَ من الشَّيطَانِ ووَسْوَاسِهِ حَذَرَك.

فإنْ قلتَ: كيفَ لي به مع ما أنا عليهِ من الضَّعْفِ؟ ومع مـا هـو عليـه مـن التَّسَلُّطِ والتَّمَكُّنِ؟ حتى أنَّه ليَجْرِي من ابن آدمَ مجْرَى الدَّمِ!

فاعلَم أنَّ العَقْلَ حزبٌ من أحزابِ الله ـ تعالى ذكرُه ـ، وجندٌ مـن جنـودِه، ما أنعم به عليكَ إلَّا لتستعينَ به على أعدائِه، ووجهُ الاستعانةِ أنْ تتفقَّدَ بنورِ العَقْـلِ وسراجِه الزَّاهِرِ مداخلَ الشَّيْطَانِ في النَّظَرِ، وتعلمَ أنَّ حِصْنَ النَّظَرِ والدَّلِيلِ مـا لم ينْثَلِم رُكْنٌ من أركانِه؛ لَمْ يَجِدْ الشيطانُ مَدْخَلًا، فإنَّه لا يدخلُ إلَّا من الـثُّلَمِ، فـإذا أبصَرْتَ الثُّلَمَ بنورِ العَقْلِ وسَدَدْتَهَا وأَحْكَمْتَ معَاقِلَهَا، انصرفَ الشـيطانُ خائبًـا خاسرًا، واهتديتَ إلى الحَقِّ، ونلتَ بمعرفة الحَقِّ درجةَ القُرْبِ من ربِّ العالمين»[3].

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٩٣ ـ ١٩٤).

(٢) الـمُراد: نظرُ العقل والقلب والفِكرِ، لا نظر العين.

(٣) «محك النظر» (ص٢٤٥).

٢ ـ دخولُه على النَّفْسِ من بابِ محبوباتِهَا:

فإنَّه يصوِّرُ للنَّفْسِ التي يعلمُ منها الـمَيْلَ إلى أمرٍ، أنَّها تجدُه في معصيةِ الله، وأنَّ طاعةَ الله تُبْعِدُهَا عنه، وتحرمُهَا منه، فدَيْدَنُ اللَّعِينِ التخييلُ بأنَّ المعصيةَ جسرٌ إلى اللَّذَّةِ والسَّعادَةِ، وأنَّ الطَّاعةَ قنطَرَةٌ إلى الشَّقَاءِ.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ﴾[القصص: ٥٧] فهذه ظنونُهُم التي هي من وحيِهِ، والحقيقةُ التي تكذِّبُ هذا الظَّنَّ الشيطانِيَّ ماثلةٌ قائمةٌ أمامَهُم حينَ نُطْقِهِم بهذا الكلامِ: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[القصص: ٥٧].

قال ابن عاشور: «فحَسِبُوا أنَّ الإسلامَ مُفْضٍ إلى اعتداءِ العَرَبِ عليهِم، ظنًّا بأنَّ حُرْمَتَهُم بينَ العَرَبِ مَزِيَّةٌ ونِعْمَةٌ أَسْدَاهَا إليهِم قبائلُ العَرَبِ!»[1].

فهذا من جِهَةِ التنفيرِ عن الخيرِ بتصويرِ عاقبته شرًّا، وأمَّا من جهةِ استغلالِ محبوبِ النَّفْسِ، فكالذي جرى على الأَبَوَيْنِ ـ عليهما السَّلام ـ.

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «... وهذا بابُ كيدِه الأعظم الذي يدخل منه على ابن آدم؛ فإنه يجري منه مجرى الدم، حتى يصَادِقَ نفسَه ويخَالِطَها، ويسألها عما تحبه وتُؤْثِرُه، فإذا عرفه استعان بها على العبد، ودخل عليه من هذا البابِ.

وكذلك علَّم إخوانه وأولياءه من الإنس، إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضًا؛ أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوَوْنه، فإنه باب لا يُخْذَلُ عن حاجته من دخل منه، ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدودٌ، وهو عن طريق مقصده مصدود.

---

(١) «التحرير والتنوير» (٢٠/ ١٥٠).

فشَامَّ[1] عدوُّ الله الأبوين، فأحسَّ منهما إيناسًا وركونًا إلى الخلد في تلك الدار في النعيم المقيم، فعلم أنَّه لا يدخل عليهما من غير هذا الباب، فقَاسَمَهُمَا بالله إنَّه لهما لمن الناصحين، وقال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾[الأعراف: ٢٠].

وكان عبد الله بن عباس يقرؤها (مَلِكَيْن) ـ بكسر اللام ـ[2]، ويقول: «لم يطْمَعَا أن يكونا من الملائكة، ولكن استَشْرَفَا أنْ يكونَا ملِكَيْنِ، فأتاهما من جهة الـمُلْك»، ويدلُّ على هذه القراءةِ قولُه في الآية الأُخرى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[طه: ١٢٠]»[3].

فهذان أمرانِ شديدا الارتباطِ بالنَّفْسِ، واكتمالُ تأثيرِهمَا بمصاحبَةِ الجهلِ والهوى واضحٌ، فهذا أهمُّ ما على ابن آدمَ أن يحذَرَه ويتنبَّه له، ويعَضَّ بأضراسِهِ على كلِّ سببٍ ووسيلةٍ تخلِّصُه منه، وتعينُه عليه، وتُسنده في مواجهته.

مثالٌ عمليٌّ للمعاصي النَّاشئة عن كلِّ هذه الأسباب:

شهوة النِّساءِ المحرَّمة:

قال ابن المقفَّع:

«اعلَمْ أنَّ مِنْ أَوْقَعِ الأُمُورِ في الدِّينِ، وأَنْهَكِهَا للجَسَدِ، وأَتْلَفِهَا للمالِ، وأَقْتَلِهَا للعَقْلِ، وأَزْرَاهَا للمُرُوءَةِ، وأَسْرَعِهَا في ذهابِ الجَلَالَةِ والوَقَارِ: الغَرَامُ بالنِّسَاءِ.

---

(١) أي: شَمَّهُمَا؛ بمعنى: اقتربَ من نفوسِهما اقترابَ المستكشفِ المستطلعِ.

(٢) انظر: «معجم القراءات» (٣/ ٢٠) للخطيب.

(٣) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٩٦ ـ ١٩٧).

ومنَ البَلَاءِ على الـمُغْرَمِ بِهِنَّ أنَّه لا ينْفَكُّ يَأْجَمُ[1] ما عندَه، وتطْمَحُ عيناه إلى ما ليس عندَه منهنَّ.

إنَّمَا النِّسَاءُ أشباهٌ، وما يتَزَيَّنُ في العيونِ والقُلُوبِ من فَضْلِ مجْهُولَاتِهِنَّ على معْرُوفَاتِهِنَّ باطلٌ وخِدْعَة، بل كثيرٌ ممَّا يَرْغَبُ عنهُ الرَّاغِبُ ممَّا عندَه، أفضَلُ ممَّا تَتُوقُ إليهِ نفسُه منهنَّ، وإنَّمَا الـمُرْتَغِبُ عمَّا في رَحْلِهِ منهنَّ إلى ما في رِحَالِ النَّاسِ، كالـمُرْتَغِبِ عن طعامِ بيتِه إلى ما في بيوتِ النَّاسِ، بل النِّسَاءُ بالنِّسَاءِ أشبهُ من الطَّعَامِ بالطَّعَامِ، وما في رِحَالِ النَّاسِ من الأطعمةِ، أَشَدُّ تفاضُلًا وتفاوتًا مِمَّا في رِحَالِهِم من النِّسَاءِ.

ومن العَجَبِ أنَّ الرَّجُلَ الذي لا بأسَ بِلُبِّهِ ورأيِهِ، يرى المرأةَ من بعيدٍ متَلَفِّفَةً في ثيابِها، فيصوَّرُ لها في قلبِه الحُسْنُ والجَمَالُ، حتى تَعْلَقَ بها نفسُه من غيرِ رُؤْيَةٍ! ولا خَبَرِ مُخْبِرٍ! ثمَّ لعلَّه يهْجُمُ منها على أقبحِ القُبْحِ، وأَدَمِّ الدَّمَامَةِ، فلَا يَعِظُهُ ذلك! ولا يقطَعُه عن أمثالِهَا، ولا يزالُ مشْغُوفًا بما لم يَذُقْ، حتى لو لَمْ يَبْقَ في الأرضِ غيرُ امرأةٍ واحدةٍ، لَظَنَّ لها شأنًا غيرَ شأنِ ما ذاقَ، وهذا هو الحُمْقُ، والشَّقَاءُ، والسَّفَه»[2].

وهذا تحليلٌ عقليٌّ ونفسيٌّ صادقٌ، يشهدُ له كلُّ دليلٍ وفِكْرٍ صحيحٍ، وتؤيِّدُه كلُّ تجربةٍ وخبرة، ولكن هيهاتَ! فالاعتبارُ كرامةٌ من الله لا يكونُ إلَّا لمن صَدَقَ في سعيِهِ إلى مرضاةِ ربِّه، ويُحْرَمُهُ كلُّ من اتَّبَعَ خطُواتِ الشيطانِ، وجارى النَّفْسَ والهَوى.

---

(١) الأَجْمُ: هو الإعراضُ عن الشيءِ مع كراهته والنُّفْرَةِ منه. «لسان العرب» مادة (أجم).

(٢) «الأدب الصغير والأدب الكبير» (ص١١٧ ـ ١١٨).

قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ في «ذم الهوى»[1]:

«وبَلَغَنِي عن رجلٍ كان ببغداد يقال له صالح المؤذِّن، أَذَّنَ أربعين سنةً، وكان يُعرَف بالصَّلَاحِ، أنَّه صَعِدَ يومًا إلى المنارةِ ليُؤَذِّنَ، فرأى بنتَ رجلٍ نصرانيٍّ كان بيتُه إلى جانبِ المسجدِ، فافْتَتَنَ بها، فجاءَ فطَرَقَ البابَ، فقالت: مَنْ؟ فقال: أنا صالحُ المُؤَذِّن! ففَتَحت له، فلمَّا دَخَلَ ضَمَّهَا إليهِ!

فقالت: أنتُم أصحابُ الأماناتِ! فَما هذه الخِيَانَة؟! فقال: إنْ وافَقْتِنِي على ما أريدُ وإلا قتلتُك، فقالت: لا، إلا أن تَتْرُكَ دينَك! فقال: أنَا بريءٌ من الإسلامِ ومِمَّا جاءَ به محمَّدٌ!! ثمَّ دَنَا إليها.

فقالت: إنَّما قلتَ هذه لتقضيَ غَرَضَكَ ثمَّ تعودُ إلى دينك، فكُلْ من لَحْمِ الخنزيرِ، فأَكَلَ! قالت: فاشربْ الخمرَ، فشَرِبَ!

فلمَّا دَبَّ الشَّرابُ فيهِ دَنَا إليها، فدخَلَت بيتًا وأغلَقَت البابَ، وقالت: اصعَدْ إلى السَّطْحِ، حتى إذا جاءَ أبي زوَّجَنِي مِنَك!

فصَعَدَ فسَقَطَ فماتَ!

فخَرَجَتْ فلَفَّتْهُ في مِسْحٍ، فجاءَ أبوها، فقَصَّت عليهِ القِصَّةَ، فأخْرَجَه في اللَّيْلِ فرَمَاهُ في السِّكَّةِ، فظَهَرَ حديثُه، فرُمِيَ في مَزْبَلَة!».

ولا نقول إلَّا: إنَّا لله وإنَّا إليهِ راجعونَ! اللهمَّ! يا مقلِّبَ القلوبِ! ثبِّت قلوبَنَا على دينِكَ.

فماذا تَراهُ كان فاعلًا لو ظَفِرَ بها؟ إلَّا ما يفعلُهُ كلُّ من مَلَكَ بُضْعًا مُباحًا! فهل رامَ أمرًا يستحقُّ بيعَ الجَنَّةِ ـ بحُورِهَا وأنهارِهَا ونعيمِهَا ـ لأجلِهِ؟! ويستبدِلَها

---

(١) (ص٤٥٩ ـ ٤٦٠).

بجهنَّم التي وقودُهَا النَّاس والحجارة!

فمتى يعصي العبدُ إذن؟!

من المعلومِ بالاستقراءِ، أنَّ المعصيةَ تقعُ في لحظةٍ من الغفلةِ، فإذا كان الإنسانُ جاهلًا، فقد انطفأَ المصباحُ الذي يُضيءُ له الطَّريق، وإمَّا أن يكونَ ذلك لعدمِ العلمِ بالكلِّيَّةِ، أو لنسيانِ المعلومِ، وهي حالُ الغفلةِ.

فإذا كان كذلك، فإنَّه لا قائدَ للنَّفْسِ إلَّا الهوى، وهي تميلُ معه بالجِبِلَّةِ والطَّبْعِ، ويتولَّى الشيطانُ التحريكَ والتحريضَ والتزيين، فينعقدُ نوَّار المعصية عند ذلك، ولا عاصمَ من الله إلا من رحم.

والنَّجاةُ في علمٍ يرتفعُ به الجَهْلُ، ويُحْكَمُ به الهوى، ويُعْرَفُ به النَّافعُ من الضَّارِّ، وفي استعانةٍ بالله وذكرٍ له يُحْرِزُ العبدُ به نفسَه من الشيطان.

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «ومن علاماتِ صِحَّةِ القلب: أنْ لا يفْتُرَ عن ذكر ربِّه، ولا يسأمَ من خدمته، ولا يأنسَ بغيره؛ إلا بمن يَدُلُّهُ عليه، ويُذكِّره به، ويذاكره بهذا الأمر»[1].

لـمَّا قاتلَ عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ الخوارجَ وهم من شرِّ من وَطِئَ الحصا عصيانًا وعُتُوًّا وافتراءً على الله، جعل يمشي بين قتلاهم ويقول: «بؤسًا لكم! لقد ضَرَّكُم من غَرَّكُم. فقالوا: يا أميرَ المؤمنين! ومن غَرَّهُم؟ قال: الشيطان، وأنْفُسٌ بالسُّوءِ أمَّارَة، غَرَّتْهُم بالأمانيِّ، وزَيَّنَتْ لهم المعاصي، ونَبَّأَتْهُم أنَّهُم ظاهرون»[2].

وسيأتي مزيدُ بيانٍ لذلك ـ إن شاء الله ـ.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٢٠).

(٢) «البداية والنهاية» (٧/ ٣٢٠).

والشاهدُ أنَّ الشيطانَ لا يعملُ وحدَه، بل إذا انفردَ بالعداوةِ، مع تحقُّقِ العبد بالعلمِ والإيمانِ، والاحترازِ منه بالإخلاصِ والذِّكْرِ والقرآن، فإنَّه لا يتجاوَزُ ما وُصِفَ به في قول الحقِّ ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[النساء: ٧٦].

وذلك لأنَّ وسوسته عند المؤمن لا شيء، وقد فرحَ النبيُّ ﷺ فرحًا عظيمًا عندما اشتكى إليه بعضُ صحابَتِهِ ما يجدُه من الوسواس، مع أنَّ الـمُشْتكِي كان يظنُّ نفسَه على خطرٍ عظيمٍ حدَّ الهلاك![1]

وأخرج مسلم (١٣٣) من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: سُئل النبيُّ ﷺ عن الوسوسة، قال: «**تلك محض الإيمان**».

وبرقم (١٣٢) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء ناسٌ من أصحاب النبيِّ ﷺ فسألوه: إنَّا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدَنا أن يتكلَّم به، قال: «**وقد وجَدْتُموه**»؟ قالوا: نعم، قال: «**ذاك صريحُ الإيمان**».

فقد روى أحمد في «المسند»[2] عن عبد الله بن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله! إنِّي أحدِّث نفسي بالشيءِ، لأَنْ أَخِرَّ من السماءِ أحبُّ إليَّ من أنْ أتكلمَ به! قال: فقال النبيُّ ﷺ: «**الله أكبر! الله أكبر! الله أكبر! الحمد لله الذي ردَّ كيدَه إلى الوسوسة**».

وسبب الفرح بذلك، هو أنَّ النبيَّ ﷺ علمَ أنَّه لـمَّا لَمْ يقدِرْ منهم على المعاصي الظاهرةِ على اللِّسانِ والجوارح، ارتدَّ خائبًا وانحسَرَ كيدُه في الوسوسة التي يوشِكُ أن يُذهِبَها الذِّكْرُ والقرآنُ، فلا يبقى له سلطانٌ على مؤمنٍ.

---

(١) انظر: لفتةً حسنةً في «خبايا النُّفوس.. أسئلة وكشف» (ص١٥ ـ ٢٧) لعبد العزيز الحربي.

(٢) (١/ ٢٣٥)، وسنده صحيح.

ولأنَّ «استعظام هذا وشدَّة الخوف منه من النُّطق به، فضلًا عن اعتقاده، إنَّما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالًا محقَّقًا، وانتفت عنه الرِّيبة والشكوك الباطلة.

وقيل: معناه: إنَّ الشيطان إنَّما يوسوس لمن أيس من إغوائه، فينكِّد عليه بالوسوسة لعجزه عن إغوائه، بخلاف الكافر، فإنَّه يأتيه كيف شاء»[1].

ورحم الله أبا حازم الأعرج القائل: «وما إبليس؟! لقد عُصِيَ فما ضرَّ، ولقد أُطِيعَ فما نَفَع»[2].

الجزاء من جنس العمل:

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «ومن المعلومِ بما أَرَانَا الله من آياتِه في الآفاقِ وفي أنفسنا، وبما شهد به في كتابه؛ أنَّ المعاصي سببُ المصائبِ، فسيِّئَاتُ المصائِبِ والجزاءُ هي من سيِّئات الأعمالِ، وأنَّ الطَّاعةَ سببُ النِّعمةِ، فإحسانُ العبدِ العملَ سببٌ لإحسانِ الله»[3].

وقال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «وقد دَلَّ العقلُ، والنَّقْلُ، والفِطْرَةُ، وتجاربُ الأمم على اختلاف أجناسها ومِلَلِهَا ونِحَلِهَا، على أنَّ التقرُّب إلى ربِّ العالمين وطلب مرضاته، والبرَّ والإحسان إلى خلقه، من أعظم الأسباب الجالبة لكل خيرٍ، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكلِّ شرٍّ، فما استُجْلِبَت نِعَمُ الله واسْتُدْفِعَتْ نِقْمَةُ الله، بمثل طاعته والتقرب إليه والإحسان إلى خلقه.

---

(١) «شرح سنن أبي داود» (١٩/ ٣٧٢) لابن رسلان الرملي.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٩٩).

(٣) «الاستقامة» (٢/ ٢٣٤).

وقد رتَّبَ الله ـ سبحانه ـ حصولَ الخيراتِ في الدُّنْيَا والآخرةِ وحصولَ السرور في الدُّنْيَا والآخرةِ في كتابه على الأعمال، ترتيبَ الجَزَاءِ على الشَّرط، والمعلولَ على العِلَّةِ، والـمُسَبَّبَ على السَّبب، **وهذا في القرآن يزيد على ألفِ موضعٍ!** فتارةً يرتِّبُ الحُكْمَ الخَبَرِيَّ الكَوْنِيَّ والأَمْرَ الشرعيَّ على الوَصْفِ المناسب له، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿**فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ**﴾[الأعراف: ١٦٦]، وقوله: ﴿**فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ**﴾[الزخرف: ٥٥]، وقوله: ﴿**وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا**﴾[المائدة: ٣٨]»[١].

وقال ـ رحمه الله ـ: «ولذلك كان الجزاء مماثلًا للعمل من جنسه في الخير والشر، فمن ستر مسلمًا ستره الله، ومن يَسَّر على معسر يَسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن نَفَّس عن مؤمن كربة من كُرَب الدنيا نَفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن أقالَ نادمًا أقالَه الله عَثْرَته يوم القيامة، ومن تَتَبَّعَ عَوْرة أخيه تتبع الله عورته، ومن ضارَّ مسلماَ ضارَّ الله به، ومن شاقَّ شاقَّ الله عليه، ومن خَذَل مسلمًا في موضع يجب نُصْرَته فيه خَذَله الله في موضع يجب نصرته فيه، ومن سَمَّعَ سَمَّعَ الله به، والراحمون يرحمهم الرحمن، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء، ومن أنفق أُنفق عليه، ومن أَوْعَى أُوعِيَ عليه[٢]، ومن عفا عن حقه عفا الله له عن حقه، ومن تجاوز تجاوز الله عنه، ومن استقصى استقصى الله عليه، فهذا شرع الله وقَدَرُه، ووَحْيُه وثوابُه وعقابُه، كله قائمٌ بهذا الأصل»[٣].

---

(١) «الجواب الكافي» (ص٣٠ ـ ٣١).

(٢) (أَوْعَى) أي: حفظ وجمع، والمعنى: لا تشحَّ بالجمع والحفظ، فيشحَّ عليك. انظر: «مطالع الأنوار» (٦/ ٢٧٧).

(٣) «إعلام الموقعين» (٢/ ٣٣٠ ـ ٣٣٣ بتحقيقي)، وانظر فيه تخريجَ الدَّليلِ لكلِّ عبارةٍ من=

وقال ـ رحمه الله ـ: «وقد جعل اللهُ ـ سبحانه ـ أعمال البَرِّ والفاجر مقتضياتٍ لآثارها في هذا العالَم اقتضاءً لا بد منه، فجعل منعَ الإحسان والزكاة والصدقة سببًا لمنع الغَيْث من السماء، والقحطِ والجَدْبِ، وجعَلَ ظلْمَ المساكين، والبخسَ في المكاييل والموازين، وتعدِّي القَوِيِّ على الضعيف سببًا لجَوْر الملوك والولاة الذين لا يَرحمون إن اسْتُرْحِموا، ولا يَعْطِفُون إن استُعطِفُوا، وهم في الحقيقة أعمالُ الرعايا ظهرت في صور وُلاتهم، فإنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ بحكمته وعدله يُظهِرُ للناس أعمالَهم في قوالِب وصورٍ تناسبها، فتارةً بقحط وجدب، وتارة بعدوٍّ، وتارةً بولاة جائرين، وتارةً بأمراضٍ عامة، وتارةً بهُموم وآلام وغموم تحضُرها نفوسُهم لا ينفكُّونَ عنها، وتارةً بمنع بركات السماء والأرض عنهم، وتارةً بتسليط الشياطين عليهم تَؤُزُّهم إلى أسباب العذاب أزًّا، لِتَحِقَّ عليهم الكلمة، وليصيرَ كل منهم إلى ما خُلِقَ له.

والعاقل يُسَيِّر بصيرته بين أقطار العالَم، فيُشاهدُه، وينظر مواقعَ عدل الله وحكمته، وحينئذ يَتَبَيَّنُ له أنَّ الرُّسُلَ وأتباعَهُم خاصةً على سبيل النجاة، وسائر الخلق على سبيل الهلاك سائرون، وإلى دار البَوار صائرون، واللهُ بالغُ أمرِه، لا مُعَقِّبَ لحكمه، ولا رادَ لأمره.. وبالله التوفيق»[1].

قال الفضيل بن عياض: «أصلحَ ما أكونُ أفقرَ ما أكون، وإنِّي لأعصي اللهَ، فأعرفُ ذلك في خُلُقِ حِماري وخَادِمي»[2].

= هذه العبارات، فإنَّ معظمها ألفاظٌ لأحاديث نبويَّة.

(١) «زاد المعاد» (٤/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤).

(٢) «حلية الأولياء» (٨/ ١٠٩).

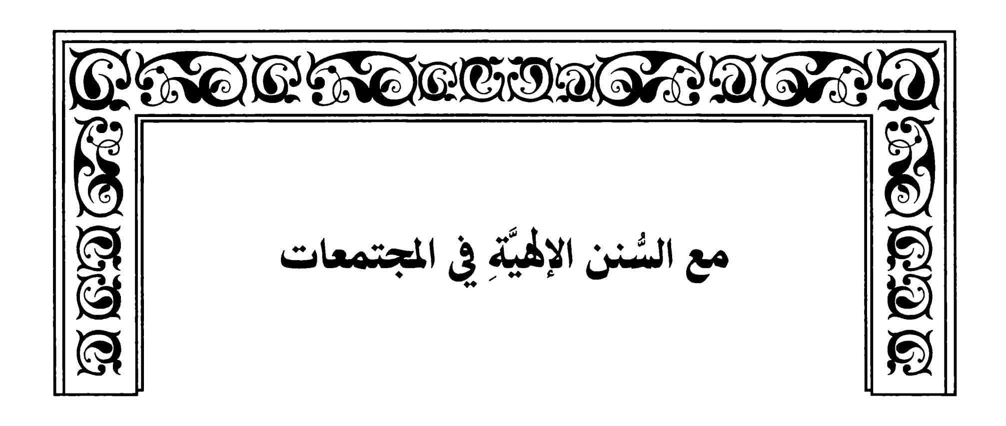
ماذا نخسر بالانحراف؟

إذا ضُيِّعت الاستقامة؛ فللَّه سُنن، وقد قصَّ علينا قَصَصًا، بل قد أنزل ـ سبحانه وتعالى ـ إلينا أحسن القَصص، وأرادها أن تكون مثالًا ومعيارًا وميزانًا نردُّ الأمور إليها، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١]؛ لأنَّ علم الله يشمل الماضي والواقع والمستقبل، فكلُّ ما نحتاجه ضرب الله لنا الأمثال له، وما من أمة من الأمم السابقة إلا وقعت في معصية، وضيَّعت ما يحبُّه الله من استقامتها على أمره ومُراده.

وقلَّة الاعتبار مشكلة، وعدم الاتِّعاظ يوقعُ الأمَّة في أزمةٍ كبيرة، وهذا هو الحاصل، لقد كان عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول: «مِنْ أَكْبَرِ الذَّنْبِ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ لأَخِيهِ: اتَّقِ اللهَ! فَيَقُولُ: عَلَيْكَ بِنَفْسِكَ»[١].

* * *

(١) أخرجه الدِّينوري في «المجالسة» (٢٦١٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ١٠٣) رقم (٨٢٤٦)، وسنده صحيح.



مع السُّنن الإلهيَّةِ في المجتمعات

لقد ورد لفظ (سُنَّة) مُضافًا إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ في القرآن الكريمِ خيرِ الكلامِ مرارًا، وورد ذكرُه مفردًا ومجموعًا كذلك، ومعظمُ ما ورد هذا اللفظ في التعبير عنه هو بيانُ العادةِ المألوفةِ والمثالِ المسلوكِ في معاملةِ الله ـ عز وجلَّ ـ للأممِ والشُّعوبِ في حالِ الطَّاعةِ والمعصية، والإقبالِ على شرعِه والإدبارِ عنه، وتوقيرِ رُسُلِهِ أو مخالفتهم وإهانتهم.

وهذا البيانُ جاء في كتاب الله ـ تعالى ـ شافيًا كافيًا، ينتفعُ به ذوو القلوبِ السَّليمةِ، وقد تكرَّر التذكيرُ بسُنَّةِ الله ـ تعالى ـ في الأمم والشُّعوبِ على نحوٍ يقطعُ العُذر، ويشيِّدُ بُنيانَ الحُجَّةِ الربَّانيَّةِ قائمًا في النُّفوسِ أتمَّ قيامٍ وأَمْتَنَه.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[آل عمران: ١٣٧ ـ ١٣٨].

وقال: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[النساء: ٢٦].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾[الأنفال: ٣٨].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝١١ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾[الحجر: ١٠ ـ ١٣].

وقال: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٧٦ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾[الإسراء: ٧٦ ـ ٧٧].

وقال: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ۝٦١ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[الأحزاب: ٦٠ ـ ٦٢].

وقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤٢ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[فاطر: ٤٢ ـ ٤٣].

وقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٨٣ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾[غافر: ٨٣ ـ ٨٥].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٢٢ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[الفتح: ٢٢ ـ ٢٣].

وغير ذلك ممَّا وردَ في ذات المعنى لكن لم يُصرَّح فيه بلفظ السُّنَّةِ، وإنَّما صُرِّحَ فيه بالإرشاد إلى الاعتبار بالحوادث السابقة، وقصص الماضين، والتنبيه على أسباب خَراب الدِّيار وتشتُّت الجماعات، والإشارة إلى أسباب التمكين، والنَّصر، والغَلَبَةِ، والهزيمةِ، والذُّلِّ، ونحو ذلك.

فمن ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾[طه: ١٢٧ ـ ١٢٩].

وقولـه: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾[السجدة: ٢٦].

وقولـه: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥ ـ ١٠٩].

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ۗ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ

وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾[الروم: ٨ـ ١٠].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ۝٣٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴾[ق: ٣٦ـ ٣٧].

فهذه جُملةٌ من سننه ـ تبارك وتعالى ـ في النَّاس، شعوبًا وأفرادًا، بالنسبةِ إلى موقفهم من الوحي الـمُبارك المنزَّل، وبيانٌ لما قد يحُلُّ بهم بناءً على ذلك الموقف إيجابًا أو سلْبًا، لهم أو عليهم.

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ بعد أن سردَ جُملةً من هذه السُّنَن الواردةِ في القرآن:

«وهذه السُّنَنُ كلُّها سُنَنٌ تتعلَّقُ بدينِه، وأمْرِه ونهْيِه، ووعْدِه ووَعِيدِه، وليست هي السُّنَنُ المتعلِّقَةُ بالأمورِ الطَّبيعِيَّةِ كسُنَّتِهِ في الشَّمسِ والقَمَرِ والكواكبِ وغيرِ ذلك من العاداتِ، فإنَّ هذه السُّنَّةَ ينقُضُها إذا شاءَ بما شاءَه من الحِكَمِ»(١).

ويقول العلَّامة محمَّد رشيد رضا: «إنَّ إرشادَ الله إيَّانَا إلى أنَّ له في خلقِه سُنَنًا يوجِب علينا أنْ نجعلَ هذه السُّنَنَ عِلْمًا من العلومِ الـمُدَوَّنَةِ، لنَسْتَدِيمَ ما فيها من الهِدَايةِ والموعظةِ على أكملِ وجهٍ، **فيجبُ على الأمَّةِ في مجموعها أنْ يكونَ فيهَا قومٌ يُبيِّنُونَ لَهَا سُنَنَ الله في خَلْقِه**، كما فعلُوا في غيرِ هذا العِلْمِ من العلومِ والفنونِ التي أرشدَ إليهَا القرآنُ بالإجمالِ، وقد بيَّنَهَا العلماءُ بالتَّفصِيلِ عمَلًا بإرشادِه،

---

(١) «جامع الرسائل» (١/ ٥٢ ـ ط محمَّد رشاد سالم).

كالتوحيدِ والأصولِ والفقهِ، والعلمُ بسُنَنِ الله ـ تعالى ـ من أهمِّ العلومِ وأنفعِهَا»[1].

وقال شيخ الإسلامِ ابنُ تيميَّة: «ومن هذا البابِ صارت قَصَصُ المتقدِّمينَ عبرةً لنا، ولولا القياسُ واطِّرَادُ فعْلِهِ وسُنَّتِهِ لمْ يَصِحَّ الاعتبارُ بها، والاعتبارُ إنَّما يكونُ إذا كانَ حكمُ الشيءِ حكمَ نظيرِه، كالأمثالِ المضروبةِ في القرآنِ، وهي كثيرةٌ»[2].

حتى قال الإمام البيهقيُّ ـ رحمه الله ـ: «لا توجدُ حادِثةٌ لم يحدُثْ مثلَهَا من قبلُ»[3].

وقال ابن الأثير: «إنَّه لا يحدثُ أمرٌ؛ إلَّا تقَدَّمَ هو أو نظِيرُه»[4].

وممَّا ينبغي أن يُعلم أنَّ الشرَّ والخير باقيان، ويتدافعان، وَفق سنَّةٍ لله ـ عز وجل ـ لا تتخلف، يدركها أصحابُ البصيرة، ويستحيل في حقِّهم انتظار النَّصر في وقت الهزيمة، والعكس، وإيَّاك أنْ تظنَّ أنَّ خيرًا أو شرًّا يحصل في الكون ولم يكن له سلفٌ، فالذي يختلفُ هو الأسماء والوسائل فحسب، ويستدعي هذا بيانَ خصائص (السُّنن)، فأقولُ وبالله ـ سبحانه وتعالى ـ أصولُ وأجولُ:

---

(١) «تفسير المنار» (٤/ ١١٤).

(٢) «جامع الرسائل» (١/ ٥٥).

(٣) «الإعلان بالتوبيخ» (ص٣٣)، وإن قامت القرائن على عدم حدوثها، فلم يفصِّل فيها النبي ﷺ، كقوله: «**لا يصلِّينَّ أحدُكم العصر إلَّا في بني قريظة**»، فلم يبيِّن لنا الصَّوابَ من صنيع الفرقتين: التي صلَّت العصرَ بعد فواتِ وقتِهَا في بني قريظة، والتي صلَّت العصر في وقتها في غير بني قريظة، فانظر التفصيل في «شرحي على الورقات» (ص٦٦١ ـ ٦٦٥).

(٤) «الكامل في التاريخ» (١/ ٨).

من خصائص السُّنن الإلهيَّة[1]:

١ ـ **الربَّانيَّة**: فهـي لله ومن الله وحـدَه لا شريكَ له، خلقًا وإيجادًا، وتقديرًا وتدبيرًا، وابتداءً وعاقبةً، ليس لأحدٍ أن يُجرِيَها ولا أن يخرج عنها أصلًا، ولهذا جاء في كتاب الله إضافتها إلى الله، فقال في أكثر من موضعٍ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾، وأمَّا إضافتها إلى غير الله ـ أحيانًا ـ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فهو باعتبار تعلُّقها بهم وجريانها عليهم، قال ابن عاشور: «وإضافتُها إلى الأوَّلين باعتبارِ تعَلُّقِهَا بهم، وإنَّما هي سُنَّةُ الله فيهِم... والإضافةُ لأَدْنَى مُلَابَسَةٍ»[2].

٢ ـ **العمومُ والشُّمول**: تتميَّزُ هـذه السُّنَنُ بالعمومِ والشمولِ؛ فهي تنطبق على النَّاس جميعًا، دونَ تمييزٍ أو استثناء، وبلا محاباة، فالجزاءُ فيها من جنس العمل، والنَّتائجُ بمقدِّمَاتِهـا، والـمُسَبَّبُ بالسَّبَبِ، والمشروطُ بالشَّرْطِ، بغضِّ النَّظَـرِ عن الدِّينِ، والجنس، واللَّون، والأصلِ، فالكلُّ في هذا الميزان سواءٌ، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[النساء: ١٢٣]، و(مَنْ) اسمٌ موصولٌ دالٌّ على استغراقِ كلِّ ما يدخلُ في معناه، فأيُّما مجتمعٍ عصى أو انحرفَ أو ضلَّ، لَقِيَ جزاءَ ذلك، ولو كانَ أطهرَ الأمم! قال القرطبيُّ: «وقال الجمهور: لفظُ الآيـةِ عـامٌّ، والكافـرُ والمؤمنُ مُجَازَى بعمَلِه السُّوءَ، فأمَّا مجازاةُ الكافرِ فالنَّار؛ لأنَّ كفره أَوْبَقَه، وأمَّا المؤمنُ فبِنكَبَاتِ الدُّنيا»[3].

---

(١) انظر: «السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم» (ص١٨ وما بعدها) لتوفيـق بـن أحمد الغلبزوري.

(٢) «التحرير والتنوير» (١٤/ ٢٥).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٩٦).

٣ ـ **الثَّبات والاستمرار**: أيْ أنَّها لا تتغيَّر، ولا تتبدَّل، ولا تتحوَّل، فكلُّ ذلك منفيٌّ عنها كما جاء في الآيات، ومعنى تبديلها: تغيُّرُ مقتضاها في حقِّ من استحقَّ جريانَها عليه، فلنْ تصبحَ عاقبةُ الموحِّدِ الصَّابرِ الخذلان، ولن تكونَ عاقبةُ المشركِ الكافرِ الظَّالمِ النَّصرَ، وأمَّا معنى تحويلها: أنْ يجري حكمُهَا على غير مستحقِّهَا ويُعافى من ذلك من قامَ به سببُ وقوعِهَا عليه، فلا يكونُ شيءٌ من ذلك[1]، وهي تجري على الآخِرين كما جَرَتْ على الأوَّلِين، وتعملُ في عصر سُفُنِ الفَضَاءِ عملَها في عصرِ سفينةِ الصحراء[2].

٤ ـ **الاطِّراد**: أيْ التَّكرارُ والتَّتَابُعُ على نَهْجٍ واحدٍ وطريقةٍ واحدةٍ لا تختلفُ ولا تتَخَلَّفُ؛ كلَّما وُجِدَت الأسبابُ، وتوفَّرَت الشُّروطُ، وانتفت الموانعُ، ولولا الاطِّرادُ لم يصحَّ الاعتبارُ، والاطِّرادُ دليلٌ على أنَّ «من مقْتَضَى حكمةِ الله ـ تعالى ـ أنْ يقضيَ في الأمورِ المتماثلةِ بقضاءٍ متَماثِلٍ لا بقَضَاءٍ مُخَالِفٍ، فإذا كان قد نصرَ المؤمنين لأنَّهم مؤمنون، كان هذا موجِبًا لنصرِهِم حيثُ وُجِدَ هذا الوصفُ، بخلافِ ما إذا عَصَوْا ونَقَضُوا إيمانَهُم»[3].

فعلينا إذا أردنا أن نفهم جيِّدًا موضوعَ آثار الذُّنوب والمعاصي، أن نستحضر في أذهاننا هذه الخصائص، لا سيما في الكلام على قضيَّة التغيير الآتية.

من سُنن الله الكونيَّة: (سُنَّةُ التغيير):

في كتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ آيتان؛ خاسرٌ من لم يجعلهما نُصْبَ عينيه في

---

(١) انظر: «جامع الرسائل» (١/ ٥٥) لابن تيميَّة.

(٢) هي الجَمَل.

(٣) «جامع الرسائل» (١/ ٥٤) لابن تيميَّة.

هذا الزَّمان خاصَّة، وإن كان الـمُعرِضُ عن كتاب الله في كلِّ مكانٍ أو زمانٍ خاسرٌ، لكن ثمَّة بعض المفاهيم التي يكون العلم بها والعمل بها وفقه حقيقتها هو واجبَ الوقت.

الأمَّة الإسلاميَّة اليوم ذليلة، لكنَّها ذلَّت بعد قرونٍ من العزَّة.

والأمَّة الإسلاميَّة اليوم ضعيفة، لكنَّها ضعُفت بعد قرونٍ من القوَّة.

والأمَّة الإسلاميَّة اليوم متفرِّقة، لكنَّها تفرَّقت بعد قرونٍ من الاجتماع.

وهكذا، فكلُّ نقيصةٍ ترغبُ الأمَّة الإسلاميَّة اليوم في التخلُّص منها، كانت مُبرَّأةً منها فيما مضى، وهي ترغبُ في العودة إلى العزِّ والمجد، يوم أنْ أظهر الله دين الإسلام على الدِّين كلِّه، وأكمل للمسلمين الدِّين حتى حسدهم أهلُ المِلَلُ وشعوب الأرض.

فما الذي جرى لنخسر ذلك؟ وكيف كان ما كان من الانتكاسة؟

قال ـ تعالى ـ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾[الأنفال: ٥٣]؛ هذه الآية الأولى.

وفيها بيانُ أنَّ النِّعَمَ يرفعها الله عن عباده عقوبةً ومقتًا لهم على تغيُّر نفوسهم بالكفر والشِّرك والعصيان والابتداع والميل إلى الشُّرور والآثام، ويحرِمُ ـ تعالى ـ الشُّعوبَ والأفراد من الرَّغد وطِيب العيش بذنبٍ يرتكبونه، وهذا يصدِّقه قوله ـ تعالى ـ: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[الروم: ٤١]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[الشورى: ٣٠]، وغير ذلك من النصوص التي في هذا المعنى.

والآية الثانية قولـه ـ تعالى ـ[١]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[الرَّعد: ١١]، فهذه أعمُّ في معناهـا من الأولى؛ لأنَّ الآيـة الأولى خاصَّةٌ في رفـع النِّعمة، وهـذه عامَّةٌ في أنَّ كلَّ تغييرٍ في الحالِ لا يكون إلا مشروطًا بتغيُّر النَّفس، سواءً كان ذلك إلى الشرِّ أو إلى الخير، فالله لا يقضي بشيءٍ من ذلك عبثًا، ولا بمحض المشيئة، بل لا يكون ذلك إلَّا على ما يقتضيه عدلـه وحكمتـه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ﴾ [النساء: ٤٠].

قال العلَّامة محمَّد الأمين الشنقيطي ــ رحمـه الله ـ: «وقولـه في هـذه الآيـة الكريمة: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ﴾ يَصْدُقُ بأن يكون التغيير من بعضِهم؛ كما وقع يوم أحد بتغيير الرُّماةِ ما بأنفُسِهم، فعمَّت البَلِيَّةُ الجميعَ، وقد سئل ﷺ: أنهلـك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثُرَ الـخَبَث**»[٢]، والله ـ تعالى ـ أعلم»[٣].

وقال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «فأخبر الله ـ تعالى ـ أنَّه لا يغيِّر نعمتَـه التـي أنعـمَ بها على أحدٍ حتى يكون هو الذي يغيِّر ما بنفسِه، فيغيِّر طاعةَ الله بمعصـيتِه، وشـكرَه بكفرِه، وأسبابَ رضاه بأسبابِ سَخَطِه، فإذا غَيَّرَ غُيِّرَ عليهِ، جزاءً وِفَاقًا، وما ربُّـك بظلَّامٍ للعبيد، فإن غيَّرَ المعصيةَ بالطَّاعةِ غَيَّرَ الله عليـهِ العقوبـةَ بالعافيـةِ، والـذُّلَّ بالعِزِّ»[٤].

---

(١) ذكرتُ تفصيلًا في شرحها ودلالاتها في كتابي «ضوابط الإصلاح»، والله الموفِّق.

(٢) متفقٌ عليه، من حديث أمِّ المؤمنين زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ .

(٣) «أضواء البيان» (٣/ ١١٥).

(٤) «الجواب الكافي» (ص١٨٠).

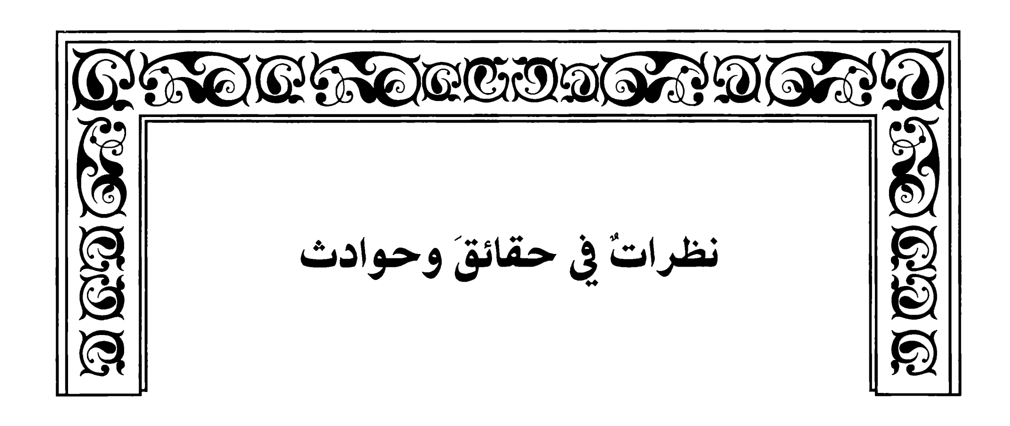
قال ابن عطيَّة: «ومعنى هذه الآيةِ الإخبارُ بأنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ إذا أنعمَ على قومٍ نعمةً، فإنَّه بلُطْفِهِ ورحمته لا يبدأ بتغييرها وتكديرها حتى يجيءَ ذلكَ منهُم، بأنْ يغيِّروا حالَهم التي تُرَادُ وتَحْسُنُ منهم، فإذا فعلوا ذلك وتلبَّسُوا بالتَّكَسُّبِ للمعاصي أو الكفر الذي يوجب عقابهم؛ غيَّرَ الله نعمتَه عليهم بنِقْمَتِهِ منهم، ومثالُ هذا: نعمةُ الله على قريشٍ بمحمَّد ﷺ، فكَفَرُوا وغَيَّروا ما كان يجبُ أن يكونوا عليهِ، فغَيَّرَ اللهُ تلكَ النِّعْمَةَ بأنْ نَقَلَهَا إلى غيرِهِم من الأنصارِ، وأَحَلَّ بِهِم عقوبَتَه»[1].

وهذه السُّنَّةُ الإلهيَّةُ قائمةٌ وجاريةٌ على الجميع، ولا تُحَابي أحدًا، كما هي مُعْلَنَةٌ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾[الإسراء: ٨].

فتأمَّل كيفَ جَعَلَ عَوْدَهُ ـ تعالى ـ إلى ما يسوؤهُم من العذابِ مشروطًا ومُسَبَّبًا عن عودتهم إلى المعصية، هذا مع قوله ـ سبحانه ـ قبلها: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾[الإسراء: ٧].

* * *

(١) «المحرر الوجيز» (٢/ ٦٢٠).



نظراتٌ في حقائقَ وحوادث

*** حكاية سبأ:**

انظر معي إلى هذا التطبيق العمليِّ، ولنأخذ أمَّةً من الأمم، ذكر ربنا قصتها، فيقول ـ سبحانه ـ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾[سبأ: ١٥ ـ ١٧].

(سبأ): اسم مكان أو اسم تلك الأمَّة، وهما استعمالان صحيحان لهذا الاسم[(١)].

---

(١) وكلا المعنيين واردٌ في كلام الله ـ تبارك وتعالى ـ، فمن استعمالها في الدَّلالة على المكان قوله ـ تعالى ـ في قصة هدهد سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[النمل: ٢٢]، ومن استعمالها للدَّلالة على الأمَّة قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾[سبأ: ١٥].

والأصل في (سبأ) أنَّه اسمُ رجلٍ، فقد أخرج الترمذي (٣٢٢٢) عن فروة بن مُسَيْك الغطفاني: أنَّ رجلًا سأل النبي ﷺ: ما سبأ؟ أرضٌ أم امرأة؟ قال: «**ليس بأرضٍ ولا امرأة، ولكنَّه رجلٌ وَلَدَ عشرةً من العرب، فتيامن منهم ستَّة، وتشاءم منهم أربعة، فأمَّا الذين** =

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ﴾، وهناك قراءة متواترة فيها: ﴿**لقد كان لسبإٍ في مساكنهم**﴾ بالجمع[1].

قال المدقِّقون من أهل التفسير: لماذا ذُكر مسكنهم ولم تُذكر بلادهم؟ ولم يقل: ديارهم؟ قالوا: لشدَّة الرخاء، كان لكل بيت في أرض سبأ جنتان، إحداهما عن يمينه والأخرى عن يساره، فالجِنان لا تخصُّ البلد فقط، وإنما تخصُّ سكن كل واحد منهم، وذلك لوفرة الرَّغد الذي كانوا فيه، فالتعبير بذكر المساكن أخصُّ وأبلغ.

فما المطلوب؟ المطلوب: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ كلوا من رزق الله وأدُّوا حقَّه ـ عز وجل ـ في هذه النعمة التي ترتعون فيها.

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ التنكير للتفخيم، قال المؤرِّخون ومن طوَّلَ في تفسيره: كانت المرأة إذا حملت زنبيلًا ـ أي: إناء ـ فوضعته على رأسها وطافت تحت جنة بيتها؛ امتلأ من جميع أصناف الفاكهة من غير قطفٍ بالبنان ولا هزٍّ للأغصان، من شدة الرَّغَدِ والنَّعيم، وكان الرجل الغريب إذا جاء إلى سبأ وكان على ملابسه القُمَّل؛ مات القُمَّل من عليل هواءِ تلك البلدة وطِيبِ جوِّها.

= تشاءموا: **فلخْم وجُذام وغسَّان وعاملة، وأمَّا الذين تيامنوا: فالأزد والأشعرون وحمْيَر ومَذْحِجُ وأنمارُ وكندة**». فقال رجلٌ: يا رسول الله! وما أنمار؟ قال: «**الذين منهم خَثْعَم وبَجِيلَة**».

قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ»، وقال شيخنا الألباني ـ رحمه الله ـ: **حسنٌ صحيحٌ**.

(١) وهي قراءة نافع وابن كثير وابن عامر وغيرهم، انظر: «معجم القراءات» (٧/ ٣٥٢).

﴿ فَأَعۡرَضُواْ ﴾ أي: عن الحقِّ وما هداهم الله إليه بوساطة أنبيائه ورسله الكرام، وكلمة ﴿ فَأَعۡرَضُواْ ﴾ تدلُّ بدلالة اللُّزوم على أنَّ الله ـ تعالى ـ أرسل الله لهم الرسل، وبيَّن لهم ما يحبُّ ويرضى، وما لا يحبُّ ولا يرضى، لكنَّ الله ـ تعالى ـ ذكر النَّتيجة ﴿ فَأَعۡرَضُواْ ﴾ لنستدلَّ بها على أنَّ الدَّعوة وإرسال الرسل تمَّت وحصلت، لكنَّ القرآن ليس من أساليبه التطويل والإطناب والإسهاب في كلِّ مقامٍ، وإن أوجز فللتنبيه، ليذهب الذِّهن كلَّ مذهبٍ في الإعراضِ؛ نوعًا وحجمًا وكيفيَّةً، معصيةً وابتداعًا، في العقائد والأخلاق ومكارم الأفعال، فهذا الإيجاز في الذُّروة من الفصاحة والبلاغة لأنَّ المقام مقام تنبيه على أثر الذنب في الأمة والشعب، فكان ذكر الإعراض الذي تسبَّب في هذا الأثر هو الظاهر البارز، لذا فلك أن تضع مكان العقوبة التي عوقبت بها سبأ أيَّة عقوبةٍ أخرى تراها بعينك لأيَّة أمَّةٍ مُعرضة في هذا الزمن وما سيأتي من الأزمنة، فهذه إذن سنَّة لا تتخلَّف إلى قيام السَّاعة ولا تتبدَّل.

هذا السِّياق القرآنيُّ الكريم يجعلنا ندرك أنَّ الإعراض عن الحقِّ في الأمم والشُّعوب ذنبٌ عامٌّ، وجريمةٌ عامَّةٌ، ثمرتها العقوبة العامَّة، وتلك العقوبة كانت على سبأ ﴿سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾ الذي ذكره الله وقصَّ علينا خبره، وهي على غير سبأ: يهود وأمريكان وروافض، وَفق قانون المدافعة الذي له ملامحه وخصائصه في القرآن، وقد تكون العقوبة آيات كونيَّة مثل: السُّيول والزلازل، فهذه العقوبات لها وسائل تتغير وَفق حكمة الله العظيمة.

﴿ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ ﴾ قال أهل العلم: العرب في تلك الحقبة كانوا يسمون السيول كلَّ سيلٍ باسمه، فـ ﴿سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ ﴾ إما أنه اسم لذاك السيل،

وإما أنه صفة لذاك السيل، و﴿ٱلْعَرِمِ﴾ السيل الشديد.

﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾

قالوا: انقلب حال أشجارهم إلى ما لا فائدة فيه، وقد قيل: إنَّ (**الخمط**) هو الأراكُ أو نوعٌ من الأراك له حَمْلٌ يُؤكل، وقيل: كلُّ شجرةٍ تغيَّرت ثمرتها إلى حالٍ لا يُرغب فيها ولا تُشتهى فهي (خمط)، كما ذهب إليه بعض أهل اللُّغة، و(**الأثْل**): هو الشجر الذي لا يُستفاد منه إلَّا الخشب، كما قاله جماعةٌ من أهل اللُّغة والتفسير ـ أيضًا ـ، وأمَّا (**السِّدر**): فهو الشجر المعروف عند أكثر النَّاس، وهو النَّبِق، وله ـ كما هو معلومٌ ـ ثمرةٌ صغيرةٌ شحيحةٌ لا تُشبع أحدًا، ومع ذلك فهذا السِّدر وصفه الله ـ عز وجلَّ ـ بقوله: ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾، ففيها تبعيضٌ وتقليلٌ.

إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون! ونعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر! فلِمَ يا ربَّنا فعلتَ هذا بهم؟ علِّمنا ـ لا إله إلَّا أنت ـ لعلَّنا ننتفعُ ونفقه! فهم أهل ثراء، والنعمة باديةٌ عليهم أفرادًا ومجموعات، سواء في جنان بيوتهم، أو طريقة معاشهم، أو نوع طعامهم، أو أشكال رَكوبهم، أو ميزانيَّات دولهم، أو الخيرات التي تُجلب إلى بلادهم.

قال ربُّنا ـ جلَّ في عُلاه ـ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ أي: ذلك الذي سمعتَ من فعلنا بهم، هو جزاؤنا لهم على كفرهم، فقوله ـ تعالى ـ ﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾ الباء فيه للسَّببيَّة والمقابلة، ولكي تكتمل دواعي الحذر والاتِّعاظ والاعتبار؛ جاء الفعل المضارع ﴿نُجَٰزِىٓ﴾ الذي يفيد الاستمراريَّة والدَّوام والتكرار، فحيثما وُجد هذا السبب، وُجدت الـمُجازاة بهذه العقوبة.

ثمَّ ذكر الله ـ تعالى ـ نعمةً أخرى كان منَّ بها عليهم، وفقدوها بسبب إجرامهم وإعراضهم، قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا

﴿فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾[سبأ: ١٨].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «يذكر ـ تعالى ـ ما كانوا فيه من الغِبْطة والنعمة، والعيش الهنيِّ الرغيد، والبلاد الرخيَّة، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة، بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إنَّ مسافرهم لا يحتاج إلى حَمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمرًا، ويَقيل في قرية ويبيت في أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم»(١).

فتأمَّل! هذه النِّعم الجليلة، والخيرَ العميم، والأمن التامَّ، وكفاية الحاجات، لكنَّهم بدلًا من أن يتفرَّغوا لشكرها وإلى الإقرار لله بإحسانه ومِنَنِه، سئموها وملُّوها وبَطِرُوها؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾[سبأ: ١٩].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وذلك أنهم بَطروا هذه النعمة، كما قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد، وأحبُّوا مفاوزَ ومَهَامِهَ يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحَرُور والمخاوف، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثَّائها وفومها وعدسها وبصلها، مع أنهم كانوا في عيش رغيد في مَنٍّ وسلوى، وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة»(٢).

فما الذي آلت إليه حالهم بعد أن أُخرجوا من ديارهم وخَرِبَت دورهم بما كسبت أيديهم؟

قال ـ تعالى ـ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ وهذه حقيقة؛ فإنَّ العربَ صارت

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٥٠٨ ـ ٥٠٩).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٥٠٩).

تقول عن كلِّ جماعةٍ تفرَّقت بعد اجتماعها، وذلَّت بعد عزِّها: (تفرَّقوا أيادي سبأ)، و(الأيادي) هنا بمعنى: النُّفوس؛ أي: تشتَّتت نفوسهم وتفرقوا كما تفرَّق سبأ بعد أن عاقبهم الله بالسَّيل.

﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ والمعنى العام: استحكمت العقوبة، وتحقَّق الهلاك، وبلغ بهم الغاية، نسأل الله السلامة والعافية.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «أي: إن في هذا الذي حلَّ بهؤلاء من النقمة والعذاب، وتبديل النعمة وتحويل العافية ـ عقوبةً على ما ارتكبوه من الكفر والآثام ـ لعبرةً وَدَلالةً لكل عبدٍ صبَّار على المصائبِ، شَكُورٍ على النِّعَمِ»(١).

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «وليسَ على العبدِ أَضَرَّ من مَلَلِهِ لِنِعَمِ الله، فإنَّه لا يراها نعمةً ولا يشكُرُه عليها، ولا يفرح بها، بل يسخَطُها ويشكوهَا، ويعُدُّهَا مصيبةً! هذا وهي من أعظم نعم الله عليهِ، فأكثرُ النَّاس أعداءُ نِعَمِ الله عليهِم، ولا يشعرون بفَتْحِ الله عليهِم نِعَمَه، وهم مجتهدون في دفعها وردِّهَا جَهْلًا وظلْمًا.

فكم سَعَتْ إلى أحدِهِم من نعمةٍ وهو ساعٍ في ردِّها بجُهْدِه! وكم وصَلَتْ إليهِ وهو ساعٍ في دفْعِهَا وزَوَالِهَا بظُلْمِهِ وجَهْلِه! قال ـ تعالى ـ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الأنفال: ٥٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد: ١١].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٥١٢).

فليس للنِّعَمِ أَعْدَى من نفسِ العَبْدِ، فهو مع عدُوِّهِ ظَهِيرٌ على نفسِه، فعدوُّه يطرحُ النَّارَ في نِعَمِهِ وهو ينفُخُ فيها! فهو الذي مَكَّنَهُ من طَرْحِ النَّارِ، ثمَّ أعانَه بالنَّفْخِ، فإذا اشتدَّ ضِرَامُهَا؛ استغاثَ من الحريقِ! وكان غايتُه معاتبةَ الأَقْدَارِ.

وعـاجِزُ الـرَّأْيِ مِضْـيَاعٌ لِفُرْصَـتِهِ حتَّى إذا فَاتَ أَمْرٌ عَاتَبَ القَـدَرا»[1]

* * *

*** حكايةُ قارون:**

قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[القصص: ٧٦ ـ ٧٧].

قال الله في وَصْفِ مفاتيحِ كُنُوزِ قارون: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ مع أنَّ النَّوْءَ هو التَّعبُ الشَّديد الذي يعتري الإنسان عندما يؤدِّي عملًا شاقًّا جدًّا، فهل تَنُوءُ المفاتيح؟! الجواب: لا؛ وإنَّما العُصبَةُ أولو القُوَّةِ هم الذين يَنوؤون بحَمْلِ المفاتيح!

وهذا ـ على الصَّحيح ـ من لطائفِ أساليب القرآن، وهو استعمالُ (التشبيهِ المقلوب)، بجَعْلِ الـمُشبَّه به مُشَبَّهًا، والعكسُ بالعكس.

كما أنَّكَ إذا أردْتَ بيانَ شَجاعةِ رجلٍ تقول: فلانٌ كالأسدِ، لكنَّه يكونُ

---

(١) «الفوائد» (ص٢٦٣ ـ ٢٦٤).

غايةً في المبالغةِ إذا قلتَ: الأسدُ كفُلانٍ! لأنَّك كأنَّما تجعلُ ذلك الشُّجاع هو معيارُ الشجاعةِ وأعلى من يتَّصفُ بها، وغايةُ الأسد أن يتشبَّه به، فلذلك يسمُّونه: تشبيهًا مقلوبًا.

وهنا جعلَ الفعلَ كأنَّه للمفاتيح لا للرِّجالِ، مع أنَّ الأصلَ العكس، فكأنَّ المفاتيح هي التي تحتملهم وتَقْوَى عليهم؛ كقولهم: (ناءَ به الحملُ) إذا مالَ به حالَ كونِهِ فوقَ طاقته.

وفي هذا كنايةٌ عن كثرةِ المفاتيح وثقلها وشدَّتها، وهو كنايةٌ عن كثرة الخزائن وتعدُّد الكنوز، وكلُّ ذلك كنايةٌ عن وفرة المال وكثرة العَرَض واتِّساع المـَتَاع، ولا ريب أنَّه كان على حالةٍ عظيمةٍ من الغنى والتَّرف والتنعُّم، وإن كان الكلام في تفاصيلها لا فائدةَ فيه ولا طائل تحته.

قال ابن عاشور: «وقد أَكْثَرَ القُصَّاصُ منْ وَصْفِ بَذْخَةِ قَارونَ وعَظَمَتِهِ ما ليس في القرآن، وما لهم به من برهان، وتَلَقَّفَه المـُفَسِّرون، حاشا ابنَ عطيَّة»[1].

وقد كان من صنيعِ قارون أنَّه بغى على قومه، وفي التعريفِ به بأنَّه من قوم موسى دون نسبته إلى عموم بني إسرائيل؛ إلماحٌ إلى أنَّ له بموسى ـ عليه السلام ـ اختصاصٌ وقرابة، وفي ذكر بغيه ـ مع غرابة بغي الإنسان على ذوي قرابته ـ تعريضٌ ببعضِ المشركين من قرابةِ النبيِّ ﷺ الذين آذوه وهم على الشِّرك، أفاده ابن عاشور[2].

فوعظه الصالحون من قومه بأن لا يفرح، والمراد بـ (الفرح): البَطَرُ والكبرياء،

---

(١) «التحرير والتنوير» (٢٠/ ١٧٥).

(٢) «التحرير والتنوير» (٢٠/ ١٧٦).

ووجَّهوه مشفقين عليه بأن يرعى نِعَمَ الله عليه، ويستعينَ بها على طاعته، وليستمتع بها مع ذلك في حدود المباح، ويؤدِّي بها حقوق أهله وأرحامه، ويقضي بها ما لا بدَّ منه، ويُحسن إلى النَّاس كما أحسن الله إليه، وذلك بترك البغي والفساد.

قال ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾[القصص: ٧٨ـ ٨١].

فلم يردَّ الفضلَ إلى الله، ولم يقرَّ لله بنعمته عليـه، وظـنَّ أنَّ مالـه يمنعـه أو يجعل له حظوةً عند الله، ونسي أنَّ الأموالَ والأولاد لا تقرِّب إلى الله زلفى، وغفـل عن مصارع الذين كانت نعمة الله عليهم أعظم، وما في أيديهم أضـخم، وكانـت عاقبتهم الهلاكَ لـمَّا سلكوا سبيلَ الجحود والبَطَر والكبرياء.

فكانت عاقبةُ قارونَ أن خسفَ الله به وبداره الأرض، فسُلِبَ النِّعمةَ وأُبْدِلَ بها عذابًا أليمًا، ونِقْمَةً مُقيمةً، ولعذابُ الآخرة أشدُّ وأخزى وأنكى.

وقد خرَّج اللالكائي عن حمَّاد بن زيد ـ رحمه الله ـ قال: «جعل رجلٌ لرجلٍ جُعْلًا على أنْ يعبُر نهرًا، قال: فعبرَ، حتى إذا قَرُبَ مـن الشـطِّ فقـال: عـبرتُ والله! فقال لـه الرجـل: قُل مـا شـاء الله، قـال: شـاءَ أو لَمْ يَشَـأْ! قـال: فأَخَذَتْـهُ الأرْضُ»(١).

---

(١) «شرح أصول الاعتقاد» (٤/ ٧٢٦) رقم (١٣٣٩).

وقال ابن قتيبة: «قال المدائنيُّ: ركب يزيد بن نهشل النهشليُّ بعيرًا، وقال: اللهمَّ! إنَّك قلتَ: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾[الزخرف: ١٣]، وإنِّي لبعيري هذا لمُقْرِنٌ!! فنَفَرَ به فطَرَحه! وبقيت رجلُه في الغَرْزِ، فجعلَ يضرب برأسِه كلَّ حَجَرٍ ومَدَرٍ حتى مات»(١).

لأنَّ معنى (مُقرنين): مُطيقين، والله يؤدِّبُنا عند استمتاعنا بنعمةِ المركوبِ بأن نردَّ الفضلَ إليه، لأنَّ تلك الدَّوابَّ لم يكن أحدٌ ليروِّضَها ويسخِّرَها للرُّكوب لولا أنَّ الله ـ تعالى ـ تفضَّلَ علينا بذلك، ومن زعمَ قُدْرَتَه على ترويضِ البعيرِ الضَّخمِ بذكائه وقُدْرَتِهِ، فليفسِّرْ لنفسِهِ عجزَه عن ترويضِ عَقْرَبٍ هي أصغَرُ من أُذُنِ البعير!

فنسأل الله العافيةَ من مثل هذه الظُّنون الخسيسةِ بربِّنَا ـ تبارك وتعالى ـ، ونعوذ بوجهه الكريمِ من مَصارِعِ الجاحدين والمتكبِّرين.

ويحمل جمعٌ من أهل العلمِ قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي، قَدْ أَعْجَبَتْهُ جُمَّتُهُ وَبُرْدَاهُ، إِذْ خُسِفَ بِهِ الأَرْضُ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الأَرْضِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**»(٢)، على قارون هذا.

وعلى كلِّ حالٍ، تظهرُ هنا النُّكْتَةُ في حديث سيِّد الاستغفار، وفيه: «**أَبُوءُ لكَ بنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فاغْفِرْ لِي، فإنَّه لا يغفرُ الذُّنوبَ إلا أنت**»(٣).

---

(١) «عيون الأخبار» (٢/ ٧١).

(٢) رواه مسلم (٢٠٨٨).

(٣) رواه البخاري (٦٣٠٦).

قال ابن أبي جمرة: «جمعَ ﷺ في هذا الحديثِ من بديعِ المعانِي وحَسَنِ الألفاظِ ما يحقُّ له أنَّه يسمَّى (سيِّدَ الاستغفار)؛ ففيه: إضافةُ النَّعْمَاءِ إلى مُوجِدِها، وإضافةُ الذَّنْبِ إلى نفسِه، ورغبتُه في المغفرة، واعترافُه بأنَّه لا يقدر أحدٌ على ذلك إلا هو»[1].

فنعوذ بالله من الجحد والكبرياء، ونسألُ الله أن يوفِّقنا إلى التوبة والاستغفار دومًا.

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «وقال بعضهم: رأيتُ في الطَّوَافِ رجُلًا بين يديه شاكريَّةٌ يمنعونَ النَّاسَ لأَجْلِه عن الطَّوَافِ، ثمَّ رأيتُه بعدَ ذلك بمُدَّةٍ على جسر بغداد يسألُ شيئًا! فتعَجَّبْتُ منه! فقال لي: إنِّي تكَبَّرْتُ في موْضِعٍ يتوَاضَعُ النَّاسُ فيه، فابتَلَانِي اللهُ بالذُّلِّ في موْضِعٍ يترَفَّعُ النَّاسُ فيه»[2].

يقول ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «وليحذَرْ كُلَّ الحَذَرِ من طغيان (أنا)، و(لي)، و(عندي)، فإنَّ هذه الألفاظَ الثلاثةَ ابتُلِيَ بها إبليسُ، وفرعون، وقارون؛ فـ ﴿**أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ**﴾ لإبليس، و﴿**لِي مُلۡكُ مِصۡرَ**﴾ لفرعون، و﴿**إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ**﴾ لقارون.

وأحسنُ ما وُضِعَت (أنا) في قول العبد: أنا العبدُ المذنب، المخطئ، المستغفر، المعترِف... ونحوه، و(لي) في قوله: لي الذَّنْبُ، ولي الجُرم، ولي المَسْكَنَةُ، ولي الفقرُ والذل، و(عندي) في قوله: «**اغْفِرْ لي جِدِّي وَهَزْلِي، وخَطَئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ**

(١) «بهجة النُّفوس» (٤/ ١٩٨).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٣١).

ذلِكَ عِنْدِي»[1]»[2].

* * *

* حادثةُ قريةٍ ذكرها الله:

قال - تعالى -: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[النحل:١١٢].

علماء الأصول يقولون: النَّكرة في سياق الإثبات تفيد الإطلاق؛ بمعنى: أنَّ القرية المذكورة في الآية ليست قريةً بعينها يقتصر الحكم عليها ويختصُّ بها، لذلك لم يكن مهمًّا تعيينها ومعرفة من هي هذه القرية بالضبط؛ لأنَّ المذكور في الآية بشأنها سُنَّة الله لا تتخلف، تشملُ قُرًى مضت وقُرًى ستأتي.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ تعيش في أمن وأمان ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ تعيش في رغد ورفاهية لكنَّها لم تؤدِّ حق الله، ولم تشكر النعمة.

---

(١) روى مسلمٌ في صحيحه (٢٧١٩) من حديث أبي موسى الأشعري أنَّ النبي ﷺ كان يدعو بهذا الدعاء: «اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطَئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

(٢) «زاد المعاد» (٢/ ٤٧٥).

فما المطلوب ممَّن كان هذا حاله، فردًا كان أو مجتمعًا أو أمَّة؟

المطلوب أن تشكر النعمة.

كيف يكون شكر النعمة؟

﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾[سبأ: ١٣] اتركوا العبث، واعملوا بالطاعات، وحافظوا على النعمة.

﴿فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾ فما السُنَّة الربَّانيَّة في مثلها؟

قال ـ تعالى ـ: ﴿فَأَذَٰقَهَا﴾ الفاء حرف عطفٍ فائدته ومعناه: الترتيب والتعقيب المباشر، ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾، فمتى كفرت بأنعُم الله ـ بِغضِّ النظر أين هي، ومن الذي يعيش فيها ـ فلا بدَّ أن تذوق لباس الجوع أولًا، فيذهب عنها الرغد، فإن لم تستيقظ ولم تتب ولم ترجع؛ فلا بدَّ أن يتبعَ الجوعَ الخوفُ.

متى حصلت ذنوب في الأمة فقدت مقوِّمًا من مقوِّمات الأمن، فتكثر الجرائم، ويحلُّ الهلع والخوف والقلق، والله ـ عز وجل ـ لم يقل: (فأذاقها لباس الجوع ولباس الخوف)، بل قال: ﴿لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾، لتلازمهما ولقرب بعضهما من بعض.

ولشيخ الإسلام ابن تيميَّة ـ رحمه الله ـ في «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٠٩ ـ ١١١) ردٌّ على من زعمَ أنَّ لفظ (الذَّوق) و(اللِّباس) ليست حقيقيَّة، وإنَّما هي استعارة! فقال ـ رحمه الله ـ موجِّهًا دقَّة هذَيْن اللفظَيْن في الآيةِ:

«فلفظُ (الذَّوق) يستعمل في كلِّ ما يحِسُّ به ويجد الـمَه أو لذَّته، فدعوى المدَّعِي اختصاصَ لفظ (الذَّوق) بما يكون بالفمِ تحكُّمٌ منه، لكن ذاك مقيَّد، فيقال:

ذقتُ الطَّعام وذقت هذا الشَّراب؛ فيكون معه من القيودِ ما يدلُّ على أنَّه ذوقٌ بـالفَمِ، وإذا كان الذَّوق مستعملًا فيما يحسُّه الإنسان بباطنِه أو بظاهرِه؛ حتى الماء الحميم، يقال: ذاقَه، فالشَّرابُ إذا كان باردًا أو حارًّا يُقَال: ذقتُ حرَّه وبردَه.

وأمَّا لفظُ (اللِّباس) فهو مستعملٌ في كلِّ ما يغشَى الإنسانَ ويلتبسُ به، قـال ـ تعالـى ـ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾[النَّبأ: ١٠]، وقـال: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[الأعراف: ٢٦]، وقال: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[البقرة: ١٨٧]، ومنه يُقـال: (لَبَسَ الحقَّ بالبَاطلِ) إذا خَلطَه به حتى غَشِيَه فلم يتَمَيَّز.

فالجوعُ الذي يشملُ ألـمُه جميعَ الجائعِ؛ نفسَه وبدَنَه، وكذلك الخوفُ الـذي يلبَس البَدَن، فلو قيل: (فأذاقها الله الجوع والخوف)؛ لم يدلَّ ذلك على أنَّه شـاملٌ لجميعِ أجزاءِ الجائعِ، بخلافِ ما إذا قيل: ﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾، ولـو قـال: (فألبَسَهم) لم يكن فيه ما يدلُّ على أنَّهم ذاقوا ما يؤلِـمُهُم إلَّا بالعَقْلِ من حيث إنَّه يعرفُ أنَّ الجائعَ الخائفَ يالـمُ، بخلاف لفـظِ ذَوْقِ الجـوع والخـوف؛ فـإنَّ هـذا اللفظَ يدلُّ على الإحساسِ بالـمُؤْلِمِ، وإذا أضيفَ إلى الـمُلِذِّ؛ دلَّ على الإحسـاسِ به».

وقال فـي «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٣٤) موضِّحًا مُرادَه، مبيِّنًا في مقابله ذَوْقَ أهل الإيمان:

«قال ـ تعالى ـ: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾، فجعلَ الخوفَ والجوعَ مَذُوقًا؛ وأضـافَ إليهِمَا اللِّبَاسَ ليُشْعِرَ أنَّـه لَبِسَ الجائعَ والخائفَ فشَمَله وأحاطَ به إحاطةَ اللباس باللَّابِسِ؛ بخلافِ من كان الالـمُ لا يستوعبُ مشاعرَه، بل يختَصُّ ببعضِ المواضِعِ، وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[آل عمران: ١٠٦]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[الدّخان: ٤٩]،

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾[القمر: ٤٨]، وقال: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ ﴾[الدُّخان: ٥٦]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾[النَّبأ: ٢٤ ـ ٢٥]، وقال: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾[السجدة: ٢١]، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**ذاقَ طعمَ الإيمانِ مَنْ رضيَ بالله ربًّا، وبالإسلامِ دينًا، وبمحمَّد نبيًّا**»[1]، فاستعمالُ لفظِ (الذَّوق) في إدراكِ الملائم والـمُنَافِرِ كثيرٌ.

وقال النبيُّ ﷺ «**ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجدَ حلاوةَ الإيمانِ**»[2] فوجودُ المؤمنِ حلاوةَ الإيمانِ في قلبِه، وذَوْقُ طعمِ الإيمانِ أمرٌ يعرفُه من حصلَ له هـذا الوَجْـدُ، وهذا الذَّوْقُ أصحابُه فيه يتفاوتون، فالذي يحصُلُ لأهلِ الإيمانِ عند تجريدِ توحيدِ قلوبِهم إلى الله، وإقبالِهم عليه دونَ ما سواه، بحيث يكونون حنفاء له مخلصين لـه الدِّين، لا يحبُّون شيئًا إلا له، ولا يتوكَّلون إلا عليه، ولا يوالُون إلا فيه، ولا يعـادون إلا له، ولا يسألون إلا إيَّاه، ولا يرجون إلا إيَّـاه، ولا يخـافون إلا إيَّـاه، يعبدونـه ويستعينون له وبه، بحيث يكونون عند الحقِّ بلا خَلْقٍ، وعند الخَلْقِ بلا هوًى؛ قد فنيت عنهم إرادةُ ما سِـواه بإرادتِه، ومحبَّة ما سـواه بمحبَّتِـه، وخـوفُ مـا سـواه بخوفِه، ورجاءُ ما سواه برجائِه، ودعاءُ ما سواه بدعائِه، هو أمرٌ لا يعرفُه بالذَّوْقِ والوَجْدِ إلَّا من له نصيبٌ، وما من مؤمنٍ إلا له منه نصيبٌ.

وهذا هو حقيقةُ الإسلامِ الذي بعثَ اللهُ به الرُّسُلَ، وأنزلَ به الكُتُبَ، وهو قُطْبُ القرآنِ الذي تدور عليهِ رحاه، والله ـ سبحانه ـ أعلم»[3].

---

(١) رواه مسلم (٣٤).

(٢) رواه البخاري (١٦) ومسلم (٤٣).

(٣) وقال الزَّبيدي في «تاج العروس» (٢٥/ ٣٢٧): «فتأَمـلْ! كيفَ جَمَع الذَّوقَ واللِّباسَ =

وقال ـ رحمه الله ـ في «مجموع الفتاوى»(٢٠/ ٤٧٣ ـ ٤٧٤):

«ثمَّ الجوع والخوف إذا لَبِسَ البدنَ كان أعظمَ في الألم، بخلاف القليلِ منه، فإذا قال: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ فإنَّه لم يكن يدل على لبسه لصاحبه وإحاطته به، فهذه المعاني تدلُّ عليها هذه الألفاظُ دونَ ما إذا قيل: جاعت وخافت؛ فإنَّه يدلُّ على جنسٍ، لا على عِظَمِ كيفيَّته وكمِّيَّته، فهذا من كمال البيان، والجميع إنَّما استُعمل فيه اللَّفظ في معناه المعروف في اللغة؛ فإنَّ قولَه: (ذَوْقُ لباسِ الجوعِ والخَوْفِ) ليس هو ذوقَ الطَّعام، وذَوْقُ الجوعِ ليس هو ذوقَ لباسِ الجوع.

ولهذا كان تحريرُ هذا البابِ هو من علم البَيَان الذي يعرف به الإنسانُ بعضَ قَدْرِ القرآن، وليس في القرآنِ لفظٌ إلَّا مقرونٌ بما يَبِينُ به المراد».

قال أبو عبيدة: وبلاغةُ هذَيْن اللفظَيْن تتجلَّى في سياق ذِكْرِ (قرية) في الآية، وهي نكرةٌ في سياق الإثبات، التي تفيد الإطلاق، فهذه سنَّة عامَّة مطلقةٌ تشملُ كلَّ قريةٍ، فإنَّ الجوع والخوف يشملها ويلفُّ أهلها دون استثناء، فهي إذن سُنَّةٌ كونيَّةٌ ثابتة، من غيَّرَ غُيِّرَ له، ومن شابَ العَمَلَ وخَلَطَ خيرَه بشرِّه شِيبَ له العطاءُ وخُلِّطَ عليه، جزاءً وِفَاقًا، ولا تُظلمُ نفسٌ شيئًا.

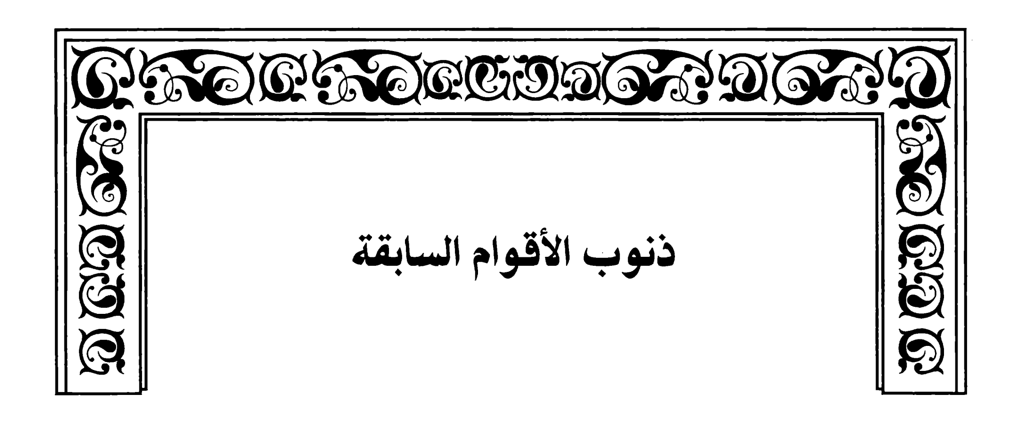
فعلى العاقل أن لا يغيب عنه قول الله: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٢ ـ ٣]، فالله هو الخالقُ والرَّازق، وهو الذي بيده الملك والحُكم والتصريف

= حتَّى يدُلَّ على مُباشَرةِ الذَّوْقِ وإحاطَتِه وشمُولِه، فأَفاد الإِخْبارُ عن إذاقَتِه أَنَّه واقِعٌ مُباشَر غَيْرُ مُنْتَظَر، فإِنَّ الخَوْفَ قد يُتَوَقع ولا يُباشَر، وأَفادَ الإِخْبارُ عن لِباسِهِ أَنَّه مُحيطٌ شامِلٌ كاللِّباسِ للبَدَنِ». اهـ

والتدبير، يُنعم ويعطي، ولا أحد يعطي عطاءَه، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ [الإسراء: ١٠٠].

لكنَّه ـ تعالى ـ إذا استحقَّ الخَلْقُ نِقْمَتَه وسَلْبَ نِعَمِهِ عنهم؛ فهو ﴿شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾[الرعد: ١٣] أي: شديدُ القُوَّةِ، فـ ﴿المِحَالُ﴾ هو القُوَّةُ والبأسُ والمَكْرُ بالحقِّ، وهو من (الحَوْلِ) الذي فيه معنى التحوُّلِ من حالٍ إلى حالٍ، فإذا قضى بتحوُّلِ حالِ النَّاسِ من عافيةٍ إلى بلاءٍ لذنوبٍ اقترفوها، وإعراضٍ ارتكبوه، كان التحوُّلُ شديدًا، نسأل الله أن يلطُف بنا ويعاملنا برحمته.

* * *



ذنوب الأقوام السابقة

لقد قـصَّ الله ـ تعالى ـ علينا في سورة العنكبوت أطرافًا ونُتَفًا من خبر قوم إبراهيم، وقوم لـوطٍ، ومَدْيَنَ، وقارون وفرعـون وهامـان، وذكرَ إعراضَهم عن الرُّسل وعن الهُدَى، وما عاقَبَهم به، فقـال ـ تعالى ـ: ﴿ **فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

قال الإمام ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ:

«فممَّا ينبغي أن يُعلم أنَّ الذُّنوبَ والمعاصي تضـرُّ ولا بـدَّ، وأنَّ ضرَرَهـا في القلوبِ كضَرَرِ السُّموم في الأبدان، على اختلاف درجاتهـا في الــضَّرَرِ، **وهـل في الدُّنيا والآخرة شرٌّ وداءٌ إلَّا وسببه الذنوب والمعاصي؟**

فما الذي أخرجَ الأَبَوَين من الجنة دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور، إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطردَه ولعنَه، ومسـخَ ظـاهرَه وباطنَه، فجُعِلَت صورتُه أقبحَ صورةٍ وأشنعَها، وباطنُه أقبحَ من صورتِه وأشنع، وبُدِّلَ بالقُرْبِ بُعْدًا، وبالرحمة لعنة، وبالجمال قبحًا، وبالجنَّةِ نارًا تلظَّى، وبـالإيمان

كفرًا، وبموالاةِ الوليِّ الحميد أعظمَ عداوةٍ ومُشَاقَّة، وبزَجَلِ التَّسبيحِ والتَّقديسِ والتَّهليلِ، زجلَ الكفرِ والشِّرك والكذب والزور والفُحْش، وبلباس الإيمانِ لباسَ الكفر والفسوق والعصيان؟ فهان على الله غاية الهوان، وسقط من عينه غاية السقوط، وحَلَّ عليه غضب الربِّ ـ تعالى ـ فأهواه، ومقَتَه أكبرَ المقْتِ فأرْدَاه، فصارَ قوَّادًا لكلِّ فاسقٍ ومجرم، رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة، فعياذًا بك اللهمَّ! من مخالفةِ أمرك، وارتكابِ نهيك.

وما الذي أغرقَ أهلَ الأرضِ كلَّهم، حتى علا الماء فوق رؤوسِ الجبال؟

وما الذي سلَّطَ الرِّيحَ العقيمَ على قوم عادٍ، حتى ألقتْهُم موتى على وجه الأرض كأنَّهم أعجاز نخل خاوية، ودمَّرت ما مرَّت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابِّهم، حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة؟

وما الذي أرسل على قوم ثمودَ الصيحةَ حتى قطَّعت قلوبَهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم؟

وما الذي رفع قرى اللُّوطيَّة حتى سمعت الملائكةُ نَبِيحَ كلابِهم، ثمَّ قلبَهَا عليهم فجعل عالِيَهَا سافِلَهَا، فأهلكهم جميعًا، ثم أتبعهم حجارةً من السماءِ أمطَرَهَا عليهِم؟ فجمعَ عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمَّةٍ غيرهم، ولإخوانِهم أمثالُها، وما هي من الظَّالمين ببعيدٍ.

وما الذي أرسل على قومِ شعيب سحابَ العذابِ كالظُّلَلِ، فلمَّا صارَ فوق رؤوسهم أمطرَ عليهم نارًا تلظَّى؟

وما الذي أغرقَ فرعونَ وقومَه في البحرِ، ثم نُقِلَت أرواحُهُم إلى جهنَّم؟ فالأجسادُ للغَرَقِ، والأرواح للحرق.

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟

وما الذي أهلكَ القرونَ من بعد نوحٍ بأنواعِ العقوباتِ ودمَّرَهَا تدميرًا؟

وما الذي أهلك قوم صاحب (يس) بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم؟

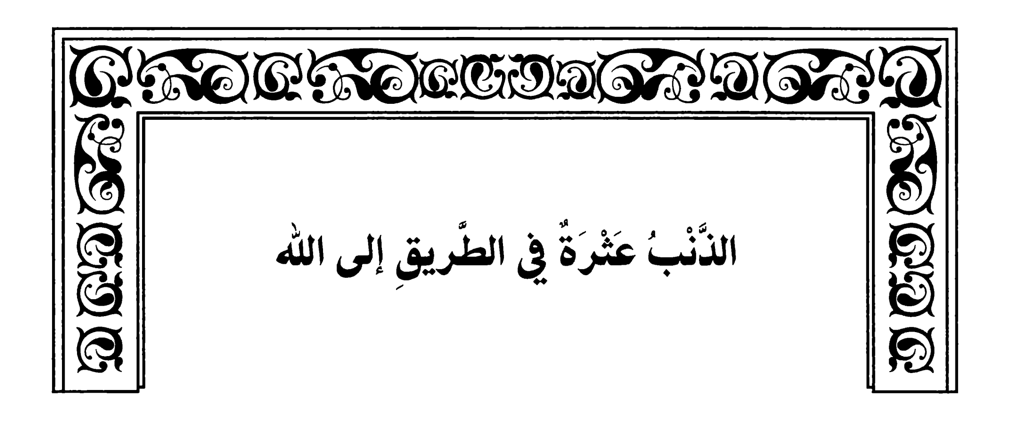
وما الذي بعث على بني إسرائيل قومًا أولي بأسٍ شـديدٍ، فجاسُـوا خـلالَ الدِّيارِ، وقتلوا الرِّجالَ وسَبَوْا الذَّراري والنساء، وأحرقوا الدِّيار، ونَهَبُوا الأمـوال، ثمَّ بعثهم عليهم مرَّةً ثانيةً، فأهلكوا ما قَدَرُوا عليهِ وتَبَّرُوا ما عَلَوْا تتبيرًا؟

وما الَّذي سلَّطَ عليهم أنواعَ العذابِ والعقوبـاتِ؟ مـرَّةً بالقتـلِ والسَّـبي وخرابِ البلاد، ومرَّةً بجَوْرِ الـمُلوكِ، ومرةً بمسخِهِم قردةً وخنازير، وآخرُ ذلك أقسم الربُّ ـ تبارك وتعالى ـ ليبعثنَّ عليهِم إلى يـوم القيامـةِ مـن يسـومُهم سـوءَ العذابِ»[1].

فنسأل الله ربَّنا أن يعافينا، ويعفو عنَّا، وأن يعاملنا بلطفه ورحمته ومغفرته.

* * *

(١) «الجواب الكافي» (ص٩٨ ـ ١٠١).



الذَّنْبُ عَثْرَةٌ فِي الطَّرِيقِ إلى الله

إياك أن تظنَّ أنَّك إن أذنبت فاستغفرت وقُبِلت توبتك، أنَّك بقيت بعد ذنبك بمنزلتك قبل ذنبك! تذكروا معي أولي العزم من الرُّسل ـ صلوات الله عليهم ـ إذا اشتدَّت أحوال الحشر على النَّاس، واشتدَّ الهَول، فيأتي النَاس إلى الأنبياء يطلبون منهم أن يشفعوا لهم عند ربهم بأن يعجِّل الحساب، كلُّ نبيٍّ في ذلك المقام يذكر ذنبَه؛ كما أخرجه البخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة في حديث الشفاعة الطويل، وفيه: «... **فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟**

فيقول بعض الناس لبعض: ائتوا آدم.

فيأتون آدم فيقولون: يا آدم! أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغَنَا؟ فيقول آدم: إنَّ ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنَّه نهاني عن الشجرة فعصيتُه، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح! أنت أول الرسل إلى الأرض، وسمَّاك الله: عبدًا شكورًا، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغَنَا؟

فيقول لهم: إنَّ ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنَّه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي، نفسي نفسي، اذهبوا إلى إبراهيم ﷺ.

فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نبيُّ الله وخليلُه من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغَنَا؟ فيقول لهم إبراهيم: إنَّ ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله ـ وذكر كَذِبَاتِه ـ، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى.

فيأتون موسى ﷺ، فيقولون: يا موسى! أنت رسول الله، فضَّلك الله برسالاته وبتكليمه على النَّاس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغَنَا؟ فيقول لهم موسى ﷺ: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلتُ نفسًا لم أُوْمَرْ بقتلها، نفسي نفسي، اذهبوا إلى عيسى ﷺ.

فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى! أنت رسول الله، وكلَّمْتَ النَّاس في المهد، وكلمةٌ منه ألقاها إلى مريم وروح منه، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغَنَا؟ فيقول لهم عيسى ﷺ: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله ـ ولم يذكر له ذنبًا ـ، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ.

فيأتوني فيقولون: يا محمَّد! أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغَنَا؟ فأنطلقُ فآتي تحت العرشَ فأَقَعُ ساجدًا لربي، ثم يفتح الله عليَّ ويلهمني من محامده وحُسْنِ الثناء عليه شيئًا لم يفتحه لأحدٍ قبلي، ثمَّ يقال: يا محمَّد: ارفع

رأسك، سَلْ تُعْطَهْ، اشفع تُشَفَّعْ.

فأرفع رأسي فأقول: يا ربِّ! أمتي أمتي. فيقال: يا محمَّد! أدْخِلْ الجنَّة من أمَّتك من لا حسابَ عليهِ، من البابِ الأيمن من أبواب الجنَّة...» الحديث.

فأثر الذَّنب لم يذهب، وإن تاب الله ـ عز وجل ـ على صاحبه، ومنزلة من أذنب ليست كمنزلة الـمُعافى، وهذا تقديرٌ جرى على الأنبياء كما ترى، فلا يغرينَّك الشيطان فيقول لك: هذا ذنبٌ، ولا عليك منه، فإنَّ التوبة تُذهبُه.

بل عقد ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ فصلًا بديعًا في «مدارج السالكين» (١/ ٣٠٤ وما بعدها)، قارَن فيه بين الذي لم يعصِ الله ـ عز وجلَّ ـ البتَّة، وبين الذي عصاه ثمَّ تاب؛ أيُّهما أفضل؟ وذكر أنَّ النَّاس اختلفوا في ذلك على قولين، لكن الذي يعنينا سردُه لحجج الطَّائفة التي فضَّلت حالَ من سَلِمَ من الذَّنب، فقال:

«هل المطيع الذي لم يعصِ خيرٌ من العاصي الذي تاب إلى الله توبة نصوحًا؟ أو هذا التائب أفضل منه؟

اختُلف في ذلك، فطائفةٌ رجَّحت من لم يعصِ على من عصى وتاب توبةً نَصوحًا، واحتجُّوا بوجوهٍ:

أحدُها: أنَّ أكملَ الخلقِ وأفضلَهم: أطوعُهم لله، وهذا الذي لم يعصِ أطوعُ، فيكون أفضل.

الثاني: أنَّ في زمن اشتغال العاصي بمعصيته، يسبقُه المطيعُ عدَّة مراحلَ إلى فوق، فتكون درجتُه أعلى من درجتِه، وغايته أنَّه إذا تاب استقبل سَيْرَه ليلحقَه، وذاكَ في سَيْرٍ آخر، فأنَّى له بلحاقِه؟ فهما بمنزلةِ رجلَيْن مشترِكَيْن في الكسبِ، كلَّما كسب أحدُهما شيئًا كسب الآخرُ مثلَه، فعَمَدَ أحدُهما إلى كسبِه فأضاعَه، وأمسكَ

عن الكسب الـمُسْتَأنَفِ، والآخر مُجِدٌّ في الكسب، فإذا أدركته حميَّة المنافسةِ وعادَ إلى الكسب؛ وجد صاحبَه قد كسب في تلك المدَّة شيئًا كثيرًا، فلا يكسبُ شيئًا إلا كسب صاحبه نظيرَه، فأنَّى له بمساواتِه.

الثالث: أنَّ غايةَ التوبةِ أن تمحُوَ عـن هـذا سيئاتِه، ويصيرَ بمنزلـةِ مـن لم يعمَلْها، فيكون سعيُه في مدَّة المعصيةِ لا له ولا عليه، فأين هذا السَّعْيُ من سـعيِ من هو كاسبٌ رابحٌ؟

الرابع: أن الله يمقت على معاصيه ومخالفة أوامره، ففي مدة اشـتغال هـذا بالذنوب، كان حظُّه المقْتُ، وحظُّ المطيعِ الرِّضا، فالله لم يزَلْ عنه راضيًا، ولا ريـبَ أنَّ هذا خيرٌ ممَّن كان الله راضيًا عنه ثم مَقَتَه ثم رضي عنه، فإنَّ الرِّضا المستمرَّ خيرٌ من الذي تخلَّلَه الـمَقْتُ.

الخامس: أنَّ الذَّنبَ بمنزلةِ شُرْبِ السُّمِّ، والتوبةُ ترْياقُـه ودواؤه، والطَّاعـة هي الصِّحَّة والعافية، وصحَّةٌ وعافيةٌ مستمرةٌ خيرٌ من صحَّةٍ تخلَّلَها مرضٌ وشُرْبُ سُمٍّ أفاقَ منه، وربَّما أَدَّيَا به إلى التَّلَفِ أو الـمَرَضِ أبدًا.

السادس: أنَّ العاصي على خطر شديدٍ، فإنَّه دائرٌ بين ثلاثةِ أشياء، **أحـدها**: العَطَبُ والهَلَاكُ بشُرْبِ السُّمِّ، **الثاني**: النُّقصانُ من القوَّة وضـعفُها إن سَـلِمَ مـن الهلاك، **والثالث**: عَوْدُ قوَّته إليه كما كانت أو خيرًا منها؛ وهذا بعيدٌ، والأكثرُ إنَّـما هو القِسْمَان الأوَّلان، ولعلَّ الثالث نادرٌ جدًّا، فهو على يقينٍ من ضَرَرِ السُّمِّ، وعـلى رجاءٍ من حصولِ العافية، بخلافِ من لم يتناول ذلك.

السابع: أنَّ المطيعَ قد أحاطَ على بستانِ طاعتِه حائطًا حصينًا، لا يجدُ الأعداءُ إليه سبيلًا، فثمرتُه وزهرتُه وخضرتُه وبهجته في زيادةٍ ونُمُوٍّ أبدًا، والعاصي قد فتح

فيه ثَغْرًا، وثَلَمَ فيه ثُلْمَةً، ومَكَّنَ منه السُّرَّاقَ والأعداءَ فدخلوا فعاثوا فيه يمينًا وشمالًا، أفسدوا أغصانَه، وخرَّبوا حيطانَه، وقطَّعوا ثمراتِه، وأحرقوا في نواحيه، وقطعوا ماءَه، ونَقَصُوا سَقْيَه، فمتى يرجعُ هذا إلى حالِه الأوَّل؟! فإذا تدارَكَه قيِّمُه ولَمَّ شَعَثَه، وأصلحَ ما فسدَ منه، وفتحَ طُرُقَ مائِهِ، وعَمَّرَ ما خَرِبَ منه، فإنَّه إمَّا أن يعودَ كما كانَ، أو أنقصَ، أو خيرًا، ولكن لا يلحَقُ بستانَ صاحبِه الذي لم يزَلْ على نَضَارَتِهِ وحُسْنِه، بل في زيادةٍ ونُمُوٍّ وتَضَاعُفِ ثَمَرَةٍ وكَثْرَةِ غَرْسٍ.

الثامن: أنَّ طَمَعَ العدوِّ في هذا العاصي إنَّما كان لضَعْفِ علْمِهِ وضعف عزيمته، ولذلك يسمَّى: جاهلًا، قال قتادة: «أجمع أصحابُ رسول الله ﷺ على أنَّ كلَّ ما عُصِيَ اللهُ به فهو (جهالة)»(١).

وكذلك قال الله ـ تعالى ـ في حق آدم: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[طه: ١١٥]، وقال في حقِّ غيره: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[الأحقاف: ٣٥]، وأمَّا من قَوِيَت عزيمته وكَمُلَ علمُه وقَوِيَ إيمانُه؛ لم يطمع فيه عدوُّه، وكان أفضل.

التاسع: أنَّ المعصيةَ لا بُدَّ أن تؤثِّر أثرًا سَيئًا ولا بدَّ؛ إمَّا هلاكًا كلِّيًّا، وإمَّا خُسرانًا وعقابًا يَعْقُبُه إمَّا عفوٌ ودخولُ الجنَّةِ، وإمَّا نَقْصُ درجةٍ، وإما خُمُودُ مصباحِ الإيمانِ، وعملُ التَّائبِ في رفعِ هذه الآثارِ والتكفير، وعملُ المطيعِ في الزيادةِ ورفعِ الدَّرجاتِ، ولهذا كانَ قيامُ الليلِ نافلةً للنبيِّ ﷺ خاصَّة، فإنَّه يعملُ في زيادةِ الدَّرجات، وغيرُه يعملُ في تكفيرِ السيئات، وأين هذا من هذا؟!

العاشر: أنَّ المقبلَ على الله المطيعَ له يسيرُ بجُمْلَةِ أعمالِه، وكلَّما زادت طاعاتُه وأعمالُه ازدادَ كَسْبُهُ بها وعَظُمَ، وهو بمنزلة من سافرَ فكَسَبَ عشرةَ أضعافِ رأسِ

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٨/ ٨٩).

مالِه، فسافرَ ثانيًا برأسِ مالِه الأوَّلِ وكَسْبِه؛ فكَسَبَ عشرةَ أضعافِه ـ أيضًا ـ، فسافرَ ثالثًا ـ أيضًا ـ بهذا المالِ كلِّه، وكان ربحُه كذلك، وهَلُمَّ جَرًّا، فإذا فَتَرَ عن السَّفرِ في آخِرِ أمرِه مرَّةً واحدةً؛ فاتَه من الرِّبحِ بقَدْرِ جميعِ ما رَبِحَ أو أكثرَ منه.

وهذا معنى قول الجُنَيْد ـ رحمه الله ـ: «لو أقبلَ صادقٌ على الله ألفَ عامٍ، ثمَّ أعرضَ عنه لحظةً واحدةً؛ كان ما فاتَه أكثرُ ممَّا نالَه»، وهو صحيحٌ بهذا المعنى، فإنَّه قد فاتَه في مدَّة الإعراضِ ربحُ تلكَ الأعمالِ كلِّها، وهو أزْيَدُ من الرِّبح المتقدِّم، **فإذا كان هذا حالُ من أعرضَ؛ فكيف من عصى وأذنب؟!** وفي هذا الوجهِ كفايةٌ».

فالشاهد أنَّ الذنب له أثر، وهذه الآثار الدَّقيقة على القلوب والنُّفوس والأعمال والعواقب، تصيبُ من أذنب وتاب من ذنبه توبةً نَصوحًا، فليت شعري! ماذا يفعلُ المصرُّون والذين لم تخطر التوبة لهم ببالٍ قطُّ؟! فالسلامة من عواقب الذنوب ليست مضمونة حتى مع التوبة.

بل سيتَّضح لك أيُّها الغافل وأيُّها العاصي أنَّ له أثرًا على قوَّة بدنك، وعلى رزقك، وعلى ولدك، فقد تُحرم الولد، وقد تُحرم الرزق، وقد جاء التصريح بهذا في بعض النصوص من كتاب ربنا وأحاديث نبيِّنا ﷺ، يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿ **فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا** ﴾[نوح: ١٠ ـ ١٢].

فقد بيَّنت هذه الآية أنَّ الاستغفار علاجٌ للجدب، والفقر، والعقم، وأنَّه سببٌ لحصول النَّعيم الوافر الطيِّب.

قال الربيع بن خُثَيْم: «داءُ البَدَنِ الذُّنوب، ودواؤها الاستغفار، وشفاؤُها

أن لا تعود في الذنب»[1].

وروي عن الربيع بن صبيح: أنَّ رجلًا أتى الحسنَ وشكا إليه الجَدْبَ، فقال له: استغفر الله ـ تعالى ـ، وأتاه آخر فشكا إليه الفقر، فقال له: استغفر الله ـ تعالى ـ، وأتاه آخر فقال: ادْعُ الله ـ سبحانه ـ أن يرزقني ابنًا، فقال له: استغفر الله ـ تعالى ـ، وأتاه آخر فشكا إليه جفاف بساتينه، فقال له: استغفر الله ـ تعالى ـ.

فقلنا: أتاك رجالٌ يشكون ألوانًا ويسألون أنواعًا، فأمرتَهم كلَّهُم بالاستغفار! فقال: ما قلتُ من نفسي شيئًا، إنَّما اعتبرتُ قولَ الله ـ عز وجل ـ حكايةً عن نبيِّه نوحٍ ـ عليه الصلاة والسّلام ـ أنَّه قال لقومِه: ﴿**ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ** ...﴾ الآية [نوح: ١٠][2].

بل يُروى عن أبي بكرٍ ـ رضي الله ـ تعالى ـ عنه ـ أنَّه أُتي بغرابٍ وافرِ الجناحين، أي أنَّ الذي أتى به تمكَّن منه من غير علَّةٍ فيه، فقال: «ما صِيدَ من صَيدٍ، ولا عُضِدَ من شجرٍ، إلَّا بما ضيَّعَتْ من التسبيح»[3].

وبالفعل؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ أخبرنا أنَّ نوحًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ أوصى ابنه بقوله: «...**آمُرُك بـ (لا إله إلا الله)، فإنَّ السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كِفَّة، ووضعت (لا إله الا الله) في كِفَّة، رجحت بهنَّ (لا إله الا الله)،**

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنَّف» (١٤/ ١٥)، والدِّينوري في «المجالسة» (٩٢٥) ويُنظر تعليقي عليه.

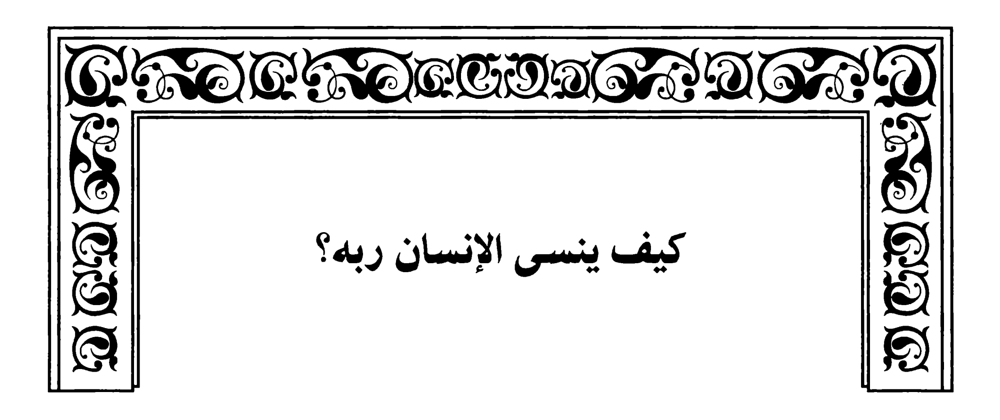
(٢) انظر: «روح المعاني» (٢٩/ ٧٣).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنَّف» (١٣/ ٢٦٢)، **وإسناده ضعيف لانقطاعه.**

ولو أنَّ السماوات السَّبع والأرضين السَّبع كُنَّ حلقةً مبهمةً؛ قصمَتْهنَّ (لا إلـه الا الله) و(سبحان الله وبحمده)، فإنَّها صلاةُ كلِّ شيءٍ، وبها يُرزق الخلق»[1].

* * *

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢/ ١٦٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٤٨)، وسنده صحيح.



كيف ينسى الإنسان ربه؟

«من عقوبات الذُّنوب أنَّها توقع الوحشة العظيمة في القلب، فيَجِد الـمُذنب نفسَه مُستَوحشًا، قد وقعت الوَحشة بينه وبين ربه، وبينه وبين الخَلق، وكلَّما كثُرت الذُّنوب اشتَدَّت الوَحشة»(1).

الذنب خطير على الأفراد، **وللسيِّئَةِ أخواتٌ، وللذَّنبِ أشباه**، وأخطر ما يمكن أن يترتب على الذنب أثره على قلب الإنسان بأن يحرِفَه، ويُفقده ميزانه، وأن يقع في المحذور، جاء ذلك في أكثر من آيةٍ؛ كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾[الحشر:١٩]، فهذا أخطر ما يمكن أن يقع في أفراد هذه الأمة، كما نرى من الشواهد، وكما نرى عند كثيرٍ من الناس.

قال أهل التفسير: ينسى الإنسان نفسه بأن يذنب الذنب فلا يستحيي ولا ينكسر، وأن يذنب الإنسان الذنب ولا يبالي ولا يشعر به، ثم قال الله: ﴿**أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ حصل فسقهم هذا بالذنب، فالذنب يجر إلى ذنب، والسيئة تجر إلى السيئة، حتى يصل الحالُ ـ والعياذ بالله ـ كما قال الله عن بني إسرائيل:

---

(١) «الداء والدواء» (ص٧٥).

﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾[البقرة:٨١]، فإذا أصبح حاله هكذا، تثقل عليه العبادة والطاعة، وينقطع عن الصلة برب السماء والأرض، ويُترك حتى يُخذل ـ والعياذ بالله تعالى ـ، ثمَّ كلَّما أراد النُّهوض من مصيبته أُركس فيها، هذا أسوأ أثر من آثار الذنوب.

وهذه قضيَّةٌ نالت نصيبَها من النُّصوصِ الشرعيَّة والآثار، ومن تأصيلِ أهلِ العلمِ وعنايَتِهِم، لأنَّ الذَّنْبَ إذا وقعَ، فوُفِّقَ العبدُ بعدَه إلى الانكسارِ والتَّوْبَةِ، فقد يجتني من زلَّتِهِ خيرًا عظيمًا يُغْبَطُ على حُسْنِ عاقبتِه، وإنْ رَكَنَ إلى غفلتِهِ ورضي بخطيئَتِه، كانَ ذلك الذَّنْبُ أوَّلَ الشُّؤْمِ، وباكورةَ البَوَارِ والوَيْلِ والثُّبُورِ والهَلاكِ.

وقد جاء هذا المعنى كثيرًا جدًّا في كتابِ الله ـ تعالى ـ، كقوله ـ سبحانه ـ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾[محمد: ١]، وقوله: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور: ٦٣]، وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾[الأنعام: ١١٠]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ﴾[آل عمران: ١٥٥]، وقوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[الصف: ٥]، وقوله: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[النساء: ١٥٥]، وقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾[التوبة: ٧٥ ـ ٧٧]، وغير هذا كثيرٌ.

فهي جميعًا كما ترى، ذنوبٌ وَلَدَتْها ذنوبٌ، ومعاصٍ أرضَعَتْها معاصٍ،

وأشأمُ ما في الذَّنْبِ أنَّ صغارَه تَلِدُ كبارَه وليس العكس، فتأمَّل ما في آيات سورةِ التَّوبةِ المذكورةِ في آخر سياق الآيات؛ كيف عاهدوا اللهَ، ثمَّ نقَضُوا العهدَ وانسلخوا منه، ونقضُ العهد من سلوكيَّاتِ المنافقين وعلاماتهم الظَّاهرة، لكن الأمرَ لم يقف على الظاهر في صورة المعصيةِ فقط، وإنَّما كانت تلك البداية فقط، ثمَّ أعقَبَهُم الله به نفاقًا في قلوبِهِم، فأُبْدِلُوا بصورةِ النِّفاقِ حقيقتَه وسَوادَه وقُبْحَه.

قال السَّعدي: «الذنبُ الواحدُ يستَتْبع ذنوبًا متعَدِّدة، ولا يتِمُّ لفاعِلِه إلا بعِدَّة جرائم، فإخوةُ يوسُف لـمَّا أرادوا التفريقَ بينَه وبينَ أبيه احتالوا لذلك بأنواعٍ من الحِيَل، وكذبوا عدَّةَ مرَّات، وزَوَّرُوا على أبيهم في القميصِ والدَّمِ الذي فيه، وفي إتيانهم عشاءً يبْكُون، ولا تستبعد أنَّه قد كَثُرَ البَحْثُ فيها في تلك الـمُدَّةِ، بل لعلَّ ذلك اتَّصَلَ إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلَّما صارَ البحثُ حصلَ من الإخبارِ بالكَذِبِ، والافتراءِ ما حصلَ، وهذا شؤمُ الذنبِ، وآثارُه التابعة والسابقة واللاحقة»(١).

ولولا أنَّهم ـ رضي الله عنهم ـ تابوا بعدَ ذلك وألَحُّوا على الله في طلبِ المغفرةِ، وعلى أخيهم ووالدهم في الـمُسامَحَةِ، وتحَلَّلُوا من ذنوبِهِم، لَـمَّا كان ذلك يقفُ عند حدٍّ، لكنَّ الله ـ تعالى ـ وفَّقَهم إلى التوبةِ والإصلاح، والعبرةُ بكمالِ النِّهاياتِ، لا بنَقْصِ البدايات.

وقال أبو حامد: «من شُؤْمِ الذنبِ في الدُّنيا ـ على الجملة ـ أنْ يُكْسِبَ ما بعدَه صِفَتَه، فإنْ ابتُلِيَ بشيءٍ كانَ عقوبةً له، ويُحْرَمَ جميلَ الرِّزْقِ حتى يتضاعفَ شقاؤُه، وإنْ أصابَتْه نعمةٌ كانت استدراجًا له، ويُحْرَمُ جميلَ الشُّكْرِ حتى يُعَاقَبَ

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٤٠٧).

على كُفْرَانِه، وأمَّا الـمُطِيع فمِنْ بركةِ طاعتِه أنْ تكونَ كلُّ نعمةٍ في حقِّهِ جزاءً عـلى طاعتِه، ويُوَفَّق لشُكْرِها، وكلُّ بَلِيَّةٍ كفَّارَةً لذنوبِه، وزيادةً في درجاتِه»[1].

قال الحسن: «من عمل حسنةً وإنْ صَغُرَتْ أورَثَتْه نورًا في قلبـه، وقـوَّةً في عملِه، وإنْ عمل سيِّئَةً وإنْ صَغُرَتْ فاحتَقَرَهَا، أَوْرَثَتْهُ ظُلْـمًا في قلبِـه، وضَـعْفًا في عَمَلِه»[2].

وكان عروة بن الزبير يقول: «إذا رأيتَ الرجل يعمل الحسنة فاعلم أنَّ لهـا عنده أخوات، فإنَّ الحسنة تدلُّ على أختها، وإذا رأيته يعمل السيئة فـاعلم أنَّ لهـا عنده أخوات، فإنَّ السيِّئة تدلُّ على أختها»[3].

وقال أبو الحسين الـمُزَيِّن: «الذنبُ بعدَ الذنبِ عقوبـةُ الـذنبِ، والحسَـنَةُ بعد الحسَنَةِ ثوابُ الحسنةِ»[4].

ويظهر لأصحاب البصيرة أنَّ الذنوب الكبـيرة ـ مـن التـورُّط في إزهـاق النُّفوس وقتل الشعوب ـ لا تصدر إلا ممَّن كثرت ذنوبهم وتراكمـت واشـتدَّت، فأصبحوا في ظلماتٍ يتخبَّطون، والأدهى والأَمَرُّ ظنُّهُم أنَّهم يحسنون صنعًا!

ومن العبارات التي اشتهرت نسبتها إلى غير واحدٍ مـن السَّـلَف؛ قـولهم: «المعاصي بريد الكفر»[5]، أي: الموصلةُ إليه.

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٥٤).

(٢) «شعب الإيمان» (٩/ ٣٨٣) رقم (٦٨٢٦).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٤٨٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٧٧)، وهو صحيح.

(٤) المرجع السابق (٩/ ٣٨٤) رقم (٦٨٢٩).

(٥) المرجع السابق (٩/ ٣٨٤) رقـم (٦٨٣١)، عن أبـي حـفص، وهو عمـرو بـن سلمـة =

وهذا المعنى مشهودٌ لـه في القرآن في مواضع؛ منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾[الحجرات: ٢].

فالبدايةُ ببعضِ سوءِ الأدبِ مع الرسول ﷺ، وخروجٍ عن السَّمْتِ اللائق به في توقيره واحترامِ مقامِه، لكن الله خوَّفَ بأنَّ ذلك مُفْضٍ في آخر أمـره إلى حُبُـوطِ العمل، ولا يحبط العمل كلُّه إلا بالكفر، نسأل الله السلامة.

قال ابن عطيَّة: «ويُحتَمَل أن يكون المعنى: أنْ تأثموا، ويكونَ ذلك سببًا إلى الوحشةِ في نفوسكم، فلا تزال معتَقَدَاتُكُم تتَجَرَّدُ القهقرى، حتى يؤولَ ذلك إلى الكفر، فتحبَطَ الأعمالُ حقيقةً، وظاهر الآية أنَّها مُخَاطَبَةٌ لفُضَلاءِ المـؤمنين الـذين لا يفعلون ذلك احتقارًا، وذلك أنَّه لا يقال لـمُنافقٍ يعمل ذلـك جـرأةً: (وأنـتَ لا تشعُر)! لأنَّه ليس له عملٌ يعتقدُه هو عملًا»[1].

ونقله ابن عاشور، وبيَّن وجهَه بقوله: «لأنَّ عدمَ الانتهاءِ عن سوءِ الأدبِ مع الرسولِ ﷺ يُعَوِّدُ النَّفْسَ بالاسترسالِ فيه، فلا تزال تزدادُ منهُ وينْقُصُ تـوقيرُ الرسول ﷺ من النـفس، وتتولَّى من سيِّئٍ إلى أشـدَّ منـه، حتـى يـؤولَ إلى عـدم الاكتراثِ بالتَّأَدُّبِ معَه، وذلك كفرٌ.

وهذا معنى: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾، لأنَّ الـمُنْتَقِلَ من سيِّئٍ إلى أسوأَ لا يشعرُ بأنَّه آخِذٌ في التَّمَـلِّي من السُّوءِ، بحُكْمِ التَّعَوُّدِ بالشيـءِ قلـيلًا قلـيلًا حتـى تغمـره

= النيسابوري (ت ٢٦٤هـ) كما في «السِّيَر» (١٢/ ٥١٣).

(١) «المحرر الوجيز» (٥/ ١٢٨).

المعاصي، وربَّما كان آخرُها الكفرَ، حين تضْرَى النَّفْسُ بالإقدامِ على ذلك»[1].

«فإنَّ ذلك إذا اجترأَ الإنسانُ عليهِ استَخَفَّ به، وإذا استَخَفَّ به واظبَ عليه، وإذا واظبَ عليه أوْشَكَ أنْ يستَخِفَّ بالـمُخَاطَبِ، فيكفرُ وهو لا يشعُر»، قاله البقاعي[2] ـ رحمه الله ـ.

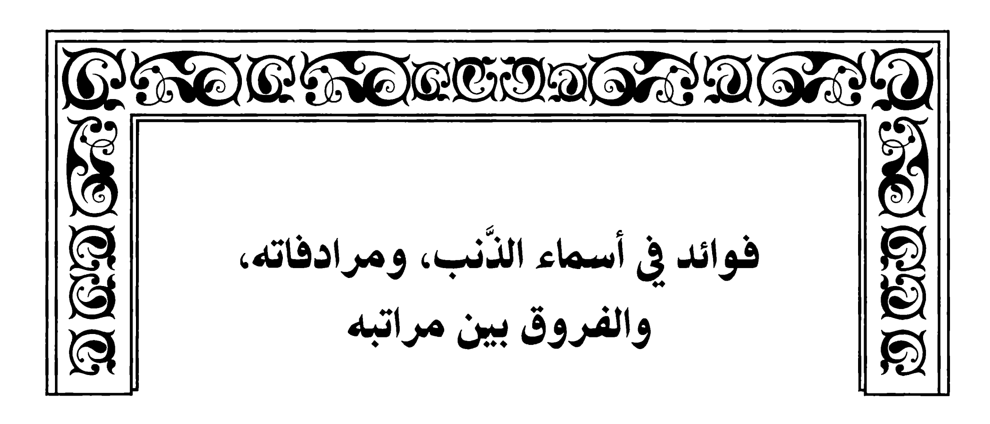
وكذلك تفعلُ البِدَع، وهي أسرعُ توليدًا لِـمَا بعدها وأكثرُ تطوُّرًا وأبعدُ مَدًى في التضخُّمِ واتساع الضَّلال، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «وإذا أَصَرَّ على ترك ما أُمِرَ به من السُّنَّةِ وفِعْلِ ما نُهِيَ عنه، فقد يُعَاقَبُ بسَلْبِ فعلِ الواجبات، حتى قد يصير فاسقًا أو داعيًا إلى بدعةٍ، وإنْ أَصَرَّ على الكبائرِ فقَدْ يُخَافُ عليهِ أنْ يُسْلَبَ الإيمانَ، فإنَّ البِدَعَ لا تزالُ تُخرِجُ الإنسانَ من صغيرٍ إلى كبيرٍ حتى تُخرِجَه إلى الإلحادِ والزندَقَة، كما وقع هذا لغيرِ واحدٍ»[3].

* * *

(١) «التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٢١ ـ ٢٢٢).

(٢) «نظم الدرر» (٧/ ٢٢٣).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٣٠٦)، وقال ـ رحمه الله ـ في «الفتاوى» (٢/ ٢٣٠): «والبِدَعُ دِهْلِيز الكُفْرِ والنِّفاقِ».



فوائد في أسماء الذَّنب، ومرادفاته، والفروق بين مراتبه

الأفعالُ والأقوالُ والاعتقاداتُ المرفوضة شرعًا، المذمومة في الكتاب والسُّنَّة، جاء ذكرها بأسماء متعدِّدة، وأوصافٍ كثيرة، يحسُنُ الوقوف على معاني ما يتيسَّر إيرادُه منها، وهذا مبحثٌ دقيقٌ، لأنَّه يتعلَّق باستقراء استعمالات الألفاظ استعمالًا خاصًّا في عُرف الشَّرع المطهَّر، فنورِدُ منه هنا أطرافًا موجزةً، وحسبُك من القلادة ما أحاط بالعُنُق، سائلين الله العافيةَ من كلِّ الذُّنوب، دقيقِها وجليلِهَا، وظاهرها وباطِنِها.

فمن ذلك:

الذَّنب والمعصية: والفرق بينهما أنَّ المعصية يُنبئُ اسمُها عن كونها منهيًّا عنها، فإذا قيل: عصى فلانٌ، فالمعنى أنَّه قد وقعَ منه ما يحرُم عليه أو يُكْرَه منه، والذَّنبُ يُنبِئُ عن استحقاق فاعله العقابَ، ففيه معنىً يختصُّ به[1].

وأمَّا **الذَّنب والإثم**: فـ «الإثم: الذنب الذي يستحقُّ العقوبة عليه، ولا يصحُّ أن يوصف به إلا المجرم، وبين الإثم والذنب فرقٌ من حيث إنَّ الذَّنب مُطلَقُ الجُرم عمدًا كان أو سهوًا، بخلاف الإثم فإنَّه ما يستحق فاعله العقاب،

(١) انظر: «الفروق اللغويَّة» (ص٢٠٤) لأبي هلال العسكري.

فيختص بما يكون عمدًا»[1].

الذَّنب والوِزْرِ: والفرق بينهما «أنَّ الوِزْرَ يفيدُ أنَّه يُثْقِلُ صاحبَه، وأصلُه الثِّقل، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾[الشرح:٢ ـ ٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[محمد: ٤] أي: أثقالَها؛ يعني: السلاح»[2].

وأمَّا الفرقُ بين **الإثم والـجُرْمِ**: فهو «أنَّ الذَّنب ما يتبعه الذَّمُّ، أو ما يُتَتَبَّعُ عليه العبدُ من قبيحِ فِعْلِه... والأصلُ في الذَّنب: الرَّذْلُ من الفعل... والجُـرْمُ ما يُنْقَطَعُ به عن الواجبِ، وذلك أنَّ أصْلَه في اللُّغَةِ القَطْعُ، ومنه قيل للصِّرَامِ: الجِرَامُ؛ وهو قَطْعُ التَّمْرِ»[3].

ومن ذلك: **الإثم والعدوان**؛ «وكلٌّ منهما إذا أُفْرِدَ تضَمَّنَ الآخرَ، فكلُّ إثمٍ عدوانٌ، إذ هو فعلُ ما نهى الله عنهُ أو تركُ ما أمر الله به، فهو عدوانٌ على أمرِه ونهيِه، وكل عدوانٍ إثمٌ، فإنَّه يأثمُ به صاحبُه.

ولكن عند اقترانِهِمَا فهما شيئانِ بحَسَبِ مُتَعَلَّقِهِمَا ووَصْفِهِمَا، فالإثمُ ما كانَ محرَّمَ الجِنْسِ، كالكَذِبِ والزِّنَا وشرب الخمر ونحو ذلك، والعدوانُ ما كانَ محـرَّمَ القَدْرِ والزِّيادةِ، فالعدوانُ تعَدِّي ما أُبيحَ منهُ إلى القَدْرِ الـمُحَرَّمِ، والزيـادةُ كالاعتـداءِ في أَخْذِ الحَقِّ ممَّن هو عليهِ، إمَّا بأنْ يتَعَدَّى على مالِه أو بدَنِه أو عِرْضِه، فـإذا غَصَـبَه خشَبَةً لم يرْضَ عِوَضَهَا إلا دارَه، وإذا أتلفَ عليهِ شيئًا أتلفَ عليـهِ أضـعافَه، وإذا

---

(١) «فرائد اللغة في الفروق» (٥/ ٩٦ ـ ٩٧).

(٢) «الفروق اللغويَّة» (ص٤١٠).

(٣) «الفروق اللغويَّة» (ص٤١٠)، وانظر: «بهجة الخاطر ونزهة الناظر» (ص٥٧).

قال فيه كلمةً قال فيه أضعافَهَا، فهذا كلُّه عدوانٌ وتعَدٍّ للعَدْلِ»[1].

والفرقُ بين **الأثيمِ والآثمِ**: أنَّ الآثمَ فاعلُ الإثمِ، والأثيم هـو المتهـادي في الإثم، الغارق فيه[2].

وأمَّا الفرق بين **الإثم والخطيئة**: فإنَّ الإثم ما كان عن عَمْـدٍ خاصَّـة، وأمَّـا الخطيئة فهي أعمُّ من أن تكون عن عمْدٍ أو خطأ[3].

وأمَّا **المعصية والبدعة**، فبينهما فروقٌ يمكن إجمالها في الآتي[4]:

١ ـ تنفردُ المعصية بأنَّ مستند النَّهـي عنها ـ غالبًـا ـ الأدلَّـة الخاصَّـة، مـن نصوص الوحي أو الإجماع أو القياس، بخلاف البدعة، فإنَّ مستند النهـي عنهـا ـ غالبًا ـ هو الأدلَّة العامَّة، ومقاصد الشريعــة، وعمـوم قولـه ﷺ: **«كـلُّ بدعـةٍ ضلالة»**.

٢ ـ تنفرد البدعة بكونها مضاهيةً للمــشروع، إذ هـي تُضـاف إلى الـدِّين، وتُلحق به، بخلاف المعصية فإنَّها مخالفة المشروع، إذ هي خارجةٌ عن الدِّين، غـير منسوبةٍ إليه، اللهمَّ إلَّا إن فُعلت هذه المعصية على وجه التقـرُّب، فيجتمـع فيهـا ـ من وجهين مختلفين ـ أنَّها معصيةٌ وبدعةٌ في آنٍ واحدٍ.

٣ ـ تنفرد البدعة بكونها جُرمًا عظيمًا بالنسبة إلى مجاوزة حدود الله بالتشريع، إذ حاصلُها مخالفةٌ في اعتقاد كمال الشريعة، ورميٌ للشرع بالنَّقص والاستدراك،

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٦٨).

(٢) انظر: «الفروق اللغويَّة» (ص٤٠٩).

(٣) انظر: «بهجة الخاطر ونزهة الناظر» (ص١٧٥).

(٤) «إدمان الطروق لمعرفة الفروق» (ص٢٦٩ ـ ٢٧٠).

وأنَّها لم تكتمل بعد، بخلاف سائر المعاصي، فإنها لا تعود على الشريعة بتنقيصٍ ولا غضٍّ من جانبها، بل صاحب المعصية متنصِّلٌ منها، مقرٌّ بمخالفتِه لحُكمها.

٤ ـ تنفرد المعصية بكونها جُرمًا عظيمًا بالنسبة إلى مجاوزة حدود الله بالانتهاك، إذ حاصلها عدم توقير الله في النُّفوس بترك الانقياد لشرعه ودينه، وكما قيل: «لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى مَن عصيتَ»، بخلاف البدعة، فإنَّ صاحبها أنَّه موقِّرٌ لله، معظِّمٌ لشرعه ودِينه، ويعتقد أنَّه قريبٌ من ربِّه وأنَّه ممتثل لأمره، ولهذا كان السَّلف يقبلون رواية المبتدع إذا لم يكن داعيةً إلى بدعته، ولم يكن ممَّن يستحلُّ الكذب، بخلاف من يقترف المعاصي فإنَّه فاسق، ساقط العدالة، مردود الرواية باتفاق.

٥ ـ ولأجل ذلك ـ أيضًا ـ فإنَّ المعصية تنفرد بأنَّ صاحبها قد يحدِّث نفسَه بالتَّوبة والرُّجوع، بخلاف المبتدع؛ فإنَّه لا يزداد إلا إصرارًا على بدعته لكونه يرى عمله قُربةً، خاصة أرباب البدع الكبرى، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا** ﴾[فاطر: ٨]، وقد قال سفيان الثوري: «البدعة أحبُّ إلى إبليس من المعصية، لأنَّ المعصية يُتابُ منها والبدع لا يُتاب منها».

وممَّا يحسُن إيرادُه كذلك: الفرق بين **الزَّلَّةِ والمعصيةِ والكبيرة**، وممَّا قيل فيه: أنَّ «المعصية فعلٌ محرَّم يقع المرء عليه عن قصدِ فعلِ الحرام مع العلم في حُرمته، بخلاف الزَّلَّةِ، فإنَّها فعلٌ محرَّمٌ يقع المرء عليه عن قصدِ فعلِ الحلال، وقد تسمَّى الزَّلَّةُ معصيةً مجازًا، وفي الزَّلَّةِ يوجد قصدُ الفعلِ لا قصدُ العصيان، فهي مأخوذةٌ من قولهم: زلَّ الرجل في الطِّين، ولم يوجد القصدُ إلى الوقوع بل القصدُ إلى المشي في الطَّريق... والكبيرة ما كان حرامًا محضًا شُرع عليها عقوبةٌ محضةٌ

بنصٍّ قاطعٍ في الدُّنيا والآخرة»[1].

ومن ذلك: **المحظور والحرام**؛ فالمحظور ما نهى عنه ناهٍ، وإن كان في نفسِه قد يكون حسنًا أو فيه ما يُستحسن، أمَّا الحرامُ فلا يكون إلَّا قبيحًا في نفسِه، فكلُّ حرامٍ محظورٌ، وليس كلُّ محظورٍ حرامًا.

والمحظورات في الشَّرع كلُّها قبيحةٌ، لكون الشَّارع قد دلَّ الدَّليلُ على أنَّه لا يحظُرُ إلَّا القبيح[2].

ومن ذلك: **الطُّغيان والعُتُوُّ**؛ والفرق بينهما «أنَّ الطغيان مجاوزةُ الحدِّ في المكروه مع غلبةٍ وقهرٍ، ومنه قولُه ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ الآية [الحاقَّة: ١١]، يُقال: طغى الماءُ، إذا جاوز الحدَّ في الظُّلم، والعُتُوُّ: المبالغة في المكروه، فهو دون الطُّغيان، ومنه قولُه ـ تعالى ـ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾[مريم: ٨]، قالوا: كلُّ مُبالِغٍ في كِبْرٍ أو كُفرٍ أو فسادٍ فقد عَتَا فيه، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[الحاقة: ٦] أي: مبالِغَةٍ في الشِّدة»[3].

ومنه: **الفِسْقُ والخروج**؛ والفرق بينهما أنَّ الفِسْقَ هو الخروجُ المَكْروه، ولذا سُمِّيَ الخارجُ عن طاعةِ الله بكبيرةٍ (فاسقًا)، ومنه يُقال للفأرة: (الفُوَيْسِقَ) لأنَّها تخرج من جحرها للإفساد، ويُقال: فسقت الرُّطَبَةُ، إذا خرجت من قشرها، لأنَّ ذلك فسادٌ لها.

أمَّا الخروج، فمنه مذمومٌ ومنه محمود، فمن المحمود الخروجُ عن طاعة

---

(١) «فرائد اللغة في الفروق» (٥/ ١١٤).

(٢) انظر: «الفروق اللغوية» (ص٤٠٢).

(٣) «الفروق اللغويَّة» (ص٤٠٣) لأبي هلال العسكري.

الشيطان، ومن المذموم الخروجُ عن طاعة الله، وهو في صورته المذمومة يساوي الفسق[1].

ومنه: «الفرق بين **الفِسْقِ والفجور**: أنَّ الفِسْقَ هو الخروجُ من طاعةِ الله بكبيرةٍ، والفجورُ: الانبعاثُ في المعاصي والتوَسُّع فيها، وأصلُه من قولك (أَفْجَرْتُ السِّكْرَ) إذا خَرَقْتَ فيها خرقًا واسعًا فانبعثَ الماءُ كلَّ منبَعَثٍ، فلا يقال لصاحب الصغيرةِ فاجرٌ، كما لا يقال لمن خرقَ في السِّكْرِ خرقًا صغيرًا أنَّه قد فَجَرَ السِّكْرَ، ثمَّ كثُرَ استعمال الفجورِ حتى خُصَّ بالزِّنا واللِّواط وما أشبه ذلك»[2].

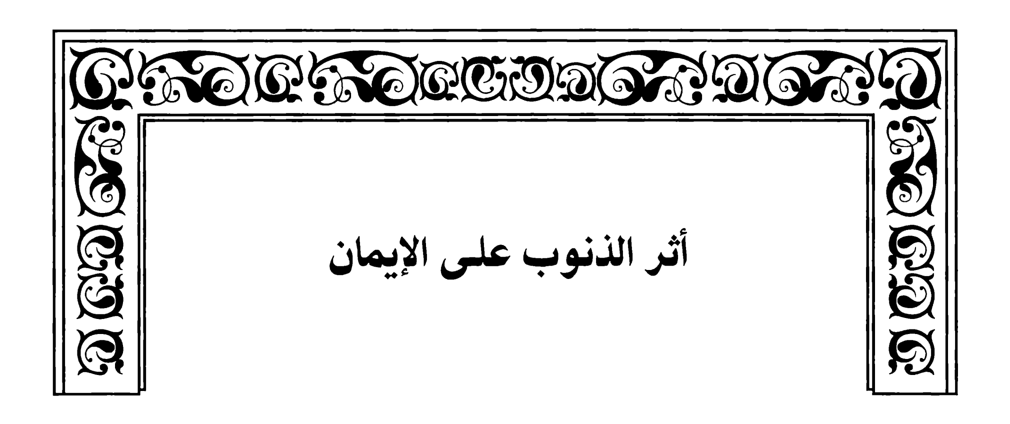
ومنها: «الفرقُ بين **الجَوْرِ والظُّلْمِ**: أنَّ الجَوْرَ خلافُ الاستقامةِ في الحكمِ، وفي السيرة السلطانية تقول: جارَ الحاكِمُ في حُكْمِه، والسُّلطانُ في سيرتِه، إذا فارقَ الاستقامةَ في ذلك، والظُّلْمُ ضَرَرٌ لا يُسْتَحَقُّ، ولا يُعْقِبُ عِوَضًا، سواءً كان من سلطانٍ أو حاكمٍ أو غيرِهما، ألا ترى أنَّ خيانةَ الدَّانِقِ والدِّرْهَمِ تسمَّى ظلمًا ولا تسمَّى جَوْرًا، فإنْ أُخِذَ ذلك على وجه القَهْرِ أو المَيْلِ سُمِّيَ جَوْرًا، وهذا واضحٌ»[3].

* * *

(١) انظر: «الفروق اللغويَّة» (ص٤٠٤).

(٢) «الفروق اللغويَّة» (ص٤٠٥).

(٣) «الفروق اللغويَّة» (ص٤٠٦).



أثر الذنوب على الإيمان

خطابُ الله ـ تعالى ـ لك أخي في الله، الذي يتضمَّنُ أمرًا أو نهيًا أو إرشادًا، أو تعليمًا وإخبارًا لك بعقيدةٍ تعتقدُهَا، كلُّه تكليفٌ لك يتوجَّه إلى واحدةٍ من جهاتٍ ثلاث: القلبِ، أو اللِّسانِ، أو الجوارح.

والعبوديَّة ـ في الواقعِ ـ تدورُ على خمسَةَ عَشَرَ محوَرًا، أو خمسَ عشْرَةَ قاعدةً، هي: أنَّ خطابَ الله ـ تعالى ـ يتوجَّه إلى واحدٍ من هذه الأركان الثلاثة: القلب واللِّسان والجوارح، وكلُّ خطابٍ لله قد يدلُّ على واجبٍ، أو مستحبٍّ، أو مُباحٍ، أو مكروهٍ، أو حرامٍ، فهذه أحكامٌ خمسةٌ، تجري على كلِّ واحدٍ من الأركان أو المتعلَّقات الثلاث، فالمجموعُ خمسة عشر.

وقد عرَّفَ أئمة الإسلامِ الإيمانَ بعباراتٍ كثيرةٍ كلُّهَا ترجعُ إلى هذه الحقيقة، وتبيِّنها، وتدلُّ عليها، كما أنَّهم عَلِمُوا من القرآن والسُّنَّةِ وعلَّمُونَا ـ أيضًا ـ أنَّ الإيمانَ ليس شيئًا واحدًا، بل يزيدُ وينقُصُ ويتقلَّب، فليسَ من عصى كمن أطاع، ولا من اتَّبَعَ كمن ابتدَع، ولا من أدَّى العبادةَ مع الاستثقالِ كمن أدَّاها مع المحبَّة والإقبال، ولا مَن أدَّى الصلاةَ بأركانِهَا وسُنَنِهَا ومستحبَّاتِهَا كمن هو بالكادِ يؤدِّي فرائضَها، فالله لا يظلِمُ مثقالَ ذرَّة، و﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾[الطلاق: ٣].

لذا فعلى كلِّ من يريد السَّعادة في الدنيا والآخرة، أنْ يكون مدركًا، وعارفًا

بحقيقة الإيمان الذي يرضاه الله، وتحصُلُ به النَّجاة، فهذا ـ والله! ـ خيرٌ له من أن يدَّعي دعاوى لا فائدة منها ولا طائل تحتها، بل لا يأتي منها إلا الضرر، ولا يعقبها إلَّا النَّدَم.

قال رسول الله ﷺ: «**الإيمانُ بِضْعٌ وسبعون ـ أو بِضْعٌ وستُّونَ ـ شُعْبَةً، فأفضلُها قولُ (لا إله إلا الله)، وأدْنَاها إماطةُ الأذى عن الطريق، والحياءُ شُعْبَةٌ من الإيمان**»[1].

فبيَّن ﷺ في هذا الحديثِ نماذجَ من شُعَبِ الإيمان، وأَوْرَدَ أمثلةً ونماذجَ تنمُّ عن المطالبِ التي وراءَهَا، فقولُ (لا إله إلا الله) قولٌ باللِّسان[2]، وإماطةُ الأذى عن الطَّريق فعلٌ بالجوارح، والحياءُ من أعمالِ القلب، فاكتملت بهذا التعليمِ النبويِّ صورةُ الإيمان المطلوب.

وسرُّ ذكر الحياء دون غيره للإشارة إلى أنَّه لا يأتي إلَّا بخير، وأنَّ جميعَ الخصالِ بما فيها أوَّلها وآخرها قائمةٌ على الحياء، فلولا استحياء العبد واعتقاده بمقابلة ربِّه لما نطقَ بالشهادة، ولولا الحياء من كشف عورات المسلمين لما أماطَ

---

(١) رواه مسلم (٣٥).

(٢) وليس المقصودُ أنَّها قولٌ مجرَّدٌ عن التصديق والاعتقاد! فإنَّها إذا كانت كذلك فليس لها عند الله معنى؛ لأنَّ المسلم إذا قالها ـ أو قالها مَن يريدُ الإسلام ـ فإنَّه يقول: (أشهدُ أن لا إله إلا الله)، فهو يشهدُ بها شهادةً ولا يلفظها لفظًا فقط، ومعنى (أشهد) هنا: أقولُ بلساني مخبرًا عمَّا في جَنَاني وقلبي، فهي إخبارٌ باللِّسانِ عن حقيقةِ الاعتقادِ الذي في القلب، والإخبارُ عمَّا في القلبِ لا يكونُ باللِّسانِ فقط، بل إنَّ أعمال الجوارح ـ أيضًا ـ تكونُ شهادة؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ**﴾[التوبة: ١٧].

الأذى عن الطريق، فـ «الحَيِيُّ يخاف فضيحة الدُّنيا وعقوبة الآخرة، فينزجر عن المعاصي، ويمتثل الطاعات كلِّها بكثرة حيائه، وجُعل الحياء من الإيمان لأنه قد يكون تَخَلُّقًا واكتسابًا كسائر أعمال البرِّ، وقد يكون غريزةً، لكن استعماله على قانون الشرع يحتاج اكتساب ونيَّة، فهو من كمال الإيمان، وباعثٌ على أفعال الخير»[1].

«وقد يُفْرِطُ الحياء على بعض النَّاس، فيحمله على أن لا يواجه أحدًا بالحقِّ، ويترك الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، ويحمله على المداهنة في الحقِّ وغير ذلك ممَّا هو معروفٌ في العادة، وكلُّ هذا الحياء مذمومٌ ويحرم استعماله، ويجب الانكفاف عنه، وهذا الحياء ليس بحياء حقيقةً، وهو أحقُّ باسم الخَوَر والجُبن والعجز والـمَهَانة»[2].

قال ابنُ القيِّم ـ رحمه الله ـ:

«وهو حقيقةٌ مرَكَّبَةٌ من معرفةِ ما جاءَ به الرسولُ عِلْمًا، والتَّصدِيقُ به عَقْدًا، والإقرارُ به نُطْقًا، والانقيادُ له محبَّةً وخُضُوعًا، والعَمَلُ به باطنًا وظاهرًا، وتنفيذُه والدَّعْوَةُ إليهِ بحَسَبِ الإمكانِ، وكمالُه في الحُبِّ في الله والبُغْضِ في الله، والعَطَاءِ لله والـمَنْعِ لله، وأن يكونَ اللهُ وحدَه إلهَه ومعبودَه، والطريقُ إليهِ تجريدُ متابعةِ رسولِه ظاهرًا وباطنًا، وتغميضُ عينِ القلبِ عن الالتفاتِ إلى سوى الله ورسولِه، وبالله التوفيق»[3].

---

(١) «شرح سنن أبي داود» (١٨/ ٤٥٧) لابن رسلان الرملي.

(٢) المرجع السابق (١٨/ ٤٥٩).

(٣) «الفوائد» (ص١٥٦).

ومن هنا كثُرَت عبارات السَّلَف الصَّالحِ في الإخبارِ عن حقيقةِ الإيمان بأنَّه قولٌ وعملٌ واعتقاد، وفي بيان أنَّ المعاصي تضرُّ به، سواءً وقَعَت من الجوارحِ أو اللِّسانِ أو القلب.

قال الصِّدِيقُ الأكبرُ أبو بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ: «إيَّاكم والكذب، فإنَّ الكذبَ مُجَانِبُ الإيمان»[1] أي: يُضادُّهُ ويخالفُه مخالفةً شديدةً.

وقال الفاروقُ الأكبرُ عمرُ ـ رضي الله عنه ـ: «لِيَمُتْ يهوديًّا أو نصرانيًّا ـ يقولها ثلاثَ مرَّاتٍ ـ رجلٌ ماتَ ولم يَحُجَّ، وَجَدَ لذلك سَعَةً، وخُلِّيَتْ سبيلُهُ...»[2].

وقال أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالبٍ ـ رضي الله عنه ـ: «خَمْسٌ احفظوهنَّ، لو رَكِبْتُم الإبِلَ لأَنْضَيْتُمُوهَا قَبْلَ أنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لا يخافُ العبدُ إلا ذَنْبَه، ولا يرجو إلا ربَّه، ولا يستحيي جاهلٌ أنْ يسألَ، ولا يستحيي عالمٌ إنْ لَمْ يعْلَمْ أنْ يقول: الله أعلم، والصَّبْرُ من الإنسانِ بمَوْضِعِ الرَّأْسِ من الجَسَدِ، إذا قُطِعَ الرَّأْسُ يَيْبَسُ مَا في الجَسَدِ، ولا إيمانَ لِـمَن لا صَبْرَ له»[3].

وقال حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنهما ـ: «الإسلامُ ثمانيةُ أسهُمٍ: فالإسلام سهمٌ، والصَّلَاةُ سهمٌ، والزَّكَاةُ سهمٌ، وصومُ رمضانَ سهمٌ، والحَجُّ سهمٌ، والجِهَادُ

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٧٣٦)، **وسنده صحيح.**

(٢) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ٣٣٤) رقم (٨٤٤٤)، **وسنده حسن.**

(٣) رواه معمر بن راشد في «جامعه» رقم (٢١٠٣١) في ذيل «مُصَنَّف عبد الرزاق»، **وسنده حسن.**

سهمٌ، والأمرُ بالمعروفِ سهمٌ، والنَّهْيُ عن الـمُنْكَرِ سهمٌ، وقدْ خابَ من لا سهمَ له»[1].

وقال سعد بن أبي وقَّاص ـ رضي الله عنه ـ: «المؤمنُ يُطْبَعُ على الخِلَالِ كلِّهَا، إلَّا الخيانةُ والكذبُ»[2].

وقال الحسن البصري: «إنَّ الإيمان ليس بالتحلِّي ولا بالتَّمَنِّي، إنَّ الإيمان ما وقرَ في القلبِ وصدَّقَه العمل»[3].

وقال سعيد بن جبير: «لا يُقبلُ قولٌ إلا بعمل، ولا يُقبلُ عمـلٌ إلا بقـولٍ، ولا يُقبلُ قـولٌ وعمـلٌ إلا بنِيَّـةٍ، ولا يقبـلُ قـولٌ وعمـلٌ ونِيَّـةٌ إلَّا بنِيَّـةٍ موافقـةٍ للسُّنَّةِ»[4].

وقال عُبَيْدُ بن عُمَيْر: «من صِدْقِ الإيمانِ وبِرِّه؛ إسباغُ الوضوءِ في الـمَكَارِهِ، ومن صِدْقِ الإيمانِ وبِرِّهِ أنْ يَخْلُوَ الرَّجُلُ بالمرأةِ الحَسْنَاءِ[5] فيَدَعُهَا، لا يدَعُهَا إلَّا للهِ»[6].

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠/ ٦٩) رقم (٧١٧٩)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٥/ ٣٥٢)، وسنده صحيح.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١١/ ١٨)، وسنده صحيح، وهو صحيحٌ بلفظٍ مُقاربٍ عن ابن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ أيضًا.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١١/ ٢٢).

(٤) خرَّجه اللَّالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (١/ ٦٣ ـ ٦٤) رقم (٢٠).

(٥) المقصود: مَنْ ساقَه القَدَرُ إلى الخلوةِ، لا مَنْ سعَى إليها، وإلَّا لم يكن محمودًا على ذلك بل مذمومًا، وكان حرصُه على الخَلْوَةِ من اتِّبَاعِ خطُوَاتِ الشَّيْطَانِ لا من طاعةِ الرَّحمن!

(٦) رواه ابن أبي شيبة في «المصنَّف» (١٣/ ٤٣٩).

وقال زيد بن أسلم: «لا بُدَّ لأهلِ هذا الدِّينِ مـن أربـعٍ: دخـولٌ في دعـوةِ الإسلامِ، ولا بُدَّ مِن الإيمانِ، وتصديقٌ بالله والمرسَلين أوَّلِهـم وآخِـرِهم، وبالجنَّـةِ والنَّارِ، والبَعْثِ بَعد الموت، ولا بُدَّ من أنْ تعمَلَ عملًا تُصَدِّقُ به إيمانَك، ولا بُـدَّ من أن تعلَم عِلْمًا تُحْسِنُ به عَمَلَكَ، ثمَّ قرأَ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[طه: ٨٢]»[1].

وقال بلال بن سعد: «عبادَ الرحمن! إنَّ العبدَ ليقولُ قَوْلَ مؤمنٍ، فلا يَدَعُـهُ اللهُ وقولَه حتى ينظُرَ في عملِه، وإنْ كانَ قولُهُ قَـوْلَ مـؤمنٍ، وعَمَلُـهُ عَمَـلَ مـؤمنٍ، لم يَدَعْهُ اللهُ حتى ينظُرَ في وَرَعِهِ، فإنْ كانَ قولُهُ قَوْلَ مـؤمنٍ، وعَمَلُـهَ عَمَـلَ مـؤمنٍ، ووَرَعُه وَرَعَ مؤمنٍ، لم يَدَعْهُ اللهُ حتى ينظُرَ ما نَوَى به، فإنْ صَلُحَت النِّيَّةُ فَبِالحَرِيِّ أنْ يَصْلُحَ دونَه، المؤمن يقولُ قولًا يُتْبِعُ قولَه عَمَلَه، والـمُنَافِقُ يقـولُ بـما يَعْـرِفُ، ويَعْمَلُ بما يُنْكِرُ»[2].

وقال إبراهيم التَّيْمِيُّ: «ما عَرَضْتُ قولي على عملي، إلَّا خشـيتُ أن أكـونَ مُكَذِّبًا!»[3].

وما جاء عـن أئمَّة الهُدَى والدِّين في بيـان حقيقـةِ الإيـمانِ لا تسـعُهُ آلافُ الصَّفحات، وإنَّما المقصودُ انتقاء نُتَفٍ تُنبِئُ عمَّا وراءَهَا.

فليت شعري! على أيِّ شيءٍ يعتمدُ أصحابُ دعوى (بياض القلب)! الذين يزعمونَ أنَّ الإيمانَ هو ما كان في القلبِ فقط، وأنَّه بذلك كاملُ الإيمانِ، ولا يَقْنَعُ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «الإيمان» (٣٦).

(٢) رواه البيهقي في «شُعَب الإيمان» (٩/ ١٨٢ ـ ١٨٣) رقم (٦٤٦٣).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنَّف» (١٣/ ٤٣١).

بذلك حتى يُفَضِّلَ نفسَه على العاملين.

وإنَّما غَرَّ المسكينَ نجاحُهُ في وظيفَتِه، وصلاحُ دُنْيَاه، ومكانَتُه في قومِه، وشَرَفُهُ في أهله، وكونُهُ محبوبًا بين أقرانِهِ وأصدقاءِهِ وأصحابِهِ، فظنَّ أنَّه لا يضرُّهُ مع ذلك أن يزني، أو يكذب، أو ينهب، أو يشربَ الخمرَ، أو يشهدَ الزور، أو يسفكَ الدَّم الحرام، أو ينتهكَ الحُرُمَات بالعدوانِ أو النَّظَر، ويرى مع كلِّ ذلكَ أن تصديقه بأنَّ له ربًّا يكفيه ويُنْجِيه! ثمَّ لا صلاةَ ولا صيامَ ولا زكاةَ ولا غيرَ ذلك ممَّا أمرَ الله به ورسولُه.

وغَرَّ المسكينةَ الثَّناءُ على جَمَالِهَا، وطاشَ بعقلِهَا الإعجابُ بثيابِهَا وزينَتِهَا، وأعماها لَمْعُ حُلِيِّهَا، فانطلقَت لا تتحاشَى من تكشُّفٍ، ولا تبرُّجٍ، ولا تهتُّكٍ، ولا مُخَالطَةٍ للأجانِبِ، ولا خَلْوَةٍ بهم، بل الرَّقصُ والتَّكسُّرُ والتَّلَوِّي والتَّمايُلُ أمامَهُم على نحوٍ يحرِّمُهُ الله أمامَ الوالِدَيْنِ، بل أمامَ النِّسَاءِ، بل قد تزيدُ على ذلك اللَّمْسَ والهَمْس، بل ما هو فوقَه من الفاحشَةِ ومقدِّمَاتِهَا! ما كأنَّ لها ربًّا شَرَعَ لها ولأمثالِهَا سَتْرًا وعَفَافًا، ولا كأنَّ لها نبيًّا سَنَّ لها ولأمثالِهَا فضيلةً وحياءً! وكلُّ ذلك مصحوبٌ بدعوى (بياضِ القلب).

فيا بِيْضَ القُلوبِ! تصدِّقُونَ أنفُسَكُم التي غَرَّتْكُم، وشياطينكُم التي أغوَتْكُم؟ أم تصدِّقونَ رسولَكُم الذي أرسلَه الله لرحمَتِكُم وهدايَتِكُم ونَجَاتِكُم؟

قال حذيفةُ بن اليمان ـ رضي الله عنهما ـ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«تُعْرَضُ الفِتَنُ على القلوبِ كالحَصِيرِ؛ عُوْدًا عُوْدًا، فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سوداءُ، وأيُّ قلبٍ أنْكَرَهَا نُكِتَ فيهِ نُكْتَةٌ بيضاءُ، حتى تصيرَ على قَلْبَيْنِ، على أبيضَ مثلِ الصَّفَا، فلا تضُرُّهُ فتنةٌ ما دامت السَّمَوَاتُ والأرضُ، والآخَرُ أسودُ**

مِرْبَادًّا، كالكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يعـرفُ معروفًـا ولا يُنْكِـرُ مُنْكَـرًا، إلَّا مـا أُشْرِبَ مِـنْ هَوَاهُ»(١).

فها هو نبيُّكُم يخبرُكُم يا عبادَ الله! أنَّ من اجتنبَ الفِتَنَ وتَرَكَ المعاصِي، وعوَّدَ نفسَه ذلك، فإنَّ الله يُعِينُ قلبَه ويُسْنِدُهُ حتى تصيرَ النَّجاةُ من الفتنةِ وحبائِلِ الشيطانَ عادةً له، لأنَّ قلبَه ساعتئذٍ في ثباتِهِ أمامَ الوساوِسِ وصلابَتِهِ أمامَ الباطِلِ كالصَّفَا؛ أي: كالصَّخْرَةِ الملساء البيضاء، فلا تضرُّهُ فتنةٌ أبدًا حتى يلقى اللهَ بهذا القلبِ السَّليمِ الأبيَض، الذي بيَّضَتْهُ الطَّاعةُ والتَّقْوَى.

وأمَّا مَنْ ارتكبَ المعاصي، وانساقَ مع الفِتَنِ، وانْمَاعَ مع الشَّهواتِ، وتقلَّبَ على ظهرِهِ وبطنِهِ في الموبِقَات، فأنَّى له أن يدَّعِيَ بياضَ قلبِهِ! والرَّسولُ ﷺ يشهدُ عليه بسوادِ قلبِهِ، فقلبُه أسودُ مِرْبَادٌّ، وهو لونٌ بينَ السَّوَادِ والغُبْرَةِ، فهو أسودُ مُغْبَرٌّ كلَوْنِ معظَمِ النَّعَامِ، ولذلك فإنَّ العَرَبَ تسمِّي النَّعامَةَ (رَبْدَاء).

لكنَّ الذي ينبغي أن يخيفَ حقًّا، هو الوصفُ الآخَرُ من أوصَافِ هذا القَلْبِ الأسوَدِ! فاسمعوا يا بِيضَ القُلُوبِ وتأمَّلُوا!

فإنَّ هذا القلبَ كالكُوزِ مُجَخِّيًا؛ أي: كالإبريقِ المقلوبِ، فإنَّـا لله وإنَّـا إليـهِ راجعون!

أرأيتَ لو أنَّكَ سكَبْتَ البَحْرَ على إبريقٍ مقلوبٍ، هل كانت تدخُلُه قطرة؟ هل كان ينتفعُ من البَحْرِ الخِضَمِّ ولو بمثلِ عَرَقِ النَّدى؟ كلَّا والله!

فكذلك هذه القلوبُ بعد تقلُّبِهَا في الفِتَنِ والمعاصي والشَّهوات، لا تَعْلَقُ بها حكمة، ولا يدخُلُهَا خير، ولا تكتسبُ فضيلةً، إلَّا ما أُشْرِبَت من الهوى!

---

(١) رواه مسلم (١٤٤).

أفرأيتُم أيُّهَا المساكين! موازينكم وفلسفاتِكُم التي بها تصوِّبُونَ وتُخَطِّئُون، وتَخْفِضُونَ وترفَعُون، وتُقَدِّمُونَ وتُؤَخِّرُون؟ فإنَّهَا ليسَ لها اسمٌ إلَّا (الهوى)، الذي ما ذكَرَهُ الله في كتابِهِ إلَّا مذمومًا محذورًا بغيضًا، كما سبقت الإشارةُ إليه.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ لا ينظُرُ إلى صُوَرِكُم وأموالِكِم، ولكن ينْظُرُ إلى قلوبِكُم وأعمالِكُم**»(١).

فهؤلاء عمدوا إلى صُوَرِهِم وظواهرهم فجمَّلُوهَا وزيَّنُوهَا إلى حدِّ الجنونِ والهَوَس! وإلى أموالهم فاستكثروا منها وتنافسوا في جمعها حتى قتلَ بعضُهُم بعضًا، وقطَّعوا أرحامَهُم، وأمَّا أعمالُهُم التي ينظُرُ ربُّهُم إليها فلم يسألوا فيها عمَّا يرضيه ولا عمَّا يُسخِطُه، وأمَّا قلوبُهُم فكذبوا فيها على أنفُسِهِم فادَّعَوْا سلامَتَها، ثمَّ أرادوا أن يراها ربُّهُم كما يَرَوْنَهَا! فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ:

«الإيمانُ له ظاهرٌ وباطنٌ، وظاهرُه قولُ اللِّسَانِ وعملُ الجوارحِ، وباطنُه تصديقُ القلبِ وانقيادُه ومحبَّتُه، فلا ينفعُ ظاهرٌ لا باطنَ له، وإنْ حَقَنَ به الدِّمَاءَ وعَصَمَ به المَالَ والذُّرِّيَّةَ، ولا يجزئُ باطنٌ لا ظاهرَ له، إلَّا إذا تعذَّرَ بعَجْزٍ أو إكراهٍ وخوفِ هلاكٍ.

فتَخَلُّفُ العملِ ظاهرًا مع عَدَمِ المانِعِ دليلٌ على فسادِ البَاطِنِ وخُلُوِّهِ من الإيمانِ، ونقصُه دليلُ نقصِه، وقُوَّتُهُ دليلُ قُوَّتِهِ.

فالإيمانُ قلبُ الإسلامِ ولُبُّه، واليقينُ قلبُ الإيمانِ ولُبُّه، وكلُّ عِلْمٍ

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤/ ٣٤).

وعَمَلٍ لا يزيدُ الإيمانَ واليقينَ قُوَّةً فمَدْخُولٌ، وكلُّ إيمانٍ لا يَبْعَثُ على العَمَلِ فَمَدْخُولٌ»[1].

فتبجَّحُوا بألسنتِكُم وأطلِقوهَا اليومَ تنافحُ عن جوارحكُم! فإنَّ لها يومًا تُسأل فيه! وتقومُ الجوارحُ التي استمتعتُم بها تشهدُ عليكُم وتبثُّ إلى الله شكوَاها ومظلوميَّتَها أنْ رُكِّبَت على أجسادِكُم أيُّهَا المساكين! ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[يس: ٦٠ ـ ٦٥].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[فصلت: ٢٠ ـ ٢٣].

وهذا المذهبُ الباطلُ الذي أشرنا إليه هو في الحقيقةِ مذهبُ المرجئة، وهي طائفةٌ مبتدعةٌ ضالَّةٌ خارجةٌ عن الكتابِ والسُّنَّةِ، أكثرُهَا ضلالًا مَنْ قال: الإيمانُ هو معرفةُ القلب، ولا يضرُّ مع الإيمانِ ذنبٌ!

قال الحافظُ ابن حجر: «والمرجئة ـ بضمِّ الميم، وكسر الجيمِ بعدَها ياء مهموزةٌ، ويجوز تشديدها بلا همزٍ ـ نُسِبُوا إلى الإرجاءِ، وهو التأخير، لأنَّهم أخَّرُوا

(١) «الفوائد» (ص١٢٤).

الأعمالَ عن الإيمانِ، فقالوا: الإيمانُ هو التصديقُ بالقلبِ فقط! ولم يشترط جمهورهم النُّطْقَ، وجعلوا للعُصَاةِ اسمَ الإيمانِ على الكمالِ، وقالوا: لا يضرُّ مع الإيمانِ ذنبٌ أصلًا! ومقالاتهم مشهورةٌ في كتب الأصول»[1].

النُّصوصُ الدَّالَّةُ على أنَّ الذنوبَ تُنقِصُ الإيمان

قلتُ: فكيف يصنعُ هؤلاء، وكيف تصنَعُ نُسختُهُم المعاصرة ـ التي أشرنا إليها ـ بقولِ الرسولِ ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربُ وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذاتَ شَرَفٍ يرفعُ النَّاسُ إليهِ فيها أبصارَهُم وهو مؤمن**»[2]؟!

وقد اختصرَ الإمامُ النَّوَويُّ ـ رحمه الله ـ في تبويبِهِ معنى هذا الحديثِ اختصارًا جميلًا، فقال: «بابُ بيانِ نقصانِ الإيمانِ بالمعاصي، ونفيُه عن المتلبِّسِ بالمعصيةِ، على إرادةِ نفيِ كمالِه».

بمعنى: أنَّ هذا الحديثَ دليلٌ عظيمٌ على أنَّ من ارتكبَ هذه المعاصي فقد نقصَ إيمانُهُ نقصًا عظيمًا حتى كادَ يزولُ ويذهب، ولم يبقَ معه منه إلَّا أقلَّ القليل.

وكيف يصنعون بقوله ﷺ: «**والله! لا يؤمن، والله! لا يؤمن، والله! لا يؤمن**»، قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «**الذي لا يَأْمَنُ جارُه بَوَائِقَهُ**»[3].

---

(١) «فتح الباري» (١/ ١١٠).

(٢) رواه مسلم (٥٧)، ومعنى «**ينتهبُ نُهبَةً ذاتَ شرفٍ**»: يختلسُ مالًا عظيمًا، يطمعُ النَّاسُ في مثله ويتشوَّفُونَ إليه، كما أكَّدَ على هذا المعنى بعد ذلك بقوله: «**يرفع النَّاسُ إليه فيها أبصارَهُم**». انظر: «النهاية» (٥/ ١٣٣).

(٣) رواه البخاري (٦٠١٦).

فها هو سوءُ الجِوَارِ، وهو عَدمُ رعايَةِ العشرةِ الحسَنَةِ للجارِ وهو مخلوقٌ مثلُكَ، يُنْقِصُ الإيمانَ هذا النَّقصَ، فكيفَ بحقِّ الخالِقِ؟!

وكيف يصنعونَ بقولِهِ ﷺ: «**سِبَابُ المسلمِ فُسُوقٌ، وقِتَالُه كُفْرٌ**»[(١)]؟!

وبقول رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ الإيمانَ قيَّدَ الفَتْكَ، لا يفْتُكُ مؤمنٌ**»[(٢)]؟!

الفَتْكُ هو الغَدْرُ، وهو «أنْ يأتِيَ الرجُلُ صاحبَه وهو غَارٌّ غافِلٌ، فيَشُدُّ عليه فيقتُلُه»[(٣)]، والإيمانُ يقيِّدُ المؤمنَ عن فعلِ ذلك، ويمنعُهُ منه، فمن فعلَه لم يكن مؤمنًا كاملَ الإيمان، بل نقصَ إيمانُه بهذه الجريمةِ.

قال المنذري: «أي: أنَّ الإيمان يمنع من القتل، كما يمنع القيدُ عن التصرُّف، فكأنَّه جعلَ الفَتْكَ مقيَّدًا»[(٤)].

والشاهدُ أنَّ مذهبَ المرجِئَة الذين يقولون: لا يضرُّ مع الإيمانِ ذنبٌ! مذمومٌ جدًّا، قد حكمَ القرآنُ والسُّنَّةُ ببطلانِهِ وانحرافِهِ، وبذلك حكمَ عليه السَّلَفُ الصَّالحُ، وأئمَّةُ الهدى من بعدِهِم، وكلُّ من اتَّبَعَهُم بإحسانٍ.

قال إبراهيم النخعي: «لَفِتْنَةُ الـمُرْجِئَةِ على هذه الأمَّةِ أخوفُ عندي من فتنة الأزارقة»[(٥)].

---

(١) رواه البخاري (٤٨).

(٢) رواه أحمد (١/ ١٦٦)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٩٦٧٦، ٩٦٧٧)، وابن أبي شيبة (١٥/ ١٢٣، ٢٧٩)، وسنده صحيح.

(٣) «النهاية» (٣/ ٤٠٩)، و«مختصر سنن أبي داود» (٤/ ٨٣) للمنذري.

(٤) «مختصر سنن أبي داود» (٤/ ٨٣).

(٥) رواه الخلَّال في «السُّنَّة» (٣/ ٥٦٢ ـ ٥٦٣) رقم (٩٥١)، والأزارقة: أتباعُ نافع بن =

وقال: «تركَتْ الـمُرْجِئَةُ الدِّينَ أَرَقَّ من ثوبٍ سَابِرِيٍّ»[1].

وقال سفيان بن عيينة: «دِيْنٌ مُحْدَثٌ دِينُ الإِرْجَاء»[2].

وقال الأوزاعي: كان يحيى وقتادة يقولان: «ليس من الأهواءِ شيءٌ أخوفُ عندهم على الأمة من الإرجاء»[3].

وقال سعيد بن جبير: «مَثَلُ المرجئةِ مَثَلُ الصَّابئين»[4].

وقال شَريك ـ وذكرَ المرجئة ـ: «هم أخبثُ قوم، وحسبُك الرافضةَ خُبْثًا، ولكنَّ المرجئةَ يكذِّبونَ الله[5]»[6].

ودخلَ محمَّد بن يوسف على سفيان الثَّوري ـ رحمه الله ـ وهو يقلِّبُ

= الأزرق، فرقةٌ من عُتَاةِ وغُلاةِ الخوارجِ، لا بارك الله فيهم ولا في أتباعِهِم.

(١) رواه اللَّالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٥/ ١٠٦١) رقم(١٨٠٧).

قال القاضي في «مشارق الأنوار» (٢/ ٢٠٤): «قال ابن دريد: ثوبٌ سابِرِيٌّ: رقيقٌ، وكلُّ رقيقٍ سابِرِيٌّ، والسَّابِرِيُّ من الدُّرُوعِ الرقيقةِ السَّهْلَةِ، وأصله سابُورِيٌّ، منسوب إلى سابور، فثَقُلَ عليهم فقالوا: سابِرِيٌّ، قال ابن مكي: السَّابِرِيُّ من الثياب: الرقيقُ الذي لابِسُه بينَ العَارِي والـمُكْتَسِي».

(٢) رواه الخلَّال في «السُّنَّة» (٣/ ٥٦٣) رقم (٩٥٢).

(٣) رواه عبد الله بن أحمد في «السُّنَّة» (١/ ٣١٨) رقم (٦٤١).

(٤) رواه اللَّالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٥/ ١٠٦٣) رقم (١٨١٣).

(٥) **قلت**: كلاهما مُكَذِّبٌ والله! لكن المرجئةَ كذَّبوا بما في كتابه وسنَّة رسوله ﷺ، والرَّافضةُ زادوا على ذلك أن اختلقوا دينًا آخرَ فنسبوه إليه، وسمَّوه (الإسلام)! واتَّخذوا اثنَيْ عَشَرَ نبيًّا معصومًا بعد نبيِّه! نسأل الله العافية.

(٦) رواه اللَّالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٥/ ١٠٦٦) رقم (١٨٢٤).

المصحفَ؛ فقال: «ما أحدٌ أبعد منه من المرجئة»[1].

فمختصرُ القولِ أنَّ الإيمانَ يزيدُ بالطَّاعة حتى يكتملَ، إذا اكتملَ للعبدِ أداء كلِّ المطالبِ الشرعيَّةِ الظاهرة والباطنة، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾[الأنفال: ٢ ـ ٤].

وينقصُ بالمعصية، ويتناقصُ بالذنوبِ حتى يكادُ يزول، بل يزولُ بالكلِّيَّة إذا ارتكبَ الإنسانُ ما ينقضُهُ ويُضَادُّه من جميعِ الوجوه سواء بالأقوال أو الأعمال، كأن يُشركَ بالله، أو يجحدَ ألوهيَّتَه وربوبيَّتَه، أو يسبَّه أو يسبَّ دينَه أو رسولَه ﷺ، أو يسجد لصنم، أو يلقي القرآن الكريم في القاذورات، وما شابهه.

وما أجملَ عبارةَ الإمام ابن بطَّة العُكْبَرِي في «الإبانـةِ الصُّـغْرى»(ص١١٧ وما بعدها)، إذ يقول:

«ونحنُ الآنَ ذاكرونَ شرحَ السُّنَّةِ ووَصْفَهَا وما هي في نفْسِهَا، ومـا الـذي إذا تمَسَّكَ به العبدُ ودَانَ الله به سُمِّيَ بها، واستَحَقَّ الدُّخولَ في جملةِ أهلها، وما إنْ خالَفَه أو شيئًا منه، دخلَ في جملةِ من عِبْنَاهُ، وذَكَرْنَاهُ، وحذَّرْنَا منه من أهلِ البِـدَعِ والزَّيْغِ، **مما أجمعَ على شرْحِنَا له أهلُ الإسلامِ، وسائرُ الأُمَّةِ مُذْ بَعثَ الله نبيَّـه ﷺ إلى وقتنا هذا.**

فأوَّلُ ما نبدأ بذِكْرِهِ من ذلك: ذِكْرُ ما افترضَ الله ـ عز وجل ـ على عبـادِه، وبعثَ به رسولَه ﷺ، وأنزلَ فيه كتابَه، وهو الإيمانُ باللهِ ـ عز وجل ـ.

---

(١) رواه اللَّالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٥/ ١٠٦٧) رقم (١٨٢٩).

ومعناه: التصديق بما قالَه، وأمرَ به، وافترَضَه، ونهى عنه، من كلِّ ما جاءتْ به الرُّسُلُ من عندِه، ونزلت فيهِ الكُتُب، وبذلكَ أرسلَ المُرْسَلِين، فقال ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

والتَّصدِيقُ بذلك: قولٌ باللِّسانِ، وتَصْدِيقٌ بالجَنانِ، وعَمَلٌ بالأَرْكانِ، يزيدُه كثرةُ العَمَلِ والقولِ بالإحسان، وله أوَّلٌ وبِدايَةٌ، ثمَّ ارتقاءٌ وزيادةٌ بلا نهاية».

ومن زعمَ أنَّ الإيمانَ في القلبِ فقط، لا تزيدُه طاعةٌ ولا تُنْقِصُهُ معصية، فيُطرَحُ عليه السؤالُ الذي طرحَه الإمامُ وكيعُ بن الجرَّاح ـ رحمه الله ـ: «ترى إيمانَ الحَجَّاجِ مثلَ إيمانِ أبي بكرٍ وعُمَرَ ـ رحمهما الله ـ؟!»[1].

وهذا المعنى هو عينُ ما وضَّحَه شيخُنا الإمامُ الألبانيُّ ـ رحمه الله ـ، فقال:

«لهذا أنا أقول اليوم، لا فائدةَ مطلقًا من تكتيلِ المسلمين ومن تجميعهم على تركهم في ضلالهم، في بُعْدِهِم عن فهم هذه الكلمة الطيبة[2]، وذلك لا يفيدهم في الدُّنيا قبلَ الآخرة، نحن نعلمُ جميعًا أنَّ قولَ النبيِّ ﷺ: **«من مات وهو يشهد أنْ لا إله إلا الله مخلصًا من قلبِه، حرَّمَ الله بدَنَه على النَّار»**، وفي أحاديثَ أخرى: **«دخلَ الجَنَّة»**[3]، فلا يمكنُ ضمانُ دخولِ الجَنَّة، ولو بعد لأْيٍ، ولو بعدَ عذابٍ يمسُّ القائِلَ والمُعْتَقِدَ الاعتقادَ الصحيحَ لهذه الكلمةِ، فإنَّ هذا قد يعاقَب بناءً على ما

---

(١) رواه الخلَّال في «السُّنَّة» (٣/ ٥٨٨) رقم (١٠٣٠).

(٢) أي: لا إله إلا الله.

(٣) أخرجه شيخنا الألباني في «الصحيحة» برقم (١٣١٤).

ارتكب واجترحَ من المعاصي والآثام، ولكن سيكون مصيرُه دخولُ الجَنَّة.

وعلى العكسِ من ذلك، من قال هذه الكلمةَ الطيبة بلسانِه ولَـمَّا يدخل الإيمانُ إلى قلبِه، فذلك لا يُفِيدُه شيئًا في الآخرة، قد يفيدُه في الدنيا النَّجاةَ من القتالِ ومن القَتْل، أمَّا في الآخرةِ فلا يفيدُه شيئًا، إلا إذا قالها فاهمًا لمعناها أوَّلًا، ومعتقِدًا لهذا المعنى، لأنَّ الفَهْمَ والمعرفةَ وحدَها لا يكفي، إلا إذا اقترنا مع الفَهْمِ والإيمانِ بهذا المفهوم.

وهذه النقطة أظنُّ أنَّ كثيراً من النَّاس عنها غافلون، وهي: لا يلزم من الفهمِ الإيمانُ، لا بدَّ أن يقترن كلٌّ من الأمرَيْن مع الآخَر حتى يكون مؤمنًا، ذلك لأنَّكم تعلمونَ ـ إن شاء الله ـ أنَّ كثيرًا من أهلِ الكتابِ من اليهود والنَّصارى كانوا يعرفون أنَّ محمَّدًا ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ رسولٌ صادقٌ فيما يدَّعيه من الرِّسالة والنبوَّة، ولكن مع ذلك؛ أي: مع هذه المعرفةِ التي شهد لهم بها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ حين قال: ﴿**يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ**﴾[البقرة:١٤٦]، ومع ذلك فهذه المعرفة ما أغنتهم شيئا، لماذا؟ لأنَّهم لم يصدِّقوه فيما عرفوا منه من ادعائه النبوة والرسالة.

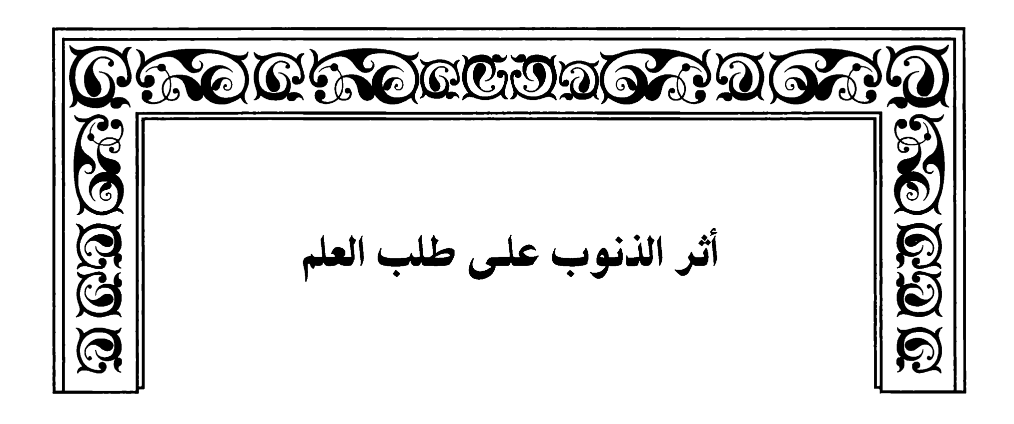
ولذلك الإيمان يسبقه المعرفة، ولا تكفي وحدَها، لا بدَّ أن يقترن معها الإيمان، فإذن إذا قال المسلم: (لا إله إلا الله) بلسانه، فعليه أن يضمَّ إلى ذلك معرفةَ معنى هذه الكلمة بإيجازٍ ثمَّ بالتفصيلِ، فإذا عرفَ وصدَّق وآمن فهو الذي يصدُقُ عليه تلك الأحاديثُ التي ذكرتُ بعضَها آنفًا، ومنها قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ مشيرًا إلى شيءٍ من التفصيلِ الذي ذكرتُه آنفا، ألا وهو قوله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: «**من قالَ لا إله إلا الله، نفَعَتْهُ يومًا من دهرِه**»[1]؛ أي:

(١) أخرجه شيخنا الألباني في «الصحيحة» برقم (١٩٣٢).

كانت هذه الكلمةُ الطيِّبة بعد معرفةِ معناها ـ وهذا أكرره لكي ترسخ في الأذهان ـ بعد معرفـة معناها والإيـمان بهـذا المعنـى الصـحيح، ولكنـه قـد لا يكـون قـام بمقتضياتها وبلوازمها من العمل الصالح والانتهاء عـن المعـاصي، فقـد يـدخل النار كجزاء لما فعل وارتكب من معاصي وأخلَّ ببعض الواجبات، ثم تنجيه هذه الكلمة الطيبـة، هذا معنى قوله ـ عليه السلام ـ: «**من قـال لا إلـه إلا الله، نفَعَتْـهُ يومًا من دهرِه**»، أمَّا من قالَها بلسانِه ولم يفْقَه معناها، أو فَقِهَ معناها ولكنَّه لم يؤمن بهذا المعنى، فهذا لا ينفعه قولُه: (لا إلـه إلا الله) إلَّا هنـا في العاجلـةِ، ولـيس في الآجلة»[1].

* * *

(١) من شريط (التوحيد أوَّلًا يا دُعاة الإسلام).



أثر الذنوب على طلب العلم

إنَّ من عجائب أقدارِ الله ـ تعالى ـ وألوان حكمته وعزَّته، ملابسةَ المعاصي ممَّن أوتي علمًا كافيًا ليردعَه عنها، ويبصِّرَه بعواقبها، ويزجره عن الوقوع في شراك الشيطان، لا سيما إذا انضمَّ إلى ذلك أن يكون طالبَ علمٍ يدعو إلى الله، وله في ذلك بلاءٌ حسنٌ، ونفعٌ للخلق، بل قد يكونُ تاب على يديه العُصاة، وآمنَ الكُفَّار، وأقرَّ الجاحد، وثابَ إلى رُشده المارق، ثمَّ هو مع ذلك لا يقدرُ على منع نفسه من ذنوب الخلوات، ومعاقرة السيئات!

وليس المقصودُ لَمَ الذنوبِ التي لا يسلمُ منها أحدٌ، وإنَّما الإدمانُ على الذنوب واعتيادُهَا، والإصرارُ عليها وتكرارها، فإنَّ هذا خطرُه عظيم، وأوَّل ما يُهدَّدُ به المتلبِّسُ به سَلْبُ العلم، وفسادُ العقل، وأنْ يُرَدَّ إلى دركَاتِ السُّفهاء والحمْقَى وضِعافِ العقول، ولا يجتني ـ ساعتئذٍ ـ من علمِهِ سوى الخسران.

قال سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ: «إنَّما يُطلب الحديثُ ليُتَّقى به الله ـ عز وجل ـ فلذلك فُضِّل على غيره من العلوم، ولولا ذلك كان كسائر الأشياء»[1].

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١١٥٢، ١١٥٩) وأبو نُعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٣٦٢) وسنده حسن.

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ:

«فإن قلتَ: كيف يجتمع التصديقُ الجازم الذي لا شكَّ فيه بالـمَعَادِ والجنَّةِ والنَّارِ؛ ويتخلَّفُ العملُ؟ وهل في الطِّباعِ البشريةِ أنْ يعلمَ العبدُ أنَّه مطلوبٌ غـدًا إلى بين يَدَيْ بعضِ الملوكِ ليعاقبه أشد عقوبةٍ، أو يكرمه أتمَّ كرامةٍ، ويبيتُ ساهيًا غافلًا لا يتذكَّرُ موقفَه بين يدي الملكِ، ولا يستعدُّ له، ولا يأخذ له أُهْبَةً؟!

قيل: هذا ـ لَعَمْرُ الله! ـ سؤالٌ صحيحٌ، واردٌ على أكثرِ هذا الخَلْقِ، واجتماعُ هذَيْنِ الأمرَيْنِ من أعجبِ الأشياءِ.

وهذا التخلُّفُ له عِدَّةُ أسبابٍ:

أحدُهَا: ضـعفُ العلمِ، ونُقْصَانُ اليقينِ، ومَنْ ظَـنَّ أنَّ العلـمَ لا يتفـاوتُ فقولُه من أفسدِ الأقوالِ وأَبْطَلِهَا، وقد سأَلَ إبراهيمُ الخليلُ ربَّه أن يُرِيَه إحيـاءَ المـوتى عيانًا، بعدَ علمِهِ بقُدْرَةِ الرَّبِّ على ذلك، ليزدادَ طمأنينةً ويصيرَ المعلومُ غَيْبًا شـهادةً، وقد روى أحمد في مسنده عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**ليس الخَبَرُ كالـمُعَايَنَةِ**»[1].

فإذا اجتمع إلى ضعفِ العلمِ عَدَمُ استحضَارِهِ، أو غَيْبَتِهِ عن القلـبِ كثـيرًا من أوقاتِه أو أكثرَها لاشتغاله بما يضادُّه، وانضَمَّ إلى ذلكَ تقاضي الطبعِ، وغَلَبَـاتُ الهوى، واستيلاءُ الشهوةِ، وتسويلُ النَّفْسِ، وغرورُ الشَّيطانِ، واستِبْطَاءُ الوَعْـدِ، وطُولُ الأَمَلِ، ورَقْـدَةُ الغَفْلَـةِ، وحُـبُّ العَاجِلَـةِ، ورُخَـصُ التَّأْويـلِ[2]، وإِلْـفُ

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢١٥) عن عبد الله بن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ، **وسنده صحيح**.

(٢) وجدتُ هذا عند عدد من طلبة العلم المعروفين؛ يتوسَّعون في الأخبـار، ويكثـرون مـن المجاملات، ويحرصون على اللباقة التي مآلها إلى عدم كياسة، وفيها توسيعٌ للطَّعـن بأهـل الفضل والعلم، والوقوع في المخالفات، وإن روجعوا؛ فالعبارات فضفاضـة، والتـأويلات واسعة، وكأنَّهم ينسون أنَّ المطَّلع عليهم يعلم السرَّ وأخفى!

العَوَائِدِ؛ فهُناكَ لا يُمْسِكُ الإيمانَ في القلبِ إلَّا الذي يمسِكُ السَّمواتِ والأرْضَ أنْ تَزُولَا.

وبهذا السَّبَبِ يتفاوتُ النَّاس في الإيمانِ والأعمالِ، حتى ينتهي إلى أدنى أدنى مثقالِ ذرَّةٍ في القلبِ، وجِمَاعُ هذه الأسبابِ يرجعُ إلى ضَعْفِ البصيرةِ والصَّبْرِ، ولهذا مدح الله ـ سبحانه ـ أهلَ الصَّبْرِ واليقينِ، وجعَلَهم أئمةً في الدِّين، فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة: ٢٤]»[1].

فإذا ذهبَت البصيرةُ، وضَعُفَ النَّظرُ في العواقبِ، وكلَّت سيقانُ الصَّبْرِ عن حَمْلِ صاحبها، فلا يكونُ العلمُ ـ ساعتئذٍ ـ عاصمًا، وإنَّما يكونُ جِنَايةً على حامله، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

الآثار الواردة في إفضاء المعاصي إلى سَلْب العلم:

قال الزُّهريُّ ـ رحمه الله ـ: «إنَّ للعلمِ غَوَائِلَ، فمِنْ غَوَائِلِه: أنْ يَتْرُكَ العالمَ حتى يُذهَبَ بعلمِه، ومن غوائله: النِّسيان، ومن غوائله: الكذبُ فيه؛ وهو شرُّ غَوَائِلِه»[2].

عن ابن وهب قال: حدَّثني مالكٌ وغيرُه أنَّ عبدالله بن سلام، قال لكعب: ما ينفي العلم عن صدور العلماء بعد أن يعلَمُوه؟ قال: «الطَّمَع»[3].

---

(١) «الجواب الكافي» (ص٨٣ ـ ٨٥).

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢١٣).

(٣) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٣٢٢).

وقال الحسن بن صالح: «إنَّك لا تفقهُ حتى لا تُبالي في يَدَيْ مَنْ كانت الدُّنيا»[1].

فجعلَ الاهتمامَ بالدُّنيا وصرفَ القلبِ إليها من موانعِ الفقهِ، والحوائلِ بينه وبين القلب، ومن غوائلِ العلمِ التي أشارَ إليها الإمامُ الزُّهريُّ ـ رحمه الله ـ.

ولا ريبَ أنَّ المعاصي الصريحةَ ومبارزةَ الله ـ تعالى ـ بها هي مهالكُ العلمِ، ومقابرُ الإرادة، ومَهَاوِي الوَرَعِ والفضائل.

قال عليُّ بن خَشْرَم: رأيتُ وكيعًا، وما رأيتُ بيدِه كتابًا قَطُّ! إنَّما هو حفظٌ، فسألتُه عن أدويةِ الحفظِ؛ فقال: إن علَّمْتُك الدَّواءَ؛ استعملتَه؟ قلت: إي والله! قال: «تركُ المعاصي، ما جرَّبْتُ مثلَه للحِفْظِ»[2].

قلت: نعم؛ ودواء الحفظ في:

ـ سؤال الله من فضله، والتقرب إليه بالطاعة.

ـ وفي إدامة النظر وتكرار قراءة الكتاب الواحد.

ـ وفي مذاكرة ومراجعة أهل العلم والمعرفة به.

وقد قيل: مذاكرة حاذق في الفن ساعة أنفع من المطالعة ساعات، بل أيام.

وقال عليُّ بنُ المدِينِيِّ: لـمَّا ودَّعْتُ سفيان قال: «أَمَا إنَّك ستُبْتَلَى بهذا الأمرِ، وإنَّ النَّاسَ سيحتاجونَ إليك، فاتَّقِ اللهَ ولْتَحْسُنْ نيَّتُكَ فيهِ»[3].

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٣٤٢).

(٢) «تهذيب الكمال» (٣٠/ ٤٨٠).

(٣) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السَّامع» (٢/ ٢٥٧).

وقال يحيى بن يحيى: سأَلَ رجلٌ مالكَ بن أنسٍ: يا أبا عبدالله! هل يصلُح لهذا الحفظِ شيءٌ؟ قال: «إنْ كانَ يصْلُح له شيءٌ؛ فتركُ الـمَعَاصِي»[1].

ولذا قال مالكٌ ـ رحمه الله ـ للشافعيِّ في أوَّل لقاءٍ بينهما، وكان الشافعيُّ في منزلة التلميذِ له: «إنِّي أرى اللهَ قد الْـقَى علـى قلبِـكَ نـورًا، فـلا تطْفِئْـهُ بظُلْمَـةِ المعصيةِ»[2].

وقد عدَّ العلَّامة أبو حامد الغزاليُّ ـ رحمه الله ـ الحُجُبَ المانعـةَ مـن إشراقِ أنوارِ القرآن على القلب، والحائلةَ بينَه وبين سُطوعِ شمسِ الهدايـةِ عليـه، فجعـلَ ثالثَها ما يصيبُ القلبَ من صدأ الشَّهوات، فقال:

«أن يكونَ مُصِرًّا على ذنبٍ، أو متَّصِفًا بكِبْرٍ، أو مبتَلًى في الجملة بهوىً في الدُّنيا مُطَاعٍ، فإنَّ ذلك سببُ ظُلْمَةِ القلبِ وصَدَئِه، وهو كالخَبَثِ على المرآةِ فيمنعُ جَلِيَّةَ الحقِّ من أن يتجَلَّى فيه، وهو أعظمُ حِجَابٍ للقلبِ، وبه حُجِبَ الأكثرون.

وكلَّما كانت الشَّهوات أشدُّ تراكُمًا، كلَّما كانت معاني الكلامِ أشدُّ احتجابًا، وكلَّما خَفَّ عن القلبِ أثقالُ الدُّنيا؛ قَرُبَ تجلِّي المعنى فيـهِ، فالقلـبُ مثـلُ المـرآةِ، والشَّهَوَاتُ مثلُ الصَّدَإِ، ومعاني القرآنِ مثلُ الصُّوَرِ التي تتراءَى في المـرآةِ، والرِّياضَـةُ للقلبِ بإِمَاطَةِ الشَّهَواتِ، مثلُ تصْقِيلِ الجَلَاءِ للمرآةِ»[3].

والذي لا نشكُّ فيه تجاه علوم السَّلف الصالح كلِّها أنَّها من مشكاة القرآن والسُّنَّة.

---

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السَّامع» (٢/ ٢٥٨).

(٢) رواه البيهقي في «مناقب الشافعي» (١/ ١٠٣ ـ ١٠٤).

(٣) «إحياء علوم الدِّين» (١/ ٢٨٤).

فقد جاء عن الضَّحَّاك بن مُزاحم ـ رحمه الله ـ أنَّه قال: «ما نعلمُ أحدًا حَفِظَ القرآنَ ثمَّ نَسِيَه إلَّا بذَنْبٍ»، ثمَّ قرأ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[الشورى: ٣٠] ثمَّ قال: «وأيُّ مصيبةٍ أعظمُ من نِسيانِ القرآنِ؟!»(١).

وهذه الآثار تشهدُ لها عُموماتٌ كثيرةٌ من كتاب الله ـ تعالى ـ؛ كقوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[الصَّف: ٥]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله ـ تبارك اسمُه ـ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ۚ﴾ [المائدة: ١٣]، ونحو ذلك من الآيات.

بل قد حفظَ لنا تاريخُ أئمَّتنا عنهم أنهم طبَّقوا هذا النَّظر الجليل في الرَّبط بين (التقوى) و(سلامة العلم) تطبيقًا عمليًّا في إرشاداتهم ودَلالتهم على أهل الخير، فقد روى المرُّوذي ـ رحمه الله ـ في كتاب «الوَرَع» عن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ أنَّه قيل له: مَنْ نسأل بعدك؟ قال: سَلْ عبد الوهَّاب الورَّاق. فقيل: ليس له اتِّساعٌ في العلم! فقال أبو عبدالله: «إنَّه رجلٌ صالحٌ، مثلُه يُوَفَّقُ لإصابةِ الحقِّ»(٢).

قلتُ: وهذا من تمام رعايةِ قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾ في النَّفسِ وفي الغير.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٧٩)، وابن أبي شيبة في «المصنَّف» (١٠/ ٤٧٨)، والبيهقي في «شُعب الإيمان» (٢/ ٣٣٤) رقم (١٩٦٥).

(٢) «الوَرَع» (ص٥).

وقال الحسن البصريُّ ـ أيضًا ـ: «عقوبةُ العالِمِ موتُ القلبِ». قيلَ له: وما موت القلب؟ قال: «طلبُ الدُّنيا بعملِ الآخرةِ»[١].

وقال ـ رحمه الله ـ: «مَنْ أفرطَ في حبِّ الدُّنيا ذهبَ خوفُ الآخرةِ من قلبِه، ومن ازدادَ عِلْمًا ثمَّ ازدادَ على الدُّنيا حرصًا، لم يزدد من الله إلا بُغْضًا، ولم يزدد من الدنيا إلا بُعْدًا»[٢].

فهذا جزاءُ حاملِ العلمِ الفاسقِ، يطمسُ الله على قلبِهِ حتى ينسى من العلمِ روحَه وحياتَه والمقصَدَ الذي من أجله يُطلَبُ، وهو النَّجاةُ في الآخرة، فيرتكس في فتنته ومعصيته حتى يبذُلَ علمَه في مقابلِ مَتاعِ الدُّنيا ومُحقَّراتِ نزواتها وشهواتها.

ومن عظيمِ العِبَرِ التي قصَّها علينا ربُّنا ـ تبارك وتعالى ـ؛ خبرُ الذي آتاهُ اللهُ العلمَ فنبذَه وراءَ ظهره، وأخلدَ إلى الأرضِ واتَّبعَ هواه.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦].

فتأمَّل! كيف تردَّى هذا الذي كان عالـمًا مليئًا في دَرَكَاتِ الرَّذيلة، وسُدَّت دونه مداخلُ الطَّاعةِ ومسالكُ الفضيلة، فأخلدَ إلى أرضِ البَطَالةِ، لـمَّا انسلخَ من

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٣٤٧).

(٢) المرجع نفسه.

العلمِ النَّافعِ اختيارًا وطَوْعًا، واستحبَّ العمى على الهُدَى، فآلَت حالُه إلى أن يُشبَّه بالكلبِ! والله المستعان.

فمعنى الانسلاخ من الآيات: الإقلاعُ عن العمل بما تقتضيه.

قال العلَّامة ابن عاشور: «ورُتِّبَت أفعالُ الانسلاخِ، والاتباعِ، والكونِ من الغَاوين، بفاءِ العَطْفِ على حَسَبِ ترتيبِها في الحصول، فإنَّه لمَّا عانَدَ ولَمْ يعمل بما هداه الله إليهِ؛ حصلت في نفسه ظُلْمَةٌ شيطانيَّةٌ مَكَّنَت الشيطانَ من استخدامِهِ وإدَامَةِ إضْلَالِه، فالانسلاخُ عن الآياتِ أثرٌ من وسوسةِ الشيطانِ، وإذا أطاعَ المرءُ الوَسْوَسَةَ تَمكَّنَ الشيطانُ من مَقَادِهِ، فسَخَّرَه وأَدَامَ إِضْلَالَه، وهو الـمُعَبَّرُ عنه بـ (أَتْبَعَهُ)، فصارَ بذلكَ في زُمْرَةِ الغُوَاةِ الـمُتَمَكِّنِينَ من الغِوَايَةِ»[1].

قال صاحبُ المنار: «ترتَّبَ على انسلاخِهِ منها باختيارِهِ أنْ لَحِقَهُ الشيطان، فأدركه وتمكَّن من الوسوسة له، إذْ لم يَبْقَ لديهِ من نور العلمِ والبصيرةِ ما يَحُول دون قبول وسوسته، وأعقب ذلك أن صار من الغاوين؛ أي الفاسدين المفسدين»[2].

وقال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «فأخبرَ ـ سبحانه ـ أنَّ الرِّفْعَةَ عندَه ليست بمجرَّدِ العلمِ، فإنَّ هذا كان من العلماء، وإنَّما هي باتِّباع الحقِّ وإيثارِه، وقَصْدِ مرضاةِ الله، فإنَّ هذا كان من أعلمِ أهل زمانِهِ ولم يرفعه الله بعلمِه ولم ينفعه به، فنعوذُ بالله من علمٍ لا ينفع»[3].

---

(١) «التحرير والتنوير» (٩/ ١٧٦)

(٢) «تفسير المنار» (٩/ ٣٤٠).

(٣) «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٩٢ ـ بتحقيقي).

ولابن الجوزي ـ رحمه الله ـ توجيهٌ مهمٌّ، ونَبْشٌ عميقٌ في الأرضيَّاتِ التـي قد يَدْهَمُها وسواسُ الشيطانِ في نفسِ طالبِ العلم، فيغزل له ثوبَ هلاكِهِ منهـا؛ فيقول:

«إنَّ أقوامًا عَلَتْ هِمَمُهم فحَصَّلوا علومَ الشَّرعِ من القرآن والحديث والفقـه والأدب وغير ذلك، فأتاهم إبليس يُخفي التلبيسَ، فأَرَاهُم أنفُسَهم بعينٍ عظيمـةٍ لِـمَا نَالوا وأفادوا غيرهم، فمنهم من يستفزُّه لطولِ عنائِه في الطَّلَـبِ، فحَسَّـنَ لـه اللَّذَّاتِ، وقال له: إلى متى هذا التعب؟ فأَرِحْ جوارِحَـك مـن كُلَـفِ التَّكَـاليفِ، وأَفْسِحْ لنفسِك من مشتهاها، فإِنْ وقعتَ في زَلَّةٍ فالعلمُ يدفعُ عنكَ العقوبةَ، وأَوْرَدَ عليهِ فضلَ العلماءِ، فإنْ خُذِلَ هذا العبدُ وقَبِلَ هـذا التلبـيسَ يَهْلِـكْ، وإنْ وُفِّـقَ؛ فينبغي له أن يقول: جوابُك من ثلاثة أوجُه:

أحدُها: أنَّه إنَّما فُضِّلَ العلماءُ بالعَمَل، ولولا العَمَلُ به ما كان له معنـىً، وإذا لم أعمل به كنتُ كمن لم يفهم المقصودَ به، ويصير مَثَلِي كَمَثَلِ رجـلٍ جمـع الطَّعـام وأطعمَ الجِيَاعَ ولم يأكلْ، فلم ينفعه ذلك من جوعه.

والثاني: أن يعارضه بما ورد في ذمِّ من لم يعمل بـالعلمِ، لقولـه ﷺ: «**أشـدُّ النَّاسِ عذابًا يومَ القيامةِ؛ عالمٌ لمْ ينفعُه اللهُ بعلْمِه**»[1]، وحكايته ﷺ عن رجلٍ يُلْقَى في النَّار، فتَنْدَلِقُ أَقْتَابُه، فيقول: كنتُ آمُرُ بالمعروفِ ولا آتيـهِ، وأَنْهَـى عـن المنكـر وآتيهِ[2]، وقولِ أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ: «ويلٌ لمن يعلمُ مَرَّة، وويل لمن علـم

(١) رواه الطبراني في «المعجم الصغير» (٥٠٧) والبيهقي في «شُعب الإيمان» (١٧٧٨)، **وسندُه ضعيفٌ جدًّا**. انظر: «الضعيفة» (١٦٣٤) لشيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٦٧) ومسلم (٢٩٨٢) من حديث أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ.

ولم يعملْ سبعَ مرَّاتٍ»[1].

والثالث: أن يذكر لـه عقابَ من هَلَكَ من العلماءِ التَّاركينَ للعَمَلِ بالعِلم، كإبليسَ، وبِلْعَامَ، ويكفي في ذمِّ العالمِ إذا لم يعمل قولُه ـ تعالى ـ: ﴿ **كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ﴾»[2].

قال ابن قدامة ـ رحمه الله ـ: «فأمَّا علمُ المعاملةِ؛ وهو علم أحوالِ القلبِ، كالخوف، والرجاء، والرضا، والصدق، والإخلاص وغير ذلك، فهذا العلم ارتفع به كبار العلماء، وبتحقيقه اشتهرت أذكارهم؛ كسفيان، وأبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد.

وإنَّما انحطت رتبة الـمُسَمَّيْنَ بالفقهاء والعلماء عن تلك المقامات، لتشاغُلِهِم بصورةِ العلمِ من غير أخذٍ على النَّفسِ أن تبلغَ إلى حقائقِه، وتعمل بخفاياه»[3].

فحسبُكَ أخي طالبَ العلمِ قولَ ربِّكَ ـ تعالى ـ: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ** ﴾[الأنفال: ٢٩].

قال العلَّامة محمَّد رشيد رضا: «هذا، وإنَّ الفرقـانَ في اللُّغَـةِ هـو الصُّـبح الَّذي يفرق بين الليل والنهار، ويسمَّى القرآنُ فرقانًا؛ لأنَّـه كالصُّـبح يَفْـرِقُ بـين الحق والباطل، وتقوى الله ـ تعالى ـ في الأمورِ كلِّهَا تعطي صاحبَها نورًا يفرِّق بـه بين دقائق الشُّبُهَاتِ التي لا يعلمُهُنَّ كثيرٌ من النَّاس، فهـي تفيـدُه علـمًا خاصًّـا

---

(١) أخرجه بنحوه الخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم العمل» (رقم ٦٧).

(٢) «تلبيس إبليس» (ص١١٥ ـ ١١٦).

(٣) «مختصر منهاج القاصدين» (ص١٨).

لم يكُنْ ليهتدي إليهِ لولاها.

وهذا العلمُ الذي هو غير العلمِ الذي يتوقَّف على التلقين، كالشرع أصولِه وفروعه، وهو ما لا تتحقق التقوى بدونه؛ لأنها عبارةٌ عن العملِ ـ فعلًا وتركًا ـ بعلمٍ، فالعلمُ الذي هو أصلُ التَّقوى وسببُها لا يكونُ إلا بالتعلُّمِ كما ورد في الحديثِ: «**العِلْمُ بالتَّعَلُّمِ**»(١).

والعلمُ الذي هو فرعُها وثمرتُها، هو ما تفطن له النفس بعدُ، فيفيدها الرُّسُوخَ في العلمِ الأوَّل بالعمل به، فإنَّ العلمَ يكون في النَّفسِ مجْمَلًا مُبْهَمًا حتى يُعملَ به، فإذا عُمِلَ به صار مفصلا جليًّا راسخًا تتبين به الدقائق والخفايا، وبذلك تفطن نفس العامل إلى مسائل أخرى تطلبها بالتجربة والبحث حتى تصل إليها، كما يعرف كلُّ واقف على ترقِّي العلومِ الطَّبيعيةِ في الأنفسِ والأشياء»(٢).

فيا طالب العلم! إيَّاك والغرور، إيَّاك والأمانيِّ، إيَّاك والاستخفاف بخطوات الشيطان ومداخله عليك، فلا يغرَّنَّك بأنَّ لك سابقةً وفضلًا يقومان بتَبِعَات سيِّئاتك، فإنَّه لا يقوم بتبعاتِهَا إلَّا التَّوبةُ النَّصوح، واعتياد الخير والطَّاعة حتى يصيرا سجيَّةً ثابتةً لك، فالخيرُ عادة، والشرُّ لجَاجَة، والهلاكُ كلُّ الهلاكُ في طولِ الاغترارِ بالرَّحمة، والإصرار على الذَّنب.

قيل للحسنِ البصريِّ ـ رحمه الله ـ: نراك طويل البُكاء! فقال: «أخافُ أن يطرحني في النَّار ولا يُبالي»(٣).

---

(١) علَّقه البخاري تحت باب (العلم قبل القول والعمل)، وانظر تخريجه في «الصحيحة» (٣٤٢).

(٢) «تفسير المنار» (٣/ ١٠٨).

(٣) «صفة الصَّفوة» (٢/ ١١٧).

فلتسجُد القلوبَ بين يدي الله سجدةً لا تقومُ منها إلَّا على نداءِ المـــحشَرِ، لتنعمَ بعد ذلك بالنَّعيمِ المقيم، وقانا الله الشهوات والشبهات، وثبَّتنا عـلى طاعتـه ومراضيه.

عن عبد الواحد بن زيد قـال: «خرجـتُ إلى ناحيـةِ الخُرَيْبَـةِ، فـإذا أسـودُ مجذومٌ قد تقَطَّعَتْ كلُّ جارحةٍ له بالجُذَامِ، وعَمِيَ، وأُقْعِدَ، وإذا هو يزحـفُ، وإذا صبيانٌ يرمونه بالحجارةِ حتى رمَوْا وجهه، فرأيتُه يحرِّك شفتَيْه، فدَنَوْتُ منه لأسمعَ ما يقول، فإذا هو يقول:

يا سيِّدي! إنَّكَ لو قَرَضْتَ لحمي بالـمَقَارِيضِ، ونشَرْتَ عظْمِي بالـمَنَاشِيرِ، ما ازْدَدْتُ لكَ إلَّا حُبًّا، فاصنَعْ بي ما شئتَ».

وهكذا فليكن الثَّباتُ(١).

نسألُ الله من فضلِه.

ومن الجدير بالذِّكْرِ أنَّ من أسبابِ ذهابِ العلمِ كتمانُه، وتركُ نشرِه وتعليمِه والقيامِ بحقِّه، فقد وردَ في تعظيمِ هذه الوظيفةِ والتغليظ على من تركها ما ليسَ من الغرضِ التَّعَرُّضُ له، ويكفي في ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ** ﴾[البقرة: ١٥٩ ـ ١٦٠]، ومـا رواه أبـو هريـرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**من سُئِلَ عن علمٍ فكَتَمَه، ألـجَمَه الله ـ عـز وجلَّ ـ بلجَامٍ من**

---

(١) وانظر قصةً مؤثِّرةً جدًّا في «ثقات ابن حبَّان» (٥/ ٢ ـ ٥) في ترجمة التابعي الجليل (أبي قلابة عبدالله بن زيد الجرمي).

نارٍ يومَ القِيَامَة»[1].

والذي يعنينا هُنَا إدراكُ أنَّ من عقوباتِ التفريطِ في تعليمِ العلمِ: نسيانُهُ وضياعُه، قال العلَّامة السَّفَّاريني: «فمن خَزَنَ علمَه ولم ينشُره، ابتلاه الله بنسيانه، جزاءً وِفَاقًا»[2].

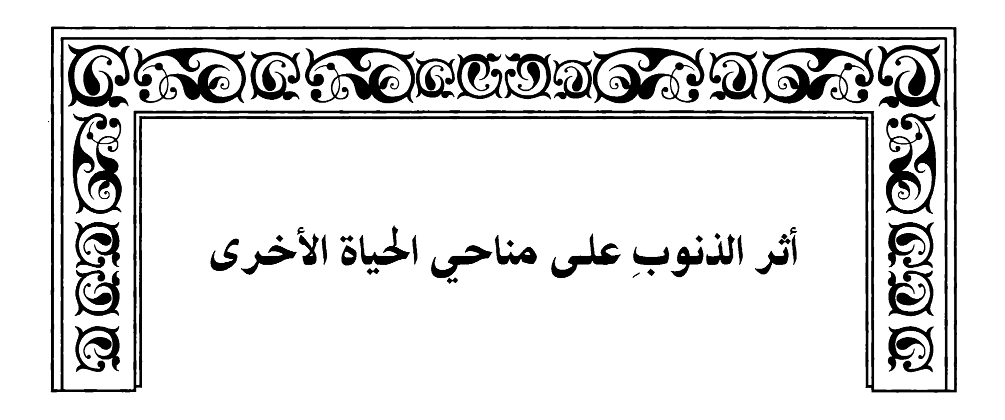
وكلُّ شيءٍ إذا أنفقتَ منه فإنَّه ينقصُ إلَّا العلم، فإذا بذلَه صاحبُه ونشَرَه فإنَّه يزيد.

* * *

---

(1) رواه أحمد (٢/ ٣٤٤)، وسنده صحيح.

(2) «غذاء الألباب» (١/ ٤٤).



أثر الذنوبِ على مناحي الحياة الأخرى

لا يمكن أن تحيط بهذا الموضوع محاضرة، ولكن لابدَّ أن نتوسَّم بعض ما ورد في الشرع من نصوصٍ ومن قَصصٍ قصَّها الله ـ تعالى ـ عن أقوامٍ كانوا قبلنا.

الذنوب لها أثر ليس على فاعليها فقط، فصحيحٌ أنَّ هناك ذنوبٌ شخصية يتوب الله على صاحبها، وهناك ذنوب جماعية لها أثر على المجتمع.

وللاطِّلاع على بعض آثارها على النَّاس، وإفسادها لأنماط معيشتهم، وإضرارها بهم، وشؤمها عليهم، وظُلمتها في قلوبهم، فتأمَّل معي لهذه المسألة هذا الحديث العظيم.

*** حديثٌ عظيمٌ في نتائج المعاصي:**

يقول نبيُّنا ﷺ: «**يا معشر المهاجرين! خمسٌ إذا ابتليتم بهنَّ، وأعوذ بالله أن تدركوهنَّ: لم تظهر الفاحشة في قومٍ قطُّ حتى يعلنوا بها؛ إلا فشا فيهم الطَّاعونُ والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضَوا، ولم ينقصوا المكيال والميزانَ؛ إلا أُخِذوا بالسِّنين، وشدَّة المئونة، وجَوْر السُّلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم؛ إلا مُنِعوا القَطْرَ من السَّماء، ولولا البهائم لم يُمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله؛ إلا سلَّط الله عليهم عدوًّا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم**

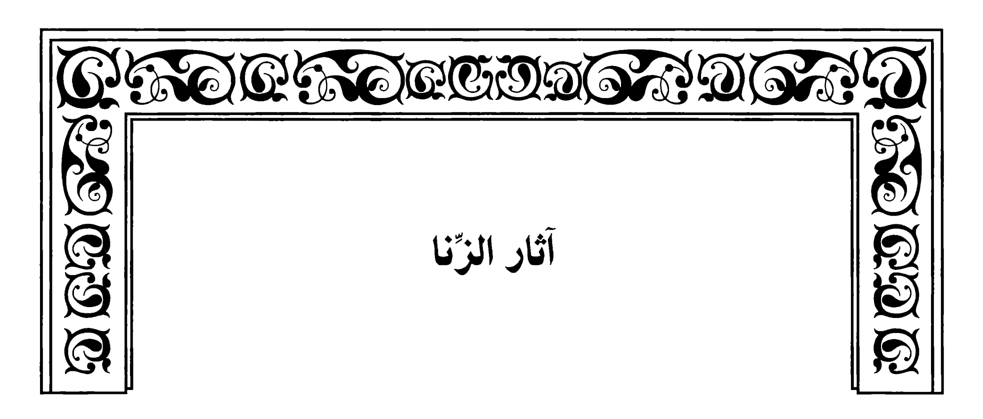
تحكم أئمَّتهم بكتاب الله، ويتخيَّروا ممَّا أنزلَ الله؛ إلا جعل الله بأسهم بينهم»[1].

الذنوب على أنواع وأقسام، وكل نوع من أنواع هذه الذنوب له أثر على جانبٍ من جوانب الحياة.

* * *

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠١٩) وغيره عن عبد الله بن عمر، **وإسناده جيِّد.**



آثار الزِّنا

النبيُّ ﷺ يقول: «لَمْ تَظْهَرِ الْـفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُـوا بهـا؛ إِلَّا فَشَـا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْـأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فَشَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ».

والله! هذه القطعة من الحديث تصلحُ أن تكتب في المستشفيات، وأن تكـون شعارًا لوزارة الصحة، حتى نحصِّن الناس من الأمراض والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم.

لأجل ذلك علينا أن نحارب ظهـور المعصـية، وأن نبـثَّ حـرَّاس حياتنـا وسياجها: العقيدة الصحيحة والفضيلة.

قال: «يا معشر المهاجرين! خمسٌ إذا ابتليتم بهنَّ، وأعوذ بالله أن تدركوهنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بها».

الإعلان بالفاحشة أشدَّ من الفاحشة، فمعناه أن الفاحشة تجاوزت كونهـا ذنبًا شخصيًّا، وأصبحت ذنبًا يقوم به جمعٌ كبيرٌ مـن أفـراد المجتمـع، ولـذا كـان حصادُها عامًّا.

قال: «إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فَشَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ».

الأمراض والأوجاع بسبب الذنوب تصيب جميع الناس، ولذا ربُّنا يقول:

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾[الأنفال:٢٥].

لما انتشر الطاعون في سنة إحدى وأربعين وسبع مئة، سأل السلطان من حضره من الفقهاء والقضاة يوم ختم قراءة «صحيح البخاري»[١] في أُخريات رمضان عن الذُّنوب التي إذا ارتكبها الناس عوقبوا بالطاعون؛ فذكر بعضهم أن الطاعون عقوبة الزنا، وأتبع ذلك على أن النساء يمشينَ في الأسواق متزيِّنات، فأشار آخر بمنعهنَّ من الخروج من بيوتهنَّ، فظنَّ السلطان أنه إذا فعل ذلك ارتفع الوباء، فمنعهنَّ وتشدَّد في ذلك؛ فامتنعن حتى لم يُرَ بشوارع القاهرة امرأة؛ فنزل بالأرامل، وذوات الأسباب، ومن لا قيِّم لها، ومَنْ تطوفُ تسأل الناسَ: بلاءٌ كبير، وتعطَّلت الأسواق لبوار عدة بضائع لا تُنفَق إلا على النساء[٢].

أخرج البيهقي في «الشُّعب»[٣] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: إِنَّ الظَّالِمَ لَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «بَلَى وَاللهِ! حَتَّى الحُبَارَى لَتَمُوتُ فِي وَكْرِهَا هُزَالًا لِظُلْمِ الظَّالِمِ».

وروى البخاريُّ[٤] من حديث أبي قتادة الحارث بن ربعي ـ رضي الله عنه ـ أنَّه كان يحدِّث أنَّ رسولَ الله ﷺ مُرَّ عليه بجنازةٍ، فقال: «**مُسْتَرِيحٌ ومُسْتَرَاحٌ منه**». قالوا: يا رسول الله! ما الـمُسْتَرِيحُ والـمُسْتَرَاحُ منه؟ قال: «**العبدُ الـمُؤْمِنُ يستريحُ**

---

(١) كان يُقرأ «البخاري» لرفع الأوبئة. انظر معالجتنا لهذا في كتابي «فتاوى السراج البلقيني في وقائع رفعت للسلاطين والملوك والأمراء» (ص ٢٢٢ وما بعدها).

(٢) «درر العقود الفريدة» (١/ ٤٧٩).

(٣) برقم (٧٤٧٩).

(٤) «صحيح البخاري» (٦٥١٢).

من نَصَبِ الدُّنيا وأذاها إلى رحمةِ الله، والعبدُ الفاجرُ يستريحُ منه العِبَادُ والبِلَادُ والشَّجَرُ والدَّوَابُّ».

ولعلَّ من الآثار المحسوسة التي تدلُّ على أنَّ هذا الخبر النبويَّ الشريف قد تحقَّق فعلًا مثل فلق الصبح؛ ظهور مرضٍ عصريٍّ فتكَ ـ وما زال يفتك ـ بملايين البشر، وليس له سببٌ يُعرف إلَّا الفاحشة والعلاقات الجنسيَّة المنفلتة، وهو الذي يسمونه بمرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز)، فهذا الدَّاء ـ نعوذ بالله منه ـ مصداقٌ لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فَشَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ**»، فهل كان هذا البلاء في أسلافنا؟! بلا شكٍّ لم يعرفه أسلافُنا اسمًا ولا رسمًا.

ومع كون هذا المرض يمكن انتشاره بوسائل كثيرة، وهذه الوسائل واقعة ومتوفرة، ولا توجد موانع واضحة طبيًّا تمنع من تسبُّبها في نقل المرض، إلَّا أنَّ الطِّبَّ يؤكِّد أنَّ الفاحشة هي السبب الأساسيُّ وراء انتشاره.

وليت شعري! كيف لم تَدْعُ هذه الحقائق النَّاصعة الغربَ المُعَذَّب الشقيَّ بكفره إلى إنصاف نفسه بالإسلام ـ ولا نقول: إلى إنصاف الإسلام ـ؟!

يقول الدكتور الطَّبيب محمد علي البار: «رغم أنَّ المصاب بـ (الإيدز) يُخرج فيروسات (الإيدز) في إفرازاته كلِّها ـ بما فيها الدُّموع، والبول، واللبن من المرضع ـ إلا أنَّ وسائل العدوى تتركز في العوامل الآتية فقط:

١ ـ الشذوذ الجنسي (اللُّواط).

٢ ـ الزنا.

ويشكِّل هذان العاملان اليومَ ما يوازي (٩٠) بالمئة من حالات انتشار

(الإيدز)، ويعتبر الشذوذ الجنسي (اللواط) العامل الأساسيَّ في حدوث (الإيدز) وانتشاره في الولايات المتحدة وكندا ودول أوروبَا الغربيَّة بصورة خاصة، حيث يشكِّل الشاذُّون جنسيًّا ما بين (٧٠) و(٨٠) بالمئة من جميع حالات (الإيدز) في هذه البلاد!

ويعتبر الزنا العامل الأساسي في إفريقيا الاستوائية، وفي الوباء الذي انتشر مؤخرًا في الهند وبانكوك (تايلاند)، حيث بلغت نسبة المصابات بفيروس (الإيدز) من البغايا في بومباي (الهند) وبانكوك أكثر من (٧٠) بالمائة، وبلغت نسبة البغايا الحاملات لفيروس (الإيدز) في نيروبي (كينيا)، وبيوتار (رواندا)، وزائير، وزامبيا، وأوغندا، وأنجولا ما بين (٨٠ ـ ٩٠) بالمئة...»[1].

بل إنَّ النَّبيَّ ﷺ ذكرَ فاحشة الزِّنا في خطبته التي تلت صلاة الكسوف، فقد خرَّج مسلمٌ في «صحيحه» من حديث أمِّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنَّ النبيَّ ﷺ قال في خطبته تلك ـ بعد أن حمد الله وأثنى عليه ـ: «**إنَّ الشمسَ والقمَرَ من آياتِ الله، وإنَّهما لا ينخسفان لموتِ أحدٍ ولا لحياتِه، فإذا رأيتموهما؛ فكبِّروا وادْعُوا اللهَ وَصلُّوا وتصدَّقوا، يا أُمَّة محمد! إنْ من أحدٍ أغيرُ من الله أنْ يزني عبدُه أو تزني أَمَتُه، يا أُمَّةَ محمد! والله لو تعلمونَ ما أعلم لبكيتُم كثيرًا ولضَحِكْتُم قليلًا، أَلَا هل بَلَّغْتُ؟**»[2].

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «وفي ذكر هذه الكبيرةِ بخصوصِها عَقِبَ صلاةِ الكسوفِ سِرٌّ بديعٌ لمن تأمَّله، وظهورُ الزِّنا من أَمَاراتِ خَرابِ العالَمِ»[3].

---

(١) مجلة «مجمع الفقه الإسلامي» العدد (٩).

(٢) رواه مسلم (٩٠١).

(٣) «الجواب الكافي» (ص٣٧٩).

والمقصود أنَّ الشمس تنكسف عند حدوث تغيُّر عظيمٍ في الكون، يؤثِّر على نظام الكون كلِّه، وأنَّ الزِّنا أثره يفسدُ نظام العالم كلِّه ويبدِّد صلاحه، ويمزق انسجامه، فإذا كان هذا حاله في خراب العالم، فهو قمينٌ بأن يفتك بالشعوب ويخرِّب الأوطان، ويُضعف الدُّل التي تأذن به بالتصريح أو التلميح، ولو بالسكوت على فاعليه وعدم قيام حدود الله ـ عز وجل ـ على فاعليه.

وصدقَ الله إذ يقول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

فنهى عن قُربانها، وليس فقط عن إتيانها، ليكون أقوى في الزجر، وأبلغ في الإبعاد والصِّيانة عن جحيمها وآثارها في الدُّنيا والآخرة.

قال ابن عطيَّة: «وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ نهيٌ عام عن جميعِ أنواعِ الفواحشِ، وهي المعاصي، و﴿ظَهَرَ﴾ و﴿بَطَنَ﴾ حالتان تستوفيان أقسام ما جُعلت له من الأشياء»[(١)].

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «ومنها[(٢)]: أنَّ المعاصي توهنُ القلبَ والبدَن، أمَّا وَهَنُها للقلب فأمرٌ ظاهرٌ، بل لا تزالُ توهنُه حتى تُزيلَ حياتَه بالكلِّيَّة، وأمَّا وَهَنُها للبَدَنِ؛ فإنَّ المؤمنَ قوَّتُه من قلبِه، وكلَّما قَوِيَ قلبُه قَوِيَ بدَنُه، وأمَّا الفاجِرُ؛ فإنَّه وإن كان قويَّ البَدَنِ، فهو أضعفُ شيءٍ عند الحاجةِ، فتخونُه قوَّتُه أحوجَ ما يكونُ إلى نفسِه، فتأمَّل! قوَّةَ أبدانِ فارسَ والرُّوم، كيف خانتهم أحوجَ ما كانوا

---

(١) «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٢٥).

(٢) أي: من آثار الذنوب.

إليها، وقَهَرَهُم أهلُ الإيمانِ بقوَّة أبدانِهم وقلوبِهم»[1].

فهذه إطلالةٌ على فعل الفاحشة بالبدن، واستنزالها للأسقام والأمراض عقوبةً من الله ـ تعالى ـ.

وقال ابن القيِّم في بيان بشاعة الزِّنا خاصَّة:

«ومنها[2]: أنَّ الزِّنا يُجَرِّئُه على قطيعةِ الرَّحِمِ، وعقوقِ الوالدينِ، وكَسْبِ الحرامِ، وظُلْمِ الخلق، وإضاعةِ أهلِه وعيالِه، وربَّما قادَه قَسْرًا إلى سفك الدَّمِ الحَرَامِ، وربَّما استعانَ عليهِ بالسِّحْرِ وبالشِّرْكِ وهو يدري أو لا يدري، فهذه المعصيةُ لا تتمُّ إلَّا بأنواعٍ من المعاصي قبلها ومعها.

ويتولَّدُ عنها أنواعٌ أُخَرُ من المعاصي بعدَها، فهي محفوفةٌ بجُنْدٍ من المعاصي قبلَها، وجُنْدٍ بعدَها، وهي أَجْلَبُ شيءٍ لشَرِّ الدُّنيا والآخِرةِ، وأَمْنَعُ شيءٍ لخيرِ الدُّنيا والآخرة، وإذا عَلِقَتْ بالعبدِ فوَقَعَ في حبائِلِهَا وأَشْرَاكِهَا؛ عَزَّ على النَّاصحينَ استِنْقَاذُه، وأَعْيَى الأَطِبَّاءَ دواؤُه، فأَسِيرُهَا لا يُفْدَى، وقتِيلُها لا يُودَى، وقد وَكَلَهَا الله ـ سبحانه ـ بزوال النِّعَم، فإذا ابتلي بها عبدٌ فليودِّع نعمَ اللهِ، فإنَّها ضيفٌ سريعُ الانتقالِ، وَشِيكُ الزَّوَال»[3].

قال أبو عبيدة: صدقَ ابن القيِّم الأمةَ وبَرَّ ونصحَ ـ رحمه الله تعالى ـ، فما انتشارُ الإجهاضِ إلا بسببه، فهو معصيةٌ بعده، ولذا لـمَّا وصف الله عباد الرحمن فذكرَ ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ وقال على إثرها: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾؛

---

(١) «الدَّاء والدَّواء» (ص١٣٦).

(٢) أي: مساوئ الزِّنا.

(٣) «روضة المحبين» (ص٤٩٧).

لشدَّة الترابط بين الأمرين، وقال في تتمَّة الآية مهدِّدًا: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾[الفرقان: ٦٨ ـ ٦٩].

وقال ـ أيضًا ـ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾، وقال بعدها: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[الإسراء: ٣١ ـ ٣٣].

فسبقَ النَّهيَ عن الزنا حُرمةُ القتل، وتبعه ـ أيضًا ـ.

وتأمَّل! معي قوله ـ سبحانه ـ عن الزِّنا: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ والسبيل هو الطَّريق المسلوك، من فعلَه مرة أدمن عليه، واستعاضَ به عن الحلال، وتنكَّب شرعَ الله في الزواج والحرص على الولد الصالح له، الذي يحفظ اسمه ورسمه، فما أشقى الزُّناة، فإنَّهم عطَّلوا المتعة التي أباحها الله لهم، واستبدلوا الطيبات بالخبائث، والطاعات بالفواحش والمعاصي.

الغناء رُقْيَةُ الزِّنا:

الغِناءُ وثيقُ الصِّلَةِ بالزِّنَا، ودافعٌ إليه، ومحرِّضٌ عليه، ومُهَيِّجٌ لكوامِنِ الشَّهوَةِ التي لا سبيلَ لقضاءِها ـ عند بعض النَّاس ـ إلَّا به، وذلك لما في المعازف والأصواتِ الحَسَنَةِ من التأثير، وفيما يتضمَّنه الغناءُ ـ غالبًا ـ من الكلامِ الذي فيه وصفُ الأشواقِ، والعشق، والـمَيْلِ، والغرائزِ، بل يتعدَّى ذلك إلى وصف الأجسام والمفاتن، وكلُّ ذلك في الغناءِ الذي هو بصوتِ الرِّجالِ، مع ما يكون معه من المعازف!

فكيف بصوت المرأة، تؤدِّيه وهي تتكَسَّرُ وتتنهَّدُ وتشهقُ؟! نسأل الله السلامة.

أمَّا اليوم فقد آلَ أمرُه إلى أن صارَ مصحوبًا بالصُّوَر العارية وشبه العاريةِ، فانقلبَ دعوةً صريحةً إلى الدَّعارةِ والفُجُورِ، وصارَ يُؤَدَّى على المسارحِ في خليطٍ من الرجالِ والنِّساءِ على حالٍ يندى لها الجبينُ، ويبكي لها الحياءُ وأهلُه، ويُبَثُّ من عليها إلى بيوتِ ملايين المسلمين عبر الفضائيَّاتِ، لتستَنَّ بسَنَنِ العارياتِ العواتقُ وذواتُ الخُدُورِ، فتُذْبَحُ الفضيلةُ في مهدها، ويوأَدُ الحياءُ في نفوسِهِنَّ قبل أن يستهلَّ، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله العليِّ العظيم، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

قال يزيد بن الوليد بن عبد الملك: «يا بني أميَّة! إيَّاكُم والغِنَاء؛ فإنَّه يُنْقِصُ الحَيَاءَ، ويزيدُ في الشَّهْوَةِ، ويَهْدِمُ الـمُرُوءَةَ، ويَنُوبُ عن الخَمْرِ، [ويفعلُ ما يفعلُ الـمُسْكِرُ]، فإنْ كنتم لا بدَّ فاعلين، فجَنِّبُوه النِّسَاءَ، فإنَّ الغِنَاءَ داعيةُ الزِّنَا»[1].

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «قال أبو عُبيدة معمر بن المثنى: جاوَرَ الحُطيئة قومًا من بني كُلَيْب، فمشى ذَوُو النُّهى منهم بعضُهُم إلى بعضٍ، وقالوا: يا قوم! إنكم قد رُميتُم بداهيةٍ، هذا الرَّجُلُ شاعرٌ، والشاعر يَظنُّ فيُحقِّق، ولا يستأني فيتَثبَّت، ولا يأخذ الفضل فيعفو، فأَتَوْه وهو في فِنَاءِ خِبَائِه، فقالوا: يا أبا مُليكة! إنَّه قد عَظُم حقُّكَ علينا؛ بتخطِّيك القبائل إلينا، وقد أتيناك لنسألك عما تحُب فنأتيه، وعما تكره فنزدجر عنه، فقال: جنِّبوني نَدِيَّ مجلسكم، ولا تُسمِعُوني أغاني شبيبتكم؛ فإنَّ الغِنَاءَ رُقْيَةُ الزِّنا.

فإذا كان هذا الشاعر المفتوقُ اللسان، الذي هابت العرب هجاءَه خافَ عاقِبَةَ الغِنَاءِ، وأنْ تَصِلَ رُقيته إلى حُرمته، فما الظَّنُّ بغيرِه؟

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٧٦)، وما بين المعقوفتين زيادةٌ من «البداية والنهاية» (١٠/ ١٩).

ولا ريبَ أنَّ كلَّ غَيور يُجنِّب أهله سماع الغناء، كما يُجنِّبهن أسباب الرِّيَـبِ، ومن طَرَّق أهلَه إلى سماع رُقية الزِّنا فهو أعلمُ بالاسم الذي يستحقه.

ومن الأمر المعلوم عند القومِ: أنَّ المرأةَ إذا استعصَتْ على الرجل، اجتهـدَ على أنْ يُسْمِعَهَا صوتَ الغِنَاء، فحينئذ تُعطِي اللَّيَانَ.

وهذا لأنَّ المرأةَ سريعةُ الانفعالِ للأصواتِ جدًّا، فإذا كان الصوتُ بالغِنَاءِ صارَ انفعالُها من وجهَيْنِ: من جهة الصوت، ومن جهة معناه، ولهذا قال النبي ﷺ لأنجشةَ حاديهِ: «**يا أنْجَشَة! رويدًا رفقًا بالقوارير**»[1] يعني: النساء.

فأما إذا اجتمع إلى هذه الرقية: الدف، والشبابة، والرقص بالتخنث والتكسر؛ فلو حَبِلَت المرأةُ من غِنَاءٍ لحَبِلَتْ من هذا الغِنَاء.

فلعمرُ الله! كم من حُرَّةٍ صارت بالغناء من البغايا؟ وكم من حُرٍّ أصبح بـه عبدًا للصبيان أو الصبايا؟ وكم من غيور تبدَّل به اسمًا قبيحًا بين البرايا؟ وكم من ذي غِنى وثروةٍ أصبح بسببه على الأرض بعد المطارف والحشايا؟ وكم من مُعافًى تعرَّض له، فأمسى وقد حلَّت به أنواعُ البلايا؟ وكم أهـدى للمشـغوف بـه مـن أشجان وأحزان، فلم يجد بُدًّا من قبول تلك الهدايا؟ وكم جَرَّع من غُصَّةٍ، وأزال من نعمة، وجلب من نقمةٍ؟ وذلك منه من إحدى العطايا، وكم خَبَّأ لأهلـه مـن آلام مُنتظرة، وغموم مُتوقَّعة، وهمومٍ مستقبلة؟»[2].

فهل علمتُم يا قومُ! إنسانًا أقبلَ على الغناءِ والألحانِ وصَلَحَتْ له حـالٌ في دينٍ أو دنيا؟ وهل تعرفون مجتمعًا فشا فيه هذا الأمرُ وازدادَ من الله قُربًا، أو عـلى

---

(١) رواه البخاري (٦١٤٩) ومسلم (٢٣٢٣).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ٤٣٥ ـ ٤٣٧).

عدوِّه نصرًا، أو بين الأمم تقدُّمًا وحضارةً؟!

وقال ـ رحمه الله ـ: «والذي شاهدناه نحن وغيرُنا وعرفناه بالتجارب، أنَّه ما ظهرت المعازف وآلاتُ اللهوِ في قومٍ، وفَشَتْ فيهم، واشتَغَلُوا بها، إلا سَلَّطَ الله عليهم العَدُوَّ، وبُلُوا بالقَحْطِ والجَدْبِ، ووُلَاةِ السُّوءِ، والعاقلُ يتأمَّلُ أحوالَ العالَم وينظر، والله المستعان»[1].

وها نحن نرى ونسمع، كم يردِّدُ المغنُّونَ وسامعوهم من ألفاظٍ كفريَّةٍ، فيها استهانةٌ بالله، ورُسُله، وكُتبه، وملائكته، كلُّ ذلك والجميعُ في غمرة السُّكْرِ، سُكْرِ الطَّرب والتَّمايُل إذا لم يكن سُكْرًا حقيقيًّا من خمرٍ، فمن جاعلٍ (الغناء) سِرَّ الوجودِ، و(أنينَ النَّاي) باقٍ إلى الأزل بعد فَنَاءِ الخلقِ والخليقة!

ومن مُجاهرٍ بأنَّ معشوقتَه أنسَتْهُ ربَّه ودينَه، ومُنادٍ صائحٍ بأنَّ حبيبتَه معبودُه الذي لا يجاوز له أمرًا ولا نهيًا، بل منهم من جعلَ كلَّ عضوٍ منها وَثَنًا يعبُدُه، فيسجُدُ للعينين، وينحني للرُّموش والأهداب، ويسبِّحُ بذِكْرِ الشَّعْرِ وزينتِه ولونِه!

وأعجبُ ما فيهم وأدلُّه على الـمَسْخِ الذي هم فيه: أنَّك إذا سألتَ من فيه بقيَّةُ حياءٍ منهم عن ذلك، وبأيِّ وجهٍ يستحلُّه؟! قال لك: هذا غِنَاءٌ! ولم يَزِدْ!

كأنَّهم يرَوْنَ أنَّ الغناءَ يُستباحُ فيه الكُفْرُ والفجورُ والدَّعوة إلى الـمُنكَر!

ألا فاعلموا أنَّ المؤاخـذةَ على الغناء كالمؤاخذة على سائر الكلام، وعلى ما يصاحبُه من الأفعال كالمؤاخذة على سائر الأفعال، فليت شعري! هل الغناءُ مُستثنًى من قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٨]؟

فأين يُذهب بعقولكم؟!

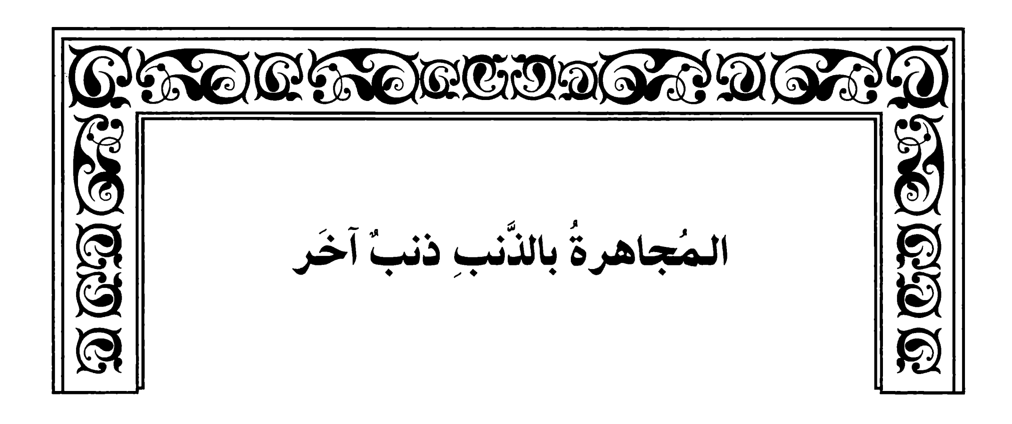
---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٠٠).

ولكن لا أحدَ ينظُرُ ولا يتأمَّل إلّا من رحـمَ الله، فقـد صـارَ الأمـرُ إلى مـا خشيَه شيخُنَا الإمامُ الألبانيُّ ـ رحمه الله ـ حيـث قـال: «أخشـى أن يـزداد الأمـر شدة، فينسى النَّاس حكم الغناء، حتى إذا ما قامَ أحدٌ ببيانه أُنْكِرَ عليـه، ونُسِـبَ إلى التشدُّد»[1].

* * *

(١) «تحريم آلات الطرب» (ص١٦).



المُجاهرةُ بالذَّنبِ ذنبٌ آخَر

وردَ في هذا الحديث قولُه ـ عليه الصلاة والسَّلام ـ: «**حتى يُعْلِنُوا بها**»؛ أي: يجهرون بها ويُظهرونها، ولا يكتفون بمجرَّدِ إيقاعها واقترافها، والمجاهرةُ بالمعصيةِ خِذْلانٌ على خِذْلانٍ، وجريمةٌ فوقَ جريمةٍ، لها عقوبتُهَا ولها فضيحتُهَا استقلالًا، غير ما يترتَّب على الذَّنبِ في ذاتِهِ، وقدْ فرَّقَ الشَّرْعُ على سَنَنِ العَدْلِ والإنصافِ بين العاصي المجَاهِرِ بمعصيتِهِ، المتفاخِرِ بإتيانِهَا، والـمُسَمِّعِ بعنتريَّاته الشَّيطانيَّة، وبين ذلك الذي زلَّ فسَتَرَ نفسَه، وتَوَقَّى لحياءِهِ وحِشْمَتِه.

عن أبي هريرةَ ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**كلُّ أمَّتي مُعَافىً إلا الـمُجَاهِرِين، وإنَّ من الـمُجَاهَرَةِ أنْ يعملَ الرَّجُلُ باللَّيْلِ عملًا ثمَّ يصبِح وقد سَتَرَه اللهُ، فيقـول: يا فلان! عملتُ البارحـةَ كذا وكذا، وقد باتَ يستُرُه ربُّه، ويصبحُ يكشِفُ سِتْرَ الله عنه**»(١).

المجاهرون: «أي: المعلِنُون بالمعاصي، المستهزئون بإظهارهـا، وأصـله مـن الظهور، والجهرُ ضدُّ السِّرِّ»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٦٠٦٩) ومسلم (٢٩٩٠).

(٢) «مشارق الأنوار» (١/ ١٦١).

وذكر النووي ضابط المجاهرة؛ فقال: «هم الذين جاهروا بمعاصيهم وأظهروها وكشفوا ما ستر الله ـ تعالى ـ عليهم فيتحدَّثون بها لغير ضرورة ولا حاجة»[1].

قال الحافظُ: «سترُ الله مستلزمٌ لسَترِ المؤمنِ على نفسِه، فمن قصدَ إظهارَ المعصيةِ والمجاهرةَ بها أغضبَ ربَّه فلم يستُرْه، ومن قصدَ التَّسَتُّرَ بها حياءً من ربِّه ومن النَّاسِ، مَنَّ الله عليهِ بسَترِهِ إيَّاه»[2].

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**اجتَنِبُوا هذه القاذورة التي نهى الله عنها، فمَنْ أَلَمَّ؛ فلْيَسْتَتِرْ بسَتْرِ اللهِ، ولْيَتُبْ إلى اللهِ، فإنَّه من يُبْدِ لَنَا صفْحَتَه نُقِمْ عليهِ كتابَ اللهِ ـ عز وجل ـ**»[3].

بل امتدَّ ترغيبُ الشَّرْعِ إلى الـمُعَافى من الذَّنْبِ أصلًا، إذا وقفَ على عورةٍ وسيِّئةٍ من أخيه المسلم أن يسترها ويكتمها ولا يذيعها، لِمَا في إشاعتها من المفاسد، أخطرُهَا إِلْفُ النُّفوسِ لذكرها ولوقوعِهَا، فقال رسول الله ﷺ: «**من سَتَرَ مسلمًا في الدُّنيا؛ سَتَرَه الله ـ عز وجل ـ في الدُّنيا والآخرة**»[4].

والفاضحُ والـمُجاهِرُ كلاهُمَا داخلٌ في الوعيد الشديد؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ

---

(١) «شرح صحيح مسلم» (١٨/ ١١٩).

(٢) «فتح الباري» (١٠/ ٤٨٨).

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٧٢) رقم(٧٦١٥)، وصححه شيخنا الألباني في «صحيح الجامع» (١٤٩).

(٤) رواه أحمد (٤/ ١٠٤)، وسنده صحيح.

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[النور: ١٩].

قال ابن بطَّال: «في الجَهْرِ بالمعصيةِ استخفافٌ بحقِّ الله ورسولِه وبصالحي المؤمنين، وفيه ضَرْبٌ من العِنَادِ لهم، وفي التَّسَتُّرِ بها السلامةُ من الاستخفاف، لأنَّ الـمَعَاصِي تُذِلُّ فاعِلَهَا، ومن إقامةِ الحَدِّ عليه إنْ كانَ فيه حَدٌّ، ومن التعزيرِ إنْ لم تُوجِبْ حدًّا، وإذا تَمَحَّضَ حقُّ الله، فهو أكرمُ الأكرمين، ورحمتُه سبقت غضبَه، فلذلك إذا سَتَرَه في الدُّنيا لم يفضَحْه في الآخرة، والذي يجَاهِرُ يفوتُه جميعُ ذلك»[(١)].

وقال شيخ الإسلام: «فما دامَ الذنبُ مستورًا فمصيبته على صاحبه خاصَّة، فإذا أُظْهِرَ ولم يُنْكَرْ كان ضَرَرُه عامًّا، فكيفَ إذا كانَ في ظهورِه تحريكُ غيرِهِ إليهِ، ولهذا أنكرَ الإمامُ أحمد وغيرُه أشكالَ الشِّعْرِ الغَزَلِيِّ الرَّقِيقِ؛ لئَلَّا تتحرك النفوس إلى الفواحش، فلهذا أُمِرَ من ابتُلِيَ بالعِشْقِ أنْ يَعُفَّ ويَكْتُمَ، فيكون حينئذٍ مِمَّن قال الله فيه: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠]، والله أعلم»[(٢)].

والذنوبُ في كلِّ أحوالِهَا تضرُّ، وتستجلبُ سخطَ الله وغضبَه ومقتَه، وليس النهيُ عن المجاهرةِ من أجلِ تسويغِ المعصيةِ في السِّرِّ أو التهوين منها، لكن الذي يسترُ نفسَه له حالان:

الأولى: أن يكون قد غَلَبَهُ الحياءُ، فاستحيى من معصيتِهِ التي ارتكبَهَا، لا جُرأةً على الله، ولا استخفافًا بنظره إليه، ولا استهانةً بمخالفةِ أمرِهِ، ولكن تملَّكَه سوءُ

(١) «شرح ابن بطَّال على صحيح البخاري» (٩/ ٢٦٣)، «فتح الباري» (١٠/ ٤٨٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢١٥).

نفسِهِ، وتمكَّنَ منه شيطانُه، فما لبثَ أن نَـدِمَ، وتـابَ وأنـابَ، وأقلـعَ، واسـتغفرَ، وتضرَّعَ إلى ربِّه وسألَه العفوَ، وازدرى نفسَه في ذات الله، وأكثرَ مـن الصـالحاتِ، فلا يزالُ هذا شأنُ أكثر المؤمنين، ومثلُ هذا ـ إن شاء الله ـ لا تضيقُ عنه رحمـةُ الله التي وسعَت كلَّ شيء.

الثانية: أنْ يستترَ بمعصيَتِهِ خوفًا من العقوباتِ الظَّاهرةِ المترتِّبَةِ عليهـا مـن حدٍّ أو تعزيرٍ، أو درءًا لغِيبَةِ النَّاسِ له عن نفسِهِ، وحفاظًا على مكانته الاجتماعيَّة، لكنَّه إذا خلا بمعصيتِهِ أتاها مطمئنَّ النَّفْسِ بها، راضيًا، مُقْبِلًا على نزواتِ نفسِـهِ، مُعْرِضًا عن ربِّه، مُغْلِقًا قلبَه على واعظِ الله فيه، فمثلُ هذا على خطرٍ عظيمٍ، وتحـتَ وعيدٍ شديدٍ، وهو أقربُ إلى زُمرَةِ المخذولين من أهل النِّفاقِ والرِّياء.

فإنَّ الله ـ تعالى ـ قال في شأن المنافقين: ﴿ **وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا** ﴾[النساء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ **إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا** ﴾[النساء: ١٤٢].

فتأمَّل! حالَهُم في استثقال الصَّلاة، وفي كونهِم لا يذكرون إلا قليلًا[1]، فإنَّ

---

(١) وقد سُئِلَ الحَسَن ـ رحمه الله ـ عن رجُلٍ لا يتحاشى من معصيةٍ، إلَّا أنَّ لسانَه لا يفتُرُ من ذكر الله؟! فأَطْرَقَ مَلِيًّا، ثمَّ قال: «إنَّ ذلك لعَوْنٌ حسنٌ». رواه ابن أبي الدُّنيا في «التوبـة» (١٤٨).

=

هذه حالةٌ تساوي الغَرَقَ في العصيان؛ لأنَّ الصلاة والإكثارَ من ذكر اللهِ من أهـمِّ الرَّوادِعِ عن ارتكابِ المعاصي والفواحش والمنكرات، فإذا خَلَـتْ نفوسُـهُم مـن ذلك فهي معمورةٌ بالمعصيةِ على نحوٍ تصيرُ المعاصي لهم سجيَّةً يحْيَوْنَ معها اللَّيْلَ والنَّهار، لا يتحَاشَوْنَ من شيءٍ منها إلَّا إذا اطَّلَعَ عليهم بعضُ الخَلْـقِ، نسـأل الله السَّلامة.

أمَّا الـمُجَاهِرُ فقد تجاوزَ كلَّ ذلك، وبارزَ الله بمعصيته، وسمَّعَ بها وأشـاعَهَا، فابتعدَ من العافية، وبغَّضَ نفسَه إلى الله، وسدَّ عن نفسِهِ بابَ رحمتِهِ، وتعدَّدَت في ذمَّتِهِ التَّوْبَاتُ الواجبة، وتكاثرت عليه سيِّئَاتُه، وتعَدَّى ضَرَرُهَا منه إلى غـيره مـن المؤمنين زرافاتٍ ووُحدانًا، فحلَّت عقوبَتُه فيما تجبُ فيه العقوبَة، وسقطت حُرمَتُه بفسقِهِ، ولاكَت الألسُنُ عِرْضَه غيرَ آثمةٍ بذلك، مع ما هـو أمامـه مـن العثـرات والمخاطر في الآخرة إذا لم يتُب، فأنَّى له العافية وهو على ما هو عليه؟!

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «فالإصرارُ على المعصيةِ معصيةٌ أخرى، والقعودُ عن تدارُك الفارطِ من المعصيةِ إصرارٌ ورضًى بها، وطمأنينةٌ إليهَا، وذلك علامـةُ الهَلَاك، وأشدُّ من هـذا كلِّه المجاهرةُ بالذنبِ مع تيَقُّنِ نظر الربِّ ـ جـلَّ جلالـه ـ من فوقِ عرشِه إليهِ، فإنْ آمَنَ بنظَرِهِ إليهِ وأقدَمَ على المجاهرةِ فعظيمٌ، وإنْ لم يؤمِن

= **قلتُ**: وهو عونٌ حسنٌ من وجهين:

الأوَّل: أنَّه لا يزالُ به هذا الذِّكْرُ حتى يفتحَ الله به على قلبِهِ من معرفتِهِ وخشيتِهِ وتعظيمِهِ ما يحملُه على ترك المعاصي.

الثاني: أنَّه عونٌ حسنٌ بكونِهِ كفَّارةً لسيِّئاتِ ذنوبِهِ ومعاصيه، فقد وردَ ما لا يُحـصى مـن النُّصُوصِ في تعظيمِ شأن الذِّكر وتكفيره للسيئات، حتى إنَّه لتُحَطُّ عن الذَّاكِرِ ذنوبُه كما تنفضُ الشجرةُ ورقَها.

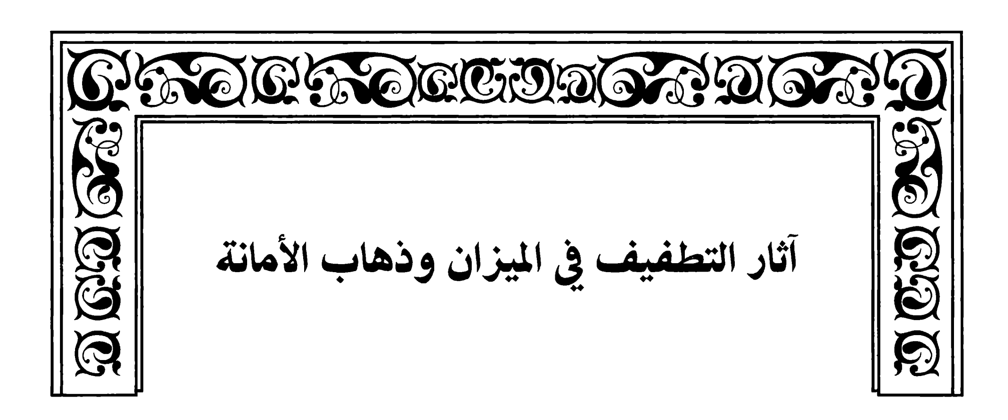
بنَظَرِه إليهِ واطِّلَاعِه عليهِ فكُفْرٌ وانسلاخٌ من الإسلامِ بالكُلِّيَّةِ، فهو دائرٌ بين الأمرَيْن؛ بين قِلَّةِ الحيَاءِ ومجَاهَرَةِ نَظَرِ الله إليهِ، وبين الكُفْرِ والانسلاخِ من الدِّينِ»[1].

وروى البيقهيُّ ـ رحمه الله ـ عن العوَّام بن حوشَب ـ رحمه الله ـ قال: «الابتهاجُ بالذَّنْبِ أشدُّ من ركوبِه»[2].

* * *

(1) «مدارج السالكين» (1/ 181).

(2) «شعب الإيمان» (9/ 351) رقم (6756).



آثار التطفيف في الميزان وذهاب الأمانة

يقول النبيُّ ﷺ: «**وَلَمْ يَنْقُصُوا المِكْيَالَ وَالمِيـزَانَ إِلَّا أُخِـذُوا بِالسِّـنِينَ وَشِـدَّةِ الـمَؤونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ**».

التَّاجر الذي يبيع على (البَسْطَة)، والتاجر الذي يبيع في (البقالة) أو (السوبر ماركت)، إذا طفَّف المكيال والميزان، وفشا ذلك في النَّاس، كانت أول عقوباتهم أن يُؤخذوا بالسِّنين، أتدرون ما معنى (السِّنين)؟

يقول النبي ﷺ فيما ثبت عنه: «**لَيْسَتْ السَّنَةُ بِأَنْ لَا تُمْطَرُوا، وَلَكِنْ السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا وَتُمْطَرُوا، وَلَا تُنْبِتُ الْـأَرْضُ شَيْئًا**»(١).

المطر كثير، حتى إنَّه يبلغ حدَّ التسبُّب في الفيضانات والسيول، ولكنَّ العقوبة من الله أنَّه يجعله في غير زمانه وفي غير مكانه المناسب للنَّبات، والسبب تطفيف المكيال والميزان.

تطفيف المكيال والميزان رمزٌ للغِشِّ عمومًا، فكل ما يلحق به في حقيقته ممَّا يساويه ومما هو أعلى منه فهو مثله وزيادة.

والعقوبة الثانية: «**شِدَّةِ الـمَؤونَةِ**» كما في الحديث، تصبح الحياة شديدة،

(١) رواه مسلم (٢٩٠٤).

الرغد فيها قليل، والرزق قليل، والتَّكاليف ثقيلة على الناس.

إذن، الفقرُ وضيقُ الرِّزق، وعُسر تحصيل المعيشة والكفاية والحياة الكريمة؛ من آثار الذنوب.

والنَّاس ـ إلَّا ما رحم الله ـ لهم مع ربِّهم ـ تبارك وتعالى ـ مسالكُ عجيبة، وأخلاقيَّاتٌ مُشينة، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

فالجميع يعلم أنَّ الرزق بيد الله، لا رازق سواه، ومع ذلك إذا مُنِعَ عن النَّاس رزقُهُم؛ طلبوه بشتَّى الوسائلِ، وتوسَّلوا إليه بكلِّ وسيلة، إلَّا أن يُصلحوا ما بينهم وبين الله، لترتفع عنهم موانعُ الهُلك؛ فهذا متروكٌ، وإن كان له حظٌّ من الفكر والعمل فإلى آخر المراتب، وإلى الله المشتكى من قلَّة التَّيقُّظ، واستحكام الغفلة.

وما أسرعَ المَلَلَ من هذا الطَّريق عند الأكثرين، إن قلتَ له: استغفر الله يرزُقْكَ؛ فكأنَّما تأمرُه بنقل جَبَلٍ من موضعه، في حين يَكُدُّ نفسَه الليلَ والنَّهارَ في أشقِّ الأعمال على النُّفوسِ والأبدان ولا يستثقل ولا يشتكي!

قال ـ تعالى ـ: ﴿ **وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ۝٣٦ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾[الروم: ٣٦ ـ ٣٧].

فانظر! كيف لحقهم القنوط عند تبدُّل الحال، في حين كان يتوجَّب عليهم أن يفتِّشوا في أقوالهم، وأفعالهم، ومكنونات أنفسهم عن أسباب هذا التَّبديل، ولذلك طمْأَنَهُم وهدَّأَهُم ولفتَ أنظارَهُم إلى أنَّه ـ سبحانه ـ هو الذي يبسطُ الرزقَ لمن يشاء، ويمنعه عمَّن يشاء، فعلامَ يشردونَ عنه ويلتفتون إلى غيره؟! فإنَّ في

تبدُّل تلك الأحوال، وتناوُب الضِّيق والسَّعة آياتٌ يدركها ويفهمها عبادُ الله المؤمنون المرحومون، وتَنْبُو عنها أنظارُ المخذولين بمعاصيهم وجهالاتهم، والمحرومين من فضله وإنعامه، وهُداه وحراسته.

قال ابن عاشور: «فأُرِيدَ تنبيهُهُم هنا إلى حالةِ تلقِّيهم ضِدَّ الرَّحْمَةِ بالقُنُوطِ ليحذروا ذلك، ويَرْتَاضُوا برجاءِ الفرج والابتهال إلى الله في ذلك، والأخذ في أسباب انكشافها.

والرحمةُ أطلقت على أثر الرحمة، وهو المنافعُ والأحوالُ الحَسَنة الملائمةُ، كما يُنْبِئ عنه مقابلتها بالسيئة، وهي ما يسوء صاحبه ويحزنه، فالمقصد من هذه الآية تَخَلُّقُ المسلمين بالخُلُقِ الكاملِ».

إلى أن قال: «فقوله: ﴿فَرِحُواْ بِهَا﴾ وصفٌ لحالِ النَّاس عندما تصيبهم الرحمة، ليُبْنَى عليه ضِدُّه في قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ لِمَا يقتضيه القُنُوطُ من التذمر والغضب، فليس في الكلام تعريضٌ بإنكار الفَرَحِ حتى نضطرَّ إلى تفسيرِ الفرح بالبَطَرِ ونحوِه، لأنَّه عُدُولٌ عن الظَّاهرِ بلا داعٍ.

والمعنى: أنَّهم كما يفرحون عند الرحمة ولا يخطر ببالهم زوالها، ولا يحزنون من خشيته، فكذلك ينبغي أن يصبروا عندما يمسُّهُم الضُّرُّ ولا يقنطوا من زواله، لأنَّ قنوطَهم من زواله غيرُ جارٍ على قياسِ حالِهم عندما تصيبهم رحمةٌ حين لا يتوقعون زوالها، فالقُنُوطُ هو محلُّ الإنكار عليهم.

وهذا كقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾[فصلت: ٤٩] في أنَّ محلَّ التَّعجيبِ هو اليأسُ والقُنُوطُ».

ثمَّ قال ـ رحمه الله ـ: «ثمَّ أنكرَ عليهم إهمالَ التأمُّلِ في سنَّة الله الشائعة في

الناس؛ من لَحَاقِ الضُّرِّ وانفراجِـه، ومـن قسـمة الحظـوظِ في الـرزقِ بـين بسـطٍ وتقتيرٍ، فإنَّه كثيرُ الوقوعِ كلَّ حينٍ، فكما أنَّهم لم يقنطوا من بسطِ الرزق علـيهم في حين تقتيره، فكَدَحُوا في طلبِ الرزقِ بالأسبابِ والدُّعاءِ، فكذلكَ كان حقُّهم أن يتَلَقَّوْا السوءَ النَّادِرَ بمثلِ ما يتَلَقَّوْنَ بهِ ضِـيقَ الـرِّزقِ، فيسـعَوْا في كشـفِ السـيئةِ بالتَّوبةِ والابتهالِ إلى الله، وبتعاطي أسبابِ زوالها من الأسـباب التـي نصـبها الله ـ تعالى ـ.

فجملةُ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ إلـخ عطفٌ على جملةِ ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا﴾، والاستفهامُ إنكاريٌّ في معنى النَّفْي؛ أنكرَ عليهم عدمَ الرُّؤيةِ تنزيلًا لرؤيتهم ذلك منزلةَ عَدَمِ الرُّؤيةِ، لإهمالِ آثارها من الاعتبار بها»[١].

فها نحنُ أمام معصيةٍ تشتدُّ بسببها المؤونة، ويشحُّ القوت، ويضيق الرزق، فكم منَّا يوليها العناية الشرعيَّة التي تستحقُّها، من معالجة هـذه المعصـية بالتوبـة وإصلاح الحال مع الله؟! فكيف حالُنا إذا جمعنا مع المعصيةِ معاصٍ، ومع المنكـر منكرات، ومع المخالفة مخالفات؟! ثمَّ مع ذلك نريدُ أن نطوِّع السُّنن الكونيَّة لِـمَا نشتهي ونتمنَّى! ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾[النجم: ٢٢]، فلا والله! لا يكون ولن يكون، فليس لها من دون الله كاشفة.

ونحن نجدُ سُلوكَ النَّاسِ إذا ابتلاهم الله بتضييق الرِّزق قد نُبِّهَ عليه مـرارًا وتكرارًا في القرآن، ولا سيما ذلك الصِّنف الظلوم الجهول، الذي لم يتعلَّم نصوص الوحيين، ولم يزَكِّ نفسَه بما شرعَ الله، بل ظنَّ أنَّ عطاءَ الله له في دنياه إنَّما هو لأنَّ الله يحبُّه! وأنَّه قد حصَّل رضاه، فهو يعتقد أنَّه إنْ رجع إليه فإنَّ له عندَه الحُسـنى، ولم

---

(١) «التحرير والتنوير» (٢١/ ١٠٠ وما بعدها).

يفهم الـمُسَيْكِين أنَّ الذي هو فيه إنَّما هو بلاءٌ واستدراجٌ فحَسْب!

قال الله ـ عز وجلَّ ـ حاكيًا عن هذا الصِّنف: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[الكهف: ٣٦]، وقال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾[فصِّلت: ٥٠]، بل أخبر عن الكفَّار أنَّهم يبحثون عن الفقراء والمستضعفين من المؤمنين، ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾[ص: ٦٢]، فهؤلاء ظنُّوا أنَّ موازين الآخرة في العطاء والحرمان كموازين الدُّنيا، وما فقهوا أنَّ الدُّنيا لا تسوى عند الله جناحَ بعوضة، ولو كانت كذلك لما سقى منها الكافرَ شربةَ ماء.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[هود: ٩ ـ ١١]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾[الشورى: ٤٨] ونحو هذه الآيات.

فشيمةُ الإنسانِ عمومًا في هذه الدُّنيا هذا التَّقافز الأرعَنُ بين الفرح والقنوط، والفخر واليأس، وبهذه الأحوالِ يتقلَّبُ الأكثرون تمشِّيًا مع تقلُّب حالِهم في الأرزاق، ولا يُستثنى من ذلك إلَّا الموفَّقون الذين صبروا وعملوا الصالحات.

قال ابن عاشور: «﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ احتراس باستثناءٍ من ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾، والمراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ المؤمنون بالله؛ لأنَّ الصبر من مُقَارِنَاتِ الإيمان، فكَنَّى بـ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ عن

المؤمنين، فإنَّ الإيمان يَرُوضُ صاحبَه على مفارقة الهوى ونبذ معتاد الضَّلالةِ، قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر: ٣].

ومنْ معاني الصبر: انتظارُ الفَرَج، ولذلك أُوْثِرَ هنا وصفُ ﴿صَبَرُواْ﴾ دون ﴿ءَامَنُواْ﴾ لأنَّ المرادَ مقابلةُ حالهم بحالِ الكفَّار في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾.

ودلَّ الاستثناء على أنَّهم متَّصفون بضدِّ صفات المستثنى منهم، وفي هذا تحذيرٌ من الوقوعِ فيما يماثل صفاتِ الكافرين على اختلافِ مقادير، وقد نسجت الآية على هذا المنوال من الإجمال لتذهب نفوس السامعين من المؤمنين في طُرُقِ الحَذَرِ من صفتي اليأس وكفران النعمة، ومن صفتي الفرح والفخرِ، كلَّ مذهبٍ ممكنٍ»(١).

والعقوبة الثالثة على التطفيف وانتقاص المكيال والميزان: «**وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ**»، جور السلطان سببه: أفعالنا، معاصينا، عدم تقوى الله ـ عز وجل ـ، لا سيما قلَّة التقوى والورع عند التجار ومن بأيديهم المال.

المشتري في الغالب مسترسلٌ، لا سيما في السِّلع اليسيرة، يتعامل مع البائع بالأمانة ولا يتوقَّع الغشَّ والغبن والتطفيف، ومعظم أصحاب الحاجات عند التجَّار ضعفاء، أضعف منهم مكانةً وسلطةً؛ لأنَّ المال له سلطان، بل التجَّار غالبًا لا يجرؤون على انتقاص حقِّ أحدٍ إلَّا إن كان ضعيفًا لا سندَ له، فجزاءُ ذلك «**جَوْرُ السلطان**»، لأنَّ السُّلطان متحكِّمٌ في حقوق الجميع بإذن الله، فكلُّ ما أخذوه من الفقير الضَّعيف المخدوعِ بغير حقٍّ، أخذه السُّلطان من حقوقهم بسلطته

(١) «التحرير والتنوير» (١٢/ ١٥).

وجبروته، بالمكوس والضرائب والمخالفات ونحو ذلك، وما زلنا إلى يومنا هذا نسمع القصَّة تلو القصَّة من ذلك.

وقد كتب محمد بن يوسف الأصبهاني لمن كتب إليه يشكو ظلم العمَّال: «يا أخي! بلغني كتابُك، تذكُر ما أنتم فيه، وإنَّه ليس ينبغي لمن عَمِلَ بالمعصيةِ أن ينكرَ العُقُوبة، وما أرى ما أنتم فيه إلا من شؤم الذنوب»[1].

فهل تظنَّ ـ أخي في الله ـ أنَّ أمر الأمانة في البيع والشراء والوزن والكَيْل سهلٌ؟! لا والله! وكثيرٌ ممَّا يجري من دقيق الخيانات وجليلها في هذا الباب يحسبُه أكثرنا هيِّنًا، وهو عند الله عظيمٌ.

قال ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ للمَوَالي ومن كان يَلِي أمرَ الكَيْلِ والوَزْنِ في السُّوق: «إنَّكم قد وُلِّيتُم أَمْرَيْنِ هلكت فيهِ الأُمم السَّالِفَةُ قبلكُم»[2].

وأمر المكيال والميزان من الأمانات، والأمانة كلُّ شؤونها عظيمة.

خرَّج البيهقي ـ رحمه الله ـ عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال:

---

(١) «حلية الأولياء» (٨/ ٢٣٦).

(٢) رواه الترمذي (١٢١٧) عن ابن عباس مرفوعًا **بإسنادٍ ضعيفٍ جدًّا**، وضعَّفه الترمذي وصحَّح وقفه على ابن عبَّاس، **وهو الصحيح**.

فقد أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٦/ ٣٢) من طريق عبد الله بن نمير، وفي «الشُّعب» (٤٩٠٤) من طريق يعلى بن عبيد، كلاهما عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن كُرَيب ـ وهو مولى ابن عبَّاس ـ عن ابن عبَّاس به موقوفًا، وخالفهما شريك ـ وهو النَّخعي ـ فرواه عن الأعمش عن سالم عن ابن عبَّاس به مرفوعًا، أخرجه ابن مردويه في «تفسيره» كما في «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٦٤)، وشريك سيِّئ الحفظ، خالفَ في سنده فأسقطَ ذكر كُرَيب، ورفعه ولم يوقفه.

«القتلُ في سبيلِ الله يكفِّرُ الذُّنوبَ كلَّها إلَّا الأمانَةَ! قال: يؤتى بالعبدِ يوم القيامةِ ـ وإنْ قُتل في سبيل الله ـ فيُقال: أدِّ أمانتَك. فيقول: أيْ ربِّ! كيف وقد ذهبت الدُّنيا؟! قال: فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية، فيُنطلق به إلى الهاويةِ، وتُمَثَّلُ له أمانتُه كهيئتِها يومَ دُفِعَتْ إليهِ، فيراها، فيعرفُها، فيهوي في إثْرِهَا حتَّى يدْرِكَها، فيحملُها على مَنْكِبَيْهِ، حتَّى إذا ظنَّ أنَّه خارجٌ؛ زلَّتْ عن مَنْكِبَيْهِ فهو يهوي في إثْرِهَا أبدَ الآبِدِين».

ثمَّ قال: «الصلاةُ أمانة، والوضوء أمانة، والوَزْنُ أمانة، والكَيْلُ أمانة ـ وأشياءَ عدَّدَها ـ، وأعظمُ ذلك: الودائع».

فأتيتُ[1] البراءَ بن عازب فقلت: ألا ترى إلى ما قال ابن مسعود؟! قال كذا، قال كذا.

قال: «صَدَقَ! أما سمعتَ بقولِ الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[النساء: ٥٨]»[2].

وقال عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: «لا تنظروا إلى صلاةِ أحدٍ ولا صيامِه، وانظروا إلى صِدْقِ حديثِه إذا حَدَّثَ، وإلى أمانَتِه إذا ائْتُمِنَ، وإلى وَرَعِه إذا أَشْفَى»[3].

فشأن الأمانة عظيمٌ، ولا تُختبر أمانة الرَّجل إلا حينما يلوحُ له ما يُطمع في

---

(١) القائل: زاذان؛ الراوي عن ابن مسعود.

(٢) «شعب الإيمان» (٤/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤) برقم (٥٢٦٦)، وهو في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٧٦٣).

(٣) «شعب الإيمان» (٤/ ٣٢٦) برقم (٥٢٧٨). أشفى: أشرفَ على الدُّنيا وأقبلت عليه. (النهاية).

مثله، فهنالك يستطيعُ سَبْرَ نفسه واختبارَ ورعه وأمانته.

ولذا يقول يحيى بن أبي كثير ـ رحمه الله ـ: «لا يُعجبْكَ حِلمُ امرئٍ حتى يغضب، ولا أمانتُه حتى يطمع؛ فإنَّك لا تدْري على أيِّ شِقَّيْهِ يقَع»[(١)].

وقال ميمون بن مهران: «ثلاثٌ المؤمنُ والكافرُ فيهنَّ سواءٌ: الأمانةُ تؤدِّيها إلى من ائتمنك عليها من مسلمٍ وكافرٍ، وبرُّ الوالدين، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ **وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا** ﴾ الآية [لقمان: ١٥]، والعهدُ تَفِي به لمن عاهدتَ من مسلمٍ أو كافرٍ»[(٢)].

فحتَّى الكافر، أنت مُطالَبٌ بالنُّصح له والصِّدق معه عند المعاملة، وكفرُه على نفسه، لكنَّه لا يُبيحُ لك منه مالًا، فإنَّ الخيانةَ صفةٌ مذمومةٌ مُطلقًا، لا يمكنُ أن تُمدح بأيِّ حال.

ومن الذُّنوبِ الواقعةِ في أبواب تعامُل النَّاس بالمالِ ما يكونُ إثمُه متسلسلًا، يُولَدُ الشرُّ منه ما بقيت الدُّنيا، والله المستعان.

وقد قرَّر الغزالي من هذا المعنى في كتاب «الإحياء» وفي غيره ما فيه كفاية، وقد قال في «كتاب الكسب»: «ترويج الدرهم الزائف من الدراهم في أثناء النقد ظلم؛ إذ به يَستَضِرُّ الـمُعامل إن لم يَعرِف، وإن عَرَف؛ فيروِّجه على غيره، وكذلك الثاني والثالث، ولا يزال يتردَّد في الأيدي، ويعمُّ الضرر، ويتَّسع الفساد، ويكون وِزر الكلِّ ووباله راجعًا إليه؛ فإنَّه الذي فتح ذلك الباب».

ثم استدل بحديث: «**من سنَّ سنَّة حسنة...**» إلخ.

---

(١) «شعب الإيمان» (٦/ ٣٥٩) برقم (٨٥١٥)، و«حلية الأولياء» (٣/ ٦٩).

(٢) «حلية الأولياء» (٤/ ٨٧).

ثم حكى عن بعضهم أن إنفاق درهم زائف أشد من سرقة مائة درهم؛ قال: «لأنَّ السرقة معصية واحدة، وقد تمَّت وانقطعت، وإظهار الزائف بدعة أظهرها في الدِّين، وسنَّ سنَّة سيئة يعمل عليها من بعده؛ فيكون عليه وزرها بعد موته إلى مائة سنة، ومائتي سنة، إلى أن يفنى ذلك الدرهم، ويكون عليه ما فسد ونقص من أموال الناس بسببه، **وطوبى لمن مات وماتت معه ذنوبه، والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مائة سنة ومائتي سنة**[1]، **يعذب بها في قبره، ويسأل عنها إلى انقراضها**، وقال ـ تعالى ـ: ﴿**وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ**﴾[يس: ١٢]؛ أي: نكتب ـ أيضًا ـ ما أخَّروه من آثار أعمالهم كما نكتب ما قدَّموه، ومثله قوله ـ تعالى ـ: ﴿**يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ**﴾[القيامة: ١٣]، وإنَّما أخَّر أثر أعماله مِن سَنٍّ سنَّة سيئة عَمِل بها غيرُه».

وممَّا ينبغي التنبُّه له لإتمام موضوعنا هذا، فلنتذكَّر أنَّ العرب في جاهليتها كانت قد وزَّعت مسؤوليات الحجِّ، وكان تفويج الحجيج من مزدلفة إلى مِنى بيد خزاعة، وقبل الإسلام كان دعاؤهم ـ كما يُقرأ في كتب الأدب ـ أن يقول أحدهم: «اللهم! أصلح بين نسائنا، وبغِّض بين رعائنا، واجعل أموالنا عند سُمَحائِنا».

فالله ـ تعالى ـ إذا ما أراد خيرًا بهذه الأمة، جعل الأموال بأيدي السُّمَحَاء،

---

(١) فما قولك في حال المفسدين من الفنانين والمطربين وأهل الفساد ممَّن تبقى معاصي الشهوات بعدهم سنواتٍ طويلةً، وهي تعمل على إفساد الأخلاق والمروءات، والأسوأ منهم أهل الشبهات وأهل البدع ممَّن يتعلَّق بكلامهم سفهاء الأحلام، ويعملون على ترويجها، فما بالك بالذي كان سببًا في سنِّ قوانين الفساد والإفساد، وتلتزم بها الأمَّة؟! فهؤلاء يؤاخذون بذنوبهم وذنوب من يعمل بها بعد موتهم، فالويل لهم! إن لم يستفيقوا من غفلتهم، وينهضوا من حوبتهم.

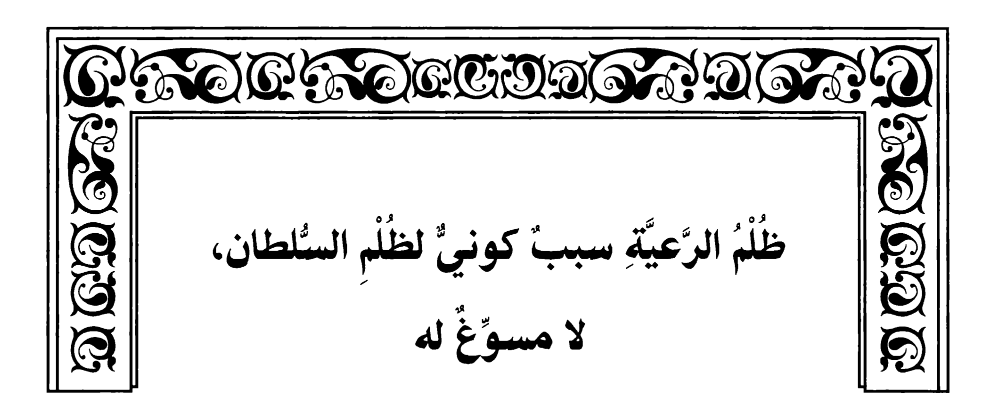
وكانت نفوس من بأيديهم الأموال أكبر من أمـوالهم، وجعـل المناصـب بأيـدي السُّمَحَاء، وكانت نفوس من بأيديهم المناصب أعظم من مناصبهم، حينئـذٍ تهنـأ الأمة.

إذًا، عقوبة تطفيف الميزان، وإنقاص الكيـل، وانتقـاص الحـقِّ، أن تُؤخـذ الأمَّة بالسِّنين، وشدَّة المؤونة، وجور السلطان، ووالله! هذا يصلح لوزارة التمـوين لترفعه شعارًا، ويتعلَّمه التجار، فتطفيف المكيال والميزان جريمةٌ اجتماعية، وليست جريمةً شخصية.

قال الأستاذ العلامة محمود شلتوت ـ رحمه الله ـ: «فـإذا كـان التطفيـف في حفنةٍ من بُرٍّ أو شعيرٍ، أو أوقيَّةٍ من سمن أو لبن؛ مَجْلَبَةٌ للغَضَبِ الإلهـيِّ، فكيـف بالتطفيف في الحقوقِ العامَّةِ والواجباتِ الدِّينِيَّةِ وغيرِهِمَا من كلِّ ما يتقاضى عليـه الإنسانُ أجْرًا، أو يتحمل مسئوليته؟! إنَّ الغِشَّ في رِطْلٍ مـن اللَّحـمِ أقـلُّ ضرَرًا من الغِشِّ في الرأي والعمل والفتوى والإرشاد والتوجيه والوظيفة، وإنَّ الغِـشَّ في هذه النواحي غشٌّ يمتد خطـرُه ويعْظُـم خَطْبُـهُ ويهـوي بـالمجتمع إلى مكـانٍ سحيق»[1].



(١) «الوصايا العشر» (ص٦٢).



ظُلْمُ الرَّعيَّةِ سببٌ كونيٌّ لظُلْمِ السُّلطان، لا مسوِّغٌ له

إنَّ ما يُذكر في هذا البابِ، هو أداءٌ لواجِبِ شرحِ السُّنن الكونيَّة التي بيَّنها لنا الله ـ تبارك وتعالى ـ، والتي منها ـ أيضًا ـ قولـه ـ تعـالى ـ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الأنعام: ١٦٤]؛ لأنَّ الجميعَ مُطالَبٌ بأداء الحقِّ الذي في ذمَّتِـهِ، ولا يكـونُ الظُّلْمُ مستنَدًا للظُّلْمِ، ولا الإسـاءةُ مُسَـوِّغةً لأُختِهـا، لـذا فـلا يظـنَّنَّ المسـؤولُ الفاسدُ، والرَّاعي الظَّالـمُ، والـمُتَنَفِّذُ الـذي يـتحكَّمُ بمصـالحِ النَّـاسِ، أنَّ فسـادَه وتجبُّرَه وظُلْمَه وعُدْوانَه على حقوقِ العِبَادِ سيُغْفَرُ له إذا كانوا هم عُصَاةً أو فُسَّاقًا؛ فإنَّ أموالَ المسلمين ودماءَهُم وأعراضَهُم محرَّمَةٌ تحريمًا مُغَلَّظًا، بل الأصلُ أنَّ ذلـكَ مَصُونٌ لغيرِ المسلمِ ـ أيضًا ـ.

قال رسول الله ﷺ: «**فإنَّ دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم علـيكم حـرامٌ، كحُرْمَةِ يومِكُم هذا، في بلدِكم هذا، في شهركم هذا**»(١).

وقد وردَ الوعيدُ شديدًا في حقِّ من وَلِيَ شيئًا من الأمرِ فشقَّ عـلى النَّـاسِ، وتعسَّفَ عليهم، ومنعَهُم حقوقَهم، ولا يُعفيه من ذلك شيءٌ، ولا يُكَفِّرُ عنه إلَّا ردُّ المظالم، وتصحيحُ الحال، والتوبةُ إلى الله، والخروجُ من المظالمِ.

---

(١) رواه البخاري (١٧٣٩) ومسلم (١٢١٨).

عن أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قلتُ: يا رسول الله! ألا تستعملني؟ قال: فضربَ بيَدِهِ على منكِبي! ثمَّ قال: «**يا أبا ذر! إنَّك ضعيفٌ، وإنَّها أمانة، وإنَّها يومَ القيامةِ خزيٌ وندامة، إلَّا من أَخَذَها بحقِّها، وأدَّى الذي عليه فيها**»(١).

وعن عوف بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إن شئتم أنبأتكم عن الإمارة، وما هي**». فناديتُ بأعلى صوتي: وما هي يا رسول الله؟! قال: «**أوَّلُها مَلَامَةٌ، وثانيها نَدَامَةٌ، وثالثها عذابٌ يومَ القيامةِ، إلَّا مَنْ عَدَلَ، وكيف يعدل مع أقربيه؟!**»(٢).

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «**اللهمَّ! مَنْ وَلِيَ من أمرِ أمَّتي شيئًا فشَقَّ عليهِم فاشْقُقْ عليهِ، ومن وَلِيَ من أمرِ أمَّتِي شيئًا فَرَفَقَ بهم فارْفُقْ به**»(٣).

وعن معقل بن يسار ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيُّما راعٍ اسْتُرْعِيَ رَعِيَّةً فغَشَّهَا فهو في النَّارِ**»(٤).

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثةٌ لا يكلِّمُهُم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يومَ القِيامَةِ؛ الشيخُ الزَّانِي، والعَائِلُ المَزْهُوُّ، والإمامُ الكَذَّابُ**»(٥).

---

(١) رواه مسلم (١٨٢٥).

(٢) رواه البزَّار في «مسنده» (٧/ ١٨٨) رقم (٢٧٥٦)، والطَّبراني في «الكبير» (١٨/ ٧١) رقم (١٣٢)، وحسَّنه شيخنا الألباني في «صحيح الترغيب» (٢١٧٣).

(٣) رواه مسلم (١٨٢٨).

(٤) رواه أحمد (٥/ ٢٥)، ومسلم في «صحيحه» (١٤٦١).

(٥) رواه النَّسائي (٢٥٧٥)، وسنده صحيح.

وروى عمرو بن مرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**ما من إمامٍ يغلقُ بابَه دونَ ذِي الحَاجَةِ والخَلَّةِ والمَسْكَنَةِ، إلَّا أغلقَ اللهُ أبوابَ السَّماءِ دونَ خَلَّتِهِ وحاجَتِه ومَسْكَنَتِه**»[1].

بل في **حديثٍ صحيحٍ** عظيمٍ جدًّا خرَّجه أحمد في «مسنده» عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «**ما من أميرِ عَشْرَةٍ، إلَّا يُؤْتَى به يومَ القِيَامَةِ مغلُولًا، لا يَفُكُّهُ إلَّا العَدْلُ، أو يُوبِقُهُ الجَوْرُ**»[2].

وروى البيهقيُّ ـ رحمه الله ـ في «الشُّعَب» عن محمد بن عبدالله العتبي، قال: «أتى أعرابيٌّ واليًا، فقال له الوالي: لتقولنَّ الحَقَّ أو لأُوجِعَنَّك! فقال: وأنتَ ـ أيضًا ـ فاعمَلْ به؛ فوالله! لَمَا وَعَدَكَ الله به أعظمُ ممَّا وعدْتَنِي به من نفسِك»[3].

كان هذا استطرادًا مهمًّا في هذه النُّقطة، حتى يعرفَ كلٌّ واجبَه، ولأنَّنا نأملُ لأنفسنا ولإخواننا المسلمين أن يكون الإصلاحُ شاملًا، والتَّوبةُ عامَّةً، والخيرُ غامرًا، سائلينَ الله توفيقَه وفضلَه وإمدادَه.

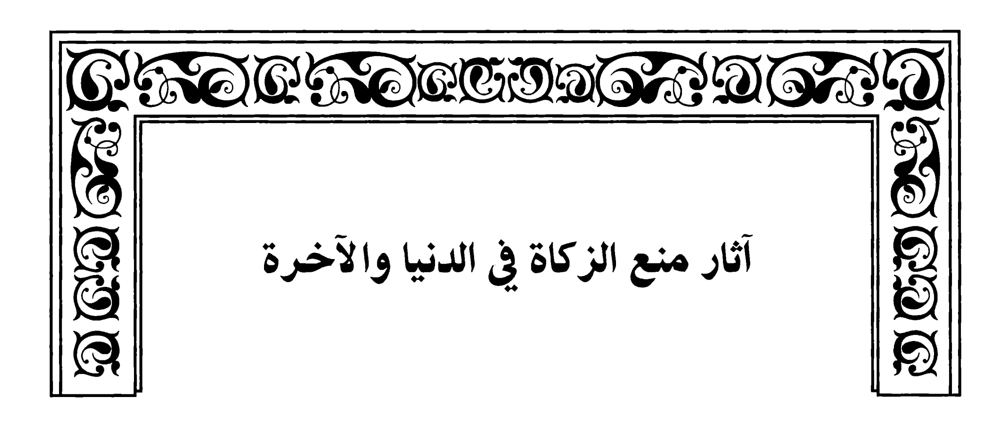
* * *

---

(١) رواه الترمذي (١٣٣٢)، **وسنده صحيح**.

(٢) رواه أحمد (٢/ ٤٣١)، **وسنده قوي**، والحديث **صحيح**، وخرَّجته مع بيان طرقه في تعليقي على «فضيلة العادلين» (رقم ٧) لأبي نعيم الأصفهاني.

(٣) «شُعب الإيمان» (١٠/ ٢٩) رقم (٧١٢١).



آثار منع الزكاة في الدنيا والآخرة

وأمَّا الذنب الثالث؛ فيقول النبي ﷺ: «**وَمَا مَنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا المَطَرَ، وَلَوْلَا البَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا**».

هذا المقياس يصلح لمن؟ هذا يصلح للأرصاد الجويَّة، أدُّوا الزكوات تُمطَروا، وقد رأينا بأعيننا في سنةٍ من السنوات، عندما بذل أهل الأردن أموالًا كثيرةً وزكواتٍ عظيمةً ليسدُّوا حاجة إخوانهم أهل العراق عندما نُكبوا، فأنزل الله علينا مطرًا غزيرًا عظيمًا، وهكذا فإنَّك تستطيع أن تعرف زكوات الناس أُدِّيت أم لم تُؤَدَّ من موسم المطر.

قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ**﴾[التوبة: ٣٤ ـ ٣٥].

ويقول النبيُّ ﷺ: «**مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحَ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ العِبَادِ، فَيُرَى سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ**».

قِيلَ: يَا رَسُولَ الله! فَالإِبِلُ؟ قَالَ: «وَلَا صَاحِبُ إِبِلٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، وَمِنْ حَقِّهَا حَلَبُهَا يَوْمَ وِرْدِهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ؛ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ أَوْفَرَ مَا كَانَتْ، لاَ يَفْقِدُ مِنهَا فَصِيلًا وَاحِدًا، تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَعَضُّهُ بِأَفْوَاهِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ العِبَادِ، فَيُرَى سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ». قِيلَ: يَا رَسُولَ الله! فَالبَقَرُ وَالغَنَمُ؟ قَالَ: «وَلَا صَاحِبُ بَقَرٍ وَلَا غَنَمٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ، بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ لَا يَفْقِدُ مِنْهَا شَيْئًا، لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءُ وَلَا جَلْحَاءُ وَلَا عَضْبَاءُ، تَنْطِحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِأَظْلَافِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ العِبَادِ، فَيُرَى سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»[١].

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «وفي ذلك معاملةٌ له[٢] بنقيضِ قصدِه؛ لأنَّه قصدَ منعَ حَقِّ الله منها، وهو الارتفاقُ والانتفاعُ بما يمنعه منها، فكان ما قصدَ الانتفاعَ به أضرَّ الأشياءِ عليه.

والحكمةُ في كونِها تُعادُ كلُّها، مع أنَّ حقَّ الله فيها إنَّما هو في بعضِها؛ لأنَّ الحقَّ في جميعِ المالِ غيرُ متميِّزٍ، ولأنَّ المالَ لـمَّا لَمْ تُخْرَج زكاتُه غيرُ مطَهَّرٍ»[٣].

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «من أحبَّ شيئًا سوى الله ـ تعالى ـ، ولم تكن محبَّته له لله ـ تعالى ـ، ولا لكونه مُعِينًا له على طاعة الله ـ تعالى ـ؛ عُذِّبَ به في الدُّنيا

---

(١) رواه مسلم (٩٨٧).

(٢) أي: لمانع الزكاة.

(٣) «فتح الباري» (٣/ ٢٦٩).

قبل يوم القيامة، كما قيل:

أنـتَ القتيـلُ بكـلِّ مَـنْ أحبَبْتَـهُ　　فاخْتَرْ لنَفْسِكَ في الهَوى مَنْ تصْطَفِي

فإذا كانَ يومُ المعادِ؛ ولَّى الحكَمُ العَدْلُ ـ سبحانَه ـ كلَّ مُحِبٍّ ما كان يحبُّـه في الدُّنيا فكانَ معَه؛ إمَّا منعَّمًا أو معذَّبًا، ولهذا يُمَثَّلُ لصاحبِ المالِ مالُه شجاعًا أقرعَ يأخذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ ـ يعني: شِدْقَيْهِ ـ، يقول: أنا مالُك! أنا كنْزُك! ويُصَفَّحُ له صـفائحُ من نارٍ يكوى بها جبينه وجنبه وظهره»(١).

وقال ـ رحمه الله ـ: «وتأمَّل! الحكمةَ في حبس الله ـ عز وجلَّ ـ الغيث عـن عباده، وابتلائهم بالقحط إذا منعوا الزكاةَ وحرموا المساكين، كيف جُوزوا عـلى منع ما للمساكين قِبَلَهُم من القوت، بمنع الله مادَّةَ القوتِ والـرِّزقِ وحبسِـها عـنهم، فقال لهم بلسان الحال: منعتم الحقَّ؛ فمُنِعْتُم الغيث، فهلَّا استنزلتموه ببذل مـا لله قِبَلَكم؟!»(٢).

وصدقَ الله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[آل عمران: ١٨٠]، ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾[الليل: ٨ ـ ١١].

بل دلَّ كتابُ الله ـ تعالى ـ على أنَّ الكوارث التي تنزل بالَّذين يمنعون حـقَّ الله الواجب في أموالهم، ليست قاصرةً على منع المطر، بل إنَّ من آثار ذلك: تعـريضُ أموالهم جميعًا للتَّلف والهلاك في الدُّنيا ـ أيضًا ـ.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٣٨ ـ ٣٩).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٧٧).

قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[القلم: ١٧ ـ ٣٣].

فهذه الجنَّة؛ وهي البستان النَّاضر الذي كانت ثماره وافرة، لما تواطأ أصحابه واتَّفقوا على حرمان المساكين من خيره، واجتمعوا على أن يمنعوا حقَّ الله فيه، أفاقوا على جنَّتهم تلك ذاك الصباح فإذا هي ﴿كَٱلصَّرِيمِ﴾ أي: محترقةٌ كالليل الأسود، وقيل: المعنى أنَّها كالأرض المحصودة، لم يبق منها سوى هشيمٌ وحطبٌ وعيدانٌ يابسةٌ لا يُنتفع بشيءٍ منها، ومهما يكن، فقد حلَّت بها الكارثة، ولم يتفطَّنوا إلى جِنَايَتِهِم وسوء صنيعهم إلَّا بعد فوات الأوان.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي: هكذا عذابُ من خالفَ أمرَ الله، وبَخِلَ بما آتاه اللهُ وأنعم به عليه، ومنعَ حقَّ المسكين والفقراء وذوي الحاجات، وبدَّلَ نعمةَ الله كفْرًا.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: هذه عقوبة الدُّنيا كما سمعتم، وعذابُ الآخرة أَشَقُّ»(١).

فنسأل الله ـ تعالى ـ العافية، ونعوذ بوجهه الكريم من شرور نفوسنا ومن

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٨/ ١٩٧).

شُحِّها، ومن سيئات أعمالنا، فالإنسانُ إذا لم يُعالج شُحَّ نفسه فهو كما وصفه خالقُه العليمُ به ـ سبحانه ـ بأنَّه: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[المعارج: ٢١].

قال بشر الحافي: «بقاءُ البُخَلاء؛ كَرْبٌ على قلوبِ المؤمنين»[1].

وخرَّج البخاريُّ في «الأدب المفرد»[2] من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ سيِّدُكم يا بني سَلِمَة؟»** قلنا: جَدُّ بن قيس، على أَنَّا نُبَخِّلُه! قال: **«وأيُّ داءٍ أَدْوَى من البُخْل؟! بل سيِّدكُم عمرو ابن الجموح»**.

وكان عمرو على أصنامهم في الجاهلية، وكان يُولِمُ عن رسول الله ﷺ إذا تزوَّج.

فالجودُ والكرم والصَّدقة من خصال الإيمان[3]، ومنع الزكاة من البُخل والشُّحِّ، وكما سمعنا في الحديث عقوبته عقوبةٌ عامَّة، فهو جريمةٌ جماعيَّة في حقِّ جماعة المسلمين ـ أيضًا ـ، ينالُ شؤمها الجميع، بالإضافة إلى عقوبة المانع في شخصه في الدنيا والآخرة.

وأمَّا الـمُتْرَفُونَ الذين أَبْطَرَتْهُم النِّعمةُ بدلًا من أن تحملهم على الطَّاعة والشكر والعمل الصالح وأداء الحقوق، فإنَّهم بتكذيبهم وإعراضهم يضعون أنفسهم تحت الوعيد الشديد، ولا يتنبَّهون أنَّ سيفَ النِّقمةِ الإلهيَّة يوشكُ أن يَجُزَّ رقابَهُم.

---

(١) «حلية الأولياء» (٨/ ٣٥٠).

(٢) برقم (٢٩٦)، وصححه شيخنا الألباني ـ رحمه الله ـ.

(٣) فصَّل ذلك سراج الدِّين البُلقيني في كتابه «ترجمان شعب الإيمان»، وفرغتُ ـ ولله الحمدُ ـ من تحقيقه.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾[الأنبياء: ١١ ـ ١٥].

قال ابن عاشور: «وفي ﴿كم﴾ الدَّالَّةِ على كثرةِ العَدَدِ إيماءٌ إلى أنَّ هذه الكثرةَ تستلزم عدَمَ تخَلُّفِ إهلاكِ هذه القُرى، وبضميمةِ وَصْفِ تلك الأُمَمِ بالظُّلم ـ أي: الشرك ـ إيماءٌ إلى سببِ الإهلاكِ، فحصلَ منه ومن اسمِ الكَثْرَةِ معنى العموم، فيَعلم المشركون التهديدَ بأنَّ ذلك حالٌّ بهم لا محالة بحكم العموم، وأنَّ هذا ليس مرادًا به قريةً معيَّنَةً».

قال: «والقَصْم: الكَسْرُ الشَّديد الذي لا يرجى بعده التئام ولا انتفاع[1]، واستُعِير للاستيصَالِ والإِهْلَاكِ القويِّ كإهلاكِ عادٍ وثمودَ وسبأ»[2].

وقال ـ أيضًا ـ: «وقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ من جملة التهكُّم، وذكر المفسِّرون في معنى ﴿تُسْـَٔلُونَ﴾ احتمالاتٍ ستَّةً؛ أظهرُها أنَّ المعنى: ارجعوا إلى ما كنتم فيه من النَّعيم، لتَرَوْا ما آلَ إليهِ، فلعلَّكم يسألكم سائلٌ عن حالِ ما أصابَكُم؛ فتعلموا كيف تجيبون؛ لأنَّ شأنَ المسافر أن يسأله الذين يَقْدَم إليهم عن حالِ البلادِ التي ترَكَها من خُصْبٍ ورَخَاءٍ أو ضِدِّ ذلك، وفي هذا تكملةٌ للتهكُّم»[3].

---

(١) قال البقاعي: «وأشار بالقَصْمِ ـ الذي هو أفظع الكسر ـ إلى أنها كانت باجتماع الكلمة وشدة الشكيمة كالحجر الرخام في الصلابة والقوة». «نظم الدرر» (٥/ ٧١).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٧/ ٢٤).

(٣) «التحرير والتنوير» (١٧/ ٢٧).

وقد أفاضَ الزمخشري ـ رحمه الله ـ في بيان دلالات هذا التهكُّم، وبلاغة وقوعه على نفوسِهِم ونفوس من يجب أن يتَّعظ بما أصابهم؛ فقال: «والركض: ضرب الدابة بالرجل؛ ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾[ص: ٤٢]، فيجوز أن يركبوا دوابهم يركُضُونَهَا هاربين منهزمين من قريتهم لـمَّا أدركَتْهم مقدمة العذاب، ويجوز أن يشبَّهُوا في سرعة عَدْوِهِم على أرجلهم بالرَّاكبين الرَّاكضين لدوابِّهِم، فقيل لهم: ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾، والقول محذوفٌ... ﴿وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ من العيش الرَّافِهِ والحال النَّاعمة، والإتراف: إبطار النعمة، وهي التَّرَفُّه ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ تهكُّمٌ بهم وتوبيخٌ؛ أي: ارجعوا إلى نعيمِكُم ومساكنكم لعلكم تسألون غدًا عما جرى عليكم، ونزل بأموالكم ومساكنكم، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة، أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم في مجالسكم، وترَتَّبُوا في مراتِبِكُم، حتى يسألكم عبيدُكُم وحَشَمُكُم ومن تمْلِكُونَ أمرَه وينْفُذُ فيه أمرُكُم ونهيكُم، ويقول لكم: بم تأمرون؟ وبماذا ترسمون؟ وكيف نأتي ونَذَر؟ كعادة الـمُنَعَّمِينَ الـمُخَدَّمِين، أو يسألكم النَّاس في أنديتكم الـمَعَاوِنَ في نوازل الخطوبِ، ويستشيرونكم في المهمات والعوارضِ ويستَشْفُونَ بتدابيرِكُم، ويستضيئون بآرائكم، أو يسألكم الوافدون عليكم والطُّمَّاعُ ويستمطرون سحائب أكُفِّكُم، ويمْتَرُونَ أخْلافَ معروفِكُم وأياديكم، إمَّا لأنَّهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رئاء الناس وطلب الثناء، أو كانوا بخلاء، فقيل لهم ذلك تهكمًا إلى تهكم، وتوبيخًا إلى توبيخ»[1].

فانظر! كيف تضمَّن هذا التحذيرُ الإلهيُّ الجليلُ الـمَهِيبُ لفتَ نظرِ

---

(١) «تفسير الزمخشري» (٣/ ١٠٦ ـ ١٠٧).

الـمُتْرَفِينَ إلى أن يُنقِذوا نعيمَهُم بالشُّكرِ، ويستديموا أُبَّهَةَ النِّعمة بـأداء الحقـوق، وإلَّا فهم في طريقِهِم إلى أن يزول عنهم كلُّ نعيم، ويُسلبوا كلَّ نعمـة، حتـى أدقَّ وأخفى ما تشتهيه النُّفوس.

وقد ذكر أبو حيَّان ـ رحمه الله ـ وجهًا جميلًا في بلاغـة نـداء الـتهكُّم هـذا؛ فقال:

«أهل هذه القرى كانوا باغترارهم يرَوْن أنَّهم من الله بمكانٍ، وأنَّه لو جـاءَهم عذابٌ أو أمرٌ؛ لم ينزِلْ بِهِم حتى يتخاصَمُوا ويُسْأَلُوا عن وَجْهِ تكـذيبِهِم لنَبِـيِّهِم، فيحتَجُّون هم عندَ ذلك بحُجَجٍ تنفعُهُم في ظنِّهِم، فلـمَّا نـزلَ العـذابُ دونَ هـذا الذي أَمَّلُوهُ، ورَكَضُوا فارِّين، نادَتْهُم الملائكةُ على وَجْـهِ الهُـزْءِ بِهِـم: ﴿**لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ**﴾ كما كنـتم تطمَعُـون، لِسَـفَهِ آرائِكُم»(1).

وهذا على القولِ بأنَّ الذين يقولـون لهـم: ﴿**لَا تَرْكُضُوا۟** ...﴾ هـم ملائكـةُ العذاب، وهو أحد الوجوه المذكورةِ في الآية، وأيًّا ما كان القائلُ، وسواءً كان ذلك يُقال على الحقيقة أو على وجه التقدير، فهذا المعنى البديع متحقِّقٌ، بل لا تكادُ تخلـو منه نفسُ مقيمٍ على التفريطِ والمعصيةِ، فإنَّه لولا تغريرُ الشيطانِ به بإيهامِه امتـدادَ عُذْرِه، لَمَا سوَّفَ وطالَ أملُه، ولو أيقَنَ بقُرْبِ العذابِ لَمَا مَاطَلَ في التَّوبةِ!

فسبحان الله! ألم يجعل الله من أسبابِ هلاكِ القُرى فِسْقُ مُتْرَفِيهـا؟! فقـال ـ عـزَّ مِـن قائـلٍ ـ: ﴿ **وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ**

---

(1) «البحر المحيط» (٦/ ٢٧٩).

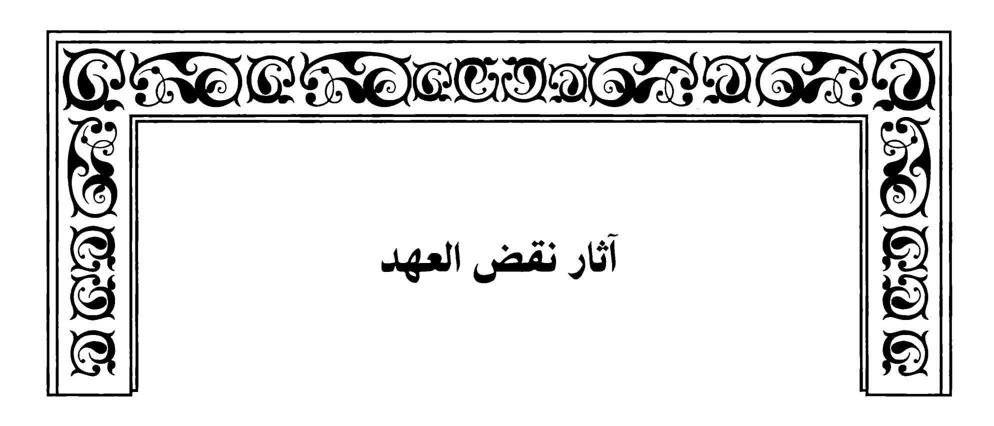
﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[الإسراء: ١٦].

فالنَّقيضُ الطبيعيُّ للنُّبُوَّةِ: موقعُ الـمُتْرَفِين والـمُسرفين، كما تشهد له هـذه الآية، ويشهد له ـ أيضًا ـ مجريات التاريخ في جميـع الأمـم والشـعوب، فالعلاقـة بينهما تطارُد وتناقُض، ولا سيما إن كانوا المسؤولين، وتشهد لـه قـراءة ﴿أَمَّرنـا﴾ «بتشديد الميم مفتوحةً؛ أي: سلَّطنا شرارها فعصَوْا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكنـاهم، أو جعلناهُم أمراء مُسَلَّطين»[1].

فاللهمَّ! سلِّم.

* * *

(١) «معجم القراءات» (٥/ ٣٣) للخطيب، ويُنظر: «السبعة» (٣٧٩)، «إعراب القـراءات السبع وعللها» (١/ ٣٦٦)، «البحر المحيط» (٧/ ٢٠).



آثار نقض العهد

يقول النبيُّ ﷺ: «وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ الله، وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدوًّا من غيرهم، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ».

من أراد أن يعرف لم تضيع بلاد المسلمين، ولِمَ تُسلب منهم أرضُهم، فقد جاءه الجواب؛ ما نقض قومٌ عهد الله وعهد رسوله ﷺ إلا سلَّط الله عليهم عدوًّا من غيرهم، فأخذ بعض ما في أيديهم.

معنى (العهد):

ذُكر العهدُ في كتاب الله كثيرًا، وموارده في كتاب الله على ثلاثة أنحاء: أنَّ العهد قد يكون من الله للعبد، وقد يكون من العبد إلى الله، وقد يكون من العبدِ إلى عبدٍ مثله.

فمِن عَهْد الله إلى عبيده؛ قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[آل عمران: ١٨٣].

فالعهد هنا بمعنى التكليف والإلزام والإيجاب.

ومثله في المعنى: الميثاق الذي يأخذه الله على عباده وأنبيائه، فهو بمعنى التكليف والإلزام والإيجاب، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[آل عمران: ١٨٧].

ومن عَهْد العبد لربِّه أو معاهدته له؛ قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾[الأحزاب: ١٥]، فهذا مثالٌ لقومٍ عاهدوا ثمَّ نقضوا ونكثوا؛ وهم المنافقون يوم الخندق، وقد ذكر الله في مقابلها مدحه لأولئك المؤمنين الصادقين، وهم أصحاب النبيِّ ﷺ، الذين عاهدوا ثم وَفَّوْا بعهدهم، وقاموا بحقِّه، فقال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[الأحزاب: ٢٣].

وأمَّا العهد من العبد لمثله؛ فكما ورد في معاهدة المسلمين للمشركين، وهو هنا في معنى الصُّلح والأمان؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[التوبة: ٧].

وإذا عاهد الإنسانُ ربَّه ـ تبارك وتعالى ـ على شيءٍ من الطاعة والمعروف، فإنَّ عهده يكون في معنى النَّذر واليمين، ويأخذ أحكامها.

ولذا فقد بوَّب البخاري في «صحيحه»[1] (باب: عهد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ)، وخرَّج تحته حديثَ عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبي ﷺ: **«من حلف على يمينٍ كاذبةٍ ليقتطعَ بها مالَ رجلٍ مسلمٍ** ـ أو قال: أخيه ـ؛ **لقيَ اللهَ وهو عليه**

(١) برقم (٦٦٥٩).

غضبان»، فأنزل الله تصديقه: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ** ﴾.

وتتمَّة الآية: ﴿ **وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ٧٧].

فكان العهدُ هنا من العبد لربِّه، وهو في معنى اليمين.

قال الرَّاغب: «العَهْدُ: حفظُ الشيءِ ومراعاتُه حالًا بعدَ حالٍ، وسُمِّيَ (المَوْثِقُ) الذي يلزم مراعاتُه: عهدًا. قال: ﴿ **وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا** ﴾ [الإسراء: ٣٤] أي: أَوْفُوا بحفظ الأيمان، قال: ﴿ **لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ [البقرة: ١٢٤] أي: لا أجعل عهدي لمن كان ظالـمًا، قال: ﴿ **وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ** ﴾ [التوبة: ١١١].

وعَهِدَ فلانٌ إلى فلانٍ، يَعْهَدُ؛ أي: ألقى إليهِ العهدَ وأوصاه بحفظِه، قال: ﴿ **وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ** ﴾ [طه: ١١٥]، ﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ** ﴾ [يس: ٦٠]، ﴿ **ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ** ﴾ [آل عمران: ١٨٣]، ﴿ **وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ** ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وعهدُ الله تارةً يكونُ بما رَكَزَهُ في عقولِنا، وتارةً يكونُ بما أَمَرَنَا به بالكتابِ وبألْسِنَةِ رُسُلِه، وتارةً بما نلتَزِمُه وليسَ بلازمٍ في أصلِ الشَّرْعِ، كالنُّذُورِ وما يجري مجراها»(١).

فحقيقة العهد في القرآن تدور إذن على هذه المعاني، وكذلك في السُّنَّة - أيضًا -.

---

(١) «المفردات» (٢/ ١٣١).

قال في «النِّهاية»[1]: «وقد تكرَّر ذِكْر العَهْدِ في الحديث، ويكون بمعنى: اليمينِ والأمانِ والذِّمَّةِ والحِفَاظِ ورعايةِ الحُرْمَة والوَصيَّة، ولا تَخْرجُ الأحاديثُ الواردةُ فيه عن أَحَدِ هذه المَعَانِي».

معنى (نقض العهد):

قال في «لسان العرب»[2]: «النَّقْضُ: إفسادُ ما أَبْرَمْتَ من عَقْدٍ أَو بِناءٍ».

وقال ابن فارس: «النُّون والقافُ والضَّادُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على نَكْثِ شَيء»[3].

وفي «المصباح المنير»[4]: «نَقَضْتُ الحبلَ نَقْضًا ـ أيضًا ـ: حَلَلْتُ بَرْمَهُ. ومنه يقال: نَقَضْتُ ما أَبْرَمَه: إذا أَبْطَلْتَهُ. وانْتَقَضَ هو بنفسه، وانْتَقَضَت الطَّهارة: بَطَلَت. وانْتَقَضَ الجُرْحُ بعدَ بُرْئِه، والأمرُ بعد التئامِه: فَسَدَ».

أقول: فالنَّقْضُ إذًا؛ هو ما يؤول بالعُقدة إلى الانحلال والانفراط والفساد، ومنه سُمِّيت الأعمال والأقوالُ التي تُخرِجُ صاحبها من الإيمان وتتسبَّب في كفره ـ عياذًا بالله ـ: (نواقض)؛ لأنَّها تؤول بعُقْدَةِ الإيمان التي في القلب إلى الانحلال والانفكاك والانتكاث.

وعلى هذا: فنقضُ عهد الله وعهد رسوله، هو التنصُّل والتَّحلُّل من طاعتهما الواجبة واللَّازمة، والإخلال بحقوق العهد الذي تلقَّاه عنهما المكلَّف، سواءً فيما

---

(١) (٣/ ٣٢٥).

(٢) (٧/ ٢٤٢) مادة (نقض).

(٣) «مقاييس اللغة» (٥/ ٤٧٠).

(٤) (٢/ ٦٢٢).

يترتَّب في ذمَّته من طاعة الله وطاعة رسوله تعبُّدًا وتعظيمًا واتِّباعًا، أو ما كان يتعلَّق بذمَّة العبد من حقوق المخلوقين.

ومن صور العهود التي جاء التشديد في شأنها، عهد المسلم لغير المسلم، وتأمينه على نفسه بموجب الصُّلح الذي يعقده المسلمون مع غيرهم من الكفَّار.

قال رسول الله ﷺ: **«لا يُقْتَلْ مؤمنٌ بكافرٍ، ولا ذو عهدٍ في عهدِه»**[1].

وقال ﷺ: **«من قتلَ مُعَاهَدًا؛ لم يَرَحْ رائحةَ الـجَنَّةِ، وإنَّ ريحَها توجدُ من مسيرةِ أربعينَ عامًا»**[2].

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الـجَمَاعَةَ فَمَاتَ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ، يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً، فَقُتِلَ؛ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلَا يَتَحَاشَ مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ؛ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ»**[3].

وقال: **«وذمَّةُ المسلمينَ واحدةٌ، يسعى بها أدناهم، فمن أَخْفَرَ مسلمًا فعليه لعنةُ الله والملائكةِ والنَّاسِ أجمعين، لا يُقبل منه صَرْفٌ ولا عَدْلٌ»**[4].

وما زال المسلمون معظِّمون لهذا الأمر، ويحرصون على رعايته، ويعلمون الوعيد الوارد بشأن إخفار الذِّمَّة وخيانة العهد.

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٦٦٠)، **وسنده صحيح.**

(٢) رواه البخاري (٣١٦٦).

(٣) رواه مسلم (١٨٤٨).

(٤) رواه البخاري (٣١٧٩).

بل في بعض الفتوح التي وقعت في زمن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، أجازَ عُمَر ـ رضي الله عنه ـ عهدًا كتبه عبدٌ من عبيد المسلمين للمشركين دون مشورة الجيش، فصحَّح عمر ذلك العهد، تعظيمًا لشأن أن يبذل المسلمون ذمَّتهم ثمَّ يُخفروها، فيظهرون حينها بمظهر الخائنين.

فعن فُضَيل بن زيد الرَّقاشي ـ وقد كان غزا على عهد عمر بن الخطاب سبع غزوات ـ قال: بعثَ عمر جيشًا فكنتُ في ذلك الجيشِ، فحاصرنا أهلَ سُهْرِيَاجَ[1]، فلمَّا رأينا أنَّا سنفتحُها من يومنا ذلك، قلنا: نرجع فنَقِيلُ، ثمَّ نروحُ فنفتحُهَا، فلمَّا رجعْنَا، تخَلَّفَ عبدٌ من عبيدِ المسلمين، فَرَاطَنَهُم فَرَاطَنُوهُ، فكتبَ لهم أمانًا في صحيفةٍ، ثم شدَّه في سهمٍ، فرمى به إليهم، فخرجوا.

فلمَّا رجعنا من العشيِّ وجَدْنَاهُم قد خَرَجُوا! قلنا لهم: ما لكم؟ قالوا: أمَّنْتُمُونَا، قلنا: ما فعلنا! إنَّما الَّذي أَمَّنكُم عبدٌ لا يَقْدِرُ على شيءٍ، فارجعوا حتى نكتب إلى عمر بن الخطاب، فقالوا: ما نعرفُ عبْدَكُم من حُرِّكُم! ما نحن براجعين، إن شئتم فاقتلونا، وإن شئتم فَفُوا لنا.

قال: فكتبنا إلى عمر، فكتب عمر: إنَّ عبدَ المسلمين من المسلمين، ذمَّتُه ذِمَّتُهُم.

قال: فأجازَ عمرُ أمانَه[2].

---

(١) قال ياقوت: «(سُهْرياج) بلدةٌ بفارس... وقال بعضهم: إنَّ حصنَ (سيراف) يُدْعَى: (سُوريانج)، فسمَّته العربُ: (سهرياج)». «معجم البلدان» (٣/ ٢٩٠).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنَّف» (١٢/ ٤٥٤) وأبو عُبيد في «الأموال» (١/ ٢٩٥) ـ مختصرًا ـ، والبيهقي في «الكبرى» (٨/ ١٩٤) برقم (١٧٢٦٥) ـ مختصرًا ـ، **وصحَّحه** ابن الملقِّن في «البدر المنير» (٩/ ١٧٧)، ويُنظر لـ (العهد) مع المستأمنين والكافرين =

وهذه رعايةٌ عظيمةٌ للعهد، وعنايةٌ بشأنه.

ولذا فإنَّنا نجد ربَّنا ـ تبارك وتعالى ـ الموصوفَ بصفات الكمال والجلال، الذي له الصِّفاتُ العُلى؛ أي: الصِّفات التي بلغت في عُلُوِّ القَدْرِ الغايةَ والمنتهى، نجدُه ـ تباركَ وتعالى ـ قد عاملَ الكفَّار والمنافقين معاملةً من جنسِ معاملتهم معه، وقابلَ إساءتهم بما يستحقُّون؛ لأنَّ جزاءهم بالمثل حينئذ هو الكمالُ، وهو الحكمةُ والعدْل.

فنجده ـ تعالى ـ يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، ويقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[التوبة: ٧٩]، وقال ـ تعالى ـ أيضًا: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[البقرة: ١٤ ـ ١٥].

وهكذا، إلَّا في الخيانة، فإنَّ الخيانة لا تكون فضيلةً ولا تكون محمودةً أبدًا، لا ابتداءً ولا جزاءً، بل هي نقيصةٌ في كلِّ ظروفها وصورها، ولذا قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧١]، فقال: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾، ولم يقل: (فخانهم) ـ مثلًا ـ، ولا توعَّدهم أن يقابل خيانتهم بخيانة، ولا شرع لنبيِّه ﷺ أن يفعل ذلك، بل حتى عندما يتوجَّس المسلمون خيفةً من غدر الكفَّار، ويشكُّون في مصداقيتهم في وفائهم بالعهد

= وأحكامهما مع الأدلة: «الإنجاد في أبواب الجهاد» (٢/ ٢٩٣ ـ ٣٣٨ بتحقيقي) لابن المناصف، فإنَّه من (المهمَّات)، ولا سيما في هذه الأوقات.

والتزامهم به، فلم يشرع الله ـ تعالى ـ المبادرة بالخيانة والنَّقض، بل شرعَ للمسلمين أن يقدِّموا للكفَّار بنقض العهد، ويخبروهم بإلغائه وبُطلانه قبل أن يُبادروا إلى أيِّ فعل؛ فقال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ** ﴾[الأنفال: ٥٨].

ولذا فقد قال النبيُّ ﷺ: «**أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**»(١).

وبهذا يظهر لنا الرابط بين معصية نقض العهد وبين الجزاء؛ بأن يسلِّط الله على المسلمين عدوًّا من غيرهم، فيأخذ منهم ويسلبهم بعض ما في أيديهم، وهو أنَّ نقض العهد لمَّا كان عدوانًا من المسلم بغير حقٍّ، كان الجَزَاءُ أن يُمَكَّنَ غيرُ المسلم من المسلم، فالله حَكَمٌ عدلٌ، لا يُحابي أحدًا من خلقه برَحِمٍ ولا قَرابَةٍ، وإنَّما جزاءُ السَّيِّئةِ سيِّئةٌ مثلها، والله المستعان.

عن جبير بن نفير ـ رضي الله عنه ـ قال: «لـمَّا فُتِحَت مَدَائِنُ قُبْرُسَ(٢)، وقع النَّاس يقتسمون السَّبْيَ ويفرِّقون بينهم، ويبكي بعضُهُم على بعضٍ، فتنحَّى أبو الدرداءِ، ثم احتبى بحمائل سيفه، فجعل يبكي! فأتيتُه، فقلت: ما يبكيك يا أبا الدرداء؟! أتبكي في يوم أعزَّ الله فيه الإسلام وأهلَه وأذلَّ فيه الكفر وأهله؟!

فضرب على منكبيه، ثم قال: ثكلتك أمُّك يا جبير بن نفير! ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره! بينما هي أمَّةٌ قاهرة ظاهرة على الناس، لهم الملك، حتى تركوا أمر الله، فصاروا إلى ما ترى، وإنه إذا سلَّط السَّبَاءُ على قومٍ، فقد خَرَجُوا

---

(١) رواه أبو داود (٣٥٣٦) والترمذي (١٢٦٤)، **وسنده صحيح**.

(٢) هي جزيرةُ (قبرص) المعروفة في البحر الأبيض المتوسط.

من عين الله، وليست لله بهم حاجة»[1].

وصدق ـ رضي الله عنه ـ، وما كان أعظمَ اعتبارَه بما رأى يومئذٍ، رعايةً منه لقوله ـ تعالى ـ في نُظراءِ هؤلاء من يهودِ بني النَّضير: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾[الحشر: ٢].

وهل تنهارُ الأمم، وتخرب الأوطان، وتذلُّ الشعوب، وتزولُ الحضاراتُ، إلَّا بالذُّنوب؟!

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وقَدْ شاهدَ النَّاسُ عيانًا، أنَّه من عاشَ بالـمَكْرِ، ماتَ بالفَقْرِ»[2].

فنسأل الله أن يردَّ المسلمين إلى دينهم ردًّا جميلًا، ويردَّ إليهم ما سُلبَ من أراضيهم وديارهم.

العهدُ مع رسول الله ﷺ:

لو أخذنا إطلالةً سريعةً على حالنا مع اتِّباع سنَّته ـ عليه الصلاة والسلام ـ على كافة المستويات؛ أعني: في كلِّ مجالات الحياة، فكيف حالها؟ وما نصيبها من العمل والاهتمام؟

والله ـ تبارك وتعالى ـ قسَّم الذين آمنوا به وبرسوله ﷺ وصَحِبُوه في حياته

---

(١) رواه أحمد في «الزهد» (رقم ٧٦٢)، وسعيد بن منصور في «سننه» (٢/ ٢٩٠ ـ ٢٩١) رقم (٢٦٦٠) ـ واللفظ له ـ، بسندٍ صحيح.

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ٦١٣).

إلى فئتين؛ فقال ـ تعالى ـ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[الحشر: ٨]، فهؤلاء هم المهاجرون ـ رضي الله عنهم ـ.

ثمَّ قال ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: ٩]، وهؤلاء هم الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ.

فأين أنا وأنت؟ أنا وأنت ينبغي أن نكون في فئةٍ ثالثة ذكرها الله بعد الفئتين السابقتين؛ وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[الحشر: ١٠].

هذا مقام تعظيم السلف، واتِّباعهم على ما كانوا عليه من المنهج، وعلى طريقتهم المباركة في تقديم الوحي على كلِّ شيء، وتقديم الرَّسول ﷺ على كلِّ أحد، فكم نصيبنا منها؟

إنَّ بيننا وبينه موعدًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ وهو حوضُه المورود في عرصات القيامة، فهُناكَ سيُذادُ عنه أقوامٌ ويُطردوا بما غيَّروا وبدَّلوا، والفائزون هم أهل الاتِّباع الخالص، الذين يبذلون عقولهم وقلوبهم وجوارحهم في التحقُّق بما جاء به ﷺ علمًا وعملًا.

لا شكَّ أنَّ التقصير كبير، وشُؤم المخالفة والبدعة جاثمٌ على الفرد والجماعة، وليس التقصير فقط، بل إنَّ تيَّارات الانتقاص والتنكُّر للسُّنَّة ورُواتها وحَمَلَتِها

ـ أيضًا ـ موجودةٌ ـ يا للأسف ـ في الأمَّة الإسلاميَّة، وتلعبُ دورها كاملًا في تحريف الدِّين وتشويهه، وذبح قِيَم الأمَّة وهويَّتها الأصيلة تحت شعارات التَّجديد ودعاوى المواكبة وأشباهها، فليعتبر هؤلاء قبل فوات الأوان، قبل أن ينظمهم التاريخ ـ وهم على الشُّهرة حريصون ـ في سلك المنبوذين، والـمُعاقَبين على أعيُن النَّاس، فقد حفظت لنا بطون الكُتب ما فيه عبرة.

هذا مع وجوبِ التنبُّه إلى تنوُّعِ العقوباتِ التي يُجْرِيهَا الله ـ تعالى ـ بعَدْلِهِ وحِكْمَتِهِ على المستكبرين على رسولِهِ ﷺ، والمتآمِرين على سُنَّتِهِ، فإنَّ أشكالَهَا وأنواعَهَا على ظواهِرِهِم وبواطِنِهِم لا تُحصَى، وأخطرُهَا وأعظمُهَا تأثيرًا ما يكونُ من الخذلانِ عن الهُدَى بما كسبت أيديهم، ومعاقبتهم بالشُّكوكِ، كما قال شيخ الإسلام: «من تَعَوَّدَ مُعَارضَةَ الشَّرْعِ بالرَّأيِ، لا يستقرُّ في قلبِه الإيمان»[1].

وكما قال تلميذُه الإمام ابن القيِّم: «من عُرِضَ عليه حقٌّ فردَّه فلم يقبله، عُوقِبَ بفسادِ قلبه وعقله ورأيِه»[2].

وهذا الباب، أعني بابَ اتِّباع النبيِّ ﷺ، وتحصيل بَرَكَات مراعاة السُّنَّة، وبيان شُؤم البدعة ومخالفة الهَدْي النَّبويِّ الشريف، بابٌ واسعٌ لا يُحاطُ به، وتحقيقُ هذا الباب علمًا وعملًا هو حقيقة النِّصف الثَّاني من كلمة التوحيد: (وأشهدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ الله).

وفي الحديث المشهور في «الصَّحيحين»: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله؛ فهجرته إلى الله ورسوله**»؛ فما المقصود بالهجرة إلى رسول الله ﷺ؟

---

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ١٨٧).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٦٠).

هذه الهجرةُ واجبةٌ على كلِّ أحد، وقد كانت قديمًا بالهجرةِ إليه في المدينة، أيَّام كانت الدِّيار المحيطةُ بها معظمُها ديارَ كُفر، فكانت ـ سابقًا ـ هجرةً حسِّيَّةً ينتقل فيها المهاجرُ من مكانٍ إلى مكان.

لكنَّ لهذه الهجرةِ جانبٌ لا ينفكُّ عنه أحد، بل يجبُ على كلِّ أحد، سواءً انتقلَ حسًّا من دارِ كفرٍ إلى دار إسلامٍ أم لم ينتقل؛ وهو هجرةُ الأفكار، والمفاهيم، والبِدَع، والعادات، المخالفةِ لما جاءَ به ﷺ، والتزامُ الوحي الذي أنزله الله على قلبه، والرِّضى بما دلَّ عليه من المسالك، والإيمان بأنَّ هَدْيَه خيرُ الهَدْيِ، وخَبَرَه أصدقُ الخَبَر، وسيرتَه أَحْمَدُ السِّيَر.

«فاسمع الآنَ شأنَ هذه الهجرةِ والدَّلالةَ عليها، وحاسب نفسكَ بينك وبين الله، هل أنت من الهاجرين لها أو المهاجرين إليها؟

فحَدُّ هذه الهجرةِ: سَفَرُ النَّفْسِ في كلِّ مسألةٍ من مسائل الإيمان، ونازلةٍ من نوازل القلوب، وحادثةٍ من حوادث الأحكام؛ إلى مَعْدِنِ الهُدَى، ومنبعِ النُّور المُتَلَقَّى من فَمِ الصَّادقِ المصدوق، الذي لا ينطقُ عن الهوى، ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾[النَّجم: ٤].

فكلُّ مسألةٍ طَلَعَتْ عليها شمسُ رسالَتِه، وإلَّا فاقذِفْ بها في بحار الظُّلُمات، وكلُّ شاهدٍ عَدَّلَه هذا المزَكِّي الصَّادقُ، وإلَّا فعُدَّه من أهل الرِّيَبِ والتُّهُمات، فهذا حدُّ هذه الهجرة.

فما للمقيم في مدينة طبعه وعوائده، القَاطِنِ في دارِ مَرْبَاهُ ومَوْلِدِه، القائلِ: إنَّا على طريقةِ آبائِنَا سالكون، وإنَّا بحبلهم مستمسكون، وإنَّا على آثارهم مقتدون، وما لهذه الهجرة؟!

قد ألْقى كُلَّه عليهِم، واستند في معرفةِ طريقِ نجاتِه وفلاحه إليهم، معتذرًا بأنَّ رأيَهم له خيرٌ من رأيه لنفسه، وأنَّ ظنونهم وآراءهم أوثقُ من ظَنِّهِ وحَدْسِه.

ولو فتَّشت عن مصدر هذه الكلمة، لوجدتَها صادرةً عن الإخلادِ إلى أرضِ البَطَالَة، متولِّدَةً بينَ بَعْلِ الكَسَلِ وزوجَتِه الـمَلَالَة.

والمقصود: أنَّ هذه الهجرةَ فرضٌ على كلِّ مسلمٍ، وهي مقتضى شهادةِ أنَّ محمدًا رسول الله، كما أنَّ الهجرةَ الأولى مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، وعن هاتين الهجرتين يُسأَلُ كلُّ عبدٍ يوم القيامةِ، وفي البرزخ، ويُطَالَبُ بها في الدُّنيا، ودار البرزخ، ودار القرار.

قال قتادة: كلمتان يسأل عنهما الأوَّلونَ والآخِرون: ماذا كنتم تعبدون، وماذا أجبتم المرسلين؟

وهاتان الكلمتان هما مضمون الشهادتين، وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[النّساء: ٦٥]، فأقسمَ ـ سبحانه ـ بأَجَلِّ مُقْسَمٍ به وهو نفسه ـ عز وجل ـ، على أنَّه لا يثبت لهم الإيمان، ولا يكونون من أهله، حتى يُحَكِّمُوا رسولَ الله ﷺ في جميعِ مواردِ النِّزَاعِ، وهو كلُّ ما شجرَ بينهم من مسائل النِّزاع في جميعِ أبوابِ الدِّينِ، فإنَّ لَفْظَةَ (ما) من صِيَغِ العُمُومِ، فإنَّها موصولةٌ تقتضي نَفْيَ الإيمانِ إذا لم يوجد تحكيمه في جميع ما شجر بينهم.

ولم يقتصر على هذا حتى ضَمَّ إليهِ انشراحَ صدورهم بحُكْمِه، حيث لا يجدون في أنفسهم حرجًا ـ وهو الضِّيقُ والحَصَرُ ـ من حكمه، بل يقبلوا حُكْمَه بالانشراح، ويقابلوه بالتسليم، لا أنهم يأخذونه على إغماضٍ، ويشربونه على قَذًى، فإنَّ هذا

مُنَافٍ للإيمانِ، بل لا بد أن يكون أَخْذُهُ بقَبُولٍ ورِضًا وانشراحِ صَدْرٍ»[1].

والسُّنَّةُ والبِدْعَةُ ضَرَّتَانِ، لا يأخُذُ العبدُ من إحداهِمَا شيئًا إلَّا شَغَلَه عن مثلِهِ في الأخرى، فالسَّعيدُ من لَزِمَ الحقَّ، ولا يَبِعْ هَدْيَ نبيِّه ﷺ بأيِّ شيءٍ، ومِمَّا قرَّرَه شيخُ الإسلامِ بعبارةٍ بديعةٍ في هذا المعنى، قولُه ـ برَّدَ الله مضْجَعَه ـ: «والشرائعُ هي غذاءُ القلوبِ وقوتُها... ومن شأنِ الجَسَدِ إذا كان جائعًا فأخَذَ من طعامٍ حاجَتَه؛ استغنى عن طعامٍ آخر، حتى لا يأكُلَه إنْ أكَلَ منه إلا بكراهةٍ وتَجَشُّمٍ، وربما ضَرَّه أكلُه، أو لم ينتفع به، ولم يكن هو الـمُغَذِّي له الذي يُقِيمُ بدَنَه، فالعبدُ إذا أخذ من غير الأعمال المشروعةِ بعضَ حاجتِه، قلَّت رغبتُه في المشروعِ وانتفاعُه به، بقَدْرِ ما اعتاضَ من غيرِه، بخلاف من صَرَفَ نهمته وهِمَّتَه إلى المشروع، فإنَّه تَعْظُمُ محبَّتُه له ومنفعتُه به، ويتم دينه ويكمُلُ إسلامُه.

ولذا تجدُ من أَكْثَرَ من سماعِ القَصَائِدِ لطَلَبِ صلاحِ قلبِه؛ تنْقُصُ رغبتُه في سماعِ القرآنِ، حتى ربَّما كَرِهَه! ومَن أَكْثَرَ من السفر إلى زيارات المشاهد ونحوها؛ لا يبقى لِحَجِّ البيتِ الحرام في قلبِه من الـمَحَبَّةِ والتعظيمِ ما يكونُ في قلبِ من وَسِعَتْهُ السُّنَّةُ، ومن أدمنَ على أخذِ الحكمة والآدابِ من كلام حكماء فارس والروم، لا يبقى لحكمة الإسلامِ وآدابِه في قلبِه ذاك الموقِع، ومن أدْمَنَ قصص الملوك وسِيَرَهُم؛ لا يبقى لقصص الأنبياء وسِيَرِهم في قلبِه ذاك الاهتمام، ونظير هذا كثيرٌ»[2].

وقال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ

---

(1) «الرسالة التبوكيَّة» (ص٢٣ ـ ٢٦) للإمام ابن قيِّم الجوزيَّة.

(2) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٥٤٢ ـ ٥٤٣).

﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾[يونس: ٥٨]، وقد دارت أقوال السلف على أنَّ فضل الله ورحمته: الإسلام والسُّنَّة، وعلى حسب حياةِ القلبِ يكون فرحُه بهما، وكلَّما كانَ أرسخَ فيهما كان قلبُه أشدَّ فرحًا، حتى إنَّ القلبَ ليَرْقُصُ فرحًا ـ إذا باشَرَ رُوحَ السُّنَّةِ ـ أحزنَ ما يكونُ النَّاسُ، وهو ممتلئٌ أمنًا أخوفَ ما يكونُ النَّاس»[١].

أمَّا البدعةُ فهي زورٌ، وكذبٌ، وباطلٌ، وافتراءٌ على الله، وشُؤمٌ على العاملِ بها، بل على الأمَّةِ بأسرها، ولو أفنى فيها الإنسانُ عمره لم يكن له بعد ذلك إلَّا الخسران، إلَّا أن يكون جاهلًا يعذُرُه الله ـ تعالى ـ بفضله ورحمته.

ومن شُؤمها على صاحبها، أنَّها تكون له سيِّئةً تعيشُ من بعده، وتسويدًا مستمرًّا لصحيفته إذا كان هو من اخترعها أو أحياها بعد موتها ودعا النَّاس إليها، فإنَّ الإنسان قد يفعلُ الفعل أو يقول القول ولا يحيطُ بآثاره ونتائجه، فيعود عليه وبالًا عظيمًا لم يكن في حسبانه ولا في تصوُّره، ويكون مؤاخذًا في الشَّرع بعينِ فعله وقوله، وبما تسبَّب به قولُه وفعلُه كذلك؛ وذلك لأنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[يس: ١٢]، ولقول النبيِّ ﷺ: «**ما من نفس تقتل ظلمًا؛ إلا كان على ابن آدم الأول كِفل منها**»[٢]، وقوله ـ عليه الصلاة والسَّلام ـ: «**وإنَّ أحدَكم ليتكلم بالكلمةِ من سَخَطِ الله ما يظنُّ أن تبلغ ما بلغت**[٣]**، فيكتب الله عليه بها سَخَطَه إلى يوم يلقاه**»[٤]، وقولُه ﷺ: «**ومن سَنَّ في الإسلام سُنَّةً سيِّئَةً؛ كان عليه وزرها**

(١) «اجتماع الجيوش الإسلاميَّة» (ص٩ ـ ١٠).

(٢) رواه البخاري (٣٣٣٥) ومسلم (١٦٧٧).

(٣) في روايةٍ للترمذي في «جامعه» (٢٣١٤) من حديث أبي هريرة: «**لا يرى بها بأسًا**».

(٤) رواه الترمذي (٢٣١٩) من حديث بلال بن الحارث المزني، وسنده صحيح.

ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1]، فهذه النُّصوصُ أدلَّةٌ واضحةٌ على الشُّؤم الذي ينالُه صاحبُ البدعةِ منها، وقديمًا قيل: السَّعيدُ من إذا مات ماتت ذنوبه معه.

بل المبتدعُ ذليلٌ عند الله وعند النَّاس، وهذا من سَوءاتِ البدعةِ وشُؤمها وأنْكَادِهَا على أهلها ـ أيضًا ـ.

قال الإمام الشَّاطبيُّ ـ رحمه الله ـ:

«وأمَّا أنَّ المبتدع يُلْقَى عليه الذُّلُّ في الدُّنيا والغضبُ من الله ـ تعالى ـ؛ فلقوله ـ تعالى ـ: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ** ﴾[الأعراف: ١٥٢]، حسبما جاء في تفسير الآيةِ عن بعض السَّلَف.

ووجهه ظاهرٌ؛ لأنَّ المتَّخِذِينَ للعجلِ إنَّما ضَلُّوا به حتى عَبَدُوه، لِـمَا سمعوا من خُواره، ولِـمَا ألقى إليهم السامريُّ فيه، فكان في حقِّهم شُبْهةٌ خرجوا بها عن الحقِّ الذي كان في أيديهم، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ** ﴾، فهو عمومٌ فيهم وفيمن أشبَهَهُم، من حيث كانت البِدَعُ كلُّهَا افتراءً على الله، حسبما أخبرَ في كتابه في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ** ﴾[الأنعام: ١٤٠].

فإذن كلُّ من ابتدع في دين الله فهو ذليلٌ حقيرٌ بسبب بدعته، وإنْ ظهرَ لبادِي الرأي عِزُّهُ وجبروتُه، فهم في أنفسهم أَذِلَّاء.

وأيضًا فإنَّ الذِّلَّةَ الحاضرةَ بين أيدينا موجودةٌ في غالبِ الأحوالِ، ألا ترى

(١) رواه مسلم (١٠١٧).

أحوالَ المبتدعةِ في زمان التَّابعين وفيما بعد ذلك؟ حتى تلبَّسُوا بالسَّلاطِين ولاذوا بأهـلِ الدُّنيـا، ومـن لم يقـدِرْ على ذلـك استخفى ببدعته، وهـرب بها عن مخالطةِ الجمهور، وعمل بأعمالها على التقيَّة»[1].

وهذه سنَّة كونيَّة شرعيَّة لله ـ عـز وجل ـ لا تتخلـف عن أحد، ولا تنخرم بتقليب الحوادث والأعصار، ولا تنفكُّ عن الإنسان أيٍّ كان، وإن صُنِعَ له الهيْلَمان، وشاعَ ذكرُه ومدحُه في وسائِلِ الإعلان، تفقَّدْ تَجِدْ، وافْحَصْ تُخْبَرْ.

وقال الشاطبي ـ رحمه الله ـ[2]:

«فاعلموا أنَّ البدعة لا تفيد معـها عبادةٌ من صلاةٍ ولا صـيامٍ ولا صـدقةٍ ولا غيرِها من القُرُبات[3]، ومُجالس صاحبها تُنْزَعُ منه العصمةُ، ويُوكَلُ إلى نفسِه[4]، والماشي إليه وموقِّره معينٌ على هدم الإسلام[5]، فما الظَّنُّ بصاحبها؟ وهو ملعونٌ

---

(١) «الاعتصام» (١/ ٢١٧ ـ ٢١٨ ـ بتحقيقي).

(٢) «الاعتصام» (١/ ١٨٣ ـ بتحقيقي).

(٣) والدَّليلُ على ذلك قول النبي ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ**». أخرجه مسلم (١٧١٨)، و(ردٌّ): مردودٌ على فاعله.

(٤) يُشيرُ إلى ما ورد عن محمَّـد بن النَّضر الحارثي ـ رحمه الله ـ وغير واحدٍ من السَّلف: «من أصغى سَمعَه إلى صاحب بدعةٍ وهو يعلم أنَّه صاحب بدعةٍ، نُزِعَت منه العِصْمَةُ، ووُكِلَ إلى نفسِه».

أخرجه اللَّالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (١/ ١٣٦) رقم (٢٥٢).

(٥) يُشيرُ إلى ما ورد عن الأوزاعي، وإبراهيم بن ميسرة، وغير واحدٍ من السَّلف: «من وقـر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام».

أخرجه الهروي في «ذمِّ الكلام» (٥/ ١٣١) رقم (٩٢٣) عن الأوزاعي.

على لسان الشريعة، ويزدادُ من الله بعبادته بُعْدًا، وهي مَظِنَّة إلقاءِ العداوةِ والبغضاءِ، ومانعةٌ من الشفاعة المحمَّدية، ورافعةٌ للسُّنن التي تقابلها، وعلى مبتدعها إثمُ من عمل بها، وليس له من توبةٍ، وتُلْقَى عليه الذِّلة في الرِّضا والغضبِ من الله، ويُبعَد عن حوض رسول الله ﷺ، ويُخاف عليه أن يكون معدودًا في الكفَّار الخارجين عن المِلَّة، وسوء الخاتمة عند الخروج من الدنيا، ويَسوَدُّ وجهه في الآخرة، ويُعذَّب بنار جهنم، وقد تبرَّأ منه رسول الله ﷺ، وتبرَّأ منه المسلمون، ويُخاف عليه الفتنة في الدنيا زيادةً إلى عذابِ الآخرة».

ولا نقول إلَّا: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، فعلى الرَّغم من كلِّ محاسن السُّنَّةِ وبركات الاتِّباع، وكلِّ مساوئ البدعةِ والابتداع؛ لا تزال البدع تزدادُ، ويتكالبُ عليها النَّاس، ولا تزدادُ السُّنَّةُ إلَّا غُربةً، ولا يزدادُ أهلها إلَّا وحشةً، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

وههنا كلمتان عزيزتان لشيخ الإسلام ابن تيميَّة وتلميذه الإمام ابن قيِّم الجوزيّة ـ رحمهما الله ـ، فيهما تعميقٌ لمفهوم الاتِّباع الشاملِ، في العلمِ والعملِ، وللأفراد والجماعات.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة:

«فليس لأحدٍ ـ وإنْ عَظُمَ علمُه وعبادتُه ومُلْكُه وسلطَانُه ـ أن يَعْدِلَ عمَّا جاءَ به الرسول ﷺ إلى ما يخالفه في شيءٍ من الأمورِ الدِّينيَّةِ، باطِنِها وظاهِرِها، وشرائِعِها وحقائِقِها، بل على جميعِ الخلق أن يتبعوه ويسلموا لحكمه، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[النساء: ٦٥]، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ الآية [النساء: ٥٩]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾[يونس: ١٩]، كما قال في سورة البقرة: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ الآية [البقرة: ٢١٣].

وفي «صحيح مسلم»[١] عن عائشة أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا قامَ من اللَّيل يصلِّي يقول: «اللهمَّ! ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطرَ السمواتِ والأرضِ، عالـمَ الغيبِ والشهادةِ، أنت تحكُمُ بين عبادِكَ فيما كانوا فيه يختلفون، اهْدِني لِما اختُلِفَ فيه من الحقِّ بإذنك، إنَّك تهدي من تشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ».

وقد علق ـ سبحانه ـ بطاعته الفوزَ فقال في ذمِّ المنافقين: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ إلى قوله ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ إلى قوله ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[النور: ٤٧ ـ ٥٤].

وهذا الأصلُ متَّفَقٌ عليهِ بين كلِّ من آمَنَ به الإيمانَ الواجبَ الذي فرضه الله على الخلق، وكل أحد عليه أن يتقي الله ما استطاع، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن: ١٦]، وهذا تبيين لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، قال ابن مسعود: «حقُّ تُقَاتِه هو: أن يُطَاعَ فلا يُعْصَى، ويُذْكَرَ فلا يُنْسَى، ويُشْكَرَ فلا يُكْفَرَ»[٢]، لكن الأمرَ مشروطٌ بالاستطاعةِ كما بيَّنَه في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، فقد يخفى على الإنسانِ بعضُ سُنَّةِ الرسول

---

(١) برقم (٧٧٠).

(٢) «تفسير الطبري» (٧/ ٦٥).

وأمرِه مع اجتهاده في طاعتِه، فلا يكلِّف الله نفسًا إلا وُسْعَها، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «إذا اجتهدَ الحاكمُ فأصابَ فله أجرانِ، وإذا اجتهدَ فأخطأَ فله أجرٌ» أخرجاه في «الصحيحين»[1]، وقد يقول الرجل ويحكم بغير علم فيأثم على ذلك، كما يأثم إذا قال بخلاف ما يعلمه من الحقِّ»[2].

وقال الإمام ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ:

«فالقياسُ الصَّحِيحُ هو معقولُ النُّصُوص، والقياسُ الباطلُ المخالفُ للنُّصُوصِ مُضَادٌّ للشَّرعِ، فهذا الفَصْلُ هو فَرْقُ ما بين وَرَثَةِ الأنبياءِ وغيرِهِم، وأصلُه مبنيٌّ على حرفٍ واحدٍ؛ وهو عمومُ رسالتِه بالسُّنَّةِ إلى كلِّ ما يحتاجُ إليهِ العِبَادُ في معارِفِهم وعلومِهم وأعمالِهم التي بِهَا صلاحُهُم في معاشِهِم ومعادِهِم، وأنَّه لا حاجةَ إلى أحدٍ سِواه البَتَّةَ، وإنَّما حاجَتُنَا إلى من يبلِّغُنَا عنه ما جاء به، فمن لم يستقرَّ هذا في قلبِه؛ لم يرسخ قدمُه في الإيمانِ بالرسولِ، بل يجب الإيمانُ بعُمُومِ رسالتِه في ذلك.

كما يجب الإيمان بعمومِ رسالته بالنسبة إلى المكلفين، فكما لا يخرج أحد من الناس عن رسالته البَتَّةَ، فكذلك لا يخرج حقٌّ من العلمِ به والعملِ عمَّا جاءَ به، فما جاء به هو الكافي الذي لا حاجة بالأمة إلى سواه، وإنما يحتاج إلى غيرِه من قَلَّ نصيبُه من معرفته وفهمه، فبحسب قِلَّةِ نصيبِه من ذلك تكون حاجتُه، وإلَّا فقد توفِّي رسول الله ﷺ وما من طائرٌ يقلِّبُ جناحيه في السَّماءِ إلَّا وقد ذَكَرَ للأُمَّةِ منه عِلْمًا.

---

(١) رواه البخاري (٧٣٥٢) ومسلم (١٧١٦)، ولفظه عندهما مختلفٌ اختلافًا يسيرًا.

(٢) «الرد على الإخنائي» (ص٩٥ ـ ٩٧).

وعلَّمَهُم كلَّ شيءٍ حتى آدابَ التَّخَلِّي، وآدابَ الجِمَاعِ والنَّومِ والقُعُودِ والأكل والشرب والركوب والنزول، ووصفَ لهم العرش والكرسي والملائكة والجنة والنار، ويوم القيامة وما فيه حتى كأنه رأي عين، وعرَّفَهم بربهم ومعبودهم أتم تعريف حتى كأنهم يرونه بما وصفه لهم به من صفات كماله ونعوت جلاله.

وعرَّفَهم الأنبياء وأممهم وما جرى لهم معهم حتى كأنهم كانوا بينهم، وعرَّفَهم من طرق الخير والشر دقيقها وجليلها ما لم يعرِّفه نبيٌّ لأمته قبله، وعرَّفَهم من أحوال الموت وما يكون بعده في البرزخ وما يحصل فيه من النعيم والعذاب للروح والبدن ما جلى لهم ذلك حتى كأنهم يعاينوه، وكذلك عرَّفَهم من أدلة التوحيد والنبوة والمعاد والرد على جميع طوائف أهل الكفر والضلال ما ليس ـ لمن عَرَفَه ـ إلى كلام أحدٍ من الناس البَتَّةَ، وكذلك عرَّفَهم من مكايد الحروب ولقاء العدو وطرق الظفر به ما لو علموه وفعلوه لم يقم لهم عدوٌّ أبدًا، وكذلك عرَّفَهم من مكائدِ إبليس وطرقه التي يأتيهم منها ويحترزون به من كيده ومكره، وما يدفعون به شرَّه ما لا مزيدَ عليه، وكذلك أرشدهم في معاشهم إلى ما لو فعلوه لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة.

وبالجملةِ فقد جاءهم رسول الله بخير الدنيا والآخرة بحذافيره، ولم يجعل الله بهم حاجةً إلى أحدٍ سواه، ولهذا ختم الله به ديوان النبوَّة، فلم يجعل بعده رسولًا لاستغناء الأمة به عمن سواه.

فكيف يُظَنُّ أنَّ شريعتَه الكاملةَ الـمُكَمَّلَةَ مُحْتَاجَةٌ إلى سياسةٍ خارجةٍ عنها؟! أو إلى حقيقةٍ خارجةٍ عنها؟! أو إلى قياسٍ خارجٍ عنها؟! أو إلى معقولٍ خارجٍ عنها؟! فمن ظنَّ ذلك فهو كمن ظنَّ أنَّ بالنَّاسِ حاجةٌ إلى رسولٍ آخَرَ بعدَه!

وسببُ هذا كلِّه خفاءُ ما جاءَ به على من ظنَّ ذلك، قال ـ تعالى ـ: ﴿ أَوَلَمْ

يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[العنكبوت: ٥١]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[النحل: ٨٩]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء: ٩]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[يونس: ٥٧]، وكيفَ يشفـي ما في الصـدور كتابٌ لا يَفِي بعشر معشـار ما النَّاسُ محتاجونَ إليهِ على زعمهم الباطل[1]؟!

ويا لله العجب! كيف كان الصحابة والتابعون قبـل وضـع هـذه القـوانين واستخراج هذه الآراء والمقاييس والأقوال؟ هل كانوا مهتدين بالنصوص أم كانوا على خلاف ذلك حتى جاء المتأخرون أعلم منهم وأهدى منهم؟ هذا ما لا يظنـه من به رمق من عقل أو حياء! نعوذ بالله من الخذلان.

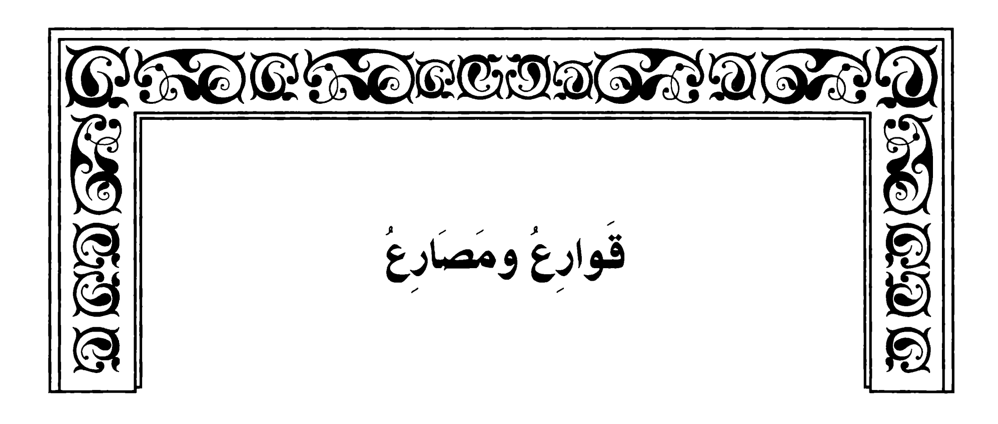
ولكن من أوتي فهمًا في الكتابِ وأحاديثِ الرسول، استغنى بهما عن غيرهما بحسب ما أوتيه من الفهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وهذا الفصل لو بسط كما ينبغي لقام منه عدة أسفار، ولكن هذه لفظات تشير إلى ما وراءها»[2].

❊ ❊ ❊

---

(١) يشيرُ الإمام ابن القيِّم بهذا إلى بعض الغُلاة من أهل الرأي، الذين زعموا أنَّ تسعة أعشار الاجتهاد في القياس، وأنَّ النُّصوصَ لا تفي بعُشر معشار الشريعة، وهي مقولةٌ جائرةٌ، ردَّ عليها أهلُ العلـم بما يكفي ويشفي، وممَّن تصدَّرَ للردِّ عليها الإمام ابن القيِّم نفسُه، في معظم كتبه، وكذلك شيخ الإسلام ابن تيميَّة، وغيرهما.

(٢) «بدائع الفوائد» (٣/ ١٥٥ ـ ١٥٦).



قَوارِعُ ومَصارِعُ

خرَّج أحمد بن مروان الدِّينوري بسنده إلى أَحْمَدَ بْنَ شُعَيْبٍ قال: «كُنَّا عِنْدَ بَعْضِ الـمُحَدِّثِينَ بِالبَصْرَةِ، فَحَدَّثَنَا بِحَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِنَّ الـمَلائِكَةَ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ**»، وَفِي الـمَجْلِسِ مَعَنَا رَجُلٌ مِنَ الـمُعْتَزِلَةِ؛ فَجَعَلَ يَسْتَهْزِئُ بِالحَدِيثِ، فَقَالَ: وَاللهِ! لأُقَطِّرَنَّ غَدًا نَعْلِي فَأَطَأُ بِهِمَا أَجْنِحَةَ الـمَلائِكَةِ! قَالَ: فَفَعَلَ وَمَشَى فِي النَّعْلَيْنِ، فَجَفَّتْ رِجْلاهُ جَمِيعًا، وَوَقَعَتْ فِي رِجْلَيْهِ جَمِيعًا الآكلة»(١).

ونقل النووي في «شرحه على صحيح مسلم» عن الحافظ أبي عبد الله محمد ابن إسماعيل بن محمد بن الفضل التَّيمي قوله:

«وقرأتُ في بعض الحكايات أن بعض المبتدعة حين سمع قول النبي ﷺ: «**إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها، فإنه لا يدري أين باتت يده**»، قال ذلك المبتدع ـ على سبيل التهكُّم ـ: أنا أدري أين باتت يدي؛ في الفِرَاش، فأصبح وقد أدخل يده في دُبُرِه إلى ذراعه!

قال التَّيمي: فلْيَتَّقِ الـمَرْءُ الاستخفافَ بالسُّنَنِ ومواضِعِ التَّوقِيفِ، فانظُر كيف وصل إليهما شؤم فعلِهما.

---

(١) «المجالسة وجواهر العلم» (٢١٥٤ ـ بتحقيقي).

قلت[1]: ومعنى هذا الحديثِ ما قاله الإمام الشافعيُّ ـ رضي الله ـ تعالى ـ عنه ـ وغيرُه من العلماء ـ رضي الله ـ تعالى ـ عنهم ـ: أنَّ النائمَ تطوفُ يدُه في نومِه على بَدَنِه، فلا يأمن أنَّها مَرَّت على نجاسةٍ؛ من دَمِ بَثْرَةٍ، أو قَمْلَةٍ، أو بَرْغُوثٍ، أو على مَحَلِّ الاستنجاءِ وما أشبهَ ذلك، والله أعلم.

ومن هذا المعنى ما وُجِدَ في زماننا هذا وتواترت به الأخبار وثبتت عند القُضَاة أنَّ رجُلًا بقريةٍ ببلاد بُصْرَى في أوائل سنة خمس وستين وست مئة، كان شابًّا سيِّئ الاعتقادِ في أهلِ الخير، وله ابنٌ يعتَقِدُ فيهِم[2]، فجاء ابنه يومًا من عند شيخ صالح ومعه مِسْوَاك، فقال: ما أعطاك شيخُك؟ ـ مستهزئًا ـ، قال: هذا المسواك. فأخذه منه وأدخَلَه في دُبُرِهِ احتقارًا له! فبقيَ مُدَّةً، ثمَّ وَلَدَ ذلك الرَّجُلُ الذي أدخل المسواك في دُبُرِه جَرْوًا قريبَ الشَّبَهِ بالسَّمَكَةِ؛ فقتَلَه، ثمَّ ماتَ الرَّجُلُ في الحالِ أو بعدَ يومين.

---

(١) القائلُ النَّوويُّ ـ رحمه الله ـ.

(٢) وحُسْنُ الاعتقاد في أهل الخير هو تحسينُ الظنِّ بهم، ومحبَّتهم، والتفقُّه على أهل العلم منهم، وسؤالُهم في الدِّين كما أمرَ الله، والتصديقُ بكراماتهم إذا شاء الله أن يُجرِيَ على أيديهم شيئًا منها، من غير أن يُوجبَ ذلك غُلُوًّا فيهم، ولا خوفًا ولا دُعاءً ولا رجاءً، فإنَّ كلَّ ما سوى الله، لا يملكون موتًا ولا حياةً ولا نُشُورًا، ولا نشكُّ في أنَّ هذا هو المقصود بالتعبير المذكور (يعتقدُ فيهم).

وقد تجاوز كثيرٌ حدَّ هذا الاصطلاح، وظهر في الأمة ـ ولا سيما عند شيوخ الجهل منذ عصر المماليك ـ (المعتقد بهم)، وشاع وذاع حتى في حقِّ الظالمين أنفسِهم آكلين أموالَ الأوقاف، وكثر استخدام هذا الاصطلاح في حقِّ جماعاتٍ، لملابساتٍ وأسباب، تحتاجُ لجمعٍ مع معرفة الأعيان، لنشخِّص العلاج، والله الواقي والهادي.

عافانا الله الكريمُ من بلائِه، ووفَّقَنَا الله لتَنْزِيهِ السُّنَنِ وتعظيمِ شعائِرِه»[1].

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في ترجمة (علي بن مرزوق الربعي السلامي ت: ٧٢٠هـ) حكايةً نقلها المترجم له عن (جمال الدين إبراهيم بن محمد الطِّيبي)، قال:

أنَّ بعضَ أُمَرَاءِ المُغُلِ تَنَصَّرَ، فحضَرَ عندَه جماعةٌ من كبار النَّصارى والمُغُل، فجَعَلَ واحدٌ منهم ينتقصُ النبيَّ ﷺ، وهناك كلبُ صيدٍ مربوطٌ، فلمَّا أكثَرَ من ذلك وَثَبَ عليهِ الكلبُ فخَمَشَه، فخَلَّصُوه منه، وقال بعضُ من حضر: هذا بكلامك في محمَّدٍ ﷺ، فقال: كلَّا! بل هذا الكلبُ عزيزُ النَّفْسِ، رآني أُشير بيدي فظنَّ أنِّي أريدُ أنْ أضْرِبَه.

ثمَّ عادَ إلى ما كانَ فيهِ فأَطَالَ، فوَثَبَ الكلبُ مرَّةً أخرى فقبضَ على زَرْدَمَتِهِ فقَلَعَها، فماتَ من حينِه.

فأسلم بسببِ ذلك نحوُ أربعين ألفًا من المُغُل»[2].

بل وفي زماننا القريبِ هذا وقائعُ، منها ما وثَّقَه الشيخ المحدِّثُ العلَّامة أحمد محمَّد شاكر ـ رحمه الله ـ، سَمْعَ أُذُنٍ، ووَعْيَ قلبٍ، وبَصَرَ عَيْنٍ، عن بعضِ منتقصي النبيِّ ﷺ الذين عرَفَهم بشُخُوصِهِم وأعيانِهِم.

قال ـ رحمه الله ـ:

«سأقُصُّ عليك قصَّةً كانت في عصرنا، ما أظنُّكَ أدركتَ عهدها، ولعلك سَمِعْت بها، عسى أن يكون لك فيها موعظة وعبرة:

---

(١) «بستان العارفين» (ص ٢٥٤ ـ ٢٥٦).

(٢) «الدرر الكامنة» (٣/ ١٢٨).

كان الشيخ طه حسين طالبًا بالجامعة المصرية القديمة... وتقرر إرساله في بعثةٍ إلى أوربَّة، فأراد حضرة صاحب العظمة السلطان حسين ـ رحمه الله ـ أن يكرمه بعطفه ورعايته، فاستقبله في قصره استقبالًا كريمًا، وحَبَاه هدية قيِّمة المغزى والمعنى.

وكان من خطباء المساجد التابعين لوزارة الأوقاف خطيبٌ فصيح متكلمٌ مقتدر؛ وهو الشيخ محمد المهدي خطيب «مسجد عزبان»، وكان السلطان حسين ـ رحمه الله ـ مواظبًا على صلاة الجمعة في حفلٍ فخمٍ جليلٍ يحضره العلماء والوزراء والكبراء.

فصلَّى الجمعة يومًا ما بمسجد المبدولي القريب من قصر عابدين العامر، وندبت وزارة الأوقاف ذاكَ الخطيب لذلك اليوم، وأراد الخطيب أن يمدح عظمة السلطان، وأن ينوِّه بما أكرمَ الشيخ طه حسين، ولكن خانَتْه فصاحته، وغلَبَه حبُّ التغالي في المدح، فزلَّ زلَّةً لم تقم له قائمة من بعدها، وأعتقدُ أنَّهَا أخفُّ من زلَّتِك، إذ قال أثناء خطبته: «جاءَه الأعمى، فما عبس في وجهه وما تولَّى»!

وكان من شهود هذه الصلاة والدي الشيخ محمَّد شاكر، وكيل الأزهر سابقًا ـ رحمه الله ـ، فقام بعد الصلاة يعلنُ النَّاسَ في المسجد أنَّ صلاتَهم باطلةٌ، وأمَرَهُم أنْ يعيدوا صلاةَ الظهر، فأعادوها، ذلك بأنَّ الخطيبَ كَفَرَ بما شتم رسولَ الله ﷺ تعريضًا لا تصريحًا؛ لأنَّ الله ـ سبحانه ـ عتب على رسوله ﷺ حين جاءه ابنُ أمِّ مكتوم الأعمى وهو يحدِّث صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام، فأعرَض عن الأعمى قليلًا حتى يفرغ من حديثه فأنزلَ الله عتابَ رسولِه في سورةٍ كريمةٍ، ثمَّ جاء هذا الخطيب الأحمقُ الجاهلُ، يريد أن يتملَّق عظمة السلطان ـ رحمه الله ـ، وهو عن تملُّقه غنيٌّ والحمد لله، فمَدَحه بما يوهمُ السَّامع

أنَّه يريدُ إظهارَ منقبةٍ لعَظَمَتِه، بالقياسِ إلى ما عاتب الله عليه رسولَه.

وأستغفر الله من حكاية هَذَا.

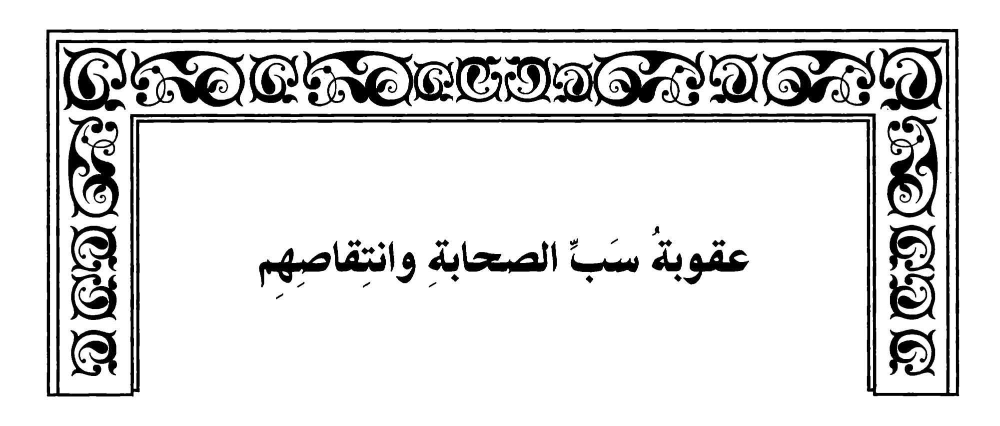
فكان صُنْعُ الخطيبِ المسكين تعريضًا برسولِ الله ﷺ لا يرضى بـه مسـلم، وفي مقدِّمة من ينكره السلطان نفسُه».

ثم قال بعد كلام: «فأقسم بالله! لقد رأيتُه بعَيْنَيْ رأسي بعد بِضْع سنين، وبعد أنْ كان متعاليًا، متنفخًا، مستعزًّا بمن لاذَ بهم من العظماء والكبراء، رأيتُه مَهينًا ذليلًا، خادمًا على باب مسجـد من مساجد القاهرة، يتلقى نِعَالَ المصلين يحفظها، في ذِلَّةٍ وصَغَار، حتى لقد خجلتُ أنْ يراني، وأنا أعرفه وهو يعرفني، لا شفقةً عليه، فما كان موضعًا للشَّفَقَـة، ولا شماتةً فيه، فالرجل النبيل يسمو على الشماتة، ولكن لِما رأيتُ من عبرة وموعظة»[1].

* * *

---

(١) «كلمة الحقِّ» (ص١٤٨ ـ ١٥٣).



عقوبة سَبِّ الصحابةِ وانتِقاصِهِم

عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبيُّ ﷺ: «**لا تَسُبُّوا أصحابي، فلو أنَّ أحدَكُم أنفقَ مثلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما بلغَ مُدَّ أَحَدِهِم ولا نَصِيفَه**»[1].

وهذا الحديثُ الجليلُ العظيمُ الذي اتَّفق أهلُ الحديث وأئمَّته ونُقَّاده على صحَّته، يعلمُ من أدرك مناسبته وسبب وروده أنَّ النبيَّ ﷺ لا يرضى في أصحابه أدنى انتقاصٍ، فضلًا عن صريحِ السبِّ الذي يكون باللَّعْنِ ونحوِه ـ عياذًا بالله تعالى ـ.

فقد خرَّج أحمد في «مسنده» عن أنس ـ رضي الله عنه قال ـ: كان بين خالد ابن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلامٌ، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها؟! فبَلَغَنَا أنَّ ذلك ذُكِرَ للنبيِّ ﷺ فقال: «**دعوا لي أصحابي! فوالذي نفسي بيَدِه! لو أنفَقْتُم مثلَ أُحُدٍ** ـ أو: مثل الجبالِ ـ **ذهبًا؛ ما بَلَغْتُم أعمالَهم**»[2].

---

(١) رواه البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤٠)، وظفرتُ بمكاتبةٍ مهمَّة حول هذا الحديث بين الحافظ ابن حجر العسقلاني والعلَّامة جلال الدِّين البُلقيني، أودعتُها جمعي لـ «فتاوى الجلال البُلقيني»، والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات.

(٢) رواه أحمد (٣/ ٢٦٦)، والضِّياء في «المختارة» (٢٠٤٦)، وسنده صحيح.

فهذا كما ترى أخي في الله! قاله النبيُّ ﷺ لخالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ الذي قال عنه: «**اللهمَّ! هو سيفٌ من سيوفك فانصُره**»[1]، وذلك لمـَّا أخذ الراية وخلَّصَ المسلمين يوم مؤتة، ويومئذ سمي خالدُ: (سيف الله).

وهذا له دلالةٌ عظيمة، فإذا كـان النبـيُّ ﷺ لم يـرضَ أدنـى تعـريضٍ مـن متأخِّري أصحابه بمتقدِّمِيهم، وسمَّى ذلك سبًّا لهم، فكيف الحالُ مع لم يكن منهم أصلًا ولا يشبههم في شيءٍ، وأنَّى له أن يشبههم؟!

فخالدُ من عُظماء الإسلام، ومن أركان الجهاد في سبيل الله لإعـلاء كلمـة الله، ويُقال له مثلُ هذا؛ فهذا الذي يسمِّيه أهل العلم تنبيهٌ بالأعلى عـلى الأدنـى، فإذا كان مثلُ خالدٍ منهيًّا عنه، فغيرُه ومَنْ دونَه أولى بكثيرٍ.

وإلَّا فخالدٌ ـ رضي الله عنه ـ من الصَّحابة، وكان بينه وبين عبد الرحمن كلامٌ كما يقع بين البشر من الجَدَل والخلاف، ومَنْ دونَ خالدٍ من الصَّحابة لهم كذلك منزلةٌ رفيعةٌ، وكلُّ من صَدَقَ عليه معنى الصَّحابيِّ وحدُّه وتعريفه فكذلك.

قال ابن الجوزي:

«وفصل الخطابِ في هذا الباب:

بأنَّ الصُّحْبَةَ إذا أُطلقت فهي في الـمُتَعَارَفِ تنقسم إلى قسمين:

أحدُهُمَا: أنْ يكونَ الصَّاحِبُ مُعَاشِرًا مُخَالِطًا كثيرَ الصُّحْبَةِ، فيُقَال: هـذا صاحبُ فلانٍ، كما يُقال: خادِمُه، لمن تكرَّرَتْ خدمتُه، لا لمن خَدَمَه يومًا أو ساعةً.

والثاني: أنْ يكونَ صاحبًا في مُجَالَسَةٍ أو مُمَاشَاةٍ ولو ساعةً، فحقيقةُ الصُّحْبَةِ

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٩٩)، والنَّسائي في «الكبرى» (٨٢٤٩)، وابن أبي شيبة (١٤/ ٥١٢)، وابن سعد (٣/ ٤٦ ـ ٤٧) من حديث أبي قتادة الأنصاري، وسنده حسن.

موجودةٌ في حقِّه، وإنْ لم يشتهر بها»[1].

فالشَّاهدُ أنَّ السَّابق واللَّاحق منهم ـ رضي الله عنهم ـ ممَّن لقي النبيَّ ﷺ مؤمنًا به، ومات ثابتًا على إسلامه وإيمانه، فهو من أصحابه، ولو كانت صُحبتُه ساعةً واحدةً، أو أقلَّ.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة: ١٠٠].

فهذه الآيةُ تقرِّرُ الفضلَ وتُثبِتُ الحقَّ لكُلِّ من صَحِبَ النبيَّ ﷺ على النَّحو الذي وَصَفْنَا آنفًا، من أوَّلهم إلى آخرهم، بسابقهم ولاحقهم، ومُكْثِرِهم من الصُّحبَةِ ومُقِلِّهم.

فإنَّها ذكرت السابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار، وذكرت الذين اتَّبعوهم بإحسانٍ، وهذا وإن كان يشمل من كان تابعًا بإحسانٍ إلى يوم الدِّين، لكن أوَّل وأَوْلى من يدخُل فيه هم متأخِّرو الصحابة الذين اتَّبعوا إخوانَهُم السَّابقين بإحسانٍ، كما يشهد له واقعُهُم وما حُفظ لنا عنهم ـ رضي الله عنهم ـ.

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا

---

(١) «تلقيح فُهوم أهل الأثر» (ص٧٢).

﴿ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ٨ـ ١٠].

ومن هذه الآية الكريمة أخذ مالكٌ ـ رحمه الله ـ أنَّ من سبَّ الصَّحابَةَ لا حقَّ له في الفَيْءِ[١]، لأنَّها في بيان مصارفـه، فإنَّها في سياق ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ...﴾ الآية [الحشر: ٧].

وحيثُ لم يكن من غرضنا في هذه العُجَالةُ بيانُ مفصَّل الاعتقاد الصَّحيحِ في أصحاب النبيِّ ﷺ على الرغم من ضرورة ذلك وأهميَّته الكبيرة في هذا الوقت وفي كلِّ وقت، فإنَّنا نكتفي بإيراد طَرَفٍ من آثار السَّبِّ على السَّبَّابين، وبيان شُؤم اللَّعْنِ على اللَّعَّانين[٢]، إذ هذا الفعل من المهلكات، وفيه تعدٍّ على السَّادات، بل طعنٌ خفيٌّ في معلِّمهم ﷺ، فهو من الأفعال القبيحة، وله نتائج وخيمة، وفي بعضِ ما وقفنا عليه خَبَرٌ لمن استخبَر، وعِبْرَةٌ لمن اعتبَر.

قال شيخ الإسلام: «و لهذا تجدُ عامَّةَ من ظَهَرَ عليهِ شيءٌ من هذه الأقوالِ فإنَّه يتبيَّنُ أنَّه زنْدِيقٌ، وعامَّةُ الزَّنادِقَةِ إنَّما يستَتِرُون بمذهَبِهِم[٣]، وقد ظَهَرَتْ لله فيهِم مَثُلَاتٌ، وتواترَ النَّقْلُ بأنَّ وجوهَهُم تُمْسَخُ خنازيرَ في المَحْيَا والمَمَاتِ، وجَمَعَ العُلَماءُ ما بَلَغَهُم في ذلك، ممَّن صنَّفَ فيه الحافظ الصالح أبو عبدالله محمد

---

(١) رواه البيهقي في «الكبرى» (٦/ ٣٧٢) رقم (١٣٤٩٠)، وهو صحيحٌ عن مالك.

(٢) من نوادر هذا الزَّمان أنْ رأينا فيه عيانًا وعايَشْنَا حِسًّا تحالُف الشيوعيِّ والرَّافضيِّ على هذا الأمر! والأوَّلُ يكفُرُ بكلِّ دينٍ ومِلَّة، والثاني يزعمُ أنَّه لا وليَّ لله ولا لرسوله سِوَاه، وعِشْ رجَبًا، ترَ عَجَبًا!

(٣) المقصود: مذهب الرافضة.

ابن عبد الواحد المقدسي كتابَه في «النَّهْيُ عن سَبِّ الأصحابِ، وما جاءَ فيه من الإثمِ والعِقَابِ»»[1].

عن عبدالملك بن أبى نضرة عن أبيه قال: «كُنَّا بالمدينةِ، فسَبَّ رجلٌ عثمان، فنَهَيْنَاه فلَمْ يَنْتَهِ، فأَرْعَدَتْ ثمَّ جاءتْ صَاعِقَةٌ فأَحْرَقَتْهُ»[2].

ولقد استقصى العلَّامة المؤرِّخ الأستاذ محبُّ الدِّين الخطيب ـ رحمه الله ـ مصائرَ الخائضين في دم عثمان ـ رضي الله عنه ـ، فقال:

«وكان الله ـ عز وجل ـ أوَّلَ المنتقمين من قتلةِ عثمان، فإنَّ جهجاه بن سعيد الغفاري الذي انتزع عصا النبيِّ ﷺ من يد عثمان وهو على منبر المسجد النبويِّ فكسرها على ركبته اليمنى، سرعان ما انتقم الله منه، فدخلت شظيَّةٌ من العصا في رُكبة جهجاه فدَوَّدَتْ وأصابته الأَكَلة، ثمَّ انقطعت أخباره عن النَّاس، وأكبر الظَّنِّ أنَّه مات بها.

وحرقوص بن زهير السَّعدي كان من أمره بعد خروجه على عثمان أن خرجَ على عليٍّ ـ أيضًا ـ، وقتَله عليٌّ يوم النَّهروان سنة ٣٩هـ.

وحكيم بن جبلة العبدي قُطِعت رجله في وقعة الجمل، فناداه منادٍ وهو يموت: جَزِعْتَ يا خبيثُ! حينَ عَضَّكَ نكالُ الله بما ركبتُم من الإمام المظلوم، وفرَّقتُم جماعة المسلمين وأصبتُم من دمائهم؟ فذُقْ وبالَ الله ـ عز وجلَّ ـ وانتقامَه.

وزميله ذريح بن عباد العبدي قتله الله في تلك الوقعة.

والذين لم يُقتلوا في المعركة وهم من أهل البصرة، قبضت عليهم قبائلهم

---

(١) «الصارم المسلول» (٣/ ١١١١).

(٢) «الثِّقات» (٧/ ١٠٥) لابن حبَّان.

وجاؤوا بهم إلى طلحة والزبير كما يُجاء بالكلاب، فقُتلوا.

ولم يفلت من رجال فتنة عثمان المنسوبين إلى البصرة إلَّا حرقوص بن زهير الذي قلنا إنَّه خرج بعد ذلك على عليٍّ فقتله عليٌّ يوم النهروان.

وجندُب بن زهير الغامدي بقيَ إلى حرب صِفِّين فبارز فارسًا من أزد الشَّام فقتله الأزدي، وكان ابن خالته مخنف بن سليم يشهد عليه بأنَّه مشؤوم صغيرًا وكبيرًا، وأنَّه كان يختار الأعسر والأنكد في الجاهليَّة والإسلام.

وأبو زينب بن عوف الأزدي قُتل في صِفِّين سنة ٣٧ هـ.

وشريح ـ وهو الحطم ـ بن أرفي العبسي خرج على عليٍّ وقُطِعَت رجلُه، ثمَّ قُتِلَ وهو يقولُ ـ مُصِرًّا على حماقته وطغيانه القديم ـ:

أَضْرِبُهُم ولو أرى أبا حسن ضربتُه بالسَّيْفِ حتى يطمئنّ

ويقول:

أَضْرِبُهُم ولو أرى عليًّا أَلْبَسْتُهُ أبيضَ مشْرَفِيًّا

وعلباء بن الهيثم السَّدوسي قُتل في حرب الجمل، قتله رجلٌ من الصَّالحين؛ وهو عمرو بن يثربيّ، الذي كان قاضي البصرة قبل كعب بن سور قائد جمل عائشة، وأوَّل شهداء القرآن ـ رضي الله عنه ـ.

وعمرو بن الحمق الخزاعي عاش إلى سنة ٥١ هـ ثمَّ طُعِنَ في المَوْصِلِ بعدد طعناته لأميرِ المؤمنين عثمان.

وعُمير بن ضابئ الذي كسر ضلع عثمان بعد موته؛ عاشَ إلى أنْ وَلِيَ الحجَّاجُ العراق، فلمَّا مَثَلَ بين يديه يستندي رحمته ـ وهو يظنُّ أنَّ الحجَّاجَ لا يعرفه ـ قال له الحجَّاج: ألستَ أنتَ الذي تقول:

هَمَمْتُ ولم أفعل وكِدْتُ وليتَنِي تَرَكْتُ على عثمانَ تبكي حلائِلُه؟

وأَمَرَ به فقُتِل.

وكعب بن ذي الحبكة النَّهدي عاش إلى أن قتله بُسْر بن أبي أرطأة في تثليث.

وكنانة بن بشر التجيبي ظفر به عمرو بن العاص وقتله في مصر، وكان كِنانة من أشدِّ المتكالبين على عثمان، ويُقال: إنَّه هو الذي باشَرَ قَتْلَه، وكان حريصًا على المنع من دَفن قتلى الدَّار.

وابن الكَوَّاء اليشكري لم يكتفِ بالخروجِ على عثمان فخرجَ على عليٍّ ـ أيضًا ـ.

ومحمَّد بن أبي حذيفة الذي كفر نعمةَ عثمان وكافأ خيرَه بكلِّ ما استطاعه من شرٍّ؛ كانت عاقبته القتل بالمجانيق في العريش سنة ٣٦ هـ.

وهكذا سائرُ قتلة عثمان لقوا جزاءَ عملهم في الدُّنيا قبل الآخرة، والمشهورون منهم يَعرف مصيرَهُم صبيان المدارس»(١).

وروى ابن عساكر عن السُّدِّيِّ قال: «أتيتُ كربلاء أبيعُ البَزَّ بها، فعَمِلَ لنا شيخٌ من طَيْء طعامًا، فتعشَّيْنَا عندَه، فذكَرْنا قتلَ الحسين، فقلت: ما شَرَكَ في قتلِه أحدٌ إلَّا ماتَ بأسوإِ مِيْتَةٍ.

فقال: ما أكذبكم يا أهلَ العراق! فأنا فيمن شَرَكَ في ذلك.

فلم يَبْرَحْ حتى دَنَا من المصباح وهو يتَّقِدُ بنَفْطٍ، فذَهبَ يخرجُ الفَتِيلَةَ بإصبعه فأخذت النار فيها، فذهبَ يُطْفِيهَا بِرِيقِهِ، فأَخَذَت النَّارُ في لِحْيَتِه، فغَدَا فألْقَى نفسَه في الماءِ، فرأيته كأنَّه حُمَمَةٌ»(٢).

---

(١) من تعليقه على «المنتقى من منهاج الاعتدال» (ص ٢٤١ ـ ٢٤٢).

(٢) «تاريخ دمشق» (١٤/ ٢٣٣).

وروى ابن عساكر عن شيخ من بني هاشم قال: «رأيتُ رجُلًا بالشَّامِ قد اسْوَدَّ نِصْفُ وجهه وهو يغطِّيه، فسألتُه عن سبب ذلك؟ فقال: نعم؛ قد جعلتُ لله عَلَيَّ أنْ لا يسألني أحدٌ عن ذلك إلا أخبرتُه، كنتُ شديدَ الوَقِيعَةِ في عليِّ بنِ أبي طالبٍ، كثيرَ الذِّكْرِ له بالمَكْرُوهِ، فبَيْنَا أَنَا ذاتَ ليلةٍ نائمٌ، أَتَانِي آتٍ في منامي، فقال: أنتَ صاحبُ الوَقِيعَةِ في عليٍّ، وضَرَبَ شِقَّ وَجْهِي، فأصبحتُ وشِقُّ وجهي أسودُ»(١).

وقال الذهبيُّ في ترجمة حُسَامِ الدَّولَةِ، صاحب المَوْصِلِ، مُقَلَّد بن المُسَيَّب (ت ٣٩١هـ):

«وله شعر وأدب، وفيه رفضٌ، وَثَبَ عليه مملوكٌ في مجلِسِ أُنْسِهِ فقتله في صَفَر سنةَ إحدى وتسعين وثلاث مئة، لكونِه سَمِعَه يقول: لولا ضَجِيعَاك لَزُرْتُكَ»(٢).

ثمَّ أورد خبر مقتله كاملًا في «تاريخ الإسلام» فقال:

«قتله في هذا العامِ غلام له تركيٌّ في صَفَر، فيُقال: قتَلَه لأنَّه سمعه يوصي رجلًا من الحاجِّ أنْ يسَلِّمَ على رسول الله ﷺ ويقول: قلْ له: لولا صاحباك لزُرْتُكَ!

فأخبرنا محمد بن النحاس، أخبرنا يوسف السَّاوِي، أنا السِّلَفِي، أنا أبو علي البَرَداني، أنا أبي والحسن بن طالب البزاز وابن نبهان الكاتب، قالوا: أرادَ رجلٌ الحَجَّ، فأحضَرَه الأميرُ مُقَلَّدٌ، وقال: اقرأ على النبيِّ ﷺ السلام وقل له:

---

(١) «تاريخ دمشق» (٤٢/ ٥٣٣ ـ ٥٣٤).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٦).

لولا صاحباك لزرتك.

قال الرجل: فحَجَجْتُ وأتيتُ المدينةَ، ولمْ أَقُلْ ذلكَ إجْلاَلًا، فنِمْتُ، فرأيتُ النبيَّ ﷺ في منامي، فقال: يا فلان! لِمَ لا تُؤَدِّ الرِّسَالَةَ؟

فقلت: يا رسول الله! أَجْلَلْتُكَ.

فرفعَ رأسَه إلى رجلٍ قائمٍ، فقال: خُذْ هذا الـمُوسَى واذبح به ـ يعني: مُقَلَّدًا ـ[1].

فوافيتُ إلى العراق، فسمعت أنَّ الأميرَ مُقَلَّدًا ذُبِحَ على فِرَاشِهِ، ووُجِدَ الـمُوسَى عند رأسِه، فذكرتُ للنَّاسِ الرُّؤْيَا، فشَاعَت، فأحضَرَنِي ابنُه قُرْوَاش، فحدَّثته، فقال لي: تعرف الموسى؟ فقلت: نعم. فأحضرَ طَبَقًا مملوءًا مَوَاسِي! فأَخْرَجْتُه منهم! فقال: صدقتَ، هذا وَجَدْتُهُ عندَ رأسِه، وهو مذبوحٌ»[2].

وعن عبد الملك بن عُمَيْر قال: «كانَ بالكُوفَةِ رجلٌ يعطي الأكفان، فماتَ رجلٌ، فقيل له، فأخذَ كَفَنًا وانطلقَ حتى دخل على الميِّتِ وهو مُسَجًّى، فتَنَفَّسَ والْقَى الثَّوْبَ عن وجْهِهِ، وقال: غَرُّونِي! أهلكونِي! النَّار النَّار!

قلنا له: قل: لا إله إلا الله. قال: لا أستطيع أن أقولها! قيل: ولمَ؟!

قال: بشَتْمِي أبا بكرٍ وعمرَ ـ رضي الله عنهما ـ»[3].

وقال خلف بن تميم: سمعتُ بَشِيرًا، ويُكْنَى أبا الخصيب، قال:

«كنتُ رجلًا تاجرًا وكنتُ موسرًا، وكنتُ أسكنُ مدائِنَ كِسْرَى، وذاكَ في

---

(١) كأنَّ النبيَّ ﷺ ناوله الموسى وأشارَ له إشارةً أفهمه بها أنْ المقصود أن يذبح المذكور.

(٢) «تاريخ الإسلام» (٢٧/ ٢٦٠ ـ ٢٦١).

(٣) «تاريخ دمشق» (٤٤/ ٣٨٨).

زمن ابنِ هُبَيْرَة، فأتَاني أَجِيرِي يذْكُرُ أنَّ في بعضِ الخَانَاتِ رجُلًا قدْ مـاتَ ولـيسَ يوجَدُ له كَفَنٌ، فأقبلتُ حتى دخلتُ ذلك الخانَ، فدُفِعْتُ إلى رَجُلٍ مُسَجًّى وعلى بطنه لَبِنَةٌ، ومعَه نَفَرٌ من أصْحَابِهِ، فذَكَرُوا مِنْ عِبَادَتِهِ وفَضْلِه.

قال: فبَعَثْتُ لنشتري الكَفَنَ وغيرَه، وبعَثْتُ إلى حافرٍ يَحْفُرُ لـه، وهَيَّأْنَـا لـه لَبِنًا، وجَلَسْنَا نُسَخِّنُ، وقالوا: لَنُغَسِّلَنَّهُ، فبَيْنَا نحنُ، إذْ وَثَبَ الميِّـتُ وَثْبَـةً فبَـدَرَتْ اللَّبِنَةُ عن بَطْنِهِ وهو يدعو بالوَيْلِ والثُّبُورِ والنَّارِ! فتَصَدَّعَ أصحابُه عنهُ.

قال: فدَنَوْتُ حتى أخذتُ بعَضُدَه وهَزَزْتُهُ، ثمَّ قلتُ: ما رأيتَ؟ وما حالُك؟

قال: صحبتُ مشْيَخَةً من أهلِ الكوفةِ فأدْخَلُونِي في دينِهِم ـ أو في رأيِهِـم ـ في سَبِّ أبي بكرٍ وعمر والبَرَاءَةِ منهما! قلت: استَغْفِر الله، ثمَّ لا تَعُدْ.

قال: فأجابني: وما ينفعني وقد انْطُلِقَ بي إلى مَدْخَلِي من النَّارِ فأُرِيتُهُ؟! وقيل لي: إنَّكَ سترجِعُ إلى أصحابِك فتُحَدِّثُهُم بما رأيتَ ثم تعود إلى حالِكَ! فما انقَضَتْ كلمَتُه حتى مالَ مَيِّتًا على حالِهِ الأَوَّل.

قال: فانتظرتُ حتى أُتِيتُ بالكَفَنِ، فأَخَذْتُهُ وقُمْتُ، لا كَفَّنْتُهُ، ولا غَسَّلْتُهُ، ولا صَلَّيْتُ عليهِ، ثمَّ انصرفتُ، فأُخبِرْتُ بعدُ أنَّ القومَ الذينَ كانوا معه كانوا على رأيِه وَلُوا غُسْلَه ودَفْنَه والصَّلَاةَ عليهِ، وقالوا: ما الذي أنكرتُم من صاحِبِنَا؟ إنَّـما كانت خَطْفَةً من الشَّيطَانِ تكَلَّمَ به على لسانِه!!

قال خَلَف: قلتُ: يا أبا الخصيب! هذا الحديثُ الذي حدَّثْتَنِي به، شَهِدْتَهُ؟

قال: **بَصَرُ عَيْنَيَّ، وسَمْعُ أُذُنَيَّ**، وأنَا أُؤَدِّيهِ إلى النَّاسِ»[1].

---

(١) «تاريخ دمشق» (٤٤/ ٣٨٩ ـ ٣٩٠).

وعن خلف بن تميم ـ أيضًا ـ قال: أخبرنا أبو الحُبَاب ـ وهو عَمُّ عمَّار بن سيف الضَّبِّيِّ ـ قال: «كنَّا في غَزَاةٍ في البَحْرِ، وقائدُنا موسى بن كعب، ومعنا في المركب رجلٌ من أهلِ الكُوفَةِ يُكْنَى أبَا الحَجَّاج، فأقبَلَ يشتُمُ أبا بكرٍ، فزَجَرْنَاهُ فَلَمْ يَنْزَجِرْ، ونَهَيْنَاهُ فَلَمْ يَنْتَهِ، فأَرْسَيْنَا إلى جزيرةٍ في البَحْرِ، فتَفَرَّقْنَا فيها نَتَأَهَّبُ لصلاةِ الظُّهْرِ.

فأتى صاحبٌ لنا فقال: أَدْرِكُوا أبَا الحَجَّاجِ؛ فقَدْ أَكَلَتْهُ النَّحل!

فدَفَعْنَا إلى أبي الحجاج وهو ميِّتٌ، وقدْ أكَلَتْهُ الدَّبْرُ؛ وهي النَّحْلُ».

قال خلف: «فزادَنِي في هذا الحديث ابنُ المبارك: قال أبو الحُبَاب: «فحفرنا له لندفِنَه، فاستَوْعَرَت علينا الأرض، فقلت: ما استوعرت؟ قال صلبت فلم نقدر على أن نحفر لَه، فألقَيْنَا عليهِ وَرَقَ الشَّجَرِ والحجارةَ، وتركناه، وخَطَفْنَا[1]».

قال خلف: «فكانَ صاحبٌ لنا يبولُ، فوَقَفَت نَحْلَةٌ على ذَكَرِهِ فلَمْ تَضُرَّه، فعَلِمْنَا أنَّها مأمورةٌ»[2].

وقال الحافظُ الضِّياء المقدسيُّ ـ رحمه الله ـ:

«وسمعتُ الشيخَ أبَا طالب بنَ يوسف بن إبراهيم البعلبكيَّ قال: حدَّثني الشيخ محمد النُّورِي قال: كنتُ بالـمَوْصِلِ، وكانت أمُّ صاحبِ الـمَوْصِلِ تعتقدُ فِيَّ، وكان ابنُها يَجِيئُ إليَّ بعضَ الأوقاتِ.

قال: فخرجتُ بعضَ اللَّيَالي، فطُفْتُ في الـمَقَابِرِ، فإذا مَقْبَرَةٌ مُبَيَّضَةٌ وعليها بابُ حَجَرٍ، وإذا أنا أسمعُ فيها صوتًا كتَهَارُشَ الكِلَابِ، وليس بهِ، فجئتُ إلى

---

(١) أي: انصرفنا مسرعين.

(٢) «تاريخ دمشق» (٤/ ٣٩٠).

بابِهَا ففتحتُه، وإذا فيها قبران أو ثلاثة، ولم أرَ شيئًا، ثمَّ خرجتُ، فـإذا أنـا أسـمعُ ذلك الصـوتَ، فبقيتُ متعَجِّبًا! قال: واتَّفَقَ أنَّ صـاحبَ الـمَوْصِلِ جـاءَ إلينـا، فجَلَسَ، وجَرَى الحديثُ، وذكروا الرَّافِضَةَ، وقالوا: ما كانَ عندَنا منهم إلَّا الخـادِمُ فُلان، فقيل: ووزيرُ صاحِبِ مازَنْدَرَان ـ أيضًا ـ، وماتا وهما مدفونان هاهنا بمقـبرةٍ لهما.

فقلت: أين؟ فقيل: هذه المقبرة البيضاء.

فقلت: لقد جرى لي كذا وكذا، ولو كان لي قُدْرَةٌ لنَبَشْتُ عنهُمَا.

فقال صاحب الـمَوْصِلِ: أنا أنبشُ عنهما، فنَبَشَ عنهما؛ فإذا هما خنزيران»[1].

بل إنَّ أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ، قد صانه الله ـ تبـارك وتعـالى ـ وحفظـه بروايته السُّنَّة، وحفظها للأمَّة في حياته وبعد مماته؛ فقد ذكر الذهبيُّ ـ رحمـه الله ـ في «السِّيَر»[2]:

«قال الحافظ أبو سعد السمعاني: سمعتُ أبا المعمر المبارك بن أحمد: سمعتُ أبا القاسم يوسـف بـن علـي الزنجاني الفقيه: سمعتُ الفقيه أبا إسحاق الفيروز آبادي: سمعتُ القاضي أبا الطيب يقول: كنَّا في مجلسِ النَّظَرِ بجامع المنصور، فجاءَ شابٌّ خراسانيٌّ، فسألَ عن مسألةِ الـمُصَرَّاةِ[3]؛ فطالَبَ بالدَّليـل، حتى استُدِلَّ

---

(١) «النَّهي عن سبِّ الأصحاب» (ص١٠٦).

(٢) (٢/ ٦١٨ـ ٦١٩).

(٣) الـمُصَرَّاة: هي النَّاقـةُ أو البقرةُ أو الشاةُ يُترك لبنها محبوسًا في ضرعها، ثمَّ تُعرض للبيـع فيظنُّ الذي يراها أنَّ احتواء ضرعها على هذا الكمِّ من اللَّبن هو عادتها ودأبها، فإذا اشـتراها وحلبها يومين أو ثلاثة، ظهر له أنَّه قد خُـدع! ولـذا نهـى النبـيُّ ﷺ عـن هـذا الفعـل، ويسمى: (التَّصرية). =

بحديثِ أبي هريرةَ الواردِ فيها.

فقال ـ وكان حنفيًّا ـ: أبو هريرة غير مقبول الحديث!

فما استتمَّ كلامه حتى سقط عليه حَيَّةٌ عظيمةٌ من سقف الجامع، فوثبَ النَّاسُ من أجْلِهَا، وهربَ الشابُّ منها، وهي تتبعه.

فقيل له: تُبْ! تُبْ! فقال: تُبْتُ.

فغابت الحَيَّةُ، فَلَم يُرَ لها أثرٌ».

قال الإمام الذهبي: «**إسنادُهَا أئمَّة**، وأبو هريرةَ إليهِ المنتهى في حفظِ ما سمعه من الرسول ـ عليه السلام ـ وأدائِهِ بحُرُوفِه، وقد أدَّى حديثَ الـمُصَرَّاةِ بألفاظِه، فوجب علينا العملُ به، وهو أصلٌ برأسِه».

= وحديث أبي هريرة الوارد فيه هو ما رواه البخاري (٢١٤٨) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**لا تُصَرُّوا الإبل والغنم، فمن ابتاعها بعدُ فإنَّه بخير النَّظرَيْنِ بعد أن يحتلبها، إن شاء أمسكَ، وإن شاءَ ردَّهَا وصاعَ تمْرٍ**»، وعند مسلم (١٥٢٤) بلفظ: «**من اشترى شاةً مُصَرَّاةً فلينقلب بها فلْيَحلِبْهَا، فإن رضيَ حِلابَهَا أمسكَهَا، وإلَّا ردَّهَا ومعها صاعٌ من تمرٍ**»، وفي بعض ألفاظه: «**فهو فيها بالخيار ثلاثة أيام**».

ومحلُّ اعتراض الحنفيَّة على الحديث يبنى على ما يسمُّونه: (ما جاء على خلاف القياس)، وهي مسألةٌ مبحوثةٌ في (أصول الفقه)، ولهم فيها قولٌ مرجوحٌ، وليس هذا محلُّ بسطِ المسألةِ لا أصلًا ولا فرعًا.

لكنِّي أقول: ليت شعري! إن كانَ هذا صنيعُ الله ـ عز وجلَّ ـ في الدُّنيا بهذا الشابِّ المسكين الذي يتعصَّب لمذهبه، ومأخذُ مذهبه في الاعتراض على الحديث ليس عن نبذٍ ولا انتقاصٍ ولا ازدراءٍ؛ وإنَّما يرَونَ أنَّهم يعظِّمون أصول الشرع وقواعده بذلك! فكيف يكون صنيعُ الله في الدنيا والآخرة بأقوامٍ لا يقيمون للسُّنَّةِ وزنًا في قليلٍ ولا كثيرٍ، وكم يلحقُ الأمَّة من شُؤم جهالاتهم وتطاولهم على دين الله وحَفَظَتِه وحَمَلَتِه، والله المستعان.

بل من عجائب ما سمعنا ـ وليس بعجيبٍ ـ ! ما حدَّث به شيخُنا ومُجِيزُنا فضيلة الدكتور محمَّد ضياء الرحمن الأعظمي ـ حفظه الله ـ، قال:

«كنتُ في مكة عام (١٣٩٧هـ) في رابطة العالم الإسلامي، وكانت رسالتي للماجستير عن (أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ في ضوء مرويَّاته).

وجاءني شيخ من مصر اسمه: عبد الحكيم حمادة، وقال: يا شيخ! أنت كتبتَ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وأنا أحدِّثُكَ قصَّةً وقعت معي، حدِّث بها:

كنتُ أسمع عن هذا (أبو رية) أنَّه يطعن بالصَّحابيِّ الجليل أبي هريرة ويتَّهمه.

فقلتُ: أرى هذا وألتقي به.

فذهبتُ إلى بيته، فاستقبلني أحد أولاده، وقال: لا يمكن! لأنَّـه في مـرضٍ شديدٍ.

وبعد إلحاحٍ شديدٍ أخذَ بيدي إلى غرفته، ووجههُ مُسْوَدٌّ مثل الفَحْم، وعيناهُ بارزتان مخيفتـان، وهو ينظر الى جدارٍ أمامهُ ويصيح: آهٍ! هذا أبو هريرة! هذا أبو هريرة!

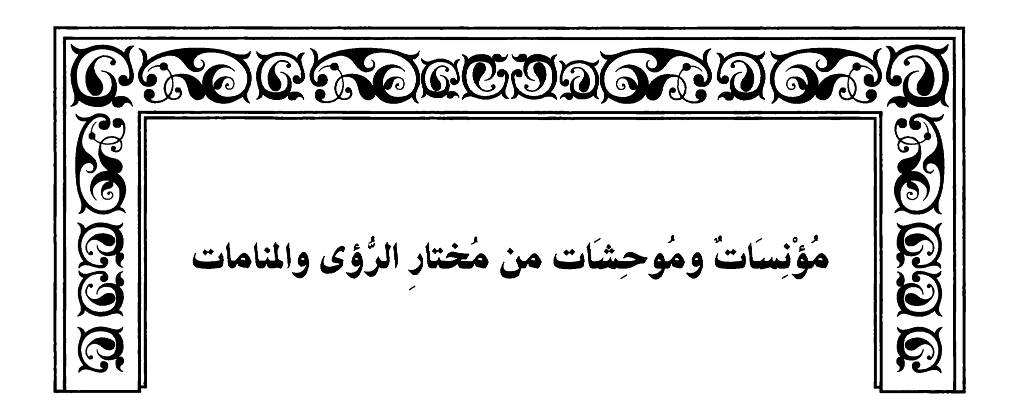
فقلتُ: هذا في الدنيا، فكيف بالآخرة؟!! نسأل الله العافية والسلامة.

فلم أتحمل البقاء دقائق فخرجتُ.

قال الشيخ الفاضل محمد الأعظمي: مِن (٣٩) سنة وأنا أُحدِّث بها، وحدِّثوا عنِّي»(١).

* * *

(١) ما زال فضيلة الشيخ الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي ـ حفظه الله ـ على قيد الحياة، وأستاذًا للحديث الشريف في الجامعة الإسلاميَّة بالمدينة النبويَّة ـ سابقًا ـ .



مُؤْنِسَاتٌ ومُوحِشَات من مُختارِ الرُّؤى والمنامات

في حين تغلـو بعـض طوائـف المبتدعةِ في باب الرؤى والمنامات، فيجعلها بعضُهم من مصـادر التَّشريع وبنـاء الأحكـام، كما وقع في ذلك بعض المتصوِّفة، ويغلو البعضُ الآخر في جحد دلالتها وتكذيب معانيها، كما يفعله المعتزلة، يقف أهل السُّنَّةِ والأثر والموفَّقون من أهل الاتِّباع منها الموقفَ الذي دلَّت عليه نُصوص الكتابِ والسُّنَّةِ، وهو أنَّها مُؤنساتٌ ومبشِّراتٌ صادقةٌ إذا كانت في الخير، ومنبِّهَاتٌ إذا كانت فيما لا يسرُّ الإنسان، بشرطِ أن تكون من الرؤى الصَّادقة القابلة للتَّعبير، ويتصدَّر لتعبيرها من هو عالمٌ بهذا العلم الذي لا يُسلِمُ زمَامَه لأيِّ أحد(١).

قال الحافظ أبو عمر بن عبد البَرِّ:

«وجُملةُ القَوْلِ في هذا البابِ أنَّ الرُّؤيا الصّادقةُ من الله، وأنَّها من النُّبُوَّة، وأنَّ التَّصدِيقَ بها حقٌّ، وفيها من بديعِ حِكْمَةِ الله ولُطْفِـهِ مـا يزيـدُ المـؤمنَ في إيمانِـه،

(١) وفَّقني الله تعالى ـ وله الحمدُ والمِنَّة والفضلُ ـ للعنايةِ بهذا العلم الشريف تصنيفًا وتحقيقًا، فقد صَدَرَ لي ـ بالاشتراك مع أحد طلبة العلم ـ كتابُ «المقدِّمات الـمُمهِّدات السَّلفيَّات في الرؤى والمنامات»، وتحقيقٌ لكتاب «تعبير الرؤيا» لابن قتيبة الدِّينوري، وتحقيقٌ لكتاب «الـمُعلم على حـروف المعجم في تعبير الأحلام» لأبي الطَّاهر إبراهيم بن يحيى المقدسي الحنبلي.

ولا أعلمُ بينَ أهلِ الدِّينِ والحقِّ من أهلِ الرَّأي والأثر خلافًا فيما وَصَفْتُ لك، ولا ينكِرُ الرُّؤْيَا إلَّا أهلُ الإلحادِ، وشِرْذِمَةٌ من المعتزلة»[1].

وقال ـ رحمه الله ـ:

«وعِلْم تأويلِ الرُّؤيَا من علومِ الأنبياء وأهلِ الإيمان، وحسبك بما أخبر الله من ذلك عن يوسف ـ عليه السلام ـ، وما جاءَ في الآثار الصحاح فيها عن النبيِّ ﷺ، وأجمعَ أئمَّة الهُدى من الصَّحابةِ والتَّابِعِين ومَن بعدَهم من علماء المسلمين أهلِ السُّنَّة والجماعةِ على الإيمانِ بها، وعلى أنَّها حِكْمَةٌ بالغةٌ، ونِعْمَةٌ يَمُنُّ اللهُ بِهَا على من يشاءُ، وهي المُبَشِّرَاتُ البَاقِيَةُ بعدَ النَّبيِّ ﷺ»[2].

وممَّا وردَ في عقوبات سبَّابي الصَّحابةِ من المنامات، والتي ظهرَت آثارُ بعضِهَا في المحسوسِ:

ما رواه ابن عساكر بسنده إلى أبي طاهر الحسين بن منصور بن محمد بن يعقوب؛ وكان رجلا معتقدًا للسُّنَّةِ شَفْعَوِيًّا[3]، إلا أنَّه كان يتشيع قليلًا، قال:

«كنت أُبْغِضُ معاويةَ والْعَنُه، فرأيتُ النَّبِيَّ ﷺ في النَّومِ كأنَّه دخلَ داري، وكان في الدَّارِ حمَّامٌ، دخلَ الحَمَّامَ واغتَسَلَ، فلمَّا خرجَ من الحَمَّامِ رَكِبَ بغْلَتَه وكان بين يديه رجلٌ قائمٌ أصفرُ اللَّوْنِ، فسَلَّمْتُ على النبيِّ ﷺ، فقال لي: يا أبا طاهر! لا تلْعَنْهُ ولا تُبْغِضْهُ. قلت: من هو يا رسول الله؟!

(١) «التمهيد» (١/ ٢٨٥).

(٢) «التمهيد» (١/ ٤٩).

(٣) أي: شافعيًّا.

قال: هو معاويةُ بن أبي سفيان، أخي كاتبُ الوَحْيِ»[1].

ومنها:

قال أحمد بن يحيى بن حُمَيْد الطَّويل: «رأيتُ النبيَّ ﷺ في النَّومِ جالسًا، وأبو بكرٍ وعُمَرُ وعثمانُ وعليٌّ جلوسٌ معه، ومعاويةُ قائمٌ بينَ يديهِ، فأُتِيَ برَجُلٍ، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله! هذا يذكُرُنا ويتَنَقَّصُنَا. فكأنَّ النَّبيَّ ﷺ انتهرَ الرَّجُلَ.

قال الحُمَيْدِي[2]: وكنتُ أعرفُ الرَّجل، فقال الرَّجل: أمَّا هؤلاءِ فلا، ولكن هذا ـ يعني: معاوية ـ، فقال رسول الله ﷺ: وَيْلَكَ! أوَلَيسَ معاويةُ من أصحابي؟ وَيْلَكَ! أوَلَيس معاويةُ من أصحابي؟ ـ ثلاثا ـ، وفي يَدِ رسولِ الله ﷺ حَرْبَةٌ، فدَفَعَهَا إلى معاويةَ، وقال: جَأْ بهذه في لَبَّتِهِ[3]. فوَجَأَ بِهَا في لَبَّتِهِ. وانتبهتُ، فبَكَّرْتُ إلى منزلِ الرَّجُلِ، فإذا الذَّبْحَةُ قد طَرَقَتْهُ، وماتَ في اللَّيْلِ»[4].

ومنها:

عن رضوان السَّمَّان قال: «كانَ لي جارٌ في منزِلِي وسُوقِي يشتُمُ أبا بكرٍ وعُمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ، فكَثُرَ الكلامُ بيني وبينَه، فلَمَّا كان ذاتَ يومٍ شتَمَهُمَا وأنا حاضرٌ، فوقعَ بيني وبينَه كلامٌ حتى تناوَلَنِي وتنَاوَلْتُه، فانصرفت إلى منزلي وأنَا مغمومٌ حزينٌ ألومُ نفسي.

---

(١) «تاريخ دمشق» (٥٩/ ٢١٢).

(٢) هو نفسُ الرَّائي صاحبُ القصَّة.

(٣) جَأْ: فعلُ أمرٍ من وَجَأَ يَجَأُ، بمعنى: اقطع. واللَّبَّة: هي المَنْحَر.

(٤) «تاريخ دمشق» (٥٩/ ٢١٢ ـ ٢١٣).

قال: فنمتُ وتركتُ العِشَاءَ من الغَمِّ، فرأيتُ رسولَ الله ﷺ في منامي من ليلتي، فقلت: يا رسول الله! فلانٌ جاري في منزِلِي وسُوقِي، وهو يسبُّ أصحابَك. قال: مَنْ مِنْ أصحابي؟ قلت: أبا بكرٍ وعُمَرَ. فقال رسول الله: خُذْ هذه الـمُدْيَةَ فاذْبَحْهُ بِهَا. قال: فأخذته فأضجعته فذبحته، فرأيتُ كأنَّ يَدِي قد أصابَت من دَمِهِ، فألقيتُ الـمُدْيَةَ وأَهْوَيْتُ بيَدِي إلى الأرضِ أمسحُها، فانتبهتُ وأنا أسمعُ الصُّرَاخَ من نحو دارِه!

فقلت: انظروا ما هذا الصراخ. قالوا: ماتَ فلانٌ فجأةً!

فلمَّا أصبحتُ نظرتُ إليه؛ فإذا خطٌّ مَوْضِعَ الذَّبْحِ»[1].

ومنها:

عن الفضل بن الزبير قال: «كنتُ جالسًا عندَ شخصٍ، فأقبلَ رجُلٌ فجلسَ إليهِ رائحتُه رائحةُ القَطِرَان، فقال له: يا هذا! أتبيعُ القَطِرَان؟ قال: ما بعتُه قطُّ! قال: فما هذه الرائحة؟ قال: كنتُ مِمَّن شَهِدَ عَسْكَرَ عُمَر بنِ سعد[2]، وكنتُ أبيعُهُم أوْتَادَ الحَدِيدِ، فلمَّا جَنَّ عَلَيَّ اللَّيْلُ رَقَدْتُ، فرأيتُ في نَوْمِي رسولَ الله ﷺ ومعَه عليٌّ، وعليٌّ يسْقِي القَتْلَى من أصحابِ الحُسين، فقلت له: اسقِنِي، فأبى! فقلت: يا رسول الله! مُرْهُ يسقِيني، فقال: ألستَ مِمَّنْ عَاوَنَ عَلَيْنَا؟ فقلت: يا رسول الله! والله ما ضربتُ بسيفٍ، ولا طعنتُ برُمْحٍ، ولا رميتُ بسَهْمٍ، ولكنِّي كنتُ أبيعُهُم أوتادَ الحديدِ.

---

(١) رواه أحمد في «فضائل الصحابة» (١/ ٢٩٩) رقم (٣٩٤)، وابن أبي الدنيا في «المنامات» (٢١٩).

(٢) أي: العسكر الذين قتلوا الحُسين ـ رضي الله عنه ـ.

فقال: يا علي! اسقِهِ، فناوَلَنِي قَعْبًا[1] مملوءًا قَطِرَانًا، فشَرِبت منه قَطِرَانًا، ولَمْ أَزَلْ أَبُولُ القَطِرَانَ أَيَّامًا، ثمَّ انقَطَعَ ذلك البَوْلُ عنِّي، وبَقِيَت الرَّائِحةُ في جسمي.

فقال له السُّدِّيُّ: يا عبدالله! كُلْ من بُرِّ العِرَاق، واشرَبْ مِنْ ماءِ الفُرَاتِ، فَمَا أَرَاكَ تُعَايِنُ مُحَمَّدًا أبدًا»[2].

ومنها:

عن الأصمعي قال: «كان عندنا بالبَصْرَةِ رجلٌ يتشَيَّعُ وكان من الغُلَاة، وكان يكتُمُنا، قال: فبَكَّرَ ذاتَ يومٍ فقال: يا أصحابَ الحديثِ! الحقُّ معَكُم. قلنا: كيف؟ قال: رأيتُ اللَّيْلَةَ في المنامِ أبا بكر الصِّدِّيق، فرأيتُ شيخًا بَهِيًّا حَسَنَ اللِّحْيَةِ، فقلت: يا خليفةَ رسول الله ﷺ! اجعَلْنِي في حِلٍّ. قال: من أيِّ شيءٍ؟ قلت: كنتُ أشتُمُكَ والْعَنُك! فقال لي: لا تَعُدْ. قلت: أنا تائبٌ. فقال: أنتَ في حِلٍّ.

ثمَّ وقفتُ فإذا عُمَرُ قد جاء كأنَّه أَسَدٌ، فقلت: يا أمير المؤمنين! قال: لبَّيْك. قلت: اجعلني في حِلٍّ. قال: من أَيْش؟ قلت: كنتُ أشتُمُكَ والْعَنُك! فقال: لا حتى أَذْعَتَكَ ذَعْتَةً[3] تَسْلَحُ منها. فأصبَحْتُ وقد خَرِئْتُ!

فقال الأصمعيُّ: بالخَرَاءَةِ ثُبْتَ»[4].

قلتُ: فهذه فضائحُهُم التي عاينُوهَا على فراشِهِم، وهي أدنى من أن تكونَ

---

(١) هو الإناء الواسع.

(٢) «تاريخ دمشق» (١٤/ ٢٥٩).

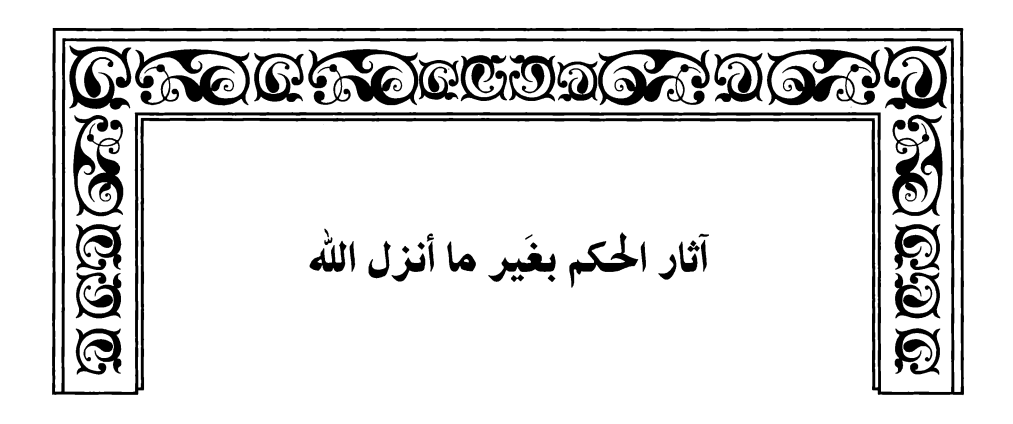
(٣) ذَعَتَهُ يَذْعَتُهُ: خنقَه خنقًا شديدًا.

(٤) «تاريخ دمشق» (٤٤/ ٣٩١).

عذابًا في الدُّنيا، فكيف بعذاب الآخرة؟!

ومثلُ ذلك وأشدُّ منه ـ يقظةً ومنامًا ـ ما يستعصي على الاستقصاء.

* * *



آثار الحكم بغَير ما أنزل الله

أمَّا الخصلةُ الخامسةُ فتحتاج منَّا لتدبر، وقد ظهر لي فيها ـ بتيسير الله وتوفيقه ـ ربطٌ لم أره عند أحدٍ، فإنْ أصبتُ فأحمدُه ـ سبحانه ـ، وإلا فمن نفسي ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه.

وهذا الربط وإن كان استطرادًا، لكنِّي أبدأ به لأهمِّيَّته.

يقول النبي ﷺ: «**وَمَا لَمْ تَحْكُم أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ؛ إِلَّا جعل الله بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ**».

سرُّ وجود البأس والشدة بين المسلمين: عدم الحكم بالكتاب والسنة.

لو سأل سائل فقال: هل كان النبيُّ ﷺ يعلم أنه يأتي في آخر الزمان حكام على أمَّته يحكمون بغير ما أنزل الله؟

أجبنا بـ (نعم)، لكن هذا غيب؛ فكيف عرفناه؟ وما هو الدليل؟

اعلم إذن، وتسلَّح بهذا تنتفع جدًّا:

عن معاذٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: صلَّى رسول الله ﷺ صلاةً فأحسنَ فيها القيامَ والخشوعَ والركوعَ والسجودَ، قال: «**إنَّها صلاةُ رَغَبٍ ورَهَبٍ، سألتُ اللهَ فيها ثلاثًا، فأعطاني اثنتين وزوى عني واحدةً: سألته أن لا يبعث على أمَّتي عدوًّا**

من غيرهم فيجتاحهم؛ فأعطانيه، وسألته أن لا يبعث عليهم سَنَةً تقتلهم جوعًا؛ فأعطانيه، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم؛ فردَّها عليَّ»[1].

فلن تُهلَكُ الأمة بزلزال، ولن تُهلك بشيءٍ عامٍّ يعُمُّ الأمة كلها.

والعدوُّ لا يمكن أن يتكالب علينا جميعًا ويتمكَّن منَّا جميعًا، وإنَّما يمكن أن يأخذ طرفًا منَّا ومن بلادنا كفلسطين، والعراق، والشيشان، وغيرها، أما أن يستحلَّ بيضتنا فلا يمكن.

قال: «**وَسَأَلْتُهُ أَنْ لا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ، فَرَدَّها عليَّ**»، فاربط هذا بقوله ﷺ: «**وَمَا لَمْ تحكم أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ الله، وَيَتخيَّروا ممَّا أَنْزَلَ اللهُ؛ إِلَّا جَعَلَ الله بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ**»؛ فتعلم علم اليقين ويظهر لك أنَّ نبيَّنا كان يعلم أن أمَّته ستَحكم بغير ما أنزل من الكتاب والسُّنَّة، ومع ذلك لم يذكر تكفيرهم! فهذا دليلٌ على صحَّة استصحاب إسلامهم، وأنَّه بمجرَّد الحكم بغير ما أنزل الله لا يكفر هؤلاء، وهذا دليلٌ خفيٌّ لكنَّه قويٌّ من خلال الربط بين هذه النصوص.

وذلك لأنَّ وُقُوعَ البأس بين المسلمين بعضِهم من بعض، نتيجةٌ لكونهم يُحكَمون بغير ما أنزل الله، فحيثما رأينا النتيجةَ دلَّتنا على وجودِ السَّبب متقدِّمًا عليها ومصاحبًا لها.

وقد سبقت الإشارة إلى قوله ـ تعالى ـ عن أهل الكتاب: ﴿**وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ**﴾[المائدة: ١٤].

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٥/ ٢٤٧).

فهذه القطعةُ من الحديث في نفس المعنى؛ فإنَّ النَّاس إذا أعرضوا عن الحقِّ اتَّبعوا أهواءهم، وإذا اتَّبعوا أهواءهم ذهبت بهم نفوسهم في أودية الهوى كلَّ مذهب، ولم يقف افتراقُهم عند حدٍّ، فالهوى يهوي بصاحبه، والتفرُّق يُذهب القوَّة في الأمَّة، فهما توأمان.

ومن دقيق فهم وكيع ـ رحمه الله تعالى ـ في هذا الباب قوله: «من طلب الحديث كما جاء فهو صاحب سنَّة، ومن طلب الحديث ليقوِّي هواه فهو صاحب بدعة»[1].

ذلك أنَّ أهل الهوى يحتجُّون ثمَّ يستدلُّون، وأهل السُّنَّة يستدلُّون، وحيثُ أوصلهم الدَّليل قاموا به، وقالوا به، وعقَّدوا قلوبَهم عليه.

وقال وكيع ـ أيضًا ـ: «لو أنَّ الرجل لم يصب في الحديث شيئًا إلَّا أنَّه يمنعه من الهوى، كان أصابَ فيه»[2].

بل إنَّ من أراد أن يقيمَ حُكْمَ الكتاب والسُّنَّةِ، فأقبل على قراءتها ودراستهما، وليس له مؤهِّلٌ من الفهم السليم والنَّظر الصحيح، ولم يكن في ذلك تابعًا للسَّلف الكرام الذين شَهِدُوا التنزيل وعَلِمُوا التأويل؛ فإنَّ ما يُفسد أكثر ممَّا يُصلح، ويقع بسبب هذا المسلك الافتراق والاقتتال، وربَّما كان الاقتتالُ على إثر إعمال الهوى في توجيه الكتاب والسُّنَّة أشدَّ وأعظم فتكًا بأهله من الاقتتال الواقع على إثر الإعراض عنهما.

وها نحنُ نرى بأعيننا أنَّك تستطيع اتِّقاء شرِّ من شئت من الخلق بالسُّبُل

(١) أخرجه البخاري في «جزء رفع اليدين» (ص ١٢٠ ـ ١٢١ ـ مع «جلاء العينين»).

(٢) أخرجه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (٦٠).

المعروفة التي يسلكُهَا بنو آدم؛ ومنها التَّفاهم والصُّلح، فيُمكنك ذلك مع معظم الخلق، ويستحيل مع الخوارج؛ فهؤلاء لا يرضيهم إلا دمُك، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله.

قال الإمام ابن عبد البَرِّ ـ رحمه الله ـ:

«وأمَّا قولُه: «**وأنْ لا نُنَازِعَ الأمرَ أهلَه**»[1]؛ فاختلفَ النَّاسُ في ذلك:

فقال قائلون: أهلُه أهلُ العَدْلِ والإحسانِ والفضلِ والدِّين، فهؤلاءِ لا يُنَازَعُونَ لأنَّهم أهلُه، وأمَّا أهلُ الجَوْرِ والفِسْقِ والظُّلْمِ فليسوا له بأهلٍ، ألا ترى إلى قولِ الله ـ عز وجل ـ لإبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿**قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾[2] [البقرة: ١٢٤].

---

(١) يشيرُ إلى حديث الصحيحين الذي رواه عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ ، فقال: «دَعَانَا النبيُّ ﷺ فبايَعْنَاه، فقالَ ـ فيما أخذَ علينا ـ أنْ بايَعَنَا على السَّمْعِ والطَّاعَةِ في مَنْشَطِنَا ومَكْرَهِنَا، وعُسْرِنَا ويُسْرِنَا، وأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وأنْ لا نُنَازِعَ الأَمْرَ أهلَه، إلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عندَكُم من الله فيهِ بُرْهَانٌ» رواه البخاري (٧٠٥٦، ٧٠٥٥) ومسلم (١٧٠٩).

(٢) قال ابن عاشور في «التحرير والتنوير» (١/ ٧٠٧): «وفي الآيةِ تنبيهٌ على أنَّ أهلَ الكتابِ والمشركين يومئذٍ ليسوا جديرين بالإِمَامةِ لاتِّصَافِهِم بأنواعٍ من الظُّلْمِ؛ كالشِّرك وتحريفِ الكتابِ وتأويلِه على حسب شهواتِهم، والانهماكِ في المعاصي، حتى إذا عَرَضُوا أنفُسَهُم على هذا الوصفِ علموا انطباقَه عليهم، **وإناطةُ الحُكْمِ بوَصْفِ الظَّالمين إيماءٌ إلى عِلَّةِ نفي أنْ ينالَهُم عهدُ الله، فيُفْهَمُ من العِلَّةِ أنّه إذا زالَ وصفُ الظُّلْمِ نالهُم العهدُ**، وفي الآيةِ أنَّ المتَّصِفَ بالكبيرةِ ليسَ مستَحِقًّا لإسنادِ الإمامةِ إليهِ؛ أعني سائر ولاياتِ المسلمين: الخلافةَ والإمارةَ والقَضَاءَ والفتوى وروايةَ العلمِ وإمامةَ الصلاةِ، ونحو ذلك».

وقال العلَّامة فخر الدِّين الرازي في «مفاتيح الغيب» (٤/ ٣١): «فحكى الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أمورًا توجِب على المشركين وعلى اليهود والنَّصارى =

وإلى مُنَازَعَةِ الظالِمِ الجائرِ ذهبت طوائفُ من المعتزلةِ وعامَّةُ الخوارج.

وأمَّا أهلُ الحقِّ وهـم أهلُ السُّنَّةِ فقالوا: هذا هو الاختيارُ، أنْ يكونَ الإمامُ فاضلًا عدْلًا محسِنًا، فإنْ لم يَكُنْ؛ فالصَّبْرُ على طاعـةِ الجَائِرِينَ من الأَئِمَّةِ أَوْلَى من الخروجِ عليهِ؛ لأنَّ في منازَعَتِه والخروجِ عليهِ استِبْدَالُ الأمنِ بالخَوْفِ، ولأنَّ ذلك يَحْمِلُ على هِرَاقِ الدِّمـاءِ، وشَنِّ الغَارَاتِ، والفَسَادِ في الأرضِ، وذلك أعظمُ من الصَّبْرِ على جَوْرِهِ وفِسْقِهِ، والأصولُ تشهدُ، والعَقْلُ والدِّينُ، أنَّ أعظمَ الـمَكْرُوهَيْنِ أَوْلَاهُمَا بالتَّرْكِ، وكلُّ إمامٍ يقيمُ الجمعة والعيدَ، ويجاهدُ العَدُوَّ، ويقيمُ الحدودَ على أهلِ العَدَاءِ، ويُنْصِفُ النَّاسَ من مظَالِمِهِم بعضِهِم لبعضٍ، وتَسْكُنُ له الدَّهْمَاءُ، وتَأْمَنُ به السُّبُلُ، فواجبٌ طاعتُه في كلِّ ما يأمرُ به من الصَّلَاحِ أو من الـمُبَاحِ»[1].

وقال الحسن ـ رحمه الله ـ في الأمراء ـ: «والله! ما يستقيمُ الدِّين إلَّا بهم وإن جاروا أو ظلموا، والله! لَـمَا يُصلِح الله بهم أكثر ممَّا يُفسدون»[2].

= قَبُولَ قولِ محمَّد ﷺ والاعترافَ بدينِه والانقيادَ لشرعه، وبيانِه من وجوه:

أحدها: أنَّه ـ تعالى ـ لـمَّا أمرَه ببعضِ التكاليفِ، فلمَّا وَفَّى بها وخرَجَ عن عُهْدَتِهَا لا جَرَمَ نالَ النُّبُوَّةَ والإمامة، وهذا ممَّا ينبِّه اليهودَ والنَّصارى والمشركينَ على أنَّ الخيرَ لا يحصلُ في الدُّنيا والآخرةِ إلَّا بتَرْك التّمرُّد والعِنَاد، والانقيادِ لحكم الله ـ تعالى ـ وتكاليفِه.

وثانيها: أنَّه ـ تعالى ـ حكى عنه أنَّه طلبَ الإمامةَ لأولادِه؛ فقال الله ـ تعـالى ـ: ﴿**لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾ فدَلَّ ذلك على أنَّ منصِبَ الإمامـةِ والرياسـةِ في الـدِّين لا يصـل إلى الظَّالمين، فهؤلاء متى أرادوا وُجْدَانَ هذا الـمَنْصِبَ وجبَ عليهم تَرْكُ اللَّجَاجِ والتّعصُّـبِ للباطِلِ».

(١) «التمهيد» (٢٣/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص٢٦٢).

وتأمَّل! معي هذه اللَّمحة من فقه السَّلف، وتنبُّههم لهذا الأمر، وإيمانهم بضرورة إتيان البيوت من أبوابها، دون حماسةٍ ودون عواطف عواصف، ودون حماقات، ودون خلطٍ بين الفقيه العالم، وبين العابد الجاهل المتنطِّع.

ذكر الذهبيُّ ـ رحمه الله ـ عن ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال:

«قَدِمَ على عُمَرَ رجلٌ، فجعلَ عُمَرُ يسألُه عن النَّاس، فقال: يا أمير المؤمنين! قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا.

فقلت: والله! ما أحبُّ أن يسارعوا يومَهم هذا في القرآن هذه الـمُسَارَعَة.

قال: فزَبَرَنِي عمر، ثم قال: مَهْ.

فانطلقتُ إلى منزلي مكتئبًا حزينًا، فقلت: قد كنتُ نزلتُ من هذا بمنزلةٍ، ولا أَرَانِي إلا قد سقطتُ من نفسِه، فاضْطَجَعْت على فراشي حتى عادَني نِسْوَةُ أهلي وما بي وجعٌ، فبينا أنا على ذلك، قيل لي: أجِب أمير المؤمنين.

فخرجتُ، فإذا هو قائمٌ على الباب ينتظرني، فأخذ بيدي ثم خلا بي.

فقال: ما الذي كرهتَ مما قال الرجل آنفًا؟

قلت: يا أمير المؤمنين! إن كنتُ أسأتُ؛ فإنِّي أستغفرُ اللهَ وأتوب إليه، وأَنْزِلُ حيث أحببتَ.

قال: لَتُخْبِرَنِّي.

قلتُ: متى ما يسارعوا هذه المسارعةَ يَحْتَقُّوا[1]، ومتى ما يَحْتَقُّوا يختصموا، ومتى ما اختصموا يختلفوا، ومتى ما يختلفوا يقتتلوا.

---

(١) يحتقُّوا: يزعمُ كلٌّ منهم أنَّ الحقَّ معه.

قال: لله أبوك! لقد كنتُ أكتُمُهَا النَّاسَ حتى جئتَ بها»[1].

ومعنى «يتخيَّروا ممَّا أنزل الله»: ليس هو الانتقاء والاختيار الذي لا مستند له إلا الهوى، فهذا قد ذمَّه الله في كتابه؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]؛ لأنَّ التخيير فيه إعمالٌ للهوى وليس من العبودية الحقَّة في قليلٍ أو كثير، فإنَّ وظيفة الشَّرع أن يُخرجَ العبدَ من داعي هواه إلى الخضوع لأمرِ مولاه.

وإنَّما المعنى: أن يتفقَّهوا فيما أنزل الله، ليستخرجوا منه أحكام النوازل والمسائل والوقائع، فيكونوا في ذلك قد اختاروا من التنزيل ما يحتاجونه في شفاء أدوائهم وعلاج أمراضهم، وأنزلوا الدواء على الألم، فيعمُّهم الخير والعافية، لأنَّ الفقه والتقوى والعقل أن تعالجَ أقدارَ الله بشرع الله؛ بمعنى: أن تُعامل ما ينزل بك من المسائل والأحكام في الشؤون العامة والخاصة بما أنزله الله في كتابه وسنَّة رسوله، فمن فهم الأمرين: الواقع والواجب، فهو الذي يفلح، وإن كان حاكمًا؛ انتفع بفلاحه النَّاس، وكان خيره عامًّا.

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «ولا يتمكَّن المفتي ولا الحاكمُ من الفتوى والحُكْم بالحقِّ إلَّا بنوعَيْن من الفَهم:

أحدُهُما: فهم الواقعِ، والفقه فيه، واستنباطُ علم حقيقةِ ما وقعَ بالقرائنِ والأَمَاراتِ والعلاماتِ حتى يحيط به علمًا.

والنَّوع الثَّاني: فهم الواجبِ في الواقع؛ وهو فهم حكم الله الذي حكم به

(١) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٣٤٩).

في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبِّقُ أحدَهُما على الآخَر، فمَنْ بذلَ جُهْدَه واستَفْرَغَ وُسْعَه في ذلك، لم يَعْدَمْ أجْرينِ أو أجْرًا، فالعالِم من يتوصَّل بمعرفةِ الواقعِ والتَّفَقُّهِ فيه إلى معرفةِ حُكْمِ الله ورسولِه»[1].

فهذا حديثٌ جليلٌ عظيمُ القَدْرِ كما ترى، وكلُّ جُمله ومفرداته لها نصوصٌ كثيرةٌ تشهد لها وتؤكِّد معناها، فالاستدلالُ على هذه القضايا ليس موقوفًا أصلًا على هذا الحديث وحده، وهكذا كلُّ القضايا الكبيرة والمسائل التي لها تأثيرٌ عامٌّ وتكثر حاجة النَّاس إليها، وتمسُّ حياتهم مساسًا مباشرًا، تتضافر على إثباتها الأدلَّة، وتكون واضحةً لكلِّ أحد، ولكنَّ النَّاس تستغفلهم الشياطين، وتجتالهم عن دينهم.

قال ابن أبي العزِّ الحنفي ـ رحمه الله ـ: «فإنَّ العلمَ كلَّما كانَ النَّاسُ إليهِ أحوجَ؛ كانت أَدِلَّتُهُ أَظْهَرَ، رحمةً من الله بخَلْقِه»[2].

إذن، هذا الحديث فيه ألوان وضُروبٌ لذنوب تترتَّب عليها مجموعة من العقوبات المتنوِّعة، ولم تشمل أصحابها فقط، وإنما عمَّت جميع الناس، وعمَّت أفراد المجتمع، أو سلكت في ضرب من ضروبه، أو في ناحية من نواحيه، وإذا تخلَّفت أحيانًا فتتخلَّف برحمة من الله وفضل، كما في قوله ﷺ: «**وَلَوْلَا الْـبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا**»، هذا من رحمته ـ سبحانه وتعالى ـ، هذه رحمته بالبهائم التي هو أرحم بها من أن يعاقبها بخطايا بني آدم.

وينبغي على الـمُوَفَّقِين والمستبصرين من الدُّعاة والمصلحين في هذه الأمَّة،

---

(١) «إعلام الموقعين» (٢/ ١٦٥ ـ بتحقيقي).

(٢) «شرح العقيدة الطحاويَّة» (١/ ١٥٢ ط الرسالة).

أن يكون موقفهم من المصائب والكوارث التي تحلُّ بالشعوب الإسلاميَّة موقفًا شرعيًّا، وفقههم لها فقهًا ربَّانيًّا، ويمكن أن يتلخَّص ذلك الموقف الشرعيُّ في الآتي[1]:

أوَّلًا: العلمُ بأسبابها، وتقريرُ أنَّ ما جرى لم يجْرِ إلَّا على وَفْقِ سُنَّةِ ﴿ **وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ** ﴾[الشورى: ٣٠]، وعلى قانونِ ﴿**مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ**﴾[النساء: ١٢٣].

ثانيًا: العَوْدُ باللَّوْمِ والتَّوبيخ على النَّفس لا على الغير، رعايةً لقوله ـ تعالى ـ: ﴿**قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ**﴾[آل عمران: ١٦٥].

ثالثًا: تحصينُ جماعةِ المسلمين من الأسباب التي إذا قامت بهم تكرَّرت المصيبةُ، وذلك بتعليمِ الجاهلِ، وزجرِ المتهاون، والإحياءِ العامِّ لكلِّ مظاهر الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

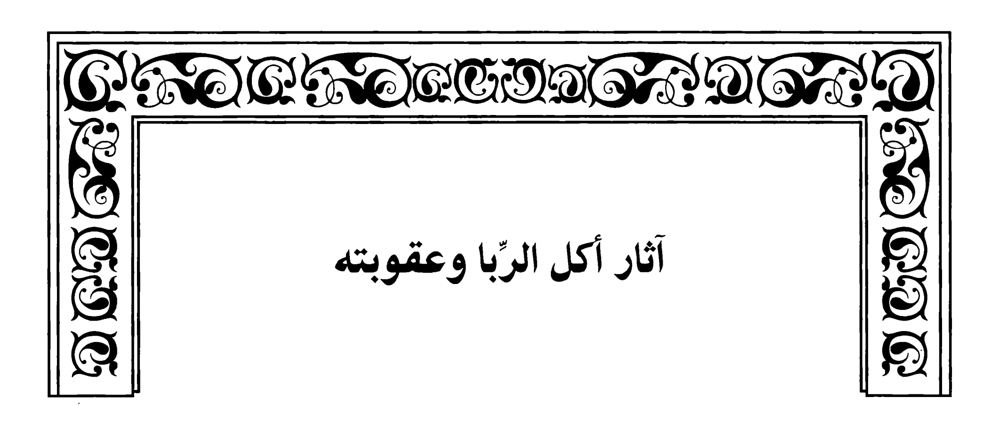
رابعًا: الصَّبْرُ، ومدافعةُ آثار المصائب، وذلك لأنَّ المؤمن إذا حلَّت به مصيبةٌ، فإنَّ عليه واجباتٍ شرعيَّةً في التعامُل معها وإنْ كانت ممَّا كسبت يداه، وعليه أن يكون في ذلك صَبورًا طويلَ النَّفَسِ، وأطولُ من الفردِ نَفَسًا ينبغي أن يكون الدَّاعيةُ إلى الخير والمصلح، لأنَّه يعالجُ الجماعةَ لا الفرد.

قال النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ: «الهَلَكة كلُّ الهَلَكة أن يُعمَل بالسيِّئات في أزمان البلاء»[2].

* * *

(١) انظر: «السُّنن الإلهية في الأفراد والأمم والشُّعوب» (ص٢١٥ وما بعدها).

(٢) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٦٢/ ١٢٥).



آثار أكل الرِّبا وعقوبته

قال ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٧٩].

فمن أين نبدأ وأين ننتهي في إحصاءِ بوائِقِ ذنبٍ من آثارِهِ أنَّه يستجلبُ على مرتكبِهِ الحَربَ من الله ورسولِه؟! وأين هي قلوبُ الـمُرابِين؟!

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: « ذكر ابنُ بُكَيْر قال: جاء رجلٌ إلى مالك بن أنس فقال: يا أبا عبد الله! إنِّي رأيتُ رجلًا سكرانًا يتعاقر[1]، يريدُ أنْ يأخذَ القمر! فقلت: امرأتي طالقٌ إنْ كان يدخلُ جوفَ ابنِ آدمَ أَشَرُّ من الخمر. فقال: ارجع حتى أنظر في مسألتك. فأتاه من الغد، فقال له: ارجع حتى أنظر في مسألتك. فأتاه من الغد، فقال له: امرأتك طالقٌ، إنِّي تصفَّحْتُ كتابَ الله وسُنَّةَ نبيِّه، فلم أَرَ شيئًا أَشَرَّ من الرِّبَا؛ لأنَّ الله آذَنَ فيه بالحرب»[2].

أمَّا حالُ آكل الرِّبا في قبره؛ فقد أُرِيَه النبيُّ ﷺ في منامه رؤيا حقٍّ، فقد

---

(١) أي: يمد نفسَه إلى الأعلى.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٣٦٤).

خرَّجَ البخاريُّ من حديث سمرة بن جندب قال: قال النبيُّ ﷺ: «**رأيتُ الليلةَ رجُلَيْنِ أَتَيَانِي فأَخْرَجَانِي إلى أرضٍ مقدَّسَةٍ، فانطَلَقْنَا حتى أَتَيْنَا على نهرٍ من دَمٍ فيه رجلٌ قائمٌ، وعلى وَسَطِ النَّهر رجلٌ بين يديهِ حجارةٌ، فأقبلَ الرجلُ الذي في النَّهر، فإذا أرادَ الرجلُ أنْ يخرجَ، رمى الرجلُ بحَجَرٍ في فيهِ فردَّهُ حيثُ كان، فجعلَ كلَّما جاءَ ليخرجَ رمى في فيهِ بحَجَرٍ فيرجعُ كما كان، فقلت: ما هذا؟ فقال: الذي رأيتَه في النَّهرِ آكِلُ الرِّبَا**»[1].

ومن مساوِيه أنَّ آكلَه ملعونٌ في الدنيا وفي الآخرة إذا لم يتب، ومثلُه مُؤكله، وكاتبه، ومن شهد عليه؛ لِما رواه جابر ـ رضي الله عنه ـ: «**لعنَ رسول الله ﷺ آكِلَ الرِّبَا، ومُوْكِلَه، وكاتبه، وشاهِدَيه**»، وقال: «**هم سواء**»[2].

ومنها: أنَّه مَمْحَقةٌ للبركة، وأيُّ بركةٍ لمن يحاربُه الله؟! قال ـ تعالى ـ: ﴿**يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ**﴾[البقرة: ٢٧٦].

ويصدِّقُ ذلك ويفسِّرُه حديثُ النبيِّ ﷺ: «**ما أحدٌ أكثرَ من الرِّبَا إلَّا كانَ عاقِبَةُ أمرِه إلى قِلَّةٍ**»[3].

وإذا كان الذي يُطِلُّ إطلالةً واحدةً على السُّجونِ، أو قاعات المحاكم، تَصْغُرُ الدُّنيا في عينه لِـمَا يرى من الذُّلِّ والصَّغَارِ الذي يلاقيه الـمُرابُون في الدنيا، هذا مع تساهُل القوانين ومرونتها، فكيف يكون حالُ من أصرَّ على هذا الذنب في الآخِرَة؟!

---

(١) قطعةٌ من حديثٍ طويلٍ رواه البخاري (٢٠٨٥).

(٢) رواه مسلم (١٥٩٨).

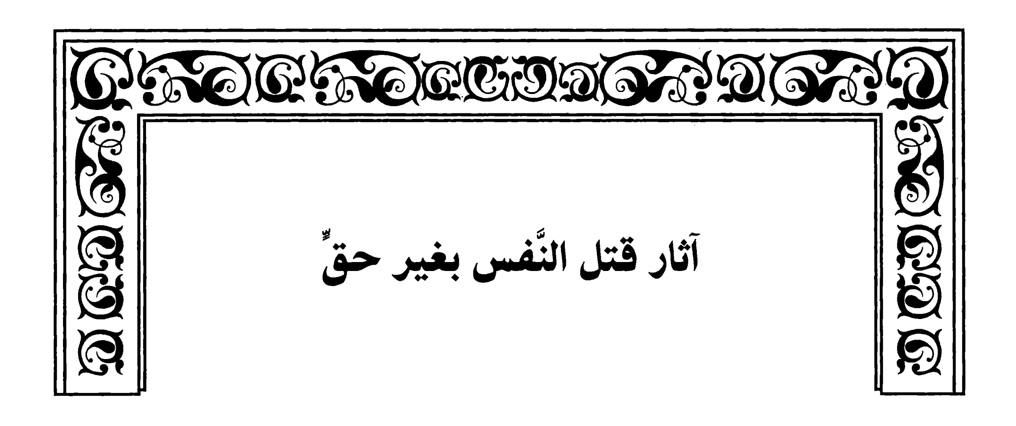
(٣) رواه ابن ماجه (٢٢٧٩)، وصححه شيخنا الألباني ـ رحمه الله ـ.

ومن شُؤمِ الرِّبَا على المجتمعاتِ أنَّه يقتُلُ روحَ الإحسان، وينقُضُ عُرَى الأُخُوَّةِ؛ لأنَّ صاحبَ المالِ الـمُرابي لا يبذُلُ مالَه بالصدقةِ أو القَرضِ، بل لا يُقْرِضُه إلَّا بالرِّبَا طمعًا في الكسبِ الـمُزَيَّفِ الموهوم، وقد سُئِلَ جعفر بن محمَّد الصَّادق ـ رحمه الله ـ: لِمَ حرَّمَ اللهُ الرِّبَا؟ قال: «لِئَلَّا يتمانعَ النَّاسُ المعروفَ»[1].

ولقد تمانعوهُ فعلًا منذُ أن ولغوا في الرِّبَا، وتمرَّغُوا فيه ظهرًا لبَطْنٍ، حتى أصبحتَ ترى من المسلمين من يبكي لشدَّة فقره وحاجتِه، ولا يجدُ من ذوي الدُّثورِ والأموالِ العظيمةِ من يقرضُه قرضًا حسنًا ـ ولا نقول: يتصدَّق عليه ـ، بل لا يجدُ إلَّا أن يتواطأ لقضاء حاجتِهِ مع مُرابٍ، فيخرُجا بحيلةٍ لإمضاء عقد الرِّبا في صورةٍ غير صريحة، أو يُلقِي بنفسِه في أحضان البنوكِ الفاتحةِ ذراعَيْهَا لكلِّ من رقَّ دينُه، نسأل الله أن يتوب علينا وعلى المسلمين.

* * *

(١) «حلية الأولياء» (٣/ ١٩٤).



آثار قتل النَّفس بغير حقٍّ

ومن المعاصي الموبِقَة والجرائم الكبرى: جريمة القتل، وإزهاق النَّفس بغير حقٍّ، فقد عدَّها النبيُّ ﷺ من الموبقات؛ أي: الـمُهلكات، وهي هلاكٌ في الدُّنيا والآخرة.

وبعد أن قصَّ الله علينا قصَّة قتل أحد ابني آدم لأخيه - وهي أوَّل جريمة قتلٍ على الأرض -؛ تَرِدُ علينا هذه الآيةُ الكريمةُ الجليلةُ الـمَهيبَة العظيمةُ: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾[المائدة: ٣٢].

فما السرُّ في هذا التشبيه العجيب، والتركيب الـمَهيب، والرَّبط الذي تنخلعُ له القلوب؛ أعني: تشبيهَ قتل النَّفسِ الواحدةِ بقتلِ النَّاسِ جميعًا؟ علمًا بأنَّه لم يَرِدْ في معصيةٍ من المعاصي ولو كانت من تلك الجرائم الكُبرى، تشبيهُ مرتكبِها في حقِّ واحدٍ من الخَلْقِ بمن يرتكبها في حقِّ بني آدم أجمعين، إلَّا في القتل.

قال ابن عاشور: «ومعنى التشبيه في قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ حَثُّ جميعِ الأمَّةِ على تعقُّب قاتلِ النَّفس وأخذه أينما ثُقِفَ، والامتناعِ من إيوائِه

أو الستر عليه، كلٌّ مخاطب على حسب مقدرته وبقدر بَسْطَةِ يَدِهِ في الأرضِ، من وُلَاةِ الأمورِ إلى عامَّة النَّاس.

فالمقصود من ذلك التشبيهِ تهويلُ القتل، وليس المقصودُ أنَّه قد قتل النَّاس جميعًا، ألا ترى أنَّه قابلٌ للعَفْوِ من خصوصِ أولياءِ الدَّمِ دون بقية النَّاسِ.

على أنَّ فيه معنًى نفسانيًّا جليلًا؛ وهو أنَّ الداعي الَّذي يُقْدِمُ بالقاتلِ على القتلِ يرجع إلى ترجيحِ إرضاءِ الدَّاعي النَّفْسَانِيِّ النَّاشِئِ عن الغضب وحبِّ الانتقام على دواعي احترام الحقِّ وزجر النَّفس والنَّظر في عواقب الفعلِ من نُظُمِ العَالَمِ، فالَّذي كان من حيلته ترجيحُ ذلك الدَّاعي الطفيفِ على جملة هذه المعاني الشَّريفة؛ فذلك ذو نفس يوشك أن تدعوه دَوْمًا إلى هضم الحقوق، فكلَّما سنحت له الفرصة قَتل، ولو دعته أن يقتل النَّاس جميعًا لفعل»[1].

وذكر العلَّامة الفخرُ الرازيُّ وجهًا جميلًا واستحسنه في فائدة هذا التشبيه، فقال:

«جميعُ النَّاسِ لو علموا من إنسانٍ واحدٍ أنَّه يقصد قتلهم بأجمعهم؛ فلا شكَّ أنَّهم يدفعونه دفعًا لا يمكنُه تحصيلَ مقصودِهِ، فكذلك إذا علموا منه أنَّه يقصدُ قتل إنسانٍ واحدٍ معيَّنٍ، يجب أن يكون جِدُّهُم واجتهادهم في منعه عن قتل ذلك الإنسانِ مثلَ جِدِّهِم واجتهادهم في الصورة الأولى»[2].

فكيف لا يكونُ أمرُ قتل النَّفس عظيمًا مَهُولًا؛ والله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ**

---

(١) «التحرير والتنوير» (٦/ ١٧٨).

(٢) «مفاتيح الغيب» (١١/ ١٦٩).

﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[النّساء: ٩٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**لا يزال المؤمن في فُسْحَةٍ من دينِه ما لم يُصِبْ دَمًا حرامًا**»[(١)].

«المعنى: أنَّه في أيِّ ذنْبٍ وَقَعَ؛ كان له في الدِّينِ والشَّرعِ مَخْرَجٌ؛ إلا القتل فإنَّ أمرَه صعبٌ، ويوضِّح هذا ما في تمامِ الحديثِ عن ابنِ عمر أنه قال: «إنَّ من وَرْطَاتِ الأمورِ التي لا مَخْرَجَ لمن أوقعَ نفسَه فيها: سَفْكُ الدَّمِ الحَرَامِ بغيرِ حِلِّه»[(٢)]، والوَرْطَات: جمعُ وَرْطَة؛ وهي كلُّ بَلاءٍ لا يكادُ صاحبُه يتخلَّصُ منه، يُقال: تَوَرَّطَ واسْتَوْرَطَ»[(٣)].

ولذا فقد صحَّ التَّشديدُ إلى الغايةِ في شأن القتل، وأُثِرَ التَّغليظُ فيه عن عامَّة السَّلف، حتى اشتهر قولُ ابن عبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ بأنَّ القاتل لا توبةَ له.

فقد روى الطَّبراني عن نافع بن جبير بن مطعم عن ابن عبَّاسٍ أنَّه سأله سائلٌ، فقال: يا أبا العباس! هل للقاتل من توبةٍ؟ فقال ابن عباس ـ كالمتعجِّبِ من شأنه ـ: ماذا تقول؟! فأعاد عليه المسألة. فقال له: ماذا تقول؟ مرتين أو ثلاثًا. ثمَّ قال ابن عباس: أنَّى له التوبة؟! سمعتُ نبيَّكم ﷺ يقول: «**يأتي المقتولُ معلِّقًا رأسَه بإحدى يديه، متلبِّبًا قاتِلَه بيده الأخرى، تشخب أوداجُه دمًا، حتى يأتيَ به العرشَ، فيقول المقتول لله: ربِّ! هذا قتلني. فيقول الله ـ عز وجل ـ للقاتل: تَعِسْتَ. ويُذْهَبُ به إلى النار**»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٦٨٦٢).

(٢) رواه البخاري (٦٨٦٣) موقوفًا على ابن عمر.

(٣) «كشف المشكل من حديث الصَّحيحين» (١/ ٦٧٥) لابن الجوزي.

(٤) «المعجم الكبير» (١٠/ ٣٠٦) رقم (١٠٧٤٢).

فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

قال رسول الله ﷺ: «**قتلُ المؤمنِ أعظمُ عندَ الله من زَوَالِ الدُّنيا**»(١).

وبلغ من تعظيمِ دم المؤمن أنْ قال رسول الله ﷺ: «**لو أنَّ أهلَ السَّماءِ وأهلَ الأرضِ اشتركوا في دم مؤمنٍ؛ لأكبَّهم الله في النار**»(٢).

وقد روى البخاريُّ عن جُندُب بن عبدالله البَجَلي ـ رضي الله عنه ـ أنَّه أوصى بعض أصحابِه بقولِه: «إنَّ أوَّلَ ما يُنْتِنُ من الإنسانِ بَطْنُه، فمن استطاعَ أنْ لا يأكُلَ إلا طيِّبًا؛ فليفعلْ، ومن استطاع أن لا يُحَالَ بينَه وبينَ الجَنَّةِ بمِلْءِ كَفٍّ من دَمٍ أَهْرَاقَه؛ فليفعلْ»(٣).

وما أجمل فقه السَّلَف في التوقِّي من هذه الجريمة، وهذا الشرِّ المستطير، وترك العدوان على دماء النَّاس وأموالهم وأعراضهم، فقد كتب رجلٌ إلى عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يطلبُ منه أن يكتب إليه بالعلمِ كلِّه.

فكتب إليه ابن عمر: «إنَّ العلمَ كثيرٌ، ولكن إن استطعتَ أن تلقى اللهَ خفيفَ الظهرِ من دماءِ النَّاس، خَمِيصَ البَطْنِ من أموالِهم، كافَّ اللِّسانِ عن أعراضِهم، لازِمًا لأمرِ جماعتِهم؛ فافعل»(٤).

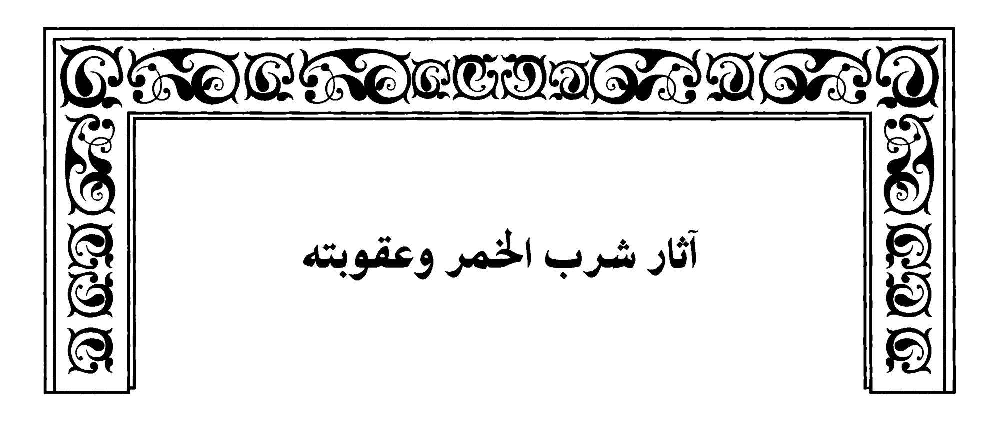
* * *

(١) رواه النَّسائي (٣٩٩٠) **وسنده صحيح**.

(٢) رواه الترمذي (١٣٩٨) **وسنده صحيح**.

(٣) رواه البخاري (٧١٥٢) موقوفًا على جُندُب ـ رضي الله عنه ـ، وخرَّجته في كتابي «معجم شيوخ شيخ الإسلام سراج الدين البُلقيني» رقم (٢٢٦ / ١٨).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢٢٢).



آثار شرب الخمر وعقوبته

الخمرُ مشؤومة، ومن شُؤمها أنَّ الكأسَ منها لا تصلُ إلى فم شاربها حتى تكون اللَّعنةُ قد حلَّت به وبتسعةٍ معه.

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «لعنَ رسول الله ﷺ في الخمرِ عشرةً: عاصِرَهَا، ومعتَصِرَها، والمعصورةَ له، وحامِلَهَا، والمحمولةَ له، وبائعها، والمبيوعةَ له، وساقيَها، والمستقاةَ له، حتى عدَّ عشْرةً من هذا الضَّرب»[1].

ومن آثارها على المجتمع أنَّها من أسباب العداوة والبغضاء وإفساد النُّفوس، قال ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة: ٩٠ ـ ٩١].

قال ابن جُزَيٍّ: «تقبيحٌ للخَمْرِ والـمَيْسِرِ، وذكرٌ لبعضِ عيوبِها، وتعليلٌ لتحريمِهَا، وقد وقعت في زمانِ الصَّحابةِ عداوةٌ بينَ أقوامٍ بسببِ شربهم لها قبل تحريمِهَا، ويُقال: إنَّ ذلك كان سببَ نزولِ الآيةِ»[2].

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٣٨١) وسنده صحيح.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» (١/ ٢٤٢).

وقال القرطبيُّ: «فكلُّ لَهْوٍ دَعَا قليلُه إلى كثيرٍ، وأَوْقَعَ العداوةَ والبَغْضَاءَ بين العاكفينَ عليهِ، وصَدَّ عن ذكر الله وعن الصَّلاةِ؛ فهو كشُرْبِ الخَمْرِ، وأَوْجَبَ أن يكونَ حرامًا مثلَه»[1].

قال العلَّامة السَّعدي ـ رحمه الله ـ: «فإنَّ الفلاحَ لا يتمُّ إلا بتَرْكِ ما حرَّمَ الله، خصوصًا هذه الفواحشَ المذكورة، وهي الخمر؛ وهي كلُّ ما خَامَرَ العقلَ؛ أي: غَطَّاهُ بسُكْرِه، والـمَيْسِرُ؛ وهو: جميعُ الـمُغَالَبَاتِ التي فيها عِوَضٌ من الجانِبَيْنِ كالمراهنةِ ونحوِهَا، والأَنْصَابُ التي هي الأصنامُ والأَنْدَادُ ونحوُها ممَّا يُنصب ويُعبد من دون الله، والأزلامُ التي يستقسمون[2] بها، فهذه الأربعةُ نهى اللهُ عنها وزجر، وأخبر عن مفاسدها الداعيةِ إلى تركها واجتنابها.

فمنها: أنَّها رجسٌ؛ أي: خَبَث، نَجِسٌ معْنًى، وإنْ لم تكن نجسةً حِسًّا، والأمورُ الخبيثة مما ينبغي اجتنابها وعدم التدنس بأوضارها.

ومنها: أنها من عمل الشيطان؛ الذي هو أعدى الأعداء للإنسان، ومن المعلوم أن العدو يُحذر منه، وتُحذر مصايده وأعماله، خصوصًا الأعمال التي يعملها ليوقع فيها عدوه، فإنها فيها هلاكه، فالحزم كل الحزم البعدُ عن عمل العدوِّ المبين، والحذرُ منها، والخوفُ من الوقوع فيها.

ومنها: أنه لا يمكن الفلاح للعبد إلا باجتنابها، فإنَّ الفلاح هو الفوز

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٩١).

(٢) الاستقسام: طَلَبُ القَسْمِ، وفرز النصيب. والأزلام: هي السهام، والاستقسام بها هي أن يستعملوها في التنبُّؤ بما يقدمون عليه أو يتركوه، فهي نوعٌ من التطيُّر الذي هو أحد صور الشرك.

بالمطلوب المحبوب، والنجاة من المرهوب، وهذه الأمور مانعة من الفلاح ومعوقة له.

ومنها: أنَّ هذه موجبةٌ للعداوةِ والبغضاءِ بين النَّاسِ، والشيطانُ حريصٌ على بثِّها، خصوصًا الخمرُ والميسرُ، ليوقعَ بين المؤمنين العداوةَ والبغضاءَ، فإنَّ في الخمرِ من انغلاقِ العقلِ وذهابِ حِجَاهُ، ما يدعو إلى البغضاءِ بينَه وبينَ إخوانِه المؤمنينَ، خصوصًا إذا اقترنَ بذلك من السِّبَابِ ما هو من لوازم شاربِ الخمر، فإنَّه ربما أَوْصَلَ إلى القتلِ، وما في الميْسِرِ من غَلَبَةِ أحدِهِمَا للآخَرِ، وأَخْذِ مالِه الكثيرِ في غير مقابلةٍ، ما هو من أكبرِ الأسبابِ للعداوةِ والبغضاءِ.

ومنها: أنَّ هذه الأشياء تصدُّ القلب ـ ويتبعه البدنُ ـ عن ذكر الله وعن الصلاة، اللَّذَيْنِ خُلِقَ لهما العبدُ، وبهما سعادته، فالخمر والميسر يصدَّانه عن ذلك أعظمَ صَدٍّ، ويشتغلُ قلبُه ويَذْهَلُ لُبُّهُ في الاشتغالِ بهما، حتى يمضي عليه مدة طويلةٌ وهو لا يدري أين هو.

فأيُّ معصيةٍ أعظمُ وأقبحُ من معصيةٍ تدنِّس صاحبَها، وتجعلُه من أهل الخُبْثِ، وتوقِعُه في أعمالِ الشيطانِ وشِبَاكِهِ، فينقادُ له كما تنقاد البهيمة الذليلة لراعيها، وتحول بين العبد وبين فلاحه، وتوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة؟!

فهل فوق هذه المفاسد شيءٌ أكبرُ منها؟!»[1].

وزادَ ابن رجب[2] ذِكْرَ مفاسدَ أخرى؛ منها: **نَزعُ الإيمانِ عن صاحبها حالَ**

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٢٤٣).

(٢) انظر: «مجموع رسائل ابن رجب» (١/ ٢٧٧).

شُربِهَا، كما جاء في الحديث: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربُ وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذاتَ شَرَفٍ يرفعُ النَّاسُ إليهِ فيها أبصارَهُم وهو مؤمن**»[1].

وروى ابن عبَّاسٍ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مُدْمِنُ الـخَمْرِ إنْ ماتَ لَقِيَ اللهَ كَعَابِدِ وَثَنٍ**»[2].

وذكر ابن حبَّان في «صحيحه» (٥٣٤٧ ـ «الإحسان») على إثر الحديث: «يشبه أن يكون معنى هذا الخبر: من لَقِيَ اللهَ مُدْمِن خمرٍ مستَحِلًّا لشُرْبِهِ، لقِيَه كعابدِ وَثَنٍ؛ لاستوائِهِمَا في حالةِ الكفر».

والأحسن منه ما قاله ابن رجب: «وهذا لأنَّ مدمنها يعكف عليها ولا يكاد يفيق منها، فيصير كالعاكف على الأوثان»[3].

ومنها: منعُ قبول الصلاة؛ ففي الحديث: «**مَنْ شَرِبَ الـخَمْرَ فَلَمْ يَنْتَشِ؛ لم تُقبَلْ له صلاةٌ ما دامَ في جوفِهِ أو عروقِهِ منها شيءٌ، وإنْ ماتَ ماتَ كافرًا، وإن انْتَشَى؛ لم تقبل منه صلاةٌ أربعين يومًا، وإنْ ماتَ فيها مات كافرًا**»[4].

والخمرُ جاء وصفها بأنَّها (أمُّ الخبائث)، ويشهدُ شهادةً محسوسةً لكونها

---

(١) رواه مسلم (٥٧).

(٢) رواه أحمد (١/ ٢٧٢)، وعبدالرزاق (١٧٠٧٠)، وعبد بن حميد (٧٠٨ ـ «المنتخب»)، **وإسناده ضعيفٌ**، فيه مجهول، وحسَّنه شيخُنا الألباني في «الصحيحة» (٦٧٧) مرفوعًا، **والصواب أنَّه موقوفٌ** على عبدالله بن عمرو، كما بيَّنته في (تحقيقي الثاني) لكتاب «الكبائر» (ص١٩٠ ـ ١٩٢)، وهو الذي رجحه ابن رجب في رسالته «ذم الخمر» (٢٧٥).

(٣) «ذم الخمر» (٢٧٥).

(٤) رواه أحمد (٢٧٦٤٤)، **وصححه** شيخنا الألباني في «صحيح الترغيب»(٢٣٨٣).

(أمَّ الخبائث) ما رواه النَّسائيُّ في «سننه»[1] عن عثمان ـ رضي الله عنه ـ أنَّه خطبَ النَّاسَ يومًا؛ فقال:

«اجتنبوا الخمر، فإنَّها أمُّ الخبائث، إنَّه كان رجلٌ ممَّن خلا قبلكم تعبَّدَ، فعَلِقَتْهُ امرأةٌ غَوِيَّةٌ، فأرسلت إليه جاريتَها، فقالت له: إنَّا ندعوكَ للشهادةِ، فانطلقَ مع جاريتِها، فَطَفِقَت كلَّما دخلَ بابًا أغلقَتْه دونَه، حتى أفضى إلى امرأة وَضِيئَةٍ، عندَها غلامٌ وبَاطِيَةُ خمرٍ، فقالت: إنِّي والله! ما دعوتُكَ للشَّهادةِ، ولكن دعوتُك لتَقَعَ عَلَيَّ، أو تشرب من هذه الخمرةِ كأسًا، أو تقتلَ هذا الغلام، قال: فاسقيني من هذا الخمر كأسًا، فسقَتْه كأسًا، قال: زيدوني، فلم يُرِمْ حتى وقعَ عليها، وقتلَ النَّفسَ.

فاجتنبوا الخمر، فإنَّها والله! لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمرِ، إلا ليوشك أن يخرج أحدُهما صاحبَه».

فشُربُ الخمر فعلةٌ مذمومة، وخصلةٌ مشؤومة، يظهر نحسُهَا وشُؤْمُها على صاحبها في الدنيا قبل الآخرة.

وممَّا لا ينقضي منه العجبُ في شأن (أمِّ الخبائث) أمران:

الأوَّل: هذا المسخُ الذي حلَّ بفِطَرِ كثيرٍ من المسلمين ذكورًا وإناثًا، إذ تسمعُ كثيرًا منهم ـ لا سيما الشبابُ ـ يتباهَوْنَ بالسُّكْرِ، وما يحملُهُم عليه ذلك السُّكْرُ من العربدة، والتبذُّل، والتعرِّي، وارتكاب القبائحِ، لا أقول: التي يقبِّحها الشَّرع

(١) برقم (٥٦٦٦)، **وسنده صحيح**، وروي عنه مرفوعًا ولا يصحُّ، انظر: «العلل» (١٥٨٦) لابن أبي حاتم، و(٢/ ١٨٥) للدَّارقطني، وله شاهد من حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٦٦٧)، والدَّارقطني في «السُّنن» (٤٦١٠) **وإسناده منكر**.

فقط؛ بل التي تقبِّحها الأذواقُ والأعرافُ حتى عند غير المسلمين.

ولذا قال ابن رجب: «واعلَم أنَّ شُرْبَ الخَمْرِ لو لم يَرِدْ الشَّرع بتحريمه لكان العقل يقتضي تقبيحَه؛ لِـمَا فيه من إزالةِ العقل ـ الذي به شَرَفُ الآدَمِيِّ على الحيوانات ـ فيصيرَ مشارِكًا لبقيَّةِ البهائم، أو أسوأ حالًا منها، فمنهم من يتلطَّخُ بالنَّجَاسَاتِ والأَقْذَارِ والقَيْءِ، ومنهم من يتشبه بالخنزير، أو يقتل، أو يجرح، فيشبه السِّباعَ الجوارحَ؛ كالكلب العَقُورِ ونحوه».

قال: «ولهذا حرَّمَهَا كثيرٌ من أهلِ الجاهليَّةِ قبلَ الإسلام»[1].

ولذا نجدُ كبارَ الماجِنِين، بل حتى الجاهليِّين، لم يتمدَّحُوا بالسُّكْر، وإنَّما ذكروا إقبالَهُم على الشَّرابِ، وتلذُّذهم به مع نُدَماءِهِم، لكن لم يتباهَوْا بغيابِ عقولِهِم، وهل يتباهى أحدٌ ببلوغِهِ الدَّرجَةَ التي يستوي فيها هو والبهيمة؟!

كما قال حسَّان:

ونشربُها فتترُكُنا مُلُوكًا ... وأُسْدًا ما يُنَهْنِهُنَا اللِّقَاءُ

ولم يشربها منذُ أن حُرِّمَت ـ رضي الله عنه ـ، ومع ذلك فهذا ذكرُه لها قبل تحريمها.

حتى ذلك الذي لم يتحاشَ من لونٍ من الفجور؛ وهو الذي يقال له: أبو نواس، يقول:

فلـمَّا شَرِبْنَاهَا ودَبَّ دَبِيبُهَا ... إلى موضِعِ الأَسْرَارِ قُلْتُ لها قِفِي

مَخَافَةَ أنْ يَسْطُو عَلَيَّ شُعَاعُهَا ... فيُطْلِعَ نُدْمَانِي على سِرِّيْ الخَفِي

---

(١) «مجموع رسائل ابن رجب» (١/ ٢٨١).

يقول: إنَّه يشربُ الخمرَ ـ عياذًا بالله ـ، حتى إذا وجدَ أنَّها بدأت تتسلَّل إلى قلبه، وبدأ يفقدُ وعيَه، وأوشَكَ على الهذَيان؛ توقَّفَ عن شُربِها قبل أن ينتقلَ إلى تلكَ الحالةِ الـمَرْذولَةِ، لئلَّا يكشفَ سرًّا يحسُنُ كتمانُه، أو يهتكَ سترًا يتعيَّنُ الإبقاءُ عليه دون أن يُكشَفَ.

وقال آخر:

يسْقِي ويشربُ لا تُلْهِيهِ سَكْرَتُه عن النَّدِيمِ ولا يَلْهُو عن الكاسِ
أطاعَهُ سُكْرُه حتى تمكَّنَ مِنْ حالِ الصُّحَاةِ، وهذا أعْظَمُ النَّاسِ

قلت: بل من أفجرِ النَّاسِ وأرذلهم لا أعظمهم، ولكن القصد أنَّ دهاقنةَ الماجنين يتباهَوْنَ ببقاء المروءَةِ ومراعاة الذَّوق، ولا يتفاخرون بالبهيميَّة التي يراها فُجَّارُ زماننا غايةَ سُكْرِهم، فإلى الله المشتكى من تراكُم الظُّلُمات.

ومهما يكُنْ فيها من مُتعةٍ مُدَّعاةٍ «أفليسَ من الغَبْنِ كلِّ الغَبْنِ تَعَجُّلُ شُرْبِ هذهِ الخبيثةِ الـمُفْسِدَةِ للعَقْلِ والدِّينِ مع زُمْرَةِ الفُسَّاقِ الأَرْذَالِ والشياطين، وتركُ شُرْبِ الخَمْرِ الـمُطَهَّرَةِ التي هي لَذَّةٌ للشَّارِبِينَ فِي حظيرةِ القُدْسِ مع الذينَ أنعمَ الله عليهم من النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحين؟!»[1].

الثَّاني: ما زلنا نسمعُ من يصدِّعُ رؤوسنا بأنَّ في الخمر دواءً! وقد جاء في الحديث الذي خرَّجه مسلمٌ ـ رحمه الله ـ عن طارق بن سُوَيْد الجُعفِيِّ ـ رضي الله عنه ـ أنَّه سأل النبيَّ ﷺ عن الخمر، فنَهى ـ أو كرِهَ ـ أن يصنَعَها. فقال: إنَّما أصنعُها للدَّواء. فقال: «**إنَّه ليس بدواءٍ، ولكنَّه داءٌ**»[2].

---

(١) «مجموع رسائل ابن رجب» (١/ ٢٨٠).

(٢) «صحيح مسلم» (١٩٨٤)، وقد وقفتُ على تقريرٍ صحفيٍّ نُشر على الموقع الرسمي لهيئة =

= الإذاعة البريطانيَّة (BBC) بتاريخ ٢ يناير ٢٠٠٧ بعنوان: (الشُّرْب يقلِّل مخاطر ضغط الدَّم)؛ وهو تقرير وُصف بأنَّه (دراسة أمريكيَّة)، ليرجعَ ذاتُ التقرير بنقلٍ عن (المؤسَّسة البريطانيَّة لصحَّة القلب) تنقضُ فيه الدِّراسة الأمريكيَّة، فيقول مُعِدُّوه فيه:

But experts warned too much alcohol can raise blood pressure and said the findings should not be used as a licence to drink.

They stressed that alcohol can harm and should not be used as a medicine.

والترجمة الحرفية لهذا الكلام الوارد في التقرير:

«ولكنَّ الخبراء حذَّروا من أنَّ المزيد من الكحول يرفع ضغط الدَّم، وقالوا: إنَّ نتائج بحثهم لا ينبغي أن تستخدم كإذن بشُرب المزيد، وشدَّدوا على أنَّ الكحول من الممكن أن تكون ضارَّة، **ولا ينبغي استعمالُها على أنَّها علاج**».

وتضيف إحدى الباحثات في (المؤسسة البريطانيَّة لصحَّة القلب) الآتي:

With alcohol consumption there is a fine line between benefit and risk.

والمعنى: «عند استهلاك الكحول، هناك خيط دقيق بين المنفعة والمخاطرة».

وهي تذكر ذلك على فرض تسليمها لنتائج الدراسة الأمريكيَّة، فتقصد أنَّ الخمر لا تصلح لتكون دواءً بأيِّ حال.

فلعلَّ هذا يكون رادعًا للمفتونين، إنْ لم يكفِهم ما أوردنا من الرَّوادعِ الشرعيَّةِ قبل ذلك.

بل نشرت صحيفة (الغارديان) البريطانية الشهيرة على موقعها الرسمي بتاريخ ٢٤/ ٢/ ٢٠٠٩ خبرًا بالعنوان الآتي:

Even small amounts of alcohol increase a woman's risk of cancer.

A study involving more than a million women found that drinking the equivalent of just one small glass of wine a day significantly increased the risk of common cancers.

ومعنى العنوان الرئيسي: «حتى كمِّيَّات قليلة من الكحول تزيد خطر الإصابة بالسرطان عند النِّساء». =

وقد ذكر البخاريُّ ـ تعليقًا ـ عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال عن التداوي بـ (السُّكْرِ): «إنَّ الله لم يجعلْ شفاءَكم فيما حَرَّمَ عليكُم»[1].

وأنشد ابن طولون الصَّالحي ـ رحمه الله ـ في ذمِّ الخمر[2]:

لا تنـافق بمَـدحك الخَنْدَرِيسَـا[3]	فتوافِـقْ في ذاكَ عُبَّـادَ عيسـى
إنَّـما يمـدحُ الـمُدامَ النَّصـارى	وبهـا يُغْـوِي الـرَّجيمُ المجوسَـا
قـال فيهـا بعـضُ الأطبَّـاءِ قـولًا	لبَّسُـوهُ عـلى الـورى تلبيسًـا
أنَّهـا تنفـعُ السَّـقيمَ وهـذا	خـبرٌ قـد أتَـوْا بـه معكوسًـا
قـال فيهـا الرَّسـولُ قـولًا شريفًـا	فتـدبَّرْ كلامَـه المحروسـا
لـيس فيهـا لأمَّتـي مـن شـفاءٍ	بعدَ ذا القـولِ كيـف تشـفي نَسِيسا
تُفسِـدُ الـدِّينَ لا محالـةَ حقًّـا	ثـمَّ تُهـدي للجسـمِ داءً حَبيسًـا

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ شَرِبَ الـخَمْر في الدنيا لم يشربْها في الآخرةِ؛ إلَّا أنْ يتوبَ**»[4].

= ومعنى ما هو مكتوبٌ تحته: «دراسة شَمَلت أكثر من مليون امرأة؛ وجَدَت أنَّ شُرب ما يُعادل كأسًا صغيرًا من النبيذ يوميًّا، قد زاد بشكل كبير خطر الإصابة بالسَّرطانات الشائعة».

وإلى الله نشكوا انغلاقَ القلوب والعقول.

(١) صحيح البخاري (٥٦١٤) (باب: شراب الحلواء والعسل).

(٢) «ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر» (٢/ ٦٧٠ ـ ٦٧١) لابن طولون.

(٣) هي: الخمر.

(٤) رواه البخاري (٥٥٧٥) ومسلمٌ (٢٠٠٣) واللفظ له.

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن رجل من الأنصار قال: «حضَرْنَا مولىً لنا عندَ موتِه، فبَيْنَا نحنُ عندَه وهو يُحْشِرجُ، إذْ صاحَ صيحةً ما بَقِيَ منَّا إنسانٌ إلا سقطَ على الأرضِ، ثمَّ أَفَقْنَا، فرفَعْنا رءوسَنا، فإذا هو جالسٌ، فذهبنا ننظرُ، فإذا وجهُه كأنَّه كَبَّةُ طِينٍ، قد التَقَى جلدُه ووجهُه ورأسُه على عينيهِ، ثـمَّ تمَـدَّدَ فـمات، فسألنا عن أمرِه، **فإذا هو صاحبُ باطلٍ**»(١).

وكبة الطين: كرة الطين، فاختلطت ملامحه وانعجنت أعضاؤه.

فتأمَّل هذه الخاتمةَ، وهذا الحال، هل يشتهيهِ من أحدٍ؟!

قلتُ: وهم يُطلِقُونَ (الباطل) على الحرامِ، لا سيما على ما كان يُشتَهَى منه ممَّا يعتادُه أهل اللهوِ والتَّرَفِ؛ كالخمر، والزنا، والقمار، والميسِرِ، ومعاشرةِ الـمُرْدَان، ونحو ذلك، نسأل الله السَّلامة.

وليس لنـا أن نعجب ونحن نحفظُ عن نبيِّنَا ﷺ قولَه: «**ليكونَنَّ من أمتي أقوامٌ يستحلـون الحِـرَ والحريـر والخمر والمعازف، وليَنْزِلَنَّ أقوامٌ إلى جنب علم، يروحُ عليهم بسارحة لهم يأتيهم ـ يعني: الفقير ـ لحاجةٍ، فيقولوا: ارجعْ إلينا غدًا. فيُبَيِّتُهُم اللهُ، ويَضَعُ العَلَمَ، ويَمْسَخُ آخرين قردةً وخنازيرَ إلى يومِ القيامةِ**»(٢).

وعن عمران بن حصين ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**في هذه الأمة خَسْفٌ ومَسْخٌ وقَذْفٌ**». فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله! ومتى ذاك؟ قال: «**إذا ظهرت القَيْنَاتُ والمعازفُ، وشُرِبَت الـخُمُورُ**»(٣).

---

(١) «المحتضرين» (ص١٦٤) لابن أبي الدنيا.

(٢) رواه البخاري (٥٥٩٠).

(٣) رواه الترمذي (٢٢١٢)، **وسنده صحيح**.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «وهذا الحُسْنُ والجَمالُ الذي يكونُ عن الأعمالِ الصَّالحةِ في القلبِ يسْرِي إلى الوجه، والقُبْحُ والشَّيْنُ الذي يكونُ عن الأعمالِ الفَاسِدَةِ في القَلْبِ يسري إلى الوجهِ كما تقدَّم، ثمَّ إنَّ ذلك يَقْوَى بقوةِ الأعمالِ الصَّالحةِ والأعمالِ الفاسدةِ، فكلَّما كَثُرَ البِرُّ والتَّقْوَى قَوِيَ الحُسْنُ والجَمالُ، وكلَّما قَوِيَ الإثم والعدوانُ قَوِيَ القُبْحُ والشَّيْنُ، حتى ينْسَخَ ذلك ما كانَ للصُّورَةِ من حُسْنٍ وقُبْحٍ، فكم مِمَّنْ لم تكن صورَتُه حَسَنَةٌ، ولكن من الأعمالِ الصَّالحَةِ ما عَظُمَ به جَمَالُه وبهاؤُه، حتى ظهرَ ذلك على صورتِه.

وهذا ظهرَ ذلك ظُهُورًا بَيِّنًا عندَ الإصرارِ على القبائح في آخِرِ العُمْرِ، عندَ قُرْبِ الـمَوتِ، فنرى وجوهَ أهلِ السُّنَّةِ والطَّاعةِ كلَّما كَبُرُوا ازدادَ حُسْنُهَا وبهاؤُها حتى يكونَ أحدُهُم في كِبَرِه أحسنَ وأجملَ منه في صِغَرِه، ونجدُ وجوهَ أهلِ البدعة والمعصية كلما كَبُرُوا عَظُمَ قُبْحُهَا وشَيْنُهَا حتى لا يستطيعُ النَّظرَ إليها من كان مُنْبَهِرًا بِها في حالِ الصِّغَرِ لجَمالِ صورتِها.

وهذا ظاهرٌ لكلِّ أحد فيمن يعْظُمُ بدعتُه وفُجُورُه؛ مثل **الرَّافِضَةِ وأهلِ المظالمِ والفَوَاحش**...»[1].

وروى ابن أبي الدُّنيا بسنده إلى سُنَيْد قال: بلغني عن سهل الأنباوي هذا الحديث، فلَقِيتُه، فسألتُه، فحدَّثَنِي فقال: «أتيتُ رَجُلًا أعودُه وقد احتَضَرَ، فبَيْنَا أَنَا عندَه، إذْ صاحَ صَيْحَةً أَحْدَثَ معَهَا، ثمَّ وَثَبَ فأَخَذَ برُكْبَتِي، فأَفْزَعَنِي! قلت: ما قصَّتُك؟ قال: هو ذا حَبَشِيٌّ أزرقُ! عيناه مثل السُّكُرْكَتَيْن[2]، فغمزني غمزةً

---

(١) «الاستقامة» (١/ ٣٦٥).

(٢) السُّكُرْكَة: هي خمر الحبشة، كأنّه يريد: أنَّ عينيه غامقتان كخمر الحبشة.

أَحْدَثْتُ منها. فقال لي: موعدُك الظُّهر.

فسألت عنه: أيَّ شيءٍ كانَ يعْمَل؟ قال: كان يشرب النَّبِيذَ»[1].

ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله.

وما كان بهذه المثابة، فلا جرمَ يقولُ فيه النبيُّ ﷺ: «**قال الله ـ عـز وجـل ـ: من تركَ الخمر وهو يقدر عليه لأسقينه منه في حظيرة القدس، ومن ترك الحرير وهـو يقدر عليه لأكسونه إياه في حظيرة القدس**»[2].

فالخمرُ فيه إدمانٌ، ويضيِّع إرادة العبـد، ويحرمه من كلِّ خير، ويسقطه من أعين النَّاس، ولا يعيش إلَّا مع أراذلهم، ويكسب بما جنت يداه مساخطَ الله، فيضرَّ بدينه ودنياه، إذ الخمر شرابٌ يُتْلِفُ الجهاز العصبيَّ ويتسبَّبُ في إحداث معظم أمراضه، وهو السبب وراء (٩٠) بالمئة من السرطانات التي تصيب المريء، وكذلك المعدة، ويذهب بالمناعة، ويُضعف قُدْرَة الرجل على إتيان أهله، ويتسبب في عددٍ من الأمراض الجلديَّة.

وفي بعض السنوات بلغت نسبة حوادث القتل تحت تأثير الخمور ما نسبته (٨٦) بالمئة من مجمل حوادث القتل، ونصف حوادث الاغتصاب بسبب الخمور ـ أيضًا ـ[3].

فما الجاذبيَّة التي يجدُهَا فيه شاربوه؟! وما الذي يقدِّمه لهم سوى أن يكون شُربُهم للخمر فصلًا من فصول ذُلِّهم وعبوديتهم للشيطان، متظاهرين بسعادتهم

---

(١) «المحتضرين» (ص١٦٤ ـ ١٦٥).

(٢) «صحيح الترغيب» (٢٣٧٥)، وخرَّجته في تعليقي على كتاب «تمهيد الفرش» للسيوطي.

(٣) انظر: «حكمة من الأحكام» (ص١٣٠ وما بعدها) لمحمَّد علي بحري.

بقضاء أوطارٍ رخيصة، والاستمتاع بشهوةٍ زائفةٍ لا معنى لها.

«يا هذا! اعرِفْ قَدْرَ لُطْفِنَا بك، وحفْظِنَا لك، إنَّمَا نَهَيْنَاكَ عن المعاصي صيانةً لك، وغَيْرَةً عليك، لا لحاجتنا إلى امتناعك، ولا بُخْلًا بها عليك.

لَـمَّا عَرَفْتَنَا بالعَقْلِ حرَّمْنَا عليكَ الخَمْرَ لأنَّها تَسْتُرُه، شيءٌ به عَرَفْتَنَا؛ يَحْسُنُ بكَ أنْ تُزِيلَهُ أو تُغَطِّيه؟!

لا كانَ كلُّ ما يقطع المعرفة بيننا وبينك، لا كان كلُّ ما يحجب بيننا وبينك.

يا شارب الخمر! لا تغفل، يكفيك سُكْرُ جهلِك، لا تجمع بين خطيئتين.

يا من باشر بعض القاذورات! اغتسل منها بالإنابة، وقد زالَ الدَّرَنُ، طهِّرُوا دَرَنَ القُلُوبِ بدَمْعِ العيون، فما ينْفَعُهَا غيرُهَا.

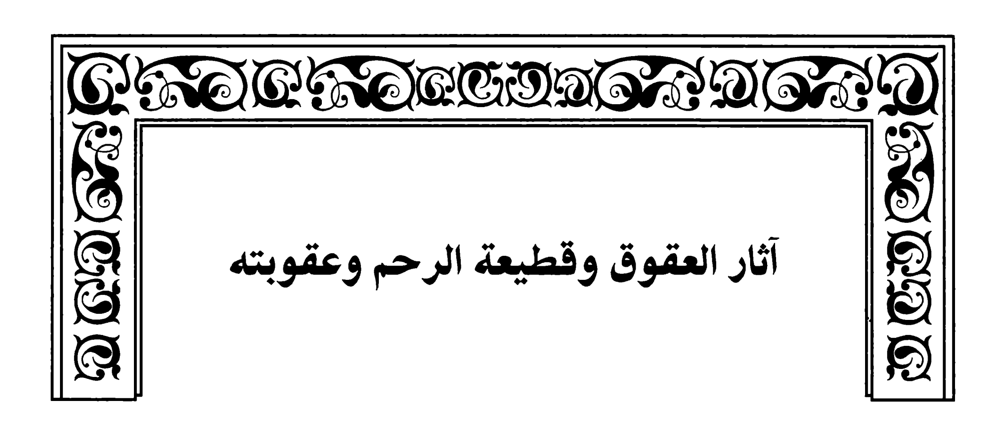
يا من قد دَرِنَ قلبُه بوَسَخِ الذُّنُوبِ! لو اغتَسَلْتَ بماءِ الإنابةِ لَطَهُرْتَ، لو شَرِبْتَ من شرابِ التَّوبَةِ لوَجَدْتَهُ شرابًا طهورًا.

يا أوساخ الذنوب! يا أدران العيون! ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾[ص: ٤٢]»[١].

ولا بدَّ أخيرًا من الإشارة إلى إخبار النبيِّ ﷺ بقوله في الحديث السابق: «**يستحلُّون... والخمر والمعازف**»، فمتى سمعتَ أحدًا يحلِّل الخمرَ أو المعازف وآلات الطرب فلا تصدِّقه، وقل: أخبرنا النبيُّ ﷺ لنحذَرَك ونحذِّرَ منك، فإيَّاك وصنيعَ شياطين الإنس والجنِّ.

* * *

(١) «مجموع رسائل ابن رجب» (١/ ٢٨٤).



آثار العقوق وقطيعة الرحم وعقوبته

قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنبٍ أَجْدَرُ أنْ يعجِّلَ الله لصاحبه العقوبةَ في الدُّنيا، مع ما يُدَّخَرُ له في الآخرة؛ من البَغْيِ وقطيعةِ الرحم»(١).

البَغيُ: مُجاوزةُ الحدِّ المأذون فيه من أيِّ شيءٍ كان.

وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٢٢ ـ ٢٣].

فها هو ربُّنا ـ تبارك وتعالى ـ يحذِّر الباغي على الخلق، المتطاول عليهم بغير حقٍّ، المعتدي على حقوقهم ظلمًا، بأنَّ بغيه لا يكون إلَّا على نفسه.

وأمَّا تعجيلُ العقوبة لقاطع الرَّحم؛ فقال المُناوي: «لأنَّ فاعلَ ذلك لـمَّا افترى باقتحامِ ما تطابقت على النَّهي عنه الكتب السماوية، والإشارات الحكميَّة،

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١١) وسنده صحيح.

وقطعَ الوَصْلَ التي بها نظامُ العالَمِ وصلاحُه؛ أَسْرَعَ إليهِ الوَبَالُ في الـدُّنيا، مـع مـا ادُّخِرَ له من العقابِ في العُقْبَى»[1].

والحديثُ دليلٌ ـ أيضًا ـ على أنَّ ما يُعجَّلُ للقاطِعِ والباغي مـن العقوبـةِ في الدُّنيا لا يُعدُّ كفارةً عن عقوبـة الآخرة، وهذا محلُّه إذا لم يتب من بغيه وقطيعتـه، والله المستعان.

عن محمَّد بن عُيَيْنَةَ الفَزَارِي قال: سمعتُ أبا إسحاق الفزاريَّ يقول لعبدالله ابن المبارك: «يا أبا عبدالرحمن! كان رجلٌ من أصحابِنَا جمعَ من العلمِ أكثر مِمَّا جَمَعْتُ وجَمَعْتَ، فاحتَضَرَ، فَشَهِدْتُـه، فقـال له: قُلْ: لا إله إلا الله. فيقول: لا أستطيع أن أقولها! ثمَّ تكلَّم، فيتكلَّم، قال ذلك مرتين، فلم يزل على ذلك حتى مات.

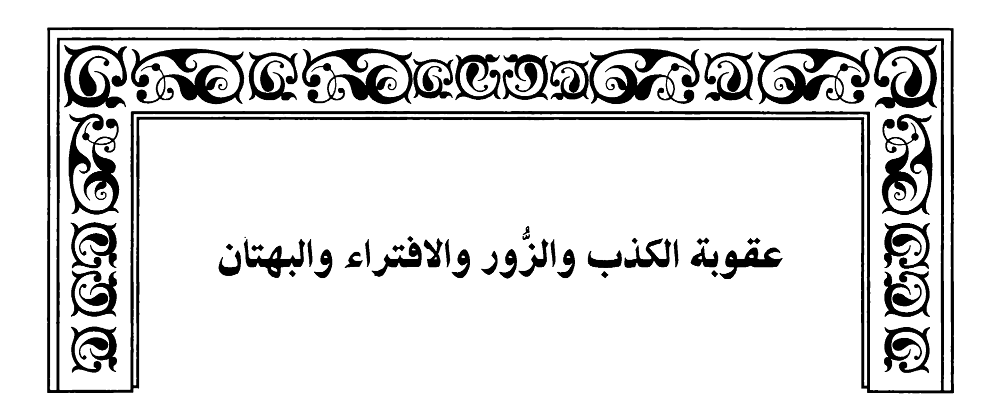
قال: فسألتُ عنه، فقيل: كان عاقًّا بوالديه، فظننتُ أنَّ الَّـذِي حُـرِمَ كَلِمَـةَ الإخلاصِ لعُقُوقِهِ بوالِدَيْهِ»[2].

والقاطعُ للرَّحِمِ ملعونٌ، والوالدان أخصُّ الرَّحِمِ، فقد قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[الرعد: ٢٥].

* * *

(١) «فيض القدير» (١/ ٦٤٥).

(٢) «المحتضرين» (ص١٧٦) لابن أبي الدُّنيا.



عقوبة الكذب والزُّور والافتراء والبهتان

كلُّ واحدةٍ من المذكوراتِ لها تعريفها وحدُّها في اللغة وفي اصطلاح أهل العلم، لا سيما منها ما يترتَّبُ عليه حَدٌّ من الحدود الواجبة المقدَّرة شرعًا كالفِرْيَةِ، وهي من أسماء القذف؛ فقد قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٤ ـ ٥].

فهذا النَّوع الخاصُّ من الفِرْيَةِ كما ترى، يوجِبُ أن يُجْلَدَ فاعله ثمانين جلدةً، وردَّ شهادتِه، والحُكمَ عليه بالفسق، وقد اختلف أهلُ العلمِ في مرجع الاستثناء في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾ هل بعد توبتهم يرتفعُ عنهم وصفُ الفسق فقط وتبقى شهادتهم مردودة؟ أم أنَّ الاستثناءَ راجعٌ إلى كليهما؟ وهذا له تفاصيلُ دقيقةٌ وفروعٌ لا تُحصى مبسوطةٌ في كتب الفقه.

والمقصودُ هنا التحذيرُ من مُطلقِ الكذب؛ لأنَّ المذكورات جميعًا يجمعها الإتيانُ بما يخالفُ الحقيقة، وما لا يجوز قولُه باللِّسان.

عن عبد الله بن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ قال: «**عليكم بالصدق؛ فإنَّ الصدق يهدي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرَّى الصدق حتى يُكتب عند الله صِدِّيقًا، وإيَّاكم والكذب؛ فإنَّ**

الكذب يهدي إلى الفجور، وإنَّ الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكـذب ويتحرَّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذَّابًا»[1].

وللكذبِ شُؤمٌ خاصٌّ على الرزقِ؛ فإنَّه يمحَقُ بركةَ المالِ الـمُكتَسَبِ من البيع والتجارة، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**البَيِّعَانِ بالخيارِ ما لم يتَفَرَّقَا** ـ أو قال: حتى يتَفَرَّقَا ـ، **فإنْ صَدَقَا وبَيَّنَا، بُورِكَ لهما في بيعِهما، وإنْ كتَمَا وكذَبَا، مُحِقَت بركةُ بيعِهما**»[2].

وقد أُري النبيُّ ﷺ في منامه كيف يكون عذابُ الكذَّاب في قبره ـ نسأل الله العافية والسَّلامة ـ.

عن سَمُرَةَ بنِ جُنْدُبٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ مِمَّا يُكْثِرُ أن يقولَ لأصحابِه: «**هلْ رأى أحدٌ منكُم من رؤيا؟**». قال: فيقُصُّ عليه من شاء الله أن يقُصَّ، وإنَّه قالَ ذاتَ غَدَاةٍ «**إنَّه أتاني الليلةَ آتِيَانِ، وإنَّهما ابْتَعَثَانِي، وإنَّهُما قالا لي: انطَلِقْ! وإنِّي انطَلَقْتُ معَهُما...**».

فذكرَ مرورَه على أصنافٍ من أهل المعاصي الـمُعَذَّبين في قبورهم، حتى قال:

«**فأتَيْنَا على رجـلٍ مُسْتَلْقٍ لقَفَاه، وإذا آخرُ قائمٌ عليهِ بكَلُّوبٍ مـن حديـدٍ، وإذا هو يأتِي أحدَ شِقَّيْ وجهِهِ فيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إلى قَفَاه، ومِنْخَرَه إلى قَفَاه، وعيْنَه إلى قَفَاه**.. قال: **ثمَّ يتحوَّل إلى الجانبِ الآخر فيفعلُ به مثـلَ مـا فعـلَ بالجانـبِ الأوَّلِ، فما يَفْرُغُ من ذلكَ الجانبِ حتى يَصِحَّ ذلكَ الجانبُ كما كان، ثمَّ يعودُ عليهِ فيفعـلُ مثلَ ما فعلَ المرَّةَ الأولى**، قال: **قلت: سبحانَ الله! ما هذان؟**».

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٧) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٢٠٨٢) ومسلم (١٥٣٢).

حتى فسَّرا له ﷺ حقيقةَ ما رأى، ورؤيا الأنبياءِ وَحْيٌ كما تعلمُ؛ فقالا:

«**وأمَّا الرَّجُلُ الذي أتيتَ عليهِ يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إلى قَفَاه، ومِنْخَرُه إلى قَفَاه، وعَيْنُه إلى قَفَاهُ، فإنَّه الرَّجُلُ يَغْدُو من بيتِهِ، فيَكْذِبُ الكِذْبَةَ تَبْلُغُ الآفَاقَ**»[1].

فأيُّ عاقلٍ يشتهي هذا المآل؟! وكيف يكون الحالُ في الآخرةِ إذا كانت هذه حالُ الكذَّابِ في قبره، وهذا عذابُه إلى أن تقوم السَّاعة؟!

ولا نشكُّ أنَّ من أوضح ما يتناوله هذا الوصفُ النبويُّ عند ذكره الكِذْبَةَ التي تبلغ الآفاق؛ أنَّ أوَّل ما يدخلُ فيه الكذب على مواقع الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، التي ما إن يُكْذَبَ عليها الحرفُ هُنَا، حتى يقرأَه القارئُ من أقاصي الدُّنيا بعدَ ثوانٍ، ثمَّ تطير وتُتَدَاوَلُ من قُطْرٍ إلى قُطْرٍ حتى تعُمَّ أرجاءَ الأرضِ في بضع ساعات.

وممَّا وردَ من الوعيدِ على الكذب، ما رواه بَهْزُ بن حكيم عن أبيه عن جده ـ رضي الله عنه ـ، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**ويلٌ للَّذي يُحَدِّثُ بالحديثِ ليُضْحِكَ به القومَ فيَكْذِبُ، ويلٌ له، ويلٌ له**»[2].

وغيرُ ذلك كثيرٌ في شأن الكذَّابين والمفترين.

وأمَّا ما جاء من العقوبات المحسوسةِ الواقعةِ في الدُّنيا؛ فمن ذلك:

عن عروة بن الزبير: أنَّ أروى بنتَ أُوَيْسٍ ادَّعَتْ على سعيد بن زيد أنَّه أخذَ شيئًا من أرضِهَا، فخَاصَمَتْهُ إلى مروان بن الحكم، فقال سعيد: أنا كنتُ آخُذُ من أرضِهَا شيئًا بعدَ الذي سمعتُ من رسول الله ﷺ؟! قال: وما سمعتَ من

---

(١) رواه البخاري (٧٠٤٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٥) وأبو داود (٤٩٩٢)، **وسنده حسن.**

رسول الله ﷺ؟ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**مَنْ أخذَ شِبْرًا من الأرضِ ظُلْمًا؛ طُوِّقَه إلى سَبْعِ أَرَضِين**». فقال له مروان: لا أسألك بَيِّنَةً بعدَ هذا. فقال: اللهمَّ! إنْ كانت كاذبةً فَعَمِّ بَصَرَهَا، واقْتُلْهَا في أرضِهَا.

قال: فما ماتت حتى ذهبَ بصرُها، ثمَّ بَيْنَا هي تمشي في أرضِهَا، إذْ وقعت في حفرةٍ فماتت[1].

وفي لفظٍ عند مسلمٍ في «صحيحه» عن عمر بن محمد عن أبيه قال: «فرأيتُها عمياءَ تلتَمِسُ الجُدُرَ، تقول: أصابتني دعوةُ سعيد بن زيد. فبينما هي تمشي في الدَّارِ مرَّت على بئرٍ في الدَّارِ فوقعت فيها، فكانت قَبْرَهَا».

ومن ذلك:

عبد الملك بن عُمَيْرٍ، عن جابر بن سَمُرَةَ قال: شكا أهلُ الكوفةِ سَعْدًا إلى عُمَرَ ـ رضي الله عنه ـ، فعَزَلَه واستعمل عليهم عَمَّارًا، فشَكَوْا حتى ذكروا أنَّه لا يُحْسِنُ يُصَلِّي، فأرسل إليه فقال: يا أبا إسحق! إنَّ هؤلاءِ يزعمون أنك لا تُحسن تصلِّي!

قال أبو إسحاق: أمَّا أنا والله! فإنِّي كنتُ أصلِّي بِهِم صلاةَ رسولِ الله ﷺ، ما أَخْرِمُ عنها، أصلِّي صلاةَ العِشَاءِ، فأَرْكُدُ في الأُولَيَيْنِ وأُخِفُّ في الأُخْرَيَيْنِ.

قال: ذاكَ الظَّنُّ بك يا أبا إسحاق. فأرسلَ معَه رجُلًا أو رجالًا إلى الكوفةِ، فسأَلَ عنه أهلَ الكوفةِ، ولم يَدَعْ مسجدًا إلا سألَ عنه، ويُثْنُونَ معروفًا، حتى دخلَ مسجدًا لبني عبسٍ، فقامَ رجلٌ منهم يقال له: أسامة بن قتادة، يكنى أبا سعدة، قال:

---

(١) رواه مسلم (١٦١٠).

أَمَّا إِذْ نَشَدْتَنَا؛ فإنَّ سَعْدًا كانَ لا يسيرُ بالسَّرِيَّة، ولا يَقْسِمُ بالسَّوِيَّة، ولا يَعْدِلُ في القَضِيَّة.

قال سعد: أَمَا والله! لأَدْعُوَنَّ بثلاثٍ: اللهمَّ! إنْ كانَ عبدُك هذا كاذبًا، قامَ رياءً وسُمْعَةً، فأَطِلْ عُمُرَه، وأَطِلْ فَقْرَه، وعرِّضْهُ بالفِتَنِ.

وكانَ بعدُ إذا سُئِلَ يقول: شيخٌ كبيرٌ مفتونٌ أصابَتْني دعوةُ سَعْدٍ.

قال عبدالملك: فأنا رأيتُه بعدُ قد سقطَ حاجِبَاهُ على عيْنَيْهِ من الكِبَرِ، وإنَّه لَيَتَعَرَّضُ للجَوَارِي في الطُّرُقِ يَغْمِزُهُنَّ[1].

ومن ذلك ـ أيضًا ـ:

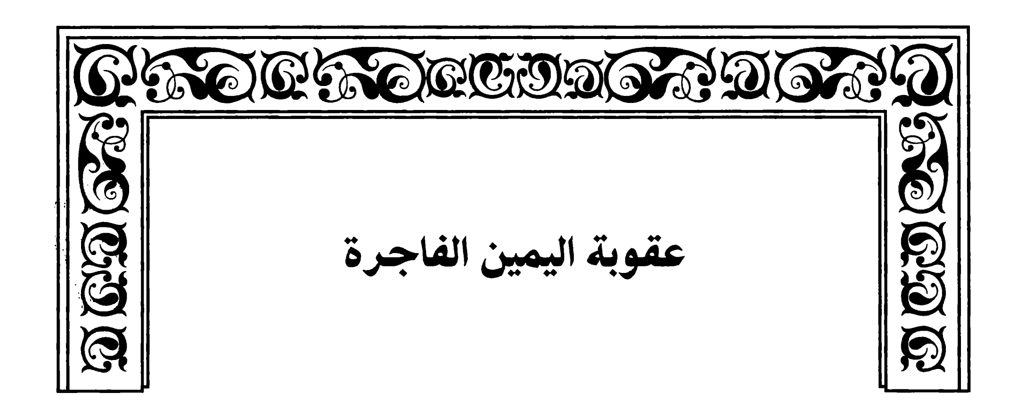
عن سليمان بن حرب قال: «كان مُطَرِّفٌ[2] مُجَابَ الدَّعْوَةِ، أرسلَه رجلٌ يخطُبُ له، فذَكَره للقومِ فأَبَوْهُ، فذكرَ نفسَه فزَوَّجُوه، فقال له الرجل ـ في ذلك ـ: بعثْتُكَ تخطُبُ لي؛ خَطَبْتَ لنفْسِكَ؟! قال: قد بدأتُ بك. قال: كذبتَ! قال: اللهمَّ! إنْ كانَ كَذَبَ عَلَيَّ فَأَرِنِي به. قال: فماتَ مكانَه. فاسْتَعْدَوْا عليهِ، فقال لهم الأمير: ادْعُوا أنتم ـ أيضًا ـ عليهِ كما كانَ دعا عليكُم»[3].

* * *

(١) رواه البخاري (٧٥٥).

(٢) هو الإمام مطرِّف بن عبدالله بن الشِّخِّير.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٩٥)، و«تاريخ دمشق» (٥٨/ ٣٢٤)، و«كرامات الأولياء» (ص٢٠٩).



عقوبة اليمين الفاجرة

اليمين الفاجرة هي: الكاذبة التي يحلفها صاحبها بغيًا وظلمًا وهو يعلم أنَّه فيها كاذب؛ ليفوز بها بما ليس له، ويقتطع بها حقوق إخوانه زورًا وبُهتانًا، ولا شكَّ أنَّها أعظمُ جُرمًا وإثمًا من مجرَّد الكذب.

قال رسول الله ﷺ: **«ليس شيءٌ أُطِيعَ اللهُ فيهِ أعجلُ ثوابًا من صِلَةِ الرَّحِمِ، وليس شيءٌ أعجَلُ عقابًا من البَغْيِ وقطيعةِ الرَّحِمِ، واليمينُ الفاجرةُ تَدَعُ الدِّيَارَ بَلاقِعَ»**(1).

وقد تعرَّضنا لعاقبة البغي وقطيعة الرحم، ومحلُّ الشاهد من هذا الحديث أنَّ اليمين الفاجرة تخرِّب الدِّيار حتى تدعها بلاقع، نسأل الله العافية.

فهذه عقوبةٌ إلهيَّة تنزلُ بالأفراد الذين يستخفُّون باسم الله عندما يحلفون به، فيحلفون به كذبًا، فما بالك بالجماعات الذين لا يقيمون وزنًا لسائر أوامر الله وشرعه، نسأل الله السلامة والعافية.

قال في «النِّهاية»(2): «البَلاَقِعُ: جمع بَلْقَع وبَلْقَعَة، وهي الأرض القَفْر التي

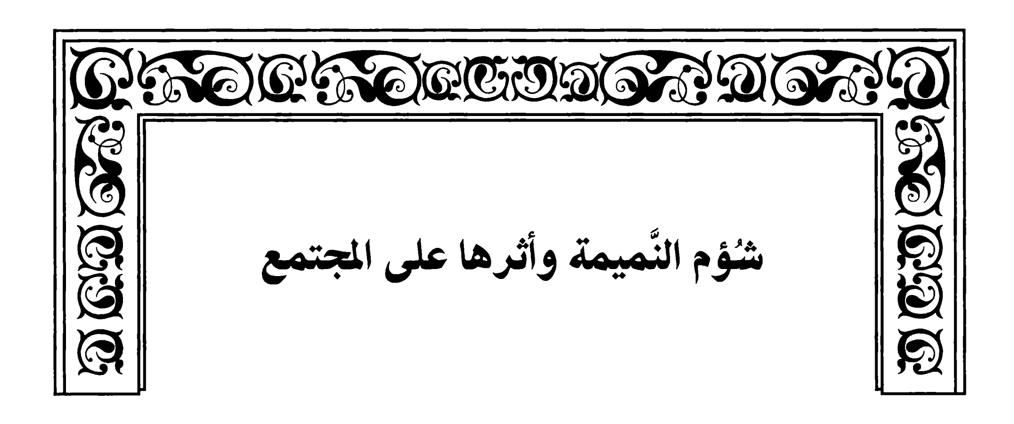
---

(1) رواه البيهقي في «الكبرى» (١٠/ ٣٥) برقم (١٩٦٥٥)، وصححه شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٩٧٨).

(2) (١/ ١٥٣).

لا شيء بها، يريد: أنَّ الحالف بها يَفْتَقِر ويذهب ما في بيتْه من الرزق. وقيل: هو أن يُفرِّق اللهّ شَمْلَه ويُغَيِّر عليه ما أَوْلَاهُ من نِعَمِه».

* * *



شُؤم النَّميمة وأثرها على المجتمع

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾[القلم: ١٠ ـ ١١].

قال القرطبيُّ: «مشَّاءٍ بنميم، أي: يمشي بالنَّميمةِ بين النَّاسِ ليفسدَ بينهم، يُقال: نَمَّ، يَنُمُّ، نَمًّا ونَمِيمًا ونَمِيمَةً؛ أي: يمشي ويسعى بالفساد»[1].

عن عطاء بن السائب؛ قال: «قدمتُ من مكة فلَقِيَنِي الشعبيُّ، فقال: يا أبا زيد! أَطْرِفْنَا ممَّا سمعتَ بمكة؟ فقلت: سمعت عبدالرحمن بن سابط يقول: لا يسكنُ مكَّةَ سافكُ دمٍ، ولا آكلُ رِبًا، ولا مشَّاءٌ بنميمة. فعَجِبْتُ منهُ حينَ عَدَلَ النَّميمةَ بسفكِ الدَّمِ وأكلِ الرِّبَا.

فقال الشعبيُّ: وما يعجبك من هذا[2]؟! **وهل يُسْفَكُ الدَّمُ وتُرْكَبُ العَظَائِمُ إلَّا بالنَّمِيمَة؟**»[3].

وصدق ـ رحمه الله ـ، فكم من دمٍ سُفِكَ، وكم من بيتٍ هُدِم، وكم من

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٨/ ٢٣٢).

(٢) يعني: ما العجبُ فيه؟!

(٣) رواه وكيع في «الزهد» (٣/ ٧٦٣ ـ ٧٦٤)، ومن طريقه الدِّينوري في «المجالسة» (٦٧٣ ـ بتحقيقي)، وانظر تعليقي عليه فيه.

عرضٍ انتُهك، فكانت النَّميمة هي شرارةُ كلِّ هذه العظائم.

وهذا مع ما توعَّد الله به النَّمام من سوء الجزاء العاجل في قبره، مع ما هو مدَّخرٌ له في الآخرة.

ففي «الصحيحين»[1] من حديث ابن عبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال:

خرج النبي ﷺ من بعضِ حيطانِ المدينةِ فسمعَ صوتَ إنسانَيْنِ يعذَّبَان في قبورِهما، فقال: «**يعذَّبان، وما يعذَّبان في كبيرٍ، وإنَّه لكبيرٌ؛ كانَ أحدُهُما لا يستترُ من البولِ، وكان الآخر يمشي بالنَّميمةِ**». ثم دعَا بجريدةٍ فكَسَرها بكِسْرَتَين ـ أو ثنتين ـ فجعلَ كِسْرَةً في قبرِ هذا وكِسْرَةً في قبرِ هذا، فقال: «**لعلَّه يخفَّفُ عنهما ما لم يَيْبَسَا**».

وقال رسول الله ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الْـجَنَّةَ نَمَّامٌ**»[2].

فهذه ـ أيضًا ـ من المعاصي الخاصَّة التي وردت النُّصوص بأنَّ لها آثارًا مشؤومةً عاجلةً على النَّاس.

ويُجْزَى النَّمَّامُ والـمُغتابُ من جنسِ عمله، جزاءً وِفاقًا؛ فعن أبي بَرْزَةَ الأسلميِّ ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «**يا مَعْشَرَ من آمنَ بلِسَانِه ولم يدخُل الإيمانُ قلبَه! لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنَّه من اتَّبعَ عوراتِهم يتبَعِ الله عورَتَه، ومن يتبعِ اللهُ عورَتَه يفْضَحْه في بيته**»[3].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «إذا صارت المعاصي اللسانية معتادة للعبدِ؛

---

(١) البخاري (٦٠٥٥) ومسلم (٢٩٢)، وبوَّب عليه البخاري: (بابٌ: النَّميمةُ من الكبائر).

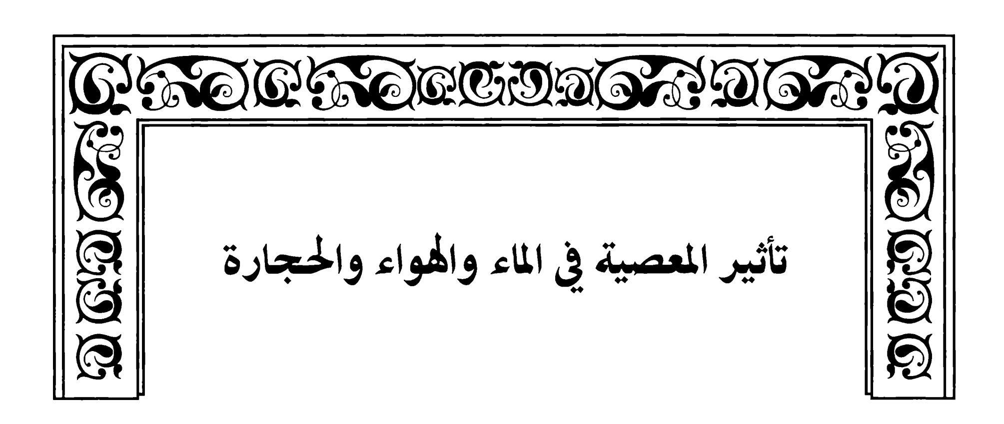
(٢) رواه مسلم (١٠٥).

(٣) رواه أبو داود (٤٨٨٢)، **وسنده صحيح**.

فإنَّه يَعِزُّ عليه الصَّبْرُ عنها، ولهذا تجد الرجل يقوم الليل ويصوم النهار، ويتورع من استناده إلى وسادة حريرٍ لحظةً واحدةً، ويطلقُ لسانَه في الغيبة والنميمةِ والتَّفَكُّهِ في أعراض الخلقِ، والقول على الله ما لا يعلم»[1].

* * *

(١) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» (ص١٢٦ ـ ١٢٧).



تأثير المعصية في الماء والهواء والحجارة

عن عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**نزلَ الحَجَرُ الأسودُ من الجَنَّة وهو أشدُّ بياضًا من اللَّبَن، فسوَّدَتْهُ خطايا بني آدم**»[1].

فهل يستنكرُ عاقلٌ أو يستغربُ تسويدَ الخطايا لحياته؟ وتعكيرها لصَفْوِ علاقاته؟ وإفسادها لمحبوباته؟

تأمَّل! معي بعين قلبك، وصفاء نفسك، ما قاله الطِّيبي في شرحه لهذا الحديث، وعبارته: «لعل هذا الحديث جارٍ مجرى التمثيل والمبالغة في تعظيم شأن الحجر وتفظيع أمر الخطايا والذنوب، والمعنى: أن الحجر لما فيه من الشرف والكرامة وما فيه من اليمن والبركة شارك جواهر الجنة فكأنه نزل منها، وأن خطايا بني آدم تكاد تؤثر في الجماد فيجعل المبيض منها مسودًا، فكيف بقلوبهم؟! أو لأنَّه من حيث أنه مكفِّرٌ للخطايا، مَحَّاءٌ للذُّنوب؛ لِما رُوي عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنّه كان يزاحم على الرُّكنَيْن، وقال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**إنَّ مسحَهما كفَّارةٌ للخطايا**»[2]، كأنَّه من الجنَّة، ومن كثرة تحمُّله أوزارَ بني آدمَ صار كأنَّه كان

---

(١) رواه الترمذي (٨٧٧) وسنده صحيح.

(٢) صححه شيخنا الألباني في تخريجه لأحاديث «المشكاة» (٢٥٨٠).

ذا بياضٍ شديدٍ، فسوَّدَتْهُ الخطايا، هـذا، وإنَّ احـتمالَ إرادةِ الظَّـاهرِ غـيرُ مـدفوعٍ عقلًا، ولا سمعًا، والله أعلم بالحقائق»[1].

ذكر الذهبيُّ ـ رحمه الله ـ في «السِّيَر»[2] عن محمَّد بن سيرين قولَه:

«قلتُ مرةً لرجلٍ: يا مفلس! فعوقبتُ».

ثمَّ نقلَ قولَ أبي سليمان الدَّاراني ـ وقد بلغه هذا القول عن ابن سيرين ـ:

«قَلَّت ذُنوبُ القومِ، فعَرَفوا من أين أُتُوا، وكَثُرَتْ ذُنُوبُنَا فلم نَدْرِ من أينَ نُؤْتَى».

وصدَق ـ رحمه الله ـ، فكيف يميِّز الخير من الشرِّ، أو يدرك سبب النَّحس، من لا يكاد يسألُ نفسه أفي حلالٍ هو أم في حرام؟ ومن لا يكاد يتحاشى شيئًا من الشرِّ أو يتَّقيه؟ ولا حول ولا قوَّة إلا بالله.

وبوَّب البخاريُّ ـ رحمه الله ـ في «صحيحه»: (باب نزولُ النَّبيِّ ﷺ الحِجْرَ).

والحِجْرُ: هي مدائن صالح ـ عليه السلام ـ، وديار ثمود، نسأل الله العافية ممَّا حلَّ بهم، وهي ـ كما هو معلومٌ ـ على الطَّريق بين المدينة وتبوك، وقد نزل بها ﷺ في طريقه إلى غزوة تبوك سنة تسعٍ من الهجرة.

وأسندَ البخاريُّ فيه عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: لـمَّا مَرَّ النبيُّ ﷺ بالحِجْرِ قال: «**لا تدخلوا مساكنَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم أنْ يصيبَكم ما أصابَهُم؛ إلَّا أنْ تكونوا بَاكين**»، ثمَّ قَنَّعَ رأسَه وأَسْرَعَ السَّيْرَ حتَّى أَجَازَ الوَادِي[3].

---

(١) «شرح الطِّيبي على المشكاة» (٥/ ٢٧٣ ـ ط الباكستانيَّة).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٦١٦).

(٣) البخاري (٤٤١٩).

وأسند عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ لفظًا آخر، قال: قال رسول الله ﷺ لأصحاب الحِجْرِ: «**لا تدخلوا على هؤلاء الـمُعَذَّبِينَ إلَّا أنْ تكونوا بَاكِينَ؛ أنْ يصيبَكُم مثلُ ما أصابَهم**».

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «هذا الحديثُ نَصٌّ في المنعِ من الدُّخولِ على مواضِعِ العَذَابِ، إلا على أكملِ حالاتِ الخشوعِ والاعتبارِ، وهو البكاءُ من خشيةِ الله وخوفِ عقابِه الذي نزل بمن كان في تلك البقعة، وأنَّ الدخولَ على غيرِ هذا الوجهِ يُخشى منه إصابةُ العذابِ الذي أصابَهم.

وفي هذا تحذيرٌ من الغفلةِ عن تدبُّر الآياتِ، فمَنْ رأى ما حَلَّ بالعُصَاةِ ولم يتنبَّه بذلك من غفلَتِه، ولم يتفكَّرْ في حالِهم ويعتَبِرْ بهم؛ فلْيحْذَرْ من حلولِ العقوبةِ به، فإنَّها إنَّما حَلَّتْ بالعُصاةِ لغفلتِهم عن التدبُّر وإهمالِهم اليَقَظَةَ والتَّذَكُّرِ.

وهذا يدلُّ على أنَّه لا يجوزُ السُّكْنَى بمثلِ هذهِ الأرضِ، ولا الإقامةُ بها، وقد صرَّحَ بذلكَ طائفةٌ من العلماءِ؛ منهم: الخَطَّابِيُّ وغيرُه، ونَصَّ عليهِ أحمد.

قال مُهَنَّا: سألتُ أحمدَ عمَّنْ نَزَلَ الحِجْرَ؛ أيشربُ من مائِها ويعجنُ به؟ قال: لا، إلا لضرورةٍ، ولا يقيمُ بها»[(١)].

وروى مسلمٌ عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: «أَنَّ النَّاسَ نَزَلُوا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ عَلَى الحِجْرِ أَرْضِ ثَمُودَ، فَاسْتَقَوْا مِنْ آبَارِهَا، وَعَجَنُوا بِهِ العَجِينَ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يُهَرِيقُوا مَا اسْتَقَوْا، وَيَعْلِفُوا الإِبِلَ العَجِينَ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَقُوا مِنَ البِئْرِ الَّتِي كَانَتْ تَرِدُهَا النَّاقَةُ»[(٢)].

---

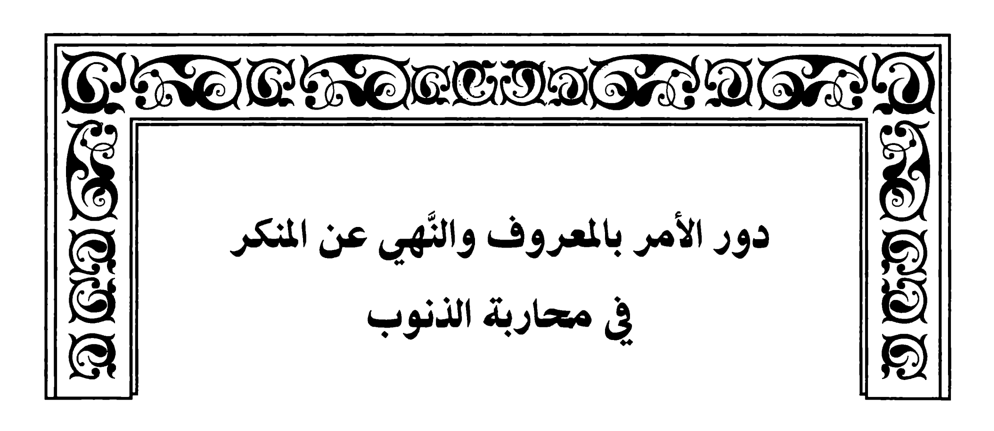
(١) «فتح الباري» (٢/ ٤٣٤) لابن رجب.

(٢) رواه مسلم (٢٩٨١).

وما ذلك إلَّا لتأثير المعصية في الماء والهواء والمكان، فإنَّ لها شؤمًا في كلِّ ما حولها.

هذا ما أردتُ أن أوردَه مكتفيًا به، وأنَّى لنا أن نستقصيَ ـ على وجهِ التَّمامِ نقائصَ الإنسانَ وتفريطَه في جنبِ الله، والنَّقْصُ لهذا الإنسانِ صفةُ ذاتٍ لازمةٌ لا تنفكُّ عنه، ولا مفرِّجَ إلَّا الله، لا ملجأ ولا منجى منه إلَّا إليه ـ سبحانه ـ.

* * *



دور الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر في محاربة الذنوب

من أكثر أسباب ظهـور الذنوب على مستوى جماعـة النَّـاس: تـرك الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولنأخذ بعض الأمثلة: التبرُّج والزنا والرِّبا ذنوب جماعيَّةٌ، والمتلبِّسون بهـذه المعاصي لهم ما ينقذهم منها بحكم ما أودعه الله في الطِّباع التي ركزها في النُّفوس؛ من الغيرة على من تبرَّج مـن محارمه ومن هنَّ تحت ولايته، وكذا الرحمة والشـفقة على من انغمس بالرِّبا إن كان محتاجًا، فهؤلاء جميعًا مذنبون بإقرارهم وبسـكوتهم، وعدم إيجادهم التدابـير العمليَّة الجادَّة التي تحـول بـين هـؤلاء وذنـوبهم، بتلبيـة حاجاتهم التي من أجلها اقترفوا الخطايا والذنوب، فهم عند الله في شرعه وكونه مثلهم في الوِزْر، والعقوبة المترتِّبة عليه، فإنَّها تعمُّهم جميعًا.

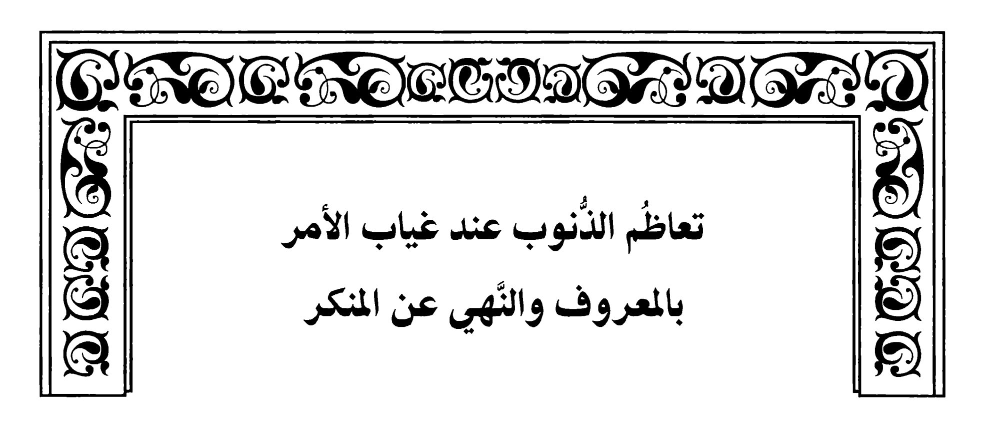
المرابي ـ مثلًا ـ قبل أن يرابي يعرف حالَه وعوزَه عددٌ من أصحابه وأحبابه المقرَّبين إليه من الأغنياء أو مَن بإمكانهم مساعدته بإعطائه قرضًا حسنًا[1]، ولن

(١) سبقت آياتِ الرِّبا والتغليظ في تحريمه، وفي آخر سورة البقرة آياتُ الصَّدقة والحثِّ عليها، وبيان فضلها، ولحقت آيات القرض وبيان أحكامه ووجوب كتابته، فلمَّا تفلَّت النَّاس من الالتزام بكتابة القرض، وأصابهم الخجل لاعتباراتٍ وهميَّة من مطالبة من يطلبه بالرَّهن أو الكتابة؛ انعدم القرض أو كاد، ففتح باب الرِّبا على مصراعيه.

تتأثَّر تجاراتهم بشيء، ولن يمسَّ رغدهـم وبحبوحـة عيشهم جراء هذا القرض شيء، فالذي لا يقرض المرابي وهو مستطيعٌ، ويُلجئه إلى الربا يكون شريكًا له في الوزر؛ لأنَّ من يعرف حاله مـن خواصِّه ومعارفـه يجب عليـه أن يأخذ على يده، بنهيه عن المنكر، وأن يبذل له ما يستطيع من مساعدة، وباعثه الغيرة على حرمات الله، والشفقة على عباد الله؛ لأنَّ الـمُعاوَنَة على البرِّ والتقوى واجبةٌ على جماعة المسلمين وجوبًا عامًّا، كما يدلُّ عليه كتابُ الله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة: ٢].

فما أحوجنا إلى اتخاذ تدابير تحول دون إقبال النَّاس على الرِّبا، والواجب على المصـارف الإسلاميَّة أن تحسِّن أداءها، وأن يلمس النَّاس منها بلغة الأرقام ـ كما يقولون ـ أنَّها أرحم بهم من البنوك الرِّبوية، وأن لا يكون همُّها فقط الرِّبح المادِّي، وما أحوجنا ـ أيضًا ـ إلى صندوق وقف للنقد، يؤخذ من الأغنياء ثم في المآل يرد إليهم؛ مثل القرض الحسن، وأنا أعرض على المسؤولين هذا الأمر، حتى نخفف من الجريمة، فكما أنَّ هناك جرائمُ تكون العقوبة فيها جماعيةً؛ فإنَّها تحتاج منَّا إلى تدابير وقائية جماعية، ليحفظنا ربنا، وليُبعِدَ مقته عنا، وكما قالوا: يُحْدِثُ النَّاس، والواجب على من بِيَدِهِم القدرة أن يُحْدِثُوا لهم ما يمنعهم من الوقوع في المعصية.

* * *



تعاظُم الذُّنوب عند غياب الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر

يقول النبيُّ ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ البَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ، رؤوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ المَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَتُوجَدُ مِنْ كَذَا وَكَذَا»(١).

هل من صلةٍ بين الصِّنفين؟

بلا شكٍّ هناك صلة عظيمة وليست صلةً فقط، وحياة الأمم محكومةٌ بقواعد هي سُنن الله فيها، والكتاب والسنة بيَّنا لنا ما نحتاجه منها وننجوا به بيانًا شافيًا، ومنها هذا الحديث، فإنَّه قاعدةٌ في تحليل واقع الأمَّة.

من الصِّلات بين الصِّنفين: أنَّ الأقوامُ الذين بأيديهم سياطٌ كأذناب البقر يمثِّلون الظُّلم الذي يمارسه الجبابرة والمتنفِّذون، والنساء الكاسيات العاريات يمثِّلن الفساد الخُلُقيَّ، فمتى ظهر الفساد الخُلُقيُّ؛ لا بدَّ أن يظهرَ ظلم السُّلطان وجبروتُه.

ومن الصِّلات بينهما: أنَّ الذي يعيش عبدًا لشهوته، والذي لا يقدر على

(١) «صحيح مسلم» (٢٨٥٧).

أن يقول للمتبرِّجة: اتَّقِ الله! لا يقدر على أن يقول للظالم: أنت ظالم!

فالحديث يذكر صنفين من الناس بينهما تلازم، ويبيِّن لنا ـ أيضًا ـ مدى تأثير غياب واجب الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر على تفشِّي الفساد، وتعمُّقه وصعوبة تقليله أو زواله؛ ذلك لأنَّ النَّفس مردت عليه، وأدمنت على وجهٍ يكون الفطام منه يحتاجُ إلى رحمة الله، وهذا في سنَّة الله ـ عز وجل ـ يؤدِّي إلى هلاك العباد، وخراب البلاد.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٦ ـ ١١٧].

هذا حضٌّ وتوجيهٌ نحوَ الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر، ﴿ فَلَوْلَا ﴾ أي: فهَلَّا، فهي للتَّحضيض والتحفيز والحثِّ والتنشيط، ﴿ كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ ﴾ أي: أولو فَضْلٍ، يقال: فلانٌ من بقيَّة القوم؛ أي: من خيارهم ﴿ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بالنهي عن الكفر والمعاصي ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ أي: ولكن قليلًا ممَّن أنجينا من القرون نَهَوْا عن الفساد، وسائرهم تاركون للنهي، والنجاة للنَّاهين وحدهم ﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أي: الكافرون والساكتون ﴿ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ ﴾ أي: شهواتهم؛ والمعنى: اتبعوا ما عرفوا فيه التنعم والترفه، من حب الرئاسة والثروة، وطلب أسباب العيش الهنيء، ورفَضُوا الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر، ونبذوه وراء ظهورهم ﴿ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ هذا هو وصفهم الذي يستحقونه؛ الإجرام.

وهكذا عَجَّبَ الله ـ عز وجل ـ ألَّا يوجد في القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينْهَوْن عمَّا كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض إلا القليل، هم الذين أنجاهم الله ـ عز وجل ـ عند حلول غضبه وفجأة نقمته.

ثمّ بيَّن الله ـ عز وجل ـ سنَّته في الإهلاك، فأخبر أنه لم يهلك قريةً إلا حالَ كون أهلها ظالمين لأنفسهم بالمعاصي وترك الأمر والنَّهي، ولم يأتِ قريةً مُصْلِحَةً بأسُه وعذابُه قط؛ فقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ولم يقل: صالحين، وإنَّما قال: مصلحون، فنزَّه نفسَه ـ تعالى ـ عن الظلم، وجعل من الظلم أن يهلك قرية وأهلها مصلحون، ومن تتبع ما حلَّ بالبلاد والقرى خلال العصور من عذابٍ، فإنَّه يجد العذاب مرافقًا للفسادِ وقرينًا له[1].

ومن المعلوم أنَّ إحكام البدايات سلامةٌ في النِّهايات، ولذا كان ظهور المنكر على وجه يكون فيه تمكينٌ له، ورفعٌ لرايته، ويُوجد سلطةً لأهله، يقلق السَّلف ويزعجُهُم.

عن يحيى بن يمان قال: «لَقِيَنِي سفيانُ الثوريُّ عند جبل بني فزارة، فقال: أتدري من أين جئتُ؟ قلت: لا. قال: جئتُ دارَ الصَّيادِلَةِ، نَهَيْتُهُم عن بيعِ الذَّاذِيِّ[2]، إنِّي لَأَرى الشيءَ يَجِبُ عَلَيَّ أنْ آمُرَ فيهِ وأَنْهَى عنه، فلا أفعلُ؛ فأَبُولُ دَمًا»[3].

---

(١) انظر: «الأساس في التفسير» (٥/ ٢٦٠٩).

(٢) الذَّاذِيُّ: نباتٌ له رائحةٌ مسكرة، قال في «تاج العروس» (٩/ ٤٠٨) مادة (ذوذ): «الذَّاذيُّ: نَبْتٌ، وقيل: شيءٌ له عُنْقُودٌ مُسْتَطِيلٌ، وحَبُّه على شَكْلِ حَبِّ الشعيرِ، يُوضَع منه مِقْدَارُ رطْلٍ في الفَرَقِ، فَتَعْبَقُ رَائِحَتُه، ويَجُود إِسْكَارُه».

(٣) «حلية الأولياء» (٧/ ١٤ ـ ١٥).

وما هذا إلا لإدراكه العظيم لمكانة هذه الشَّعيرة من الدِّين؛ أعني: الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وشدَّة حَنَقِهِ على المنكرات، فنسأل الله أن يغفر لنا، وإليه نشكوا تقصيرنا فيها في حقِّ أهلنا وأوطاننا.

وأريدك أخي في الله! أن تقرأ معي بعَين القلب هذه الكلمة التي تخلع القلوب خلعًا، لهذا الإمام من أئمَّة الهدى، وهو يستقرئُ آثار الذُّنوب المباشرة في تسليط الخلق بعضهم على بعض، وفي تجرئتها الظالمين على المظلومين، وفي حملها البُغاة على البغي على ضحاياهم، عندما يستمرئُ العاصي معصيته، وتستحكمُ غفلةُ الصالحين.

يقول الإمام ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «اقتضت حكمة الله العزيز الحكيم أن يأكل الظالم الباغي ويتمتع في خفارة ذنوب المظلوم المبغيِّ عليه، فذنوبه من أعظم أسباب الرحمة في حق ظالمه، كما أنَّ المسؤول إذا ردَّ السائل فهو في خفارةِ كذبه، ولو صدق السائل لما أفلح من ردَّه، وكذلك السارق وقاطع الطريق في خفارة منع أصحاب الأموال حقوق الله فيها، ولو أدَّوْا ما لله عليهم فيها لحفظها الله عليهم.

وهذا ـ أيضًا ـ باب عظيم من حكمة الله، يطَّلع الناظر فيه على أسرارٍ من أسرارِ التَّقديرِ، وتسليطِ العالَمِ بعضِهِم على بعض، وتمكين الجُناة والبُغاة، فسبحان! من له في كل شيء حكمةٌ بالغة، وآيةٌ باهرة، حتى إنَّ الحيوانات العادِيَةَ على النَّاس في أموالهم وأرزاقهم وأبدانهم تعيش في خفارة ما كسبت أيديهم، ولولا ذلك لم يُسَلَّط عليهم منها شيء.

ويحكى أنَّ بعض أصحاب الماشية كان يشوب اللَّبن ويبيعه على أنَّه خالص، فأرسل الله عليه سَيلًا فذهب بالغنم، فجعل يعْجَب! فأُتِيَ في منامه فقيل له: أتعجب

من أخذ السيل غنمَك؟! إنَّه تلك القطرات التي شُبْتَ بها اللَّبن، اجتمعت وصارت سَيلًا.

فقِسْ على هذه الحكايةِ ما تراه في نفسك وفي غيرك، تعلم حينئذ أنَّ الله قائمٌ بالقِسْط، وأنَّه قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كسبت، وأنَّه لا يظلم مثقال ذرَّة.

والأثر الإسرائيليُّ معروفٌ: أنَّ رجلًا كان يشوب الخمرَ ويبيعُه على أنَّه خالص، فجمع من ذلك كيسَ ذهبٍ وسافر به، فركب البحر ومعه قرد له، فلـمَّا نام؛ أخذ القرد الكيسَ، وصعد به إلى أعلى المركب، ثمَّ فتحه فجعل يلقيه دينارًا في الماءِ ودينارًا في المركب، كأنه يقول له ـ بلسان الحال ـ: ثمنُ الماءِ صار إلى الماء، ولم يظْلِمْك.

وتأمَّل! حكمةَ الله ـ عز وجلَّ ـ في حبس الغيث عن عباده، وابتلائهم بالقحط إذا منعوا الزكاةَ وحرموا المساكين، كيف جُوزوا على منع ما للمساكين قِبَلَهُم من القوت، بمنع الله مادَّةَ القوتِ والرِّزقِ وحبسِها عنهم، فقال لهم بلسان الحال: منعتم الحقَّ؛ فمُنِعْتُم الغيث، فهلَّا استنزلتموه ببذل ما لله قِبَلَكم؟!

وتأمَّل! حكمةَ الله ـ تعالى ـ في صرفه الهدى والإيمان عن قلوب الذين يصرفون الناس عنه، فصدَّهم عنه كما صدُّوا عبادَه، صدًّا بصَدٍّ، ومنعًا بمنعٍ.

وتأمَّل! حكمته ـ تعالى ـ في محق أموالِ الـمُرَابِين، وتسليطِ الـمُتْلِفَاتِ عليها، كما فعلوا بأموال النَّاس ومَحَقُوهَا عليهم وأتلفوها بالرِّبا، جُوزوا إتلافًا بإتلافٍ، فَقَلَّ أن ترى مُرَابِيًا إلَّا وآخِرَتُه إلى مَحْقٍ وقِلَّةٍ وحاجَة.

وتأمَّل! حكمتَه ـ تعالى ـ في تسليطِ العدوِّ على العبادِ إذا جارَ قويُّهم على ضعيفهم، ولم يؤخذ للمظلوم حقُّه من ظالمه، كيف يسلِّطُ عليهم من يفعل بهم

كفعلهم برعاياهم وضعفائهم سواءً، وهذه سُنَّة الله ـ تعالى ـ منذ قامت الدُّنيا، إلى أن تُطوى الأرض ويعيدَها كما بدأها.

وتأمَّل! حكمتَه ـ تعالى ـ في أن جعلَ مُلوكَ العبادِ وأمراءَهم وولاتَهم من جنس أعمالهم، بل كأنَّ أعمالَهم ظهرت في صُوَرِ وُلاتِهِم وملوكِهم، فإن استقاموا استقامت ملوكهم، وإن عَدَلوا عَدَلَتْ عليهم، وإن جاروا جارَتْ ملوكُهم ووُلاتُهم، وإنْ ظهر فيهم المكر والخديعة، فولاتهم كذلك، وإن منعوا حقوقَ الله لديهم وبخلوا بها، منعَت ملوكُهم وولاتُهم ما لهم عندهم من الحقِّ، وبخلوا بها عليهم، وإن أخذوا ممَّن يستضعفونه ما لا يستحقُّونه في معاملتهم، أخذت منهم الملوكُ ما لا يستحقُّونه، وضربت عليهم الـمُكُوسَ والوظائف، وكلُّ ما يستخرجونه من الضَّعيف، يستخرجه الملوك منهم بالقوَّة؛ فعُمَّالُهم ظهرت في صور أعمالهم، وليس في الحكمة الإلهية أنْ يولِّي على الأشرار الفُجَّارِ إلَّا من يكون من جنسهم.

ولَمَّا كان الصَّدر الأوَّل خيارَ القرونِ وأَبَرَّها، كانت ولاتُهم كذلك، فلمَّا شَابُوا؛ شَابَتْ لهم الوُلاة، فحكمةُ الله تأبى أن يولِّي علينا في مثل هذه الأزمان مثل معاويةَ وعمر بن عبدالعزيز، فضلًا عن مثل أبي بكر وعمر، بل وُلاتُنا على قَدْرِنَا، ووُلاةُ من قَبْلَنَا على قَدْرِهِم، وكلٌّ من الأمرين موجَب الحكمةِ ومقتضاها.

ومن له فطنةٌ إذا سافرَ بفِكْره في هذا الباب، رأى الحكمةَ الإلهيةَ سائرةً في القضاءِ والقَدَرِ، ظاهرةً وباطِنةً فيه، كما في الخلق والأمر سواءً، فإيَّاك أنْ تظنَّ بظَنِّكَ الفاسدِ أنَّ شيئًا من أقضِيَتِهِ وأقدارِه عارٍ عن الحكمةِ البالغة، بل جميعُ أقضيتِه ـ تعالى ـ وأقدارِه واقعةٌ على أتمِّ وجوهِ الحكمةِ والصَّواب، ولكن العقولَ الضعيفةَ محجوبةٌ بضعفِها عن إدراكِها، كما أنَّ الأبصارَ الخُفَّاشِيَّةَ محجوبةٌ بضعفِها عن ضوء الشمس،

وهذه العقولُ الضِّعَافُ إذا صادفها الباطلُ جَالَتْ فيه وصَالَتْ، ونَطَقَتْ وقالَتْ، كما أنَّ الخُفَّاشَ إذا صادَفَه ظلامُ اللَّيل طارَ وسارَ:

خفافيشُ أعشاها النَّهار بضَوْئِهِ ولازَمَهَا قِطْعٌ من اللّيلِ مظْلِمُ»[1]

قال أبو عبيدة: وهذا أمرٌ ملموسٌ مُشاهد، يعرفه من خَبَرَ حالَ النَّاس، وأمضى سنَّة الله ـ عز وجل ـ فيهم، وتفطَّن له الهيثم بن عدي؛ فإنَّه حدَّث فقال:

«كان الأغلب على عبدالملك بن مروان حُبُّ الشعر، فكان النَّاس في أيَّامه يتناشدون الأشعار، ويتدارسون أخبار الشعراء، ويُعْنَوْنَ بها.

وكان الأغلب على الوليد بن عبدالملك حبُّ البناء واتخاذ المصانع، واعتقاد الضِّياع، وكان النَّاس في أيَّامه يخوضون في رصف الأبنية، ويحرصون على التشييد والتأسيس، ويولعون بالضِّياع والعمارات.

وكان الأغلب على سليمان بن عبدالملك حب الطعام والنِّساء، فكان النَّاس في أيَّامه يصفون ألوان الأطعمة، ويذكرون أطايبها وغرائبها، ويستكثرون من الحرص على أحاديث النِّساء، ويتساءلون عن تزوُّج الحرائر، والاستمتاع بالسَّراري، ويتجارَوْن في البَاه.

وكان الأغلب على عمر بن عبدالعزيز حب القرآن والصلاة والصوم، وكان النَّاس في أيَّامه يتلاقَون، فيقول الرجل لأخيه: ما وِردك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن؟ ومتى تختمه؟ وكم صليت البارحة؟ وصلاتك في المسجد أكثر أم في بيتك؟ وهل أنت صائم؟ وما تصوم في الشهر؟

---

(١) «مفتاح دار السَّعادة» (٢/ ١٧٥ ـ ١٧٩).

وكان يزيد بن عبدالملك يحب الخيول والقِيان، وكان النَّاس يتنافسون في اختيارها، ويتقرَّبون إليه بانتخاب الأجود والأحسن منها، وإهدائها إليه.

وكان هشام بن عبدالملك يحب الثياب ونفائس اللِّباس، وكان النَّاس يتبارَوْن في التجارة فيها، ويستبضعون ألوانها، ويتواصفون أنواعها.

وكان الوليد بن يزيد صاحب لهو وشراب وسماع، وكان النَّاس في أيَّامه يتشاغلون بالملاهي، ويترخَّصون في النَّبيذ، ويقولون بالسَّماع.

وقد صدق من قال: إنَّ النَّاس على دين ملوكهم، والسُّلطان سوقٌ يُجلب إليها ما يَنْفُقُ فيها»[1].

وهكذا دواليك! فالمؤمن ينظر بعين البصيرة، ويستفيد من سنن الله ـ عز وجل ـ التي رسمها للنَّاس، واستقرت عندهم، وسادت في حياتهم.

حتى إنَّنا لو تأمَّلنا سُنَن الله الكونيَّة والشرعيَّة حقَّ التأمُّل، وأعطيناها نصيبَهَا اللَّائِقَ من النَّظَار، لعَلِمْنَا أنَّ الظُّلْمَ والعصيانَ في الأرضِ إذا وقعا على غيرِ المألوفِ؛ فإنَّ العقوباتِ تأتي على منوالِ خَرْقِ العادةِ، فلكلِّ زمانٍ ومكانٍ رجالٌ، وأفعالٌ، وأحكامٌ، وعقوباتٌ، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[الكهف: ٤٩].

فالذُّنوب تؤثِّر أثـرًا حقيقيًّا مُرًّا، وكلُّنا يعلم أنَّه إذا ما ظهر الرِّبا أو الزِّنا في قومٍ فقد أَحَلُّوا بأنفسهم الدَّمار والعياذ بالله ـ تعالى ـ، كما قال النبيُّ ﷺ: «**ما ظهرَ في قومٍ الرِّبا والزِّنا إلا أَحَلُّوا بأنفسهم عقاب الله ـ عز وجل ـ**»[2]؛ لأنَّ الرِّبا والزِّنا ذنبان كبيران، يشترك في توفير الدَّواعي لهما غفلةُ الجماعة، لا نزوة الفرد فقط،

(١) «لطائف المعارف» (ص٩٣ ـ ٩٤) لأبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (١/ ٤٠٢)، وحسنه شيخنا الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦٣٤).

ومـع هـذا فإنَّ الذنوب الشخصية لها أثر عظيم على النَّاس، وقد أوجَبَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على الأمَّةِ ـ بالقَدْرِ التي تحصُلُ بـه الكفايةُ ـ محاربَتَهُمَا، بحيثُ يأثمُ الجميعُ إذا لم يُقَمْ به؛ لأنَّ ضريبةَ تركِهِ سيدفعُهَا الجميعُ في الدُّنيا والآخرة.

عن عائشة ـ رضـي الله عنها ـ قالت: قلت: يا رسول الله! كيف يُخسف بأوَّلهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟! قال: «**يُخسف بأوَّلهم وآخرهم، ثمَّ يُبعثون على نيَّاتهم**»[1].

وفي رواية مسلم[2] ـ بسنده ـ إلى عائشة ـ رضي الله عنهـا ـ قالـت: عَبَـثَ رسول الله ﷺ في منامه، فقلنا: يا رسول الله! صنعتَ شيئًا في منامك لم تكن تفعله. فقال: «**العجب! أنَّ ناسًا من أمَّتي يؤُمُّونَ بالبيتِ برجلٍ من قريش قد لجأ بالبيـت، حتى إذا كانوا بالبيداء خُسف بهـم**»، فقلنا: يا رسول الله! إنَّ الطريـق قـد يجمـع النَّاس، قال: «**نعم؛ فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل، يهلكون مَهْلَكًا واحدًا، ويَصْدُرُونَ مصادرَ شتَّى، يبعثهم الله على نيَّاتهم**».

وفي بعض ألفاظه[3]: «**يا عائشة! إنَّ اللهَ إذا أنزلَ سَطْوَتَه بأهلِ نِقْمَتِهِ وفيهم الصَّالحون، فيُصَابونَ معهم، ثم يُبْعَثُونَ على نِيَّاتِهِم وأعمَالِهِم**»[4].

وعن جرير بن عبدالله البجلي ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَـا مـن

---

(١) أخرجه البخاري (٢١١٨).

(٢) برقم (٢٨٨٤).

(٣) لعلَّها من اضطراب بعض الرواة.

(٤) «الصحيحة» (٢٦٩٣).

قومٌ يُعمَلُ فيهم بالمعاصي، هم أعزُّ وأكثرُ ممَّن يعملُه، لم يغيِّرُوه؛ إلَّا عمَّهُم الله بعقابٍ»[1].

عن زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ: أنَّ النبيَّ ﷺ دخلَ عليها فَزِعًا يقول: «**لا إله إلا الله! ويلٌ للعَرَبِ من شرٍّ قدْ اقترب! فُتِحَ اليومَ من رَدْمِ يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذه**» وحلَّقَ بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش: فقلتُ: يا رسول الله! أنهلكُ وفينا الصَّالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثُرَ الخَبَثُ**»[2].

وقال عمر بن عبدالعزيز: «كان يُقال: إنَّ اللهَ ـ تبارك وتعالى ـ لا يعذِّب العامَّة بذنب الخاصَّة، ولكن إذا عُمِلَ الـمُنْكَرُ جِهَارًا، استَحَقُّوا العُقُوبَةَ كلُّهُم»[3].

قال شيخنا العلَّامة محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله ـ:

«في قولها: «يا رسول الله! أنهلكُ وفينا الصَّالحون؟» دليلٌ على أنَّ وجودَ الصالحين في المجتمع يكون سببًا لمنعهم من الهلاك، ولهذا من بركة الصلاح أن يدفع الله السوء عن الناس بسبب هؤلاء الصالحين، ولكن إذا لم يقم الصالحون بما يلزمهم من الدعوة إلى الله، والنصح للعباد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فقد قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ**﴾[الأنفال: ٢٥]»[4].

وهذه العلاقة بين المعاصي التي تسيطر على المجتمع وتسود فيه على وجه

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٣٦٤) رقم (١٩٢٥٠)، وسنده حسن.

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٦) ومسلم (٢٨٨٠).

(٣) رواه مالك في «الموطأ» (٢٨٣٦ ط دار الغرب).

(٤) من شرحه المسجَّل على «صحيح البخاري».

يصبح ظاهرًا، وبين الهلاك المترتِّب على ذلك؛ سنَّة لله ـ عز وجل ـ، لها تداعياتها، ونتائجها، وهي مذكورة في كتاب الله ـ عز وجل ـ في مواطن مثـل: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾[الإسراء: ١٦ ـ ١٧].

كما أنَّ هناك آيات كثيرةٌ تربط بين الاستقامة على أوامر الله، ووفرة الخيرات، وحيـاة الرغـد التي يُنعِم الله بهـا على المجتمعات متى التزمت العدل في التوزيع، وهذه سنة من سنن التاريـخ؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ﴾[المائدة: ٦٦]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[الأعراف: ٩٦]، وقال: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴾ [الجن: ١٦].

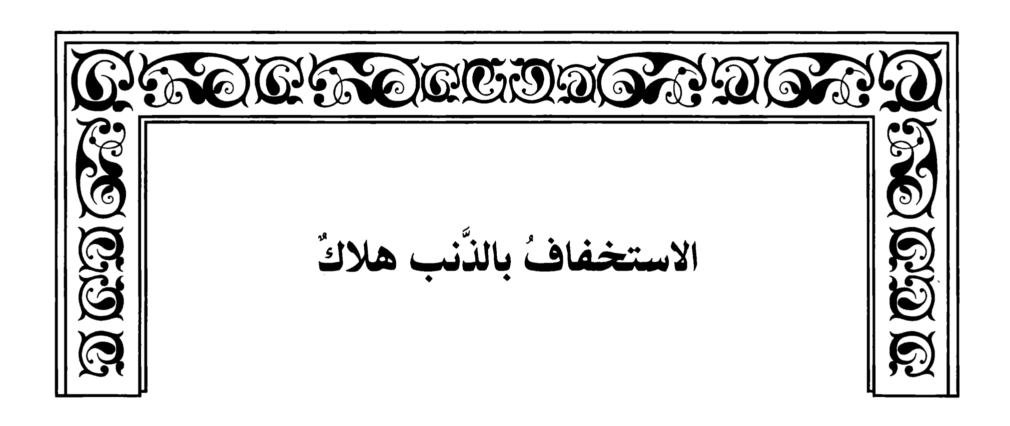
هذه الآيات الثلاث تربط بين إقامة الشرع والاستقامة عليه، وتأمَّل! معي الآية الثانية ودقَّة ألفاظها: ﴿وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فهي لهم ولكنَّها محجوبـة عنهـم، فلـو آمنـوا واتَّقوا ﴿لَفَتَحۡنَا﴾، فمعاصيهم أوصدتها وحالت دون وصولها، وتأمَّل: ﴿بَرَكَٰتٖ﴾ لا بركة؛ فهي مصالح خالصة لا تشوبها شائبة، وتأمَّل: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾؛ وهي تقابل ما في الآية الأولى: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ ﴾، وتـأمَّـل: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، فالله لا يُغالَب، لا من الآحـاد ولا من المجتمعات، وسنَّته ماضية، وإن لم تقع الاستقامة وقع الحرمان، وحصل (لباس) الجـوع والخوف، وذاق ذلك

أصحابـه كما تقدَّم بيانـه، مع التنويه على دقَّة القرآن في استعمال ألفاظ (الذَّوق) و(اللِّباس).

والحكمة بالغة لم يبق الأمر يـدور عـلى التأصـيل، وإنـما زاد القـرآن ذلـك بالتمثيل؛ فذكر شعوبًا وأممًا شملتهم هذه السنن ليقع الاتعاظ على أتمِّ وجه وأكملـه وأظهره وأبلغه.

فلا إله إلا الله! كم هو ـ سبحانه ـ محسنٌ للنَّاس يعلِّمهم ويربِّيهم، ويتحبَّب إليهم، وينذرهم ويخوِّفهم، لتستقيم حياتهم، ويهنؤوا بها، فأوامره وسننه إنما وُجدت لإصلاحهم في الحـال والمآل، ولتقع سعادتهـم في المعاش والمعاد، وليبعد عنهم الردى والعذاب.

* * *



الاستخفافُ بالذَّنب هلاكٌ

يقول ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ:

«يا مغرورًا بالأمانيِّ! لُعِنَ إبليسُ وأُهْبِطَ من منزلِ العِزِّ بتَرْكِ سَجْدَةٍ واحدةٍ أَمَرَ بها، وأَخرَجَ آدمَ من الجَنَّةِ بلُقْمَةٍ تناوَلَها، وحَجَبَ القاتلَ عنها بعدَ أنْ رآها عيانًا بمِلْءِ كَفٍّ من دَمٍ، وأَمَرَ بقَتْلِ الزَّانِي أشنعَ القِتْلَاتِ بإيلاجِ قَدْرِ الأُنْمُلَةِ فيما لا يَحِلُّ، وأَمَرَ بإيساعِ الظَّهْرِ سِيَاطًا بكلمةِ قَذْفٍ، أو بقطرةٍ من مُسْكِرٍ، وأَبانَ عُضْوًا من أعضائِكَ بثلاثةِ دراهم، فلا تأْمَنْهُ أن يحبِسَكَ في النَّارِ بمعصيةٍ واحدةٍ من معاصيه ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾[الشمس: ١٥].

دخلت امرأةٌ النَّارَ في هِرَّةٍ، وإنَّ الرَّجُلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ لا يلقي لها بالًا يهوي بها في النَّار أبعدَ ما بين المشرق والمغرب، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بطاعةِ الله ستِّينَ سَنَةً، فإذا كان عند الموتِ؛ جارَ في الوصيَّةِ؛ فيُخْتَمُ له بسوءِ عمله فيدخلَ النَّار.

العمرُ بآخِرِه، والعملُ بخاتمته، من أحدثَ قبلَ السَّلامِ؛ بَطَلَ ما مضى من صلاتِه، ومن أفطرَ قبل غروبِ الشَّمسِ؛ ذهبَ صيامُه ضائعًا، ومن أساءَ في آخرِ عمُرِه، لقيَ ربَّه بذلك الوجه»[1].

---

(١) «الفوائد» (ص٨٧ ـ ٨٨).

«واعلم أنَّه مِن أعظم المِحَنِ الاغترارُ بالسَّلامة بعد الذَّنب؛ فإنَّ العقوبة تتأخَّر، ومِن أَعظَم العقوبة أن لا يُحِسَّ الإنسان بها، وأن تكون في سَلبِ الدِّين وطَمس القلب»[1].

«فَإِن العَبْد إِنَّمَا يُؤْتى من قبل التهاون باليسير، وَهُوَ الذِي يُوقع فِي الإثم الكَبِير، والتَّهاون باليسير هُوَ الأساس الذِي يُبْنى عَلَيْهِ الكثير، فيكون أَوَّله كَانَ تحفُّظًا، ثمَّ صَار انبساطًا، ثمَّ صَار من الانبساطِ إلى ذكر اليَسِير، ثمَّ صَار من اليَسِير إلى مَا هُوَ أكثر مِنْه، فَلَا تشعر حَتَّى ترى نَفسك حَيْثُ كنت تكره أنْ ترى فِيهِ غَيْرك، فَفِي ترك اليَسِير تركُ اليَسِير والكثير.

وَأقوى النَّاس على ذَلِك وأصدقهم عزمًا هو الذِي إِذا عزم أمضى عزمَه ولم يَلْوِ، وأضعفُ النَّاس فِي ذَلِك أضعفُهم عزمًا، وهو الذِي يعزم ثمَّ يحلُّ عزمَه ولَا يكَاد يُمْضِي عزمًا، فَهَذَا الَّذِي يتلاعب بِهِ الشَّيْطَان والهوى وَالنَّفس»[2].

قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «إنَّ المؤمنَ يرى ذنوبَه كأنَّه قاعدٌ تحتَ جبلٍ يخافُ أنْ يقعَ عليهِ، وإنَّ الفاجرَ يرى ذنوبَه كذُبابٍ مَرَّ على أنفِه فقال به هكذا»[3].

(فقال به هكذا): أي حرَّكَ يده على أنفِهِ كما يفعلُ المرءُ إذا طردَ عن أنفِهِ الذبابةَ أو البعوضةَ ونحوَهُمَا، والمرادُ: «نحَّاه بيده أو دفعَه، هو من إطلاق القولِ على الفعلِ، قالوا: وهو أبلغ»[4].

---

(١) «صيد الخاطر» (ص١٩٤).

(٢) «آداب النفوس» (ص٦٤).

(٣) رواه البخاري (٦٣٠٨).

(٤) «فتح الباري» (١١/ ١٠٥).

قال ابن بطَّال: «فينبغي لمن أراد أن يكون من جملة المؤمنين أن يخشى ذنوبه، ويعظُم خوفُه منها، ولا يأمن عقابَ الله عليها فيستصغرها، فإنَّ الله ـ تعالى ـ يعذِّب على القليل، وله الحجَّة البالغة في ذلك»(١).

فالفاجر ـ والعياذ بالله ـ «يرى ذنوبه كأنَّها ذبابٌ مَرَّ على أنفه، أي ذنبُه سهلٌ عندَه لا يعتقد أنَّه يحصل له بسببه كبيرُ ضررٍ، كما أنَّ ضررَ الذُّبَابِ عندَه سهلٌ، وكذا دفعُه عنه»(٢).

و«السبب في ذلك أنَّ قلبَ الفاجرِ مظلمٌ، فوقوع الذَّنب خفيفٌ عندَه، ولهذا تجدُ من يقعُ في المعصيةِ إذا وُعِظَ يقول: هذا سهلٌ»(٣).

«ويستفاد من الحديثِ أنَّ قِلَّةَ خوفِ المؤمنِ ذنوبَه وخِفَّتَه عليهِ يدلُّ على فُجُورِه، والحكمةُ في تشبيهِ ذنوبِ الفَاجِرِ بالذُّبَابِ كونُ الذُّبَابِ أخفَّ الطيرِ وأحقرَه، وهو مما يُعَايَنُ ويُدْفَعُ بأقلِّ الأشياءِ، وفي ذكرِ الأنفِ مبالغةٌ في اعتقادِه خِفَّةَ الذَّنب عندَه؛ لأنَّ الذُّبَابَ قلَّما ينزلُ على الأنفِ، وإنَّما يقصدُ غالبًا العَيْنَ، وفي إشارتِه بيَدِه تأكيدٌ للخِفَّةِ ـ أيضًا ـ، لأنَّه بهذا القَدْرِ اليسيرِ يدفع ضرره»(٤).

وفيه: أنَّ الاستهانةَ بالذَّنْبِ من خصالِ المنافقين وأوصافِهِم.

---

(١) «شرح ابن بطَّال على صحيح البخاري» (١٠/ ٨١)، وبنحوه في «التوضيح» (٢٩/ ٢٠١) لابن الملقِّن.

(٢) «فتح الباري» (١١/ ١٠٥).

(٣) «بهجة النفوس» (٤/ ٢٠١) لابن أبي جمرة، و«فتح الباري» (١١/ ١٠٥).

(٤) «بهجة النفوس» (٤/ ٢٠٢)، و«فتح الباري» (١١/ ١٠٥).

وفي سياقِ الإفكِ الذي اختلقَه المنافقونَ قال الله: ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾[النور: ١٥].

قال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: «إنَّكم لتَعْمَلُونَ أعمالًا هي أَدَقُّ في أعيُنِكُم من الشَّعْرِ، إنْ كُنَّا لنَعُدُّهَا على عهد النبيِّ ﷺ من الموبِقَات»(١).

وصدقَ ـ رضي الله عنه ـ، فكذلك قد كانوا كما هي سيرتُهُم وحكاياتُهُم وآثارُهُم، كيف لا؟! وهم يسمعون النبيَّ ﷺ يقول: «لو تعلمون ما أعلمُ، لضحكتُم قليلًا ولبَكَيْتُم كثيرًا»(٢).

وقد قال رسول الله ﷺ ـ أيضًا ـ: «إيَّاكم ومُحَقَّرَاتِ الذنوبِ، كقومٍ نَزَلُوا في بطنِ وادٍ، فجاءَ ذا بعودٍ، وجاءَ ذا بعودٍ، حتى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُم، وإنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ متى يُؤْخَذْ بِها صاحبُها تُهْلِكْهُ»(٣).

وكيف ينامُ العاقلُ ملءَ جفنَيْهِ كأنَّ يديه ما اقترفَتَا شيئًا، وربُّه يخبرُه عن يومٍ سيُسْأَلُ فيه عن كلِّ شيءٍ: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾[الكهف: ٤٩]، ﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ﴾[القمر: ٥٢ ـ ٥٣].

ومن خبَرِهم في الجنَّةِ أنَّهُم: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن

---

(١) رواه البخاري (٦٤٩٢).

(٢) رواه البخاري (٦٤٨٦).

(٣) رواه أحمد (٥/ ٣٣١)، وسنده صحيح.

﴿قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾[الطور: ٢٥-٢٨].

بل إنَّ من بديعِ أنظارِ أئمَّة السَّلَف الصَّالح في كتاب الله قولُ إبراهيم التَّيْمِيِّ: «ينبغي لمن لم يحزن أن يخافَ ألَّا يكون من أهل الجنَّة، لأنَّهم قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾[فاطر: ٣٤]»(١).

فاحذر يا عبدالله من أنْ يغُرَّكَ بالله الغَرور، ويشغلكَ عن التَّوبَةِ بالأمانيِّ، ويصُدَّكَ عن طريقِ الخير بما يزيِّنُ لك من طولِ الأمل، وما يُغريكَ به من زهرة الدنيا.

فما هي إلَّا ساعةٌ ثمَّ تنقَضِي ... ويذهبُ هذا كلُّه ويَزولُ

أو كما قيل:

ومن يأْمَن الدُّنيا يَكُنْ مثلَ قابضٍ ... على الماءِ خانَتْهُ فُروجُ الأَصابعِ

فبقَدْرِ ما يعظُمُ الذَّنبُ عندَكَ يصغُرُ عندَ الله، وبقَدْرِ ما يصغُرُ عندكَ يعظُمُ عندَ الله، فاحرص على ما ينفعُك.

وإنَّما اهتمَّ النبيُّ ﷺ بالتحذيرِ من الاستخفاف بصغار الذُّنوبِ والاستهانةِ بها لأنَّها إذا اعتادَتْها النَّفسُ أفضَت بها إلى الموبقات والذُّنوبِ الكبار، فلا يزالُ إيمانُ العبدِ على هذا النَّسَقِ يتناقَصُ، حتى لربَّما زالَ عنه وخرجَ منه وهو لا يدري بعدُ أين يضعُ قدمَيه؛ لأنَّ اللَّامُبالاةَ قد صارت من سجاياه، والاستهانةَ بالمعاصي من سَمْتِه وعادتِه.

قال أبو حامد: «وكذلك صَغَائِرُ المعاصي يجرُّ بعضُها إلى بعضٍ، حتى يفوتَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الهمِّ والحزن» (٢٤).

أصلُ السَّعَادةِ بهَدْمِ أصلِ الإيمانِ عند الخَاتِمَةِ»[1]، نسأل الله العافية والثبات.

فـ «احْذَرْ مَا يكره الله من عَمَلك ونيَّتك وسرِّك وعلانيتك فِي الصَّغِير كَما تحذره فِي الكَبِير، وَإِنَّ كلَّ شَيْء يُفْسد عَلَيْك مِثْقَال ذرة قَدَّمته لله يُفْسد عَلَيْك مئَة ألف دِينَار، وَالدُّنْيَا كلُّهَا مِثلُ مَا أفسد عَلَيْك مِثْقَال ذرة فَسَادًا سَوَاءً لَا فضل بَينهما، ثمَّ هَكَذَا فِي سَائِر الأعمال يَأْتِي الفساد على كثرتها كَمَا يَأْتِي على قلَّتها سَوَاءً»[2].

ولْتكن الآخرةُ همَّكَ يا عبدالله! فعن مجاهدٍ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾[ص: ٤٦] قال: «بذِكْرِ الآخِرَة؛ فليس لهم همٌّ غيرها»[3].

وقد قيل لعطاء السليمي: لو أُجِّجَتْ نارٌ، وقيل: من دخَلَهَا نَجَا من جهنَّم، هل كنتَ تدخله؟ فقال: بل كنتُ أخشى أن تخرج نفسي فرحًا بها قبل وصولي إليها[4].

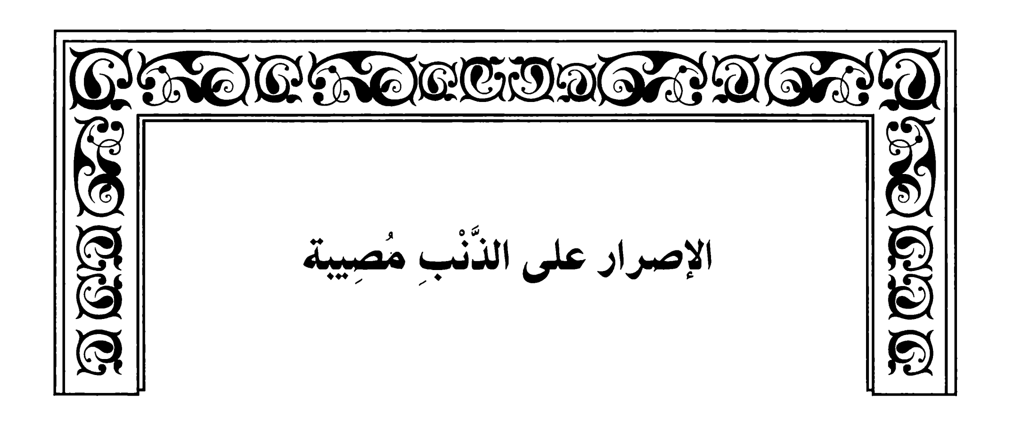
* * *

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٦٠).

(٢) «آداب النفوس» (١٢٦).

(٣) «تفسير الطبري» (٢١/ ٢١٨).

(٤) «فتح الباري» (١/ ٥٥) لابن رجب.



الإصرار على الذَّنْبِ مُصِيبة

«العَبْد بَين تسعِ مخاوف:

فأولاها: أنْ يخَاف وَيَدْعُو الله ويتضرع إِلَيْهِ أَلَّا يَكِلَه إِلى حَسَنَاته الَّتِي يتعزز بهَا فِي عبادِ الله ظلمًا وعدوانًا.

والثَّانية: أن يخَاف من كفران النعم التي قد غلب عَلَيْهِ البطر بهَا فأشغله عَن الشُّكْر عَلَيْهَا.

والثَّالثة: خوف الاستدراج بِالنعَم وتواترها.

والرَّابعَة: خوفُ الله أن يَبْدُو لَهُ غَدًا من الله مَا لم يكن يحْتَسب فِي طاعاته التي يَرْجُو ثَوَابهَا، وَلم يعُدَّهَا من ذنُوبه.

والخَامِسَة: الذُّنُوب الَّتِي عَملهَا واستيقن بهَا فِيمَا بينه وَبَين الله ـ تَعَالَى ـ.

والسَّادِسَة: تَبِعَاتُ النَّاس قبلَه.

والسَّابِعَة: أَنَّه لَا يدْرِي مَا يحدث لَهُ فِي بَقِيَّة عمره.

والثَّامِنَة: أن يخَاف تَعْجِيل العقُوبَة فِي الدُّنْيَا، والنَّكال فِيهَا قبل الفَوْت.

والتاسعة: الخَوْف من علم الله ـ تَعَالَى ـ فِيهِ، وَفِي أَيِّ الدَّارَيْنِ أَثْبتَ اسْمَه فِي أمِّ الكتاب.

فاحذر الذُّنُوب! فَإِنَّ شؤمَهـا قريبٌ، وظلمتَها شَدِيدَة، وَاحْذَرْ الحَسَـنَات الَّتِي تبَاعد بَيْنك وَبَين طَرِيق الصَّالِحين»[1].

عن عاصم بن رجاء بن حيوة قال: كان عمر بن عبدالعزيز يخطب، فيقول: «أيُّها النَّاس! من أَلَـمَّ بذَنْبٍ فليَسْتَغْفِرْ الله وَلْيَتُبْ، فإن عادَ فَلْيَسْتَغْفِرْ اللهَ وَلْيَتُبْ، فإن عادَ فَلْيَسْتَغْفِرْ اللهَ وَلْيَتُبْ، فإنَّما هي خطايا مُطَوَّقَةٌ في أعناقِ الرِّجال، وإنَّ الهلاكَ كلَّ الهلاك، الإصرارُ عليها»[2].

قال الإمام ابن القيِّم: «ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذَّنْبِ فهو كالـمُعَانِدِ، وقال معروف: رجاؤُك لرحمةِ مَنْ لا تُطِيعُهُ من الخِذْلَانِ والحُمْقِ»[3].

وذلك لأنَّ من عيوب النَّفس «الإصرارُ على الذَّنبِ مع تمنِّي المغفرة ورجاء الرحمة، ومداواتُها أن يعلمَ أنَّ الله ـ تعالى ـ أوجبَ الرحمةَ لمن لا يُصرُّ على ذنبِه، حيث قال: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران: ١٣٥]، وقال أبو حفص: الإصرار على الذَّنب من التهاون بقدرة الله ـ تعالى ـ.

ويعلم أنَّ الله ـ تعالى ـ أوجبَ الرحمةَ للمحسنين؛ فقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[الأعراف: ٥٦]، وأوجبَ المغفرةَ للتَّائبين؛ حيث قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾[هود: ٩٠]»[4].

قال شيخ الإسلام: « وقولُ من قالَ من العلماء: **الاستغفارُ مع الإصرارِ**

---

(١) «آداب النُّفوس» (ص٦٨ ـ ٦٩) للمحاسبي.

(٢) «حلية الأولياء» (٥/ ٢٩٦).

(٣) «الجواب الكافي» (ص٥١).

(٤) «عيوب النفس ومداواتها» (١/ ٢٣٩ ضمن «مجموعة آثار أبي عبدالرحمن السُّلمي»).

تَوْبَةُ الكَذَّابين؛ فهـذا إذا كانَ الـمُسْتَغْفِرُ يقولُـه عـلى وجـه التَّوْبَـةِ، أو يـدَّعِي أنَّ استغفارَهُ تَوْبَةٌ، وأنَّه تائبٌ بهذا الاستغفارِ، فلا ريبَ أنَّه مع الإصرارِ لا يكون تائبًا، **فإنَّ التَّوبةَ والإصرارَ ضِدَّانِ**»(١).

وقال: «فَالتَّوبَةُ النَّصُوحُ هِـيَ الخَالِصَةُ مِن كُلِّ غِـشٍّ، وَإِذَا كَانَـت كَـذَلِكَ كَائِنَةً **فَإِنَّ العَبدَ إِنَّمَا يَعُودُ إِلَى الذَّنبِ لِبَقَايَا فِي نَفسِهِ، فَمَن خَـرَجَ مِـن قَلبِـهِ الشُّـبهَةُ وَالشَّهوَةُ لَم يَعُدْ إِلَى الذَّنبِ**؛ فَهَذِهِ التَّوبَةُ النَّصُوحُ، وَهِيَ وَاجِبَةٌ بِمَا أَمَرَ الله ـ تَعَالَى ـ، وَلَوْ تَابَ العَبدُ ثُمَّ عَادَ إِلَى الذَّنبِ قَبِلَ الله تَوبَتَهُ الأُولَى، ثُمَّ إِذَا عَـادَ اسْـتَحَقَّ العُقُوبَـةَ، فَإِنْ تَابَ تَابَ الله عَلَيهِ ـ أَيضًا ـ، وَلَا يَجُوزُ لِلمُسلِمِ إِذَا تَابَ ثُمَّ عَادَ أَنْ يُـصِرَّ؛ بَـلْ يَتُوبُ وَلَوْ عَادَ فِي اليَومِ مِائَةَ مَرَّةٍ»(٢).

قال وُهَيبُ بن الـورد: «اعلم أنَّ مـن صـلاحِ نفسِـك علمُـك بفسـادِها، وبحَسْبِ الرَّجل من عيبٍ؛ يعلمُ من نفسِهِ فَسَادًا ثـمَّ لا يصلحُه، وبئس مَنْـزِلٌ ومُتَحَوَّلٌ من دنياكَ عن غيرِ توبةٍ»(٣).

وقال القاسـم بـن محمَّد بن أبي بكر الصـديق: «إنَّ مـن أعظـمِ الـذَّنبِ أن يستخفَّ المرءُ بذنبه»(٤).

فالمطلوبُ إذن التَّوبَةُ النَّصوح، التَّوبَةُ التَّامَّةُ المستوفيةُ لـشروط القَبُـولِ، لا مجرَّدُ الاستغفارِ الذي لا حقيقةَ تحتَه، وإن كان اعتيادُ الإنسانِ على الاستغفارِ مـن

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣١٩).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٥٨).

(٣) أخرجه الدِّينوري في «المجالسة» (١٤٦٧).

(٤) أخرجه الدِّينوري في «المجالسة» (٢٣١٨).

أصحِّ مقدِّماتها، وأهمِّ عناصرها ومكوِّناتِهَا.

يقولون: النِّهايات ميراثُ البدايات.

ويقولون: من كانت بدايتُه محرقة، كانت نهايته مشرقة.

والمقصود: يُخْتَمُ للمَرْءِ على وَفْقِ ما اعتادَه، ولن يحضُره عند النَّزْعِ إلَّا ما كان مستوليًا على قلبِهِ أكثرَ الوقت، فإنَّ تلك اللحظةَ من اللحظات التي لا يتحكَّم فيها إلَّا الله وحدَه: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[إبراهيم: ٢٧].

قال مجاهد: «ما من ميِّتٍ يموتُ إلَّا مُثِّلَ له جُلَسَاؤُهُ. قال: فاحتَضَرَ رجلٌ؛ فقيل له: قل لا إله إلا الله! قال: شاهك»(١).

وشاهك: كلمةٌ تُقال عند اللعب بالشطرنج.

فهذا رجلٌ مقبلٌ على ربِّه للحسابِ والسُّؤال، منقطعٌ عن العمل، لا يدري! يصيرُ إلى جنَّةٍ أم إلى نـار، ولا يقوى على النُّطْقِ بكلمة التوحيد؛ لأنَّه أُحضِرَ له في قلبِهِ ما اعتادَ على أن يحشُوَ به قلبَه من اللهوِ الذي لم يعرف في حياته سواه، كما هو حالُ بعضِ النَّاس.

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «مـن أعظم الفقه، أن يخافَ الرجـلُ أن تخذلـه ذنوبُه عند الموت، فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى»(٢).

فبادِرْ إلى تطهير النَّفس والقلبِ من علائِقِ المعاصي، واستعن بالله فاكسَـحْ من طريقِ العبادةِ كلَّ المعيقاتِ التي ألقى بها الهوى في طريق الطَّاعة.

---

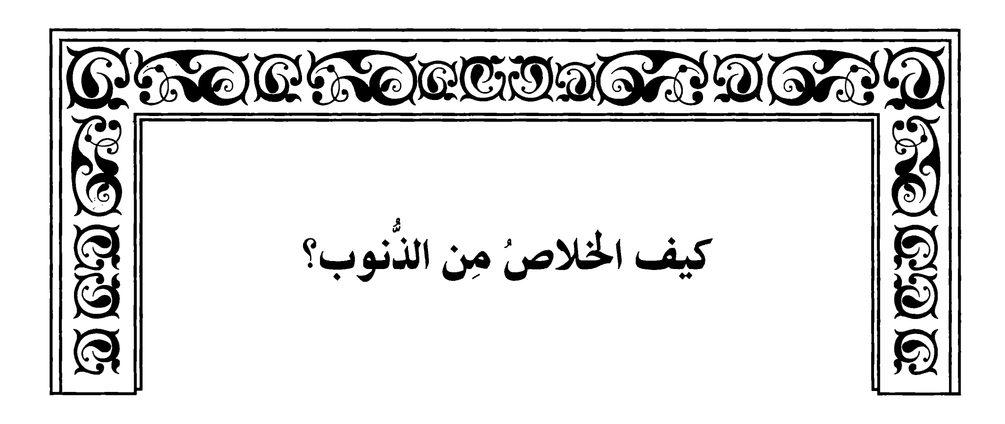
(١) «المحتضرين» (ص١٧٥ ـ ١٧٦) لابن أبي الدنيا.

(٢) «الجواب الكافي» (ص٣٩٠).

قال أبو سليمان الدَّاراني: «من أحسنَ في نهارِه كُوفِيَ في ليلِه، ومن أحسنَ في ليلِه كُوفِيَ نهارَه، ومن صَدَقَ في تركِ شهوةٍ ذهبَ اللهُ بها من قلبِه، واللهُ أكرَمُ من أنْ يعَذِّبَ قلبًا بشهوةٍ تُرِكَتْ لَه»[1].

* * *

(١) «الزهد الكبير» (ص٢٨٢) للبيهقي.



كيف الخلاصُ مِن الذُّنوب؟

اعلم ـ رحمك الله ـ أنَّ ربَّك ـ تباركَ وتعالى ـ لا يكَلِّفُكَ بما لا يُطَاق، وبما لا يتجاوَزُ حدودَ قُدْرَتِكَ، ولا بما هو أكبرُ من وُسْعِكَ، فإذا رأيتَ ربَّكَ الذي هو أرحمُ بك من أبيكَ وأمِّكَ يكلِّفُكَ بتركِ الذنوبِ، ويمنعكَ منها، ويحرِّمُهَا عليكَ، فإنَّمَا يكلِّفُكَ بما تقدِرُ عليه.

وذلك لأنَّه ـ تعالى ـ قد حرَّمَ الظُّلْمَ على نفسِهِ، وأخبرَ أنَّه لا يكلِّفُ نفسًا إلَّا وُسْعَهَا وما آتاها.

فإيَّاكَ أيُّها الـمُوَفَّقُ! أن تظنَّ أنَّه يُلائِمُ عاصيًا أن يقولَ: لا أستطيعُ التوبةَ! فإنَّ كلَّ مُخْبِرٍ عن أنَّه عاجزٌ عن التَّوبَةِ، فحقيقةُ ما يقولُ: الإخبارُ عن أنَّه لا يريدُهَا! أمَّا الاستطاعةُ، فهي في مُكْنَةِ الجميعِ، إلَّا مَنْ عَظُمَ تجاوُزُه على ربِّه، وطالَ عليه الأمَدُ، ورَدَّ هُدَى الله، فسبقَ له من الله القضاءُ بخذلانِهِ، ولم يَشَإِ اللهُ توفيقَه للتوبةِ عقوبةً له وانتقامًا منه.

وإنِّي أُعيذُكَ ونفسي ـ مهما أسرفنا على أنفسنا ـ أن نكونَ من هؤلاء! وحسبُنا الله ونعم الوكيل.

إذا علمتَ هذا، فاعلم أنَّ الله ـ تعالى ـ جعلَ الأمورَ منوطةً بأسبابِهَا، وما من غايةٍ إلَّا ولَهَا سبيلٌ توصِلُ إليها، وأدواتٌ ووسائلُ يُستعانُ بها على بلوغِها،

وفي الطَّريقِ عَثَراتٌ وسَقَطَات، وعلى امتدادِهَا شَواغِلُ ومُعِيقَات، غيرَ أنَّ توفيقَ الله، وإخلاصَ العبدِ وصِدْقَه فوقَ كلِّ ذلك.

وقد سبقَ لنا بيانُ أنَّ أعداءَ الإنسانِ هي: الجهل، والهوى، والنَّفسُ، والشيطان، فما يُقَالُ هنا كلُّه يدورُ على التَّداوي من هذه الآفاتِ الأربعة.

فنقول ـ وباللهِ التوفيق ـ أنَّ أسبابُ شفاءِ النَّفسِ من المعاصي هي:

١ ـ القرآن الكريم:

سمَّى الله ـ تعالى ـ كتابَه شفاءً؛ فقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[الإسراء: ٨٢].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[يونس: ٥٧].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[فصلت: ٤٤].

وسمَّاه نورًا، فقال: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[المائدة: ١٥ ـ ١٦].

وسمَّاه فُرقَانًا؛ أي: يَفْرِقُ بين الحقِّ والباطِلِ ويمنعُ التِباسَهُما، كما قال: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى

﴿لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾[آل عمران: ٣ ـ ٤].

والشِّفَاءُ، وإضاءةُ الطَّرِيقِ، والتمييزُ بين الحقِّ والبَاطِلِ، هي أَوْلَى ما يحتاجُهُ التَّائبُ العائدُ إلى ربِّه.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «والقرآنُ شِفَاءٌ لِـمَا في الصدورِ ومَنْ في قلبِه أمراضُ الشُّبُهَاتِ والشَّهَواتِ؛ ففيهِ من البَيِّنَاتِ ما يُزِيلُ الحَقَّ من البَاطلِ، فيُزِيلُ أمراضَ الشُّبْهَةِ الـمُفْسِدَةِ للعِلْمِ والتَّصَوُّرِ والإدراكِ، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه.

وفيهِ منَ الحِكْمَةِ والـمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ بالترغيبِ والترهيبِ والقَصَصِ التي فيها عبرةٌ ما يوجِبُ صلاحَ القلبِ، فيرغَب القلبُ فيما ينفعُه ويرغَب عما يضرُّه، فيبقى القلبُ مُحِبًّا للرشادِ، مُبْغِضًا للغَيِّ، بعدَ أنْ كانَ مُرِيدًا للغَيِّ مُبْغِضًا للرَّشَادِ، فالقرآنُ مُزِيلٌ للأمراضِ الـمُوجِبَةِ للإِرَادَاتِ الفَاسِدَةِ حتى يَصْلُحَ القلبُ فتصلُحَ إرادتُه، ويعودَ إلى فطرتِه التي فُطِرَ عليهَا، كما يعودُ البَدَنُ إلى الحالِ الطبيعيِّ، ويغْتَذِي القلبُ من الإيمانِ والقرآنِ بما يُزَكِّيهِ ويؤَيِّدُه، كما يَغْتَذِي البَدَنُ بما يُنَمِّيهِ ويُقَوِّمُه، فإنَّ زكاةَ القَلْبِ مثلَ نماءِ البَدَنِ»(١).

قال مالك بن دينار: «يا حَمَلَةَ القرآن! ماذا زرعَ القرآن في قلوبكم؟ فإنَّ القرآن ربيعُ المؤمنين كما أنَّ الغيث ربيعُ الأرض، فقد ينزلُ الغيثُ من السَّماءِ فيصيبُ الحُشَّ فيهِ الحَبَّةُ، ولا يمنعُه نَتَنُ موضِعِها أنْ تَهتَزَّ وتَخْضَرَّ وتَحْسُنَ، فيا حَمَلَةَ القرآن! ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ أين أصحابُ سورةٍ؟ أين أصحاب سورتَيْن؟ ماذا عملتم فيها؟»(٢).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٩٥ ـ ٩٦).

(٢) «حلية الأولياء» (٢/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩).

وقال الحسن: «والله! يا ابنَ آدم! لَئِنْ قرأتَ القرآن ثمَّ آمنتَ به؛ لَيَطُولَنَّ في الدنيا حزنُك، ولَيَشْتَدَّنَّ في الدنيا خوفُك، ولَيَكْثُرَنَّ في الدنيا بُكَاؤُك»[1].

والعجبُ الذي لا ينتهي من طالبِ علمٍ ليس في صدره شيءٌ من القرآن، وينظر في جميع كتب مكتبته، إلَّا كتاب الله ـ عز وجلَّ ـ، فيُبقيه مهجورًا لا ينظر فيه البتَّة، فما أشدَّ حرمانه، وما أقسى قلبَه، وما أكثر مرضَه!

٢ ـ مداومةُ ذكر الله ـ تعالى ـ:

من أغراضِ الشيطانِ ومقاصِدِهِ: الصَّدُّ عن ذكرِ الله وعن الصَّلاة؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**﴾[المائدة: ٩١].

وهذا جَرَيانٌ منه على مذهبِهِ في الحيلولةِ بين الإنسانِ وبين ما فيه خيرٌ له، ولأنَّ الذِّكْرَ حِصْنٌ يتحصَّنُ به العبدُ منه، وهو إنَّما يريدُ أن يستضعِفَه ويستَغْفِلَه.

وقد أخبرَنا نبيُّنا ﷺ بأنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد أوحى إلى يحيى بن زكريَّا ـ عليهما الصلاة والسلام ـ بخمسِ كلماتٍ، أن يعملَ بهِنَّ، ويأمُرَ بني إسرائيل أن يعملوا بهِنَّ، وممَّا جاء في تلك الوصيَّةِ: «... **وآمُرُكُم بذِكْرِ الله ـ عز وجل ـ كثيرًا، وأنَّ مثلَ ذلك كمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَه العَدُوُّ سِرَاعًا في أَثَرِه، فأتى حِصْنًا حَصِينًا فَتَحَصَّنَ فيه، وإنَّ العبدَ أحْصَنُ ما يكونُ من الشيطانِ، إذا كان في ذِكْرِ الله ـ عز وجل ـ**»[2].

---

(١) المرجع السابق (٢/ ١٣٣ ـ ١٣٤).

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٣٠)، والطيالسي (١١٦١، ١١٦٢) وابن سعد (٤/ ٣٥٩)، والترمذي (٢٨٦٣، ٢٨٦٤)، وأبو يعلى (١٥٧١)، وابن خزيمة (١٨٩٥) وغيرهم، من حديث الحارث الأشعري، وهو صحيح.

وقد عدَّدَ ابن القيِّمِ ـ رحمه الله ـ فوائدَ الذِّكْرِ في «الوابل الصيِّب»[1] فأجادَ وأفادَ، ووَفَّى الـمُراد، ومِمَّا ذكَرَه مِمَّا هو شديدُ اللُّصوقِ بما نحن فيه من فوائد الذكر:

الأولى: أنَّه يطردُ الشيطانَ ويقمعُهُ ويكسِرُه.

الثانية: أنه يورثُ الذَّاكِرَ الـمُرَاقَبَةَ حتى يُدْخِلَه في بابِ الإحسانِ، فيعبُد اللهَ كأنَّه يراه، ولا سبيلَ للغَافِلِ عن الذِّكْرِ إلى مقامِ الإحسانِ.

الثالثة: أنه يورِثُهُ الإنابةَ، وهيَ الرُّجُوعُ إلى الله ـ عز وجل ـ، فمتى أكثرَ الرُّجُوعَ إليهِ بذِكْرِه أوْرَثَهُ ذلكَ رجُوعَه بقَلْبِه إليهِ في كلِّ أحوَالِه، فيبْقَى اللهُ ـ عز وجل ـ مفْزَعُهُ ومَلْجَأُهُ ومَلَاذُهُ ومَعَاذُهُ وقِبْلَةُ قلْبِهِ ومَهْرَبُه عندَ النَّوَازِلِ والبَلَايَا.

الرابعة: أنه يورِثُه الهَيْبَةَ لرَبِّهِ ـ عز وجل ـ وإجْلَالِه، لشِدَّةِ استيلَائِهِ على قَلْبِهِ وحُضُورِهِ مع الله ـ تعالى ـ، بخلافِ الغَافِلِ، فإنَّ حِجَابَ الهَيْبَةِ رَقِيقٌ في قلبه.

الخامسة: أنَّهُ يَحُطُّ الخَطَايَا ويُذْهِبُهَا، فإنَّه من أعظَمِ الحَسَنَاتِ، والحَسَنَاتُ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَات.

السادسة: أنَّهُ سَبَبُ اشتِغَالِ اللِّسَانِ عن الغِيْبَةِ والنَّمِيمَةِ والكَذِبِ والفُحْشِ والبَاطِلِ، فإنَّ العَبْدَ لا بُدَّ له من أنْ يتكلم، فإنْ لم يتكلم بذكر الله ـ تعالى ـ وذكر أوامره، تكلم بهذه المحرَّمات أو بعضِها، ولا سبيلَ إلى السلامةِ منها البَتَّةَ إلا بذكر الله ـ تعالى ـ، والـمُشَاهَدَةُ والتَّجْرِبَةُ شاهدانِ بذلك، فمنْ عَوَّدَ لسانَه ذِكْرَ الله صانَ لسَانَه عن البَاطِلِ واللَّغْوِ، ومن يَبِسَ لسانُه عن ذِكْرِ الله ـ تعالى ـ، تَرَطَّبَ بكلِّ باطِلٍ ولَغْوٍ وفُحْشٍ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) انظرها فيه (ص٩٤ وما بعدها).

السابعة: أنَّ مجالسَ الذِّكْرِ مجالسُ الملائكةِ، ومجالسُ اللَّغْوِ والغفلةِ مجالسُ الشَّيَاطِين، فليَتَخَيَّر العبدُ أعجَبَهُمَا إليهِ، وأَوْلَاهُمَا بـه، فهـو مـع أهلِـه في الـدنيا والآخِرة.

الثامنة: أنَّ دوامَ ذِكْرِ الرَّبِّ ـ تبارك وتعالى ـ يُوجِبُ الأَمَانَ مِن نسيانِه الذي هو سببُ شَقَاءِ العَبْدِ في معَاشِه ومعَادِه، فإنَّ نِسيانَ الرَّبِّ ـ سبحانه وتعالى ـ يوجبُ نسيانَ نفسِه ومصَالِحِهَا، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[الحشر: ١٩].

وإذا نَسِيَ العبدُ نفسَه أعرضَ عن مصالِحِها ونَسِيَهَا واشتَغَلَ عنها، فهَلَكَت وفَسَدَت ولا بدَّ، كمن له زرعٌ أو بستانٌ أو ماشيةٌ أو غيرُ ذلك ممَّا صلاحُه وفَلَاحُه بِتَعَاهُدِهِ والقِيامِ عليه، فأهمَلَه ونَسِيَه واشتغلَ عنه بغيرِه وضَيَّعَ مصالحَه، فإنَّه يفْسُدُ ولا بدَّ، هذا مع إمكانِ قيامِ غيرِه مقامَه فيه، فكيفَ الظَّنُّ بفَسَادِ نفسِه وهلاكِها وشقائِها إذا أهمَلَهَا ونَسِيَهَا واشتغلَ عن مصالِحِها وعطَّلَ مُرَاعَاتِهَا وتركَ القيامَ عليها بما يصلحها؟! فما شئتَ من فسادٍ وهلاكٍ وخَيْبَةٍ وحِرْمَان.

وهذا هو الذي صارَ أمرُه كلُّه فُرُطًا، فانفَرَطَ عليهِ أمرُه وضاعَت مصالِحُه، وأحاطَت به أسبابُ القُطُوعِ والخَيْبَةِ والهَلَاك.

ولَا سبيلَ إلى الأمـانِ من ذلك إلا بدوامِ ذِكْرِ اللهِ ـ تعالى ـ واللهجِ به، وأنْ لا يزالَ اللِّسَانُ رطْبًا به، وأنْ يُنْزِلَهُ منزلةَ حياتِه التي لا غِنَى له عنها، ومنزلةَ غِذَائِهِ الذي إذا فَقَدَه فَسَدَ جسمُه وهلكَ، وبمنزلةِ الماءِ عندَ شِدَّةِ العَطَشِ، وبمنزلةِ اللِّبَاسِ في الحَرِّ والبَرْدِ، وبمنزلةِ الكِنِّ في شدَّةِ الشِّتَاءِ والسَّمُوم.

فحَقِيقٌ بالعَبْدِ أنْ يُنْزِلَ ذِكْرَ اللهِ منه بهذهِ المنزلةِ وأعظم، فأينَ هلاكُ الرُّوحِ

والقلبِ وفسادُهُمَا مـن هـلاكِ البَدَنِ وفَسَادِه؟! هـذا هلاكٌ لا بدَّ منه، وقد يَعْقُبُه صلاحُ الأَبَدِ، وأمَّا هلاكُ القلبِ والرُّوحِ فهلاكٌ لا يُرْجَى معه صلاحٌ ولا فلاحٌ، ولا حولَ ولا قوَّة إلا باللهِ العليِّ العظيمِ، **ولو لَمْ يكنْ في فوائدِ الذِّكْرِ وإِدَامَتِهِ إلا هذهِ الفائدة وحدَها، لكفى بها.**

وقال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «فمن كان مشغولًا بـالله وبـذِكْره ومحبَّتِـه في حالِ حياتِه وجد ذلك أحـوجَ ما هو إليه عند خـروجِ روحـه إلى الله، ومـن كـان مشغولًا بغيرِه في حالِ حياتِه وصِحَّتِه، فيَعْسُرُ عليهِ اشتغالُه بـالله وحضـورُه معـه عند الموتِ، ما لم تدركه عنايةٌ من ربِّه، ولأجلِ هذا كان جديرًا بالعاقلِ أنْ يُلـزِمَ قلبَـه ولسانَه ذكرَ اللهِ حيثُما كان لأجلِ تلك اللحظةِ التي إنْ فاتت شَقِيَ شَقَاوَةَ الأَبَـدِ، فنسألُ اللهَ أنْ يعيننا على ذِكْرِه وشُكْرِه وحُسْنِ عبادتِه»(١).

٣ ـ المحافظةُ على الصلاة:

قال ـ تعالى ـ: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ** ﴾[البقرة: ١٥٣].

قال ابن عاشـور: «وأنت إذا تأملتَ! وجَدْتَ أصلَ التَّـدَيُّنِ والإيمـانِ مـن ضُروبِ الصَّبْرِ، فإنَّ فيهِ مخالفةَ النَّفْسِ هواهَا ومألوفَها في التصديقِ بما هو مُغَيَّـبٌ عن الحِسِّ الذي اعتَادَتْه، وبوجوبِ طاعتِها واحدًا من جنسِها لا تراه يفوقُهـا في الخِلْقَةِ وفي مخالفةِ عادةِ آبائِها وأقوامِها من الديانات السـابقة، فـإذا صـار الصـبر خُلُقًا لصاحبه هوَّنَ عليه مخالفةَ ذلك كلِّه لأجلِ الحقِّ والبرهانِ، فظَهَر وجهُ الأمرِ بالاستعانةِ على الإيمانِ وما يتفرَّعَ عنه بالصَّبْرِ، فإنَّه خُلُـقٌ يفـتح أبـوابَ النفـوسِ

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢/ ٦٦٩ ـ ٦٧٠).

لقَبُولِ ما أُمِرُوا به من ذلك.

وأمَّا الاستعانةُ بالصَّلاةِ؛ فلأنَّ الصَّلاةَ شُكْرٌ، والشُّكْرُ يذكِّر بالنِّعمَةِ فيبْعَث على امتثالِ الـمُنْعِمِ، على أنَّ في الصَّلاةِ صَبْرًا من جهاتٍ: في مخالفةِ حالِ الـمَرْءِ الـمُعْتَادَةِ ولزومِه حالةً في وقتٍ معيَّنٍ لا يسوغُ له التَّخَلُّفُ عنها ولا الخروجُ منها، على أنَّ في الصلاة سرًّا إلهيًّا لعلَّه ناشئٌ عن تجلِّي الرِّضْوانِ الرَّبَّانيِّ على المصلِّي، فلذلك نجدُ للصلاةِ سرًّا عظيمًا في تجليةِ الأحزانِ وكشفِ غَمِّ النَّفْسِ... وهذا أمرٌ يجدُه من راقَبَه من المصلِّين، وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[العنكبوت: ٤٥]، لأنَّها تجمعُ ضروبًا من العبادات»[1].

وقد رصدَ الـمُناوي بعضَ مَعُونَاتِ الصَّلاةِ على الخيرِ رصدًا جميلًا، فقال ـ رحمه الله ـ:

«فإنَّ في الصَّلَاةِ شِفَاءً من الأمراضِ القلبيَّة والبَدَنيَّة، والهُمُوم والغُمُوم، ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[البقرة: ٤٥]، ولهذا كان النبيُّ ﷺ إذا حَزَبَه أمرٌ فَزِعَ إليها، والصَّلَاةُ مَجْلَبَةٌ للرِّزْقِ، حافِظَةٌ للصِّحَّةِ، دافِعَةٌ للأَذَى، مَطْرَدَةٌ للدَّاءِ، مُقَوِّيَةٌ للقَلْبِ، مُفْرِحَةٌ للنَّفْسِ، مُذْهِبَةٌ للكَسَلِ، مُنَشِّطَةٌ للجَوَارِحِ، مُمِدَّةٌ للقُوَى، شارِحَةٌ للصَّدْرِ، مُغَذِّيَةٌ للرُّوحِ، مُنَوِّرَةٌ للقَلْبِ، مُبَيِّضَةٌ للوَجْهِ، حافِظَةٌ للنِّعْمَةِ، دافِعَةٌ للنِّقْمَةِ، جالِبَةٌ للبَرَكَةِ، مُبْعِدَةٌ للشَّيْطَانِ، مُقَرِّبَةٌ من الرَّحمَن، وبالجملةِ فلَهَا تأثيرٌ عجيبٌ في حفظِ صِحَّةِ القَلْبِ والبَدَنِ وقُوَاهُمَا، ودَفْعِ الـمَوَادِّ الرَّدِيئَةِ عنْهُمَا، سيَّمَا إذا وُفِّيَت حَقَّهَا من التَّكْمِيلِ.

فَمَا اسْتَدْفَعَتَ أذَى الدَّارَيْنِ واسْتَجْلَبْتَ مصَالِحَهُمَا بِمِثْلِهَا، وسِرُّهَا أنَّها صِلَةٌ

---

(١) «التحرير والتنوير» (١/ ٤٧٩).

بينَ العَبْدِ وَرَبِّهِ، وبِقَدْرِ الوَصْلَةِ يُفْتَحُ الخيرُ، وتُفَاضُ النِّعَمُ، وتُدْفَعُ النِّقَمُ»[1].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

قال ابن عاشور: «الصَّلاةُ تشتملُ على مذكِّراتٍ باللهِ من أقوالٍ وأفعالٍ من شأنِها أنْ تكونَ للمصَلِّي كالواعظِ الـمُذَكِّرِ باللهِ ـ تعالى ـ، إذ ينهى سامعَه عن ارتكابِ ما لا يرضي اللهَ، وهذا كما يقال: صديقُك مرآةٌ ترى فيها عيوبَك.

ففي الصلاةِ من الأقوالِ: تكبيرٌ للهِ، وتحميدُه وتسبيحُه والتَّوَجُّهُ إليهِ بالدُّعاءِ والاستغفارِ، وقراءةِ فاتحةِ الكتابِ المشتملةِ على التحميدِ والثناءِ على اللهِ والاعترافِ بالعبوديةِ له، وطلبِ الإعانةِ والهدايةِ منه، واجتنابِ ما يغضبُه وما هو ضلالٌ، وكلُّهَا تذكِّر بالتَّعَرُّضِ إلى مرضاةِ اللهِ والإقلاعِ عن عصيانِه وما يُفْضِي إلى غضبِه، فذلك صدٌّ عن الفحشاءِ والـمُنْكَرِ.

وفي الصلاةِ أفعالٌ هي خضوعٌ وتذَلُّلٌ للهِ ـ تعالى ـ، من قيامٍ وركوعٍ وسجودٍ، وذلك يذكِّر بلزومِ اجتلابِ مرضَاتِه والتَّبَاعُدِ عن سَخَطِهِ، وكلُّ ذلك ممَّا يَصُدُّ عن الفحشاءِ والـمُنْكَرِ.

وفي الصلاةِ أعمالٌ قلبيةٌ من نيَّةٍ واستعدادٍ للوقوفِ بين يدي اللهِ، وذلك يذكِّر بأنَّ المعبودَ جديرٌ بأنْ تُمْتَثَلَ أوامرُه وتُجتَنَبَ نواهِيه.

فكانت الصلاةُ بمجموعِهَا كالواعظِ النَّاهِي عن الفحشاءِ والـمُنْكَرِ، فإنَّ اللهَ قال: ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾، ولم يقل: تَصُدُّ وتحولُ، ونحوَ ذلك، ممَّا

(١) «فيض القدير» (٤/ ٦٨٩) حديث (٦١٥٤).

يقتضِي صَرْفَ الـمُصَلِّي عن الفحشاءِ والمنكر»[1].

وقال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «والعبدُ إذا قامَ في الصَّلاةِ غارَ الشيطان منه، فإنه قد قام في أعظمِ مقامٍ وأقربِه وأغيَظِه للشيطانِ وأشَدِّهِ عليهِ، فهو يحرِصُ ويجتهدُ أنْ لا يقِيمَه فيه، بل لا يزال به يَعِدُهُ ويُمَنِّيهِ ويُنَسِّيهِ ويُجْلِبُ عليهِ بخَيْلِهِ ورَجِلِه حتى يُهَوِّنَ عليهِ شأنَ الصَّلَاةِ، فيتهاونُ بها فيترُكُها»[2].

ولك أن تتأمَّلَ الترابُطَ بين التفريطِ في الصَّلاةِ والانسياقِ مع الشَّهَواتِ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾[مريم: ٥٩]، ذلك لأنَّ من ضيَّعَها ـ وهي عمودُ الدِّينِ ـ فهو لما سواها أشدُّ تضييعًا ولا بدَّ، لذلك ينفرطُ العقدُ بعدَهَا، ويسهُلُ على تاركها الغَرَقُ في الشهوات.

وهذا غيرُ ما في الصلاةِ نفسِهَا من تكفيرٍ للذُّنوبِ ومَحْوٍ للسيِّئات، كما جاء عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: **«أرأيتُم لو أنَّ نَهرًا ببابِ أحدِكم يغتسلُ فيهِ كلَّ يومٍ خمسًا؛ ما تقولُ ذلكَ يُبْقِي من دَرَنِه؟»**. قالوا: لا يُبْقِي من دَرَنِه شيئًا. قال: **«فذلك مَثَلُ الصَّلَواتِ الـخَمْسِ يمحو الله بها الـخَطَايا»**[3].

---

(١) «التحرير والتنوير» (٢٠/ ٢٥٩).

(٢) «الوابل الصيب» (ص٥٢).

(٣) رواه البخاري (٥٢٨) ومسلم (٦٦٧).

ومن المناسبِ هنا التنبيه على حديثٍ منسوبٍ إلى النبيِّ ﷺ، كان النَّاس يطبعونه ويصوِّرونه ويوزِّعونه بهدف التحذير من ترك الصلاة، والتنبيه على جُرم من تهاون فيها، ذلك هو: «من تهاون بالصلاة عاقبه الله بخمس عشرة عقوبة: خمسٌ في الدُّنيا، وثلاث عند =

٤ ـ محاسبةُ النَّفس:

وهـي «أنْ يتصَفَّحَ في ليلِهِ ما صَدَرَ مـن أفعـالِ نهـارِه، فـإنَّ اللَّيـلَ أخطَـرُ للخاطِرِ وأجمعُ للفِكْرِ، فإنْ كانَ محمودًا أمضَاهُ وأتبعَه بـما شـاكَلَه وضَـاهَاه، وإنْ كانَ مذمومًا استَدْرَكَه إنْ أمكَنَ، وانتَهَى عن مثلِه في المستقبلِ»[١].

أو «هي التمييزُ بينَ ما له وعليه، فيستصحبُ ما لَه، ويؤَدِّي ما عليهِ، لأَنَّـه مسافرٌ سَفَرَ مَنْ لا يعودُ»[٢].

وقال ابن الحاجِّ المالكي: «وقد نقلَ الشيخُ ابنُ عبد السَّلام ـ رحمه الله تعالى ـ إجماعَ العلماء على محاسبةِ النفـس، فالمحاسبةُ حَبْسُ الأنفاسِ، وضـبطُ الحَـوَاسِّ، ورعايةُ الأوقاتِ، وإيثارُ الـمُهِمَّاتِ»[٣].

وقال الإمام ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ: «والمقصودُ ذكرُ علاجِ مـرضِ القلـبِ باستيلاءِ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ عليه، وله علاجان: محاسبتها، ومخالفتها.. وهلاكُ القلـبِ من إهمالِ محاسبتِها، ومن موافقتِها واتباعِ هواهَا»[٤].

وقال البيهقيُّ ـ رحمه الله ـ: سمعتُ الشيخَ أبا عليٍّ الحسنَ بنَ عـليٍّ الـدَّقَّاق

= الموت، وثلاث في القبر، وثلاث عند خروجه من القبر،... إلخ»، وهو **حديثٌ موضـوعٌ**؛ ركَّبه محمد بن علي بن العبَّاس البغدادي العطَّار على أبي بكر بن زياد النَّيسـابوري، قـال الحافظ ابن حجر في «لسان الميزان» (٥/ ٢٩٥ ـ ٢٩٧): «وهو ظاهرُ البُطلان، من أحاديـث الطُّرُقِيَّةِ».

(١) «أدب الدنيا والدين» (ص٣٦٣).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٦٩).

(٣) «المدخل» (١/ ١٤).

(٤) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٣١).

يقول: «أصلُ الطَّاعَةِ الوَرَعُ، وأصلُ الوَرَعِ التُّقَى، وأصلُ التُّقَى محاسبةُ النَّفْسِ، ومحاسبةُ النَّفْسِ من الخوفِ والرَّجَاءِ، والخوفُ والرجاءُ من المعرفةِ، وأصلُ المعرفةِ: لسانُ العلمِ والتَّفَكُّرِ»(١).

وقد بيَّن ابنُ القيِّم - رحمه الله - ضررَ التخلِّي عن المحاسبةِ، فقال: «وأضرُّ ما عليهِ: الإهمالُ، وتركُ المحاسبة، والاسترسالُ، وتسهيلُ الأمور، وتمشيتُها؛ فإن هذا يؤول به إلى الهلاك، وهذه حال أهل الغرور: يُغمِض عينيه عن العواقب، ويُمشِّي الحال، ويتكل على العفو؛ فيهملُ محاسبةَ نفسِه والنظرَ في العاقبةِ، وإذا فعل ذلك سَهُلَ عليه مواقَعَةُ الذنوبِ، وأَنِسَ بها، وعَسُر عليه فِطَامُها، ولو حضَرَه رُشْدُه لعَلِمَ أنَّ الحِمْية أسهلُ من الفِطَامِ وتركِ المألوف والمعتاد.

قال ابن أبي الدنيا: حدَّثَني رجلٌ من قريشٍ ذكرَ أنَّه من ولدِ طلحةَ بن عبيدالله، قال: كان توبة بن الصمَّة بالرَّقَّةِ، وكان محاسبًا لنفسِه، فحسب يومًا، فإذا هو ابنُ ستين سنةً، فحسبَ أيَّامَهَا، فإذا هي أَحَدٌ وعشرونَ ألفَ يومٍ وخمسُ مئةِ يومٍ، فصرخَ، وقال: يا ويلتا! ألقى ربي بأحدٍ وعشرين ألفِ ذنبٍ؟ كيف وفي كلِّ يومٍ آلافٌ من الذنوب؟ ثمَّ خرَّ مغشيًّا عليه؛ فإذا هو ميِّت! فسمعوا قائلًا يقول: يا لكِ ركضةً إلى الفردوس الأعلى»(٢).

وجِمَاع ذلك: أن يحاسب نفسَه أولًا على الفرائض، فإنْ تذكَّر فيها نقصًا تدارَكَه، إمَّا بقضاءٍ أو إصلاحٍ، ثمَّ يحاسبها على المناهي؛ فإنْ عرف أنه ارتكب منها شيئًا تدارَكَه بالتوبةِ والاستغفارِ والحسناتِ الماحية، ثم يحاسب نفسه على الغفلة،

(١) «الزهد الكبير» (ص٣١٤) رقم (٨٤١).

(٢) «محاسبة النَّفس» (٧٦) لابن أبي الدنيا.

فإنْ كان قد غَفَلَ عمَّا خُلِقَ له تداركه بالذِّكْر والإقبال على الله، ثمَّ يحاسبها بما تكلم به، أو مَشَتْ إليه رجلاه، أو بطشته يداه، أو سمعته أذناه: ماذا أردتِ بهذا؟ ولمن فعلتيه؟ وعلى أيِّ وجهٍ فعلتيه؟»(١).

وقد دلَّ على وجوبِ محاسبةِ النَّفْسِ للأمانِ من استرسالها في المعصيةِ القرآنُ والسُّنَّةُ؛ فقال ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[الحشر: ١٨]، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[النازعات: ٤٠ ـ ٤١].

ويدلُّ عليه كلُّ آيةٍ في كتابِ الله أخبرت عن أنَّ النَّفْسَ أمَّارةٌ بالسُّوءِ، وأسندَت الذُّنوبَ إلى كسبِ العبدِ، وأنَّها ممَّا قدَّمت يداه، واقترفت جوارحُه ولسانُه.

وقد أبدعَ عبدالله بن المقفَّع في بيان بعض صور المحاسبة؛ فقال:

«وعلى العاقلِ مخاصمةُ نفسِه، ومحاسبتُها، والقضاءُ عليها، والإثابةُ والتنكيلُ بها.

أمَّا المحاسبةُ، فيحاسبُها بما لها، فإنَّه لا مالَ لها إلا أيَّامُها المعدودةُ التي ما ذهبت منها لم يُسْتَخْلَفْ كما تستخلفُ النفقة، وما جُعِلَ منها في الباطلِ لم يرجع إلى الحقِّ، فيتنبَّه لهذه المحاسبةِ عند الحَوْلِ إذا حالَ، والشَّهْرِ إذا انقَضَى، واليومِ إذا ولَّى، فينظر فيما أفنى من ذلك، وما كسبَ لنفسِه، وما اكتسبَ عليها في أمرِ الدِّينِ وأمرِ الدنيا، فيجمع ذلك في كتابٍ فيهِ إحصاءٌ، وجِدٌّ، وتذكيرٌ للأمورِ، وتبكيتٌ للنَّفْسِ، وتذليلٌ لها؛ حتى تعترفَ وتُذْعِنَ.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٤٠ ـ ١٤١).

وأمَّا الخصومةُ؛ فإنَّ من طِبَاعِ النَّفْسِ الآمرةِ بالسُّوءِ أنْ تدَّعِيَ المَعَاذِيرَ فيما مَضَى، والأَمَانِيَّ فيما بقي، فيردُّ عليهَا معاذيرَهَا، وعِلَلَهَا، وشُبُهَاتِهَا.

وأمَّا القضاءُ؛ فإنَّه يحكمُ فيما أرادتْ من ذلك على السَّيِّئَةِ بأنَّهَا فاضحةٌ، مُرْدِيَةٌ، مُوبِقَةٌ، وللحسنةِ بأنَّهَا زائِنَةٌ، مُنْجِيَةٌ، مُرْبِحَةٌ.

وأمَّا الإثابةُ، والتَّنْكِيلُ، فإنَّه يَسُرُّ نفسَه بتَذَكُّرِ تلكَ الحسناتِ، ورجاءِ عواقِبِهَا، وتأميلِ فَضْلِهَا، ويعاقِبُ نفسَه بالتَّذَكُّرِ للسَّيِّئَاتِ، والتَّبَشُّعِ بها، والاقْشِعْرَارِ منها، والحزنِ لها.

فأفضلُ ذَوِي الألبابِ أشدُّهُم لنفسِه بِها أَخْذًا، وأقلُّهُم عنها فيهِ فَتْرَةً»[1].

ولذا لم يُعْرَف عن أعلامِ الأُمَّةِ وسلفها الصالح إلَّا شدَّةُ محاسبتهم لنُفُوسِهِم، وأنَّهم لم يتسامَحُوا قطُّ في هذا الأمرِ ولا تهاوَنُوا فيه، وقد جاءَ عنهم في ذلك ما كَثُرَ وطابَ واهتدى به طالبُ الهُدَى، فإنَّهم القومُ لمْ يشْقَ قطُّ مُتَّبِعُهُم ولا مُتَرَسِّمُ آثارِهِم ولا سالكُ سبيلِهِم.

قال أبو الدَّرداء: «لا يفْقَهُ الرَّجُلُ كلَّ الفقهِ، حتى يمْقُتَ النَّاسَ في ذاتِ الله، ثمَّ يرجِعَ إلى نفْسِهِ فيكون لها أشدَّ مقْتًا»[2].

وقال يونس بن عبيد: «إنِّي لَأَعُدُّ مئةَ خَصْلَةٍ من خِصَالِ الخيرِ، ما أعلمُ أنَّ في نفسِي واحدةً منها»[3].

---

(١) «الأدب الصغير والأدب الكبير» (ص١٨ ـ ١٩).

(٢) «تفسير الطبري» (١/ ٨).

(٣) «محاسبة النَّفس» (٣٤) لابن أبي الدنيا.

وأخرج مالك عن أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: «سمعتُ عمر بن الخطاب ـ وخرجتُ معه حتى دخل حائطًا ـ، فسمعتُه وهو يقول ـ وبيني وبينه جدارٌ، وهو في جوف الحائطِ ـ: عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ، أميرَ المؤمنين! بخٍ بخٍ! والله لَتَتَّقِيَنَّ اللهَ أو ليُعَذِّبَنَّكَ»[1].

وقال إبراهيمُ التَّيْمِيُّ: «مثَّلْتُ نفسي في الجَنَّةِ، آكُلُ ثمارَها، وأشرَبُ من أنهارِها، وأعانقُ أبكارَها، ثمَّ مثَّلْتُ نفسي في النَّارِ، آكُلُ من زقُّومِهَا، وأشربُ من صَدِيدِهَا، وأعالجُ سَلَاسِلَهَا وأغْلَالَهَا؛ فقلتُ لنَفْسِي: أيْ نفسِي! أيَّ شيءٍ تريدين؟ قالت: أريدُ أنْ أُرَدَّ إلى الدنيا؛ فأعملَ صالحًا، قال: قلت: فأنتِ في الأُمْنِيَةِ، فاعمَلِي»[2].

وقال ميمون بن مهران: «لا يكونُ الرَّجُلُ تقِيًّا حتى يكونَ لنفسِه أشدَّ محاسبةً من الشَّرِيكِ لشَرِيكِهِ»[3].

وقد ذكر ابنُ عبد ربِّه في «العقد الفريد»[4] أنَّ عمر بن عبدالعزيز كتب إلى الحسن: اجمع لي أمر الدنيا، وصف لي أمر الآخرة.

فكتب إليه: «إنما الدنيا حُلْمٌ، والآخرة يقَظَة، والموت متوسِّط؛ ونحن في أضغاث أحلام، من حاسب نفسَه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر في العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضلَّ، ومن حلم غنم، ومن خاف سلِم؛ ومن اعتبر

---

(١) «الموطأ» (٢٨٣٧)، وسنده صحيح.

(٢) «محاسبة النَّفس» (١٠).

(٣) المرجع السابق (٧).

(٤) (٣/ ٩٥ـ ٩٦).

أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، ومن علم عمل، فإذا زَلَلْت فارجع، وإذا ندمت فأَقْلِع، وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فأمسك، واعلم أنَّ أفضل الأعمال ما أكرهت النفوس عليه».

وفي هذا المعنى يقولُ الإمام ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ:

«وهذه الجوارح السبعة ـ وهي العين[1]، والأذن، والفم، واللسان، والفَرْج، واليد، والرِّجل ـ هي مركب العَطَب والنجاة، فمنها عُطِبَ مَنْ عُطِبَ، بإهمالها وعدمِ حفظها، ونجا من نجا بحفظها ومراعاتها، فحِفْظُها أساس كلِّ خير، وإهمالُها أساس كلِّ شرٍّ؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾[النور: ٣٠]، وقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[الإسراء: ٣٧]، وقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء: ٣٦]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[الإسراء: ٥٣]، وَقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾[الأحزاب: ٧٠]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[الحشر: ١٨].

فإذا شارَطَهَا على حفظِ هذه الجوارِح انتقلَ منها إلى مطالَعَتِها والإشرافِ عليها ومراقبتها، فلا يُهملها، فإنَّه إنْ أهمَلَها لحظةً وقعتْ في الخيانة ولا بدَّ، فإنْ

(١) وهي بابٌ عظيمٌ من أبواب الخطر، ولعلَّها أعدى أعداء القلب الذي يسعى في هلاكِهِ بما تنقلُ إليه من الصُّور التي يشتهيها، فيحترق بها وبه صاحبُها، فتراه مولَّه العقلِ أبدًا، غافلًا طولَ زمانِه من شدَّة انشغال قلبِه بما آذته به عينُه، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وقد جعلَ الله ـ سبحانه ـ العينَ مرآةَ القلب، فإذا غضَّ العبدُ بصرَه غضَّ القلبُ شهوتَه وإرادتَه، وإذا أطلقَ بصرَه أطلقَ القلبُ شهوتَه». «روضة المحبِّين» (ص١٤٦).

تمادى على الإهمالِ تمادَت في الخيانـة، حتى يذْهَبَ رأسُ المال كلُّه، فمتـى أحـسَّ بالنقصان انتقل إلى المحاسبة؛ فحينئذٍ يتبيَّنُ له حقيقة الربح والخسران، فإذا أحسَّ بالخسران وتيقَّنه استدرك منها ما يستدركه الشريك مـن شريكـه، مـن الرجـوعِ عليه بما مضى، والقيام بالحفظ والمراقبة في المستقبل، ولا مَطْمَعَ له في فسـخِ عقـد الشركة مع هذا الخائن والاستبدال بغيره؛ فإنَّه لا بدَّ له منه، فليجتهـد في مراقبتـه ومحاسبته، وليحذر من إهماله»[1].

ثمَّ ليذكُر الإنسانُ ولا ينسَ، أنَّ المعصيةَ إهانةٌ للنَّفسِ واسـتهانةٌ بقَـدْرِهَا، وتمريغٌ لها في وَحَلِ الشهوةِ والحيوانيَّة، وانتقالٌ بها مـن الكرامـةِ إلى الانحطـاط، ولو تأمَّلَ العاقلُ المعصيةَ لوجدَهَا كذلك.

قال ابن سمعون: «رأيـتُ المعـاصي نذالـةً، فتركتُهَـا مـروءةً، فاسـتحالت دِيَانَةً»[2].

وهو معنى بديعٌ غايـةً، فإنَّـه يريـدُ أنَّ وازعَ الـشَّرْعِ لـتركِ الـذُّنوبِ كـان ضعيفًا في نفسِه، لا يحرِّكُه، ولم يكن يفهمُ منه ما ينبغي لـه أن يفهـم، لكـن الـذي حرَّكَه قناعَتُهُ بأنَّ الذُّنوبَ نذالةٌ وسُفُولٌ بمَلَكَاتِ النَّفسِ وانحطاطٌ بهـا، فتركَهَـا تكريمًا لنفسِهِ وإعزازًا لها وترفُّعًا بها عمَّا لا يَجْمُلُ، فما لبثَ أن اتَّضَحَت لـه حكمـةُ الشَّرْعِ في تركِ تلك الذُّنوبِ، وأنَّه ما نهاهُ عنها إلَّا لأنَّ الله يريدُ كرامَتَـه بالطَّاعـةِ، فتحوَّلَت نيَّتُه إلى الطَّاعةِ والتَّعبُّدِ حينها[3].

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٣٦ ـ ١٣٧).

(٢) «تاريخ دمشق» (٥١/ ١٢).

(٣) وانظر في نفسك، يمنعُكَ الطَّبيب من الطيِّبات لأجل صحَّة بدنك، فتطيعُه منشرحَ الصَّـدر، والله يمنعُك من الخبائث التي ليس فيها إلا ضررُك، فتعصيه! فبأيِّ وجهٍ تُلاقيه؟ فتأمَّل!

ولذا قال الحسن: «أمَا والله! لَئِنْ تَدَقْدَقَتْ بهم الهَمَالِيجُ، ووَطِئَت الرِّجَالُ أعقابَهم، إنَّ ذُلَّ المعاصي لَفِي قلوبِهم، ولقد أبى الله أنْ يعصِيَه عبدٌ إلا أذَلَّه»[1].

ومن هذا الباب ـ أيضًا ـ قولُ الجرَّاح بن عبدالله الحكمي ـ رحمه الله ـ: «تركتُ الذنوبَ حياءً أربعينَ سنةً، ثمَّ أدْرَكَنِي الوَرَع»[2].

ومنه قولُ ذي النُّون المصري: «مَنْ عَمِلَ في السِّرِّ عملًا يستحيي منه في العَلَانيةِ، فليسَ لنفسِه عندَه قَدْرٌ»[3].

وصدقَ! فحسبُك من عزِّ الطَّاعةِ أنَّها إنْ عُرِفَت عنك سُرِرت بها، وإن عُرِفَ عنكَ العصيانُ خجلتَ، وتصاغرت نفسُكَ، ففي أيِّهما ترى أن يكونَ سعيُك؟!

ومن النَّظْمِ الطَّيَّارِ السَّائِرِ[4]:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ ... وَيُتْبِعُهَا الذُّلَّ إِدْمَانُهَا

وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ القُلُوبِ ... وَالْخَيْرُ لِلنَّفْسِ عِصْيَانُهَا

وَهَلْ أَهْلَكَ الدِّينَ إِلَّا المُلُوكُ ... وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا

وَبَاعُوا النُّفُوسَ فَلَمْ يَرْبَحُوا ... وَلَمْ تَغْلُ بِالبيع أَثْمَانُهَا

لَقَدْ وَقَعَ القَوْمُ فِي جِيفَةٍ ... يَبِينُ لِذي العَقْلِ إِنْتَانُهَا

---

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ١٤٩).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٩٠).

(٣) أخرجه الدارقطني في «المؤتلف والمختلف» (٣/ ١٥٩).

(٤) هذه الأبيات لعبدالله بن المبارك ـ رحمه الله ـ، وقد بيَّنْتُ نسبتها إليه في تعليقي على «المجالسة وجواهر العلم» (٢/ ٣٠) رقم (١٧٧).

من تطبيقات محاسبة النَّفس في اليوميَّات:

«وَاعْلَم أَنِّي إِنَّما أُكْثِرُ عَلَيْك وعَلى نَفسِي من ذكر الـمُرَاجَعَةِ، لِـمَا قد استبان لِي من الِاضْطِرَار وَالحَاجة إليها... وَمَا تَركك لَهَا إِلَّا كالمستأنس لعَدوِّه وَالـمُسلِّم نَفسَه إليه، فَهَلَكْتَ وأنتَ لَا تشعر.

وإنْ كنتَ متهاونًا بِمَا أقول لَك فَإِنَّ أكثر حَاجَتك إليها فِي صَلَاة الفَرِيضَـة، ثمَّ بعْدهَا، وهلمَّ جرًّا فِي جَمِيع أمورِك، وَلَو كنت مِمَّن يتفقد أَمْرَهْ لعَلِمت مَاذَا دخـل عَلَيْك من النَّدامة وَالحَسْرَة حَيْثُ فارقتك الـمُرَاجَعَة فِي صَلَاة الفَرِيضَة، فَلم تَدْرِ مَاذَا قَرَأَ إمامك، وَلم تَدْرِ! أَفِي فرضٍ كنتَ أم فِي نَافِلَة؟ فِي صَلَاة كنت أم فِي غَيرهَـا؟! وأنت فِي رَأْيِ العين مِمَّن يُنَاجِـي ربَّه، قد أصغيتَ بأُذُنَيْك إلى إمامـك، وتخشَّـعْتَ بوقوفك، وفرَّغت قَلْبك لاستماع مَا يقرأ إمامك من كَلَام رَبك فِي صَلَاة فريضـتك، الَّتِي لَيْسَ شَيْء أوجب عَلَيْك مِنْهَا، فَرَجَعت مِنْهَا وَقد ظهر مِنْك مَا وَصفنَا، وأنت كَمَنْ لم يشهَدهَا لِقلَّة ضبطك بالمراجعة لنَفسك فِيهَا، وَلَعَلَّ الَّذِي حَـضَرْتَ مِنْهَـا بقلبك أو عقَلْتَه فَلم تَسْهَ عنه، لو قيل لك: أتحبُّ أن يكون ذَلِك مِنْـك كَـمَا كنـت سَاهِيًا وَلَك مئَة ألف دِينَارٍ؟ لَقلتَ: لَا.

فاعتنِ الآن بتعاهد هَذِه الـمُرَاجَعَة على قَدْرِ مَا عرفتَ من حَاجَتك إليهـا، فإِنَّمَا لَك من عمرك تيقُّظُك، وتيقُّظُك مُرَاجعَة مَا فِيهِ منفعك وقُرْبَتُـك، والمصـير إليه بِالعقلِ، وَمَا سوى ذَلِك غَفلَة وسهوٌ يؤدِّيَان إلى شَهْوَةٍ فِيهَا غليان قَلْبك، وَفِي ذَلِك مُوَافقَة نَفسك الأَمَّارة بالسوء، والهوى الـمُضِلِّ عَن سَبِيل الله، العَادِل بأَهْلـه عَن طَرِيق محبَّته، وَفِي ذَلِـك توثُّب العَدوِّ الخَبِيث، الَّذِي لَا يـألوك خبـالًا، الَّـذِي يجْرِي مِنْك مجْرَى الدَّم، الَّذِي يراك هُوَ وقبيله من حَيْثُ لَا تراهم.

قَالَ مَالك بن دِينَار: «قُلُوب الأبرارِ تغلي بأعمال البِرِّ، وَقُلُوب الفُجَّارِ تغلي بأعمال الفُجُور».

فتعاهد أَمرك بالمراجعة، فَإِن دَأَبْتَ مَكْرُوهًا أصلَحْتَه وتحَوَّلْتَ عنه، وَإِن رَأَيْت غير ذَلِك حَمَدتَ الله، وَكَانَت عنايتك بذلك زِيَادَة لَك أَو قربَة.

وَإِذا رَأَيْت لَك عناية بالمراجعة، فَاعْلَم أَنَّهَا نعْمَة وقربة من أعظم نعم الله، وأحقُّ من أَحْسَنتَ صُحْبَتَه نِعَمَ الله التِي مِفْتَاح خزائنها رَحمَةُ الله، فالتَمِسْ الزِّيَادَة مِنْهَا بالشكر عَلَيْهَا، وأحقُّ مَنْ أَسَأْتَ صُحْبَتَه نَفسَك الأَمَّارَة بالسُّوء؛ والإساءةُ إليها مخالَفَتُها، فَإِنَّ فِي مخالَفَتِها مُوَافقَةُ مرضاةِ الله»[1].

وقال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «تفكَّرتُ في نفسي يومًا تفكُّر محقِّق، فحاسبتها قبل أن تُحاسب، ووزَنتها قبل أن توزن، فرأيتُ اللُّطف الربانيَّ، فمنذ الطفولة وإلى الآن أرى لُطفًا بعد لطفٍ، وسترًا على قبيح، وعفوًا عمَّا يوجب عقوبةً، وما أرى لذلك شكرًا إلا باللسان، ولقد تفكَّرتُ في خطايا، لو عُوقبتُ ببعضها لهلكتُ سريعًا، ولو كشف للناس بعضها لاستحييت!

ولا يعتقد معتقد عند سماع هذا أنها من كبائر الذنوب؛ حتى يَظُن فيَّ ما يَظُنُّ في الفساق!

بل هي ذنوبٌ قبيحةٌ في حقِّ مثلي، ووقعتُ بتأويلاتٍ فاسدة، فصِرتُ إذا دعوتُ الله أقول: اللهم! بحمدك وسِترك عليَّ اغفر لي، ثم طالبتُ نفسي بالشكر على ذلك، فما وجدتُّه كما ينبغي.

فأخذتُ أنوحُ على تقصيري في شكر المُنعِم، وكوني أتلذَّذُ بإيراد العلم

---

(١) «آداب النفوس» (ص٦٢ ـ ٦٣).

من غير تحقيقِ عملٍ به، وقد كنتُ أرجو مقامات الكِبار، فذهب العمر وما حَصَل المقصود»[1].

٥ ـ الاستعانةُ بالله استعانةً مخصوصةً على ترك الذنوب:

وهذا نابعٌ من مشهدٍ يشهدُه العبدُ بقلبِهِ، وهو أنَّ ما شاءَ الله كانَ، وما لم يشأ لم يكن، وهو مشهدُ القضاءِ والقَدَرِ وردِّ الأمر إلى الله وحدَه، وإدراكُ أنَّ بيده التوفيق والإعانة، والخذلان والإهانة، وهل يُطاع ـ تعالى ـ إلَّا بمعونَتِهِ؟!

فإنَّه ـ تعالى ـ قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥]، وأتبعَهَا بإرشادِنَا إلى سؤاله هدايَتَنَا إلى الصِّراط المستقيم.

قال شيخ الإسلام: «فإنَّ الصِّراطَ المستقيمَ أنْ يفعلَ العبدُ في كلِّ وقتٍ ما أُمِرَ به في ذلك الوقتِ من علمٍ وعَمَلٍ، ولا يفعلَ ما نُهِيَ عنه، وهذا يحتاج في كلِّ وقتٍ إلى أن يعلم ويعملَ، ما أُمِرَ به في ذلك الوقتِ وما نُهِيَ عنه، وإلى أن يحصل له إرادةٌ جازمةٌ لفعل المأمورِ، وكراهةٌ جازمةٌ لتركِ المحظورِ، فهذا العلمُ المفصَّل والإرادةُ المفصَّلة لا يُتصوَّر أنْ تحصلَ للعبدِ في وقتٍ واحدٍ، بل كلَّ وقتٍ يحتاج إلى أن يجعلَ الله في قلبِهِ من العلومِ والإراداتِ ما يهتدي به في ذلك الصراطَ المستقيمَ.

نعم، حصلَ له هدىً مجملٌ بأنَّ القرآنَ حَقٌّ، والرسولَ حَقٌّ، ودينَ الإسلامِ حَقٌّ، وذلك حَقٌّ؛ ولكن هذا المجمل لا يغنيه إنْ لم يحصل له هدىً مفصلٌ في كلِّ ما يأتيه ويَذَرُه من الجزئيَّاتِ التي يحَارُ فيها أكثرُ عقولِ الخَلْقِ، ويغلبُ الهوى والشهواتِ أكثَرَ عقولِهِم لغَلَبَةِ الشَّهَواتِ والشُّبُهَاتِ عليهِم.

---

(١) «صيد الخاطر» (ص ٤٧٤).

والإنسانُ خُلِقَ ظَلُومًا جَهُولًا، فالأصلُ فيه عدمُ العِلْمِ ومَيْلُه إلى ما يهـواهُ من الشَّرِّ، فيحتاجُ دائمًا إلى علمٍ مفَصَّلٍ يزولُ به جهلُه، وعـدلٍ في محبَّتِـهِ وبُغْضِـهِ ورِضَاه وغَضَبِه وفعْلِه وتركِه وإعطائِه ومنْعِه، وأكْلِه وشُرْبِه ونَوْمِه ويَقَظَتِه، فكلُّ ما يقولُه ويعملُه يحتاجُ فيه إلى علمٍ ينافِي جهلَه، وعدْلٍ ينافي ظُلْمَه، فإنْ لم يَمُنَّ اللهُ عليهِ بالعلمِ الـمُفَصَّلِ والعَدلِ الـمُفَصَّلِ، كان فيه من الجهلِ والظُّلْمِ ما يخرجُ بـه عن الصِّرَاطِ المستقيم»(١).

فنعوذ بالله من الخذلان، فقد «أجمـعَ العَـارِفُونَ بـالله عـلى أنَّ الخِـذْلَانَ أنْ يَكِلَكَ اللهُ إلى نفسِكَ ويُخَلِّيَ بينَكَ وبينَهَا، والتوفيقَ أنْ لا يَكِلَكَ اللهُ إلى نفْسِكَ»(٢).

ويزيدُ ابنُ القَيِّمِ ـ رحمه الله ـ هذا المعنى وضوحًا؛ فيقول:

«ولَمَّا عَلِمَ عدوُّ الله إبـليسُ أنَّ الـمَدَارَ على القلبِ والاعتمادُ عليهِ؛ أجلـبَ عليه بالوساوس، وأقبلَ بوجوه الشَّهَواتِ إليهِ، وزيَّن له من الأحـوالِ والأعـمالِ ما يصُدُّه به عن الطريقِ، وأمدَّه من أسبابِ الغَيِّ بما يقطعُه عن أسـبابِ التوفيـقِ، ونصبَ له من المصايدِ والحَبَائِلِ ما إنْ سَلِم من الوقوعِ فيها لم يَسلَمْ من أنْ يحصُلَ له بها التَّعوِيقُ.

فلا نجاةَ من مصَايِدِه ومكَايِدِه إلا بدوامِ الاستعانةِ باللهِ ـ تعالى ـ، والتعرُّضِ لأسبابِ مرضاته، والْتِجَاءِ القلب إليه وإقبالِه عليهِ في حركاته وسكناته، والتحقُّـق بِذُلِّ العبودية الذي هو أَوْلَى ما تلبَّسَ به الإنسانُ ليحصُلَ لـه الـدُّخُولُ في ضَـمانِ ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾[الحجر: ٤٢]؛ فهذه الإضـافةُ هـي القَاطِعَـةُ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣٧ ـ ٣٨).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٠).

بينَ العبدِ وبينَ الشياطين، وحصولُها بسبب تحقيقِ مقامِ العبودية لـربِّ العـالمين، وإشعارِ القلـب بـإخلاصِ العلـم ودوامِ اليقـينِ، فـإذا أُشْرِبَ القلـبُ العبوديـةَ والإخلاصَ صارَ عنـدَ الله مـن الـمُقَرَّبِينَ، وشَـمِلَه اسـتثناءُ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[الحجر: ٤٠]»[١].

فاللهمَّ! نسألُك العَوْنَ على أنفُسِنا.

وقال الإمام ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ:

«وسألتُ شيـخ الإسـلام عن معنـى دعـاء النبيِّ ﷺ: «**اللهمَّ! طهِّرني من خطايايَ بالماءِ والثَّلج والبَرَد**»[٢]، كيف تُطهَّر الخطايا بذلك؟ وما فائدة التخصيص بذلك؟ وقوله في لفظ آخر: «**والماء البارد**»، والحارُّ أبلغُ في الإنقاء؟

فقال: الخطايا تُوجب للقلـب حرارةً ونجاسة وضـعفًا، فتُرخـي القلـبَ، وتُضْرِمُ فيه نارَ الشهوة، وتنجِّسه، فإنَّ الخطايا والذنوب له بمنزلة الحَطَبِ الـذي يمدُّ النار ويوقدها، ولهذا كلَّما كثرت الخطايا اشتدت نار القلبُ وضـعفُه، والمـاءُ يغسلُ الخَبَثَ ويُطفئ النار، فإنَّ كانَ باردًا أورثَ الجسم صلابةً وقوَّة، فـإنْ كـان معه ثلج وبَرَدٌ كان أقوى في التبريد وصلابة الجسم وشدَّته، فكـان أذهـبَ لأثـرِ الخطايا.

هذا معنى كلامه، وهو محتاجٌ إلى مزيد بيان وشرح، فاعلم أنَّ ها هنا أربعة أمور:

أمران حسِّيَّان، وأمران معنويَّان:

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨).

فالنَّجاسة التي تزول بالماء؛ هي ومُزِيلها حسِّيَّان، وأثر الخطايا التي تـزول بالتوبة والاستغفار؛ هي ومزيلها معنويَّان، وصلاح القلب وحياته ونعيمه لا يتم إلا بهذا وهـذا، فذكـر النبي ﷺ من كلِّ شَطْرٍ قسمًا، نبَّه بـه عـلى القسـم الآخـر، فتضَمَّنَتْ كلماتُه الأقسامَ الأربعةَ في غاية الاختصارِ، وحُسْنِ البيان»[1].

قال العلَّامة فخـر الدِّين الـرازي ـ رحمـه الله ـ: «والـذي جرَّبتُـه مـن أوَّل عمري إلى آخره، أنَّ الإنسان كلَّما عَوَّلَ في أمرٍ من الأمورِ على غيرِ الله صارَ ذلـك سببًا إلى البلاءِ والمِحْنَةِ والشِّدَّةِ والرَّزِيَّةِ، وإذا عَوَّلَ العبدُ على الله ولم يرجِع إلى أحـدٍ من الخَلْقِ، حصلَ له ذلك المطلوبُ على أحسنِ الوجوه، فهذه التجربة قد اسـتمَرَّت لي من أوَّلِ عمري إلى هذا الوقت الذي بلغتُ فيه إلى السـابعِ والخمسـين، فعنـد هذا استقرَّ قلبي على أنه لا مصلحةَ للإنسانِ في التعويلِ على شيءٍ سوى فضلِ الله ـ تعالى ـ وإحسانِه»[2].

وعلَّق عليه العلَّامة تاج الدِّين السُّبكي ـ رحمه الله ـ بقوله: «وما ذكرَه حقٌّ، ومن حاسَبَ نفسَه وجدَ الأمر كذلـك، وإنْ فُرِضَ أحدٌ عَوَّلَ في أمرٍ على غيرِ الله وحصلَ له، فاعلم أنَّه لا يخلو عن أحدِ رجلَيْن: إمَّا رجلٌ مَمكورٌ به ـ والعياذ بالله ـ، وإمَّا رجلٌ يطلبُ شرًّا وهو يحسَبُ أنَّه خيرٌ لنفسِه، ويظهرُ له ذلـك بعاقِبـةِ ذلـك الأمرِ، فما أسرعَ انقلابَه في الدُّنيا قبلَ الآخرةِ إلى أسوأِ الأحوالِ، ومن شاءَ اعتبارَ ذلك فليحاسبْ نفسَه.

واعلم أنَّ هذه الجملةَ من كلامِ الإمامِ دالَّةٌ على مراقَبَتِهِ طولَ وقتِه ومحاسبَتِه

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٩٦ ـ ٩٧).

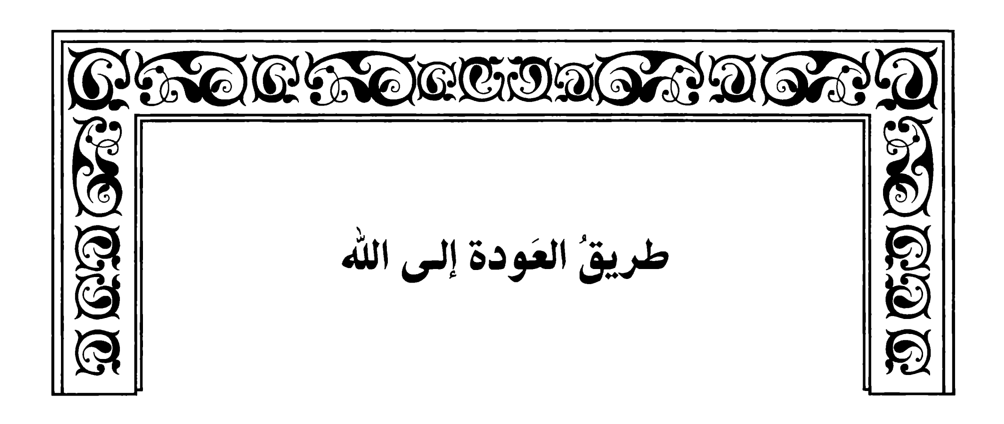
(٢) «مفاتيح الغيب» (١٨/ ١١٦).

لنفسِه ـ رضي الله عنه ـ وقَبَّحَ من يَسُبُّه أو يذكرُه بسوءٍ حَسَدًا وبَغْيًا من عندِ نفسِه.

توفِّي الإمامُ ـ رحمه الله ـ بهَرَاة، في يوم الاثنين يومِ عيد الفطر، سنة ستٍّ وست مئة»[1].

* * *

(١) «طبقات الشافعيَّة الكبرى» (٨/ ٩٣).



طريقُ العَودة إلى الله

إذا أقبلتَ على كتاب الله فقرأتَه، اقرأه لتعيش، واقرأه لتحيا، واقرأه قراءةَ طالب الهدى والباحث عن الحقيقة؛ حقيقةِ نفسِهِ وقيمتِهَا بين يدي ربِّه، اقرأه قراءة الباحث عن أسباب الرِّفعة والمجد في الدنيا والآخرة، اقرأه ليكون لك ذكرًا، اقرأه ليكون لك بين هذه الأمم منزلة.

تدبَّر معي أخي الحبيب قول ربك ـ عز وجل ـ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الأنبياء: ١٠]، وجاءت أداة التحقيق (لقد) المركَّبة من لام القَسَم وحرف التحقيق (قد) للتَّذكير بعظمة هذا القرآن ومنافعه التي عَمِيَ عنها الأكثرون، فجيئ بهذا التوكيد لإيقاظهم من غفلتهم التي أُشيرَ إليها وعِيبَت عليهم في أوَّل سورة (الأنبياء) في قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾[الأنبياء: ٢ ـ ٣][1].

وقال القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ:

«قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا﴾ يعني القرآن ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾... والمُراد بالذِّكر هنا الشرف؛ أي: فيه شرَفُكُم، مثل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (١٧/ ٢٢).

﴿ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف: ٤٤]، ثم نبَّههم بالاستفهام الـذي معنـاه التوقيـف؛ فقـال ـ عـز وجل ـ: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

وقيل: ﴿ فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ أي: ذكر أمر دينكم، وأحكام شرعكم، وما تصيرون إليه من ثواب وعقاب، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ هذه الأشياء التي ذكرناها؟!

وقال مجاهد: ﴿ فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ أي: حديثكم.

وقيل: مكارم أخلاقكم ومحاسن أعمالكم.

وقال سهل بن عبد الله: العملُ بما فيهِ حياتُكُم.

قلت: **وهذه الأقوال بمعنىً، والأوَّلُ يَعُمُّهَا؛ إذ هي شَرَفٌ كلُّهَا، والكتابُ شَرَفٌ لنبيِّنَا ـ عليه السلام ـ؛ لأنَّه معجزتُه، وهو شَرَفٌ لنا إنْ عَمِلنَا بما فيه، دليلُه** قوله ـ عليه السلام ـ: «**القرآنُ حُجَّةٌ لك أو عليك**»[1]»[2].

قال أبو عبيدة: الأمر قد تمَّ، فذِكرُنا وقيمتنا ومكانتنا في كتابنا، ولا ذكر لنا في غيره ولا بغيره.

قال العلَّامة السَّعدي ـ رحمه الله ـ: «﴿ فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ أي: شرَفُكُم وفخرُكم وارتفاعكم، إنْ تذكَّرتم به ما فيه من الأخبار الصادقة فاعتقدتموها، وامتثلتم ما فيه من الأوامر، واجتنبتم ما فيه من النواهي، ارتفع قدْرُكم، وعَظُمَ أمرُكُم، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ما ينفعكم وما يضركم؟ كيف لا ترضون ولا تعملون على ما فيه ذكركم وشرفكم في الدنيا والآخرة؟ فلو كان لكم عقلٌ لسَلَكْتُم هذا السبيل، فلمَّا لم تسلكوه، وسلكتم غيرَه من الطرق التي فيها ضَعَتُكُم وخِسَّتُكُم في الدُّنيا

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٧٣).

والآخرة، وشقاوتكم فيهما؛ عُلِمَ أَنَّه ليس لكم معقولٌ صحيح، ولا رأيٌ رَجِيحٌ.

وهذه الآية مصداقها ما وقع؛ فإنَّ المؤمنين بالرَّسول الذين تذكَّروا بالقرآن من الصحابة فمن بعدهم حصل لهم من الرِّفعة والعلوِّ الباهر، والصِّيتِ العظيم، والشَّرَفِ على الملوك، ما هو أمرٌ معلومٌ لكلِّ أحدٍ، كما أَنَّه معلومٌ ما حصلَ لمن لم يرفع بهذا القرآن رأسًا ولم يهْتَدِ به ويتَزَكَّ به من الـمَقْتِ والضَّعَةِ، والتَّدْسِيَةِ، والشَّقَاوَةِ، فلا سبيل إلى سعادة الدنيا والآخرة إلا بالتذكُّر بهذا الكتاب»[1].

وقال البقاعي: «﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ طوال الدَّهر بالخيرِ إنْ أطَعْتُم، والـشرِّ إنْ عصيتُم، وبه شرَفُكُم على سائرِ الأمم بشَرَفِ ما فيه من مكارمِ الأخلاقِ التي كنـتُم تتفاخرون بها، وبشرفِ نبِيِّكُم الذي تقولون عليه الأباطيل، وتكثرون فيـه القـالَ والقِيل»[2].

«وعلى القول الأقوى ـ وهو أن المراد به الشرف ـ يكون خطابًا للعرب؛ إذ يذكرهم الله بنعمته عليهم، إذ شـرفهم بهذا القرآن، بل التعبير يفيـد أنـه شرفهـم الوحيد؛ إذ تقديم (فيه) وهو جار ومجرور على المبتدأ يفيد الاختصاص، ولو أنك تأملت شيئًا يشرف به العرب في هذا العالم لم تجد شيئًا غير هذا القرآن، فما من شـئ قدمه العرب للعالم إلا وهم فيه عالة على غيرهم أو يشاركهم فيه غيرهم إلا هـذا القرآن الذي أنزله الله عليهم، فإنه الشرف الذي لا ينازعهم فيه غيرهم، وعنـدما يرفض العرب هذا القرآن يكونون قد رفضوا شرفهم، ويدللون بذلك على عـدم عقلهم»[3].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٥١٩ ـ ٥٢٠).

(٢) «نظم الدرر» (٥/ ٧١).

(٣) «الأساس في التفسير» (٧/ ٣٤٣٦).

علينا أن نؤمن إيمانًا جادًّا، وإيمانًا يبني في نفوسنا حائطًا منيعًا أمام المعاصي والشهوات، إيمانًا يجعلنا نُديمُ النَّظر في العواقب، ونرجو ما عند الله وحده.

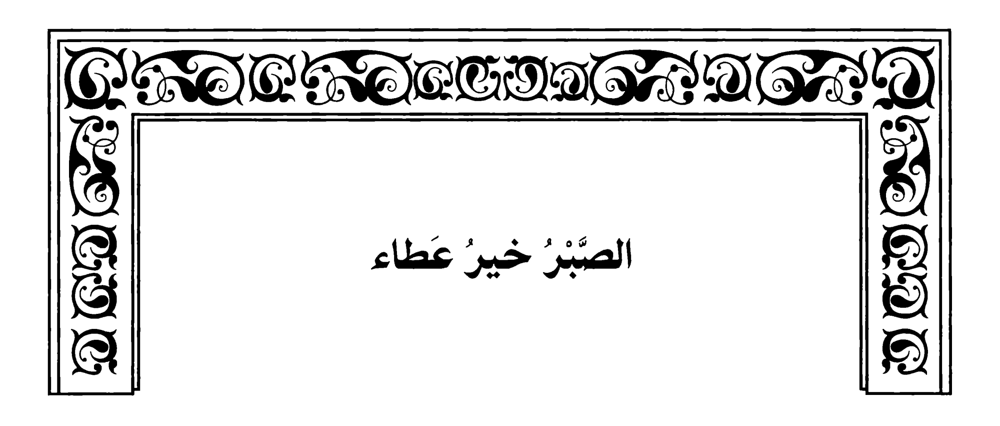
قال مسلم بن يسار: «ما أدري! ما إيمانُ رجلٍ كَرِهَ شيئًا لم يَدَعْهُ لله؟ وما أدري! ما حَسَبُ رجلٍ نزل به أمرٌ، لم يصبر لله لما يرجوه من الثواب غدًا في القيامة؟ وما أدري! ما حَسَبُ امرئٍ عَرَضَتْ له شهوةٌ لم يدَعْها لِـمَا يخافُ يوم القيامةِ؟»[1].

فما الذي يحقِّقه لك الذنب؟ ما النتيجة؟ وما الغاية؟ وبماذا تفوز إن فُزْتَ به؟

إنَّ الذَّنبَ هو السَّهمُ الأَخْيَبُ الذي لا يأتي إلَّا بالشَّرِّ، وبالقليل من النَّظر في العواقب القريبة والبعيدة في الدنيا والآخرة؛ لا يختارُ العاقلُ معصيةَ الله وغضبَه والتَّعرُّضَ لعقابِه.

* * *

(١) أخرجه الدِّينوري في «المجالسة» (٨٧٧ ـ بتحقيقي)، وأبو نُعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٢٩٢).



الصَّبْرُ خيرُ عَطاء

قال ابـن القيِّم ـ رحمـه الله ـ: « الصَّبرُ عن الشَّهوةِ أسهلُ من الصَّبرِ على ما توجِبُه الشَّهوة؛ فإنَّها إمَّا أن توجِبَ ألـمًا وعقوبةً، وإمَّا أن تقطعَ لَذَّةً أكملَ منها، وإمَّا أن تُضيِّعَ وقتًا إضاعتُه حـسرةٌ وندامةٌ، وإمَّا أن تَثْلِمَ عِرْضًا توفيرُه أنفعُ للعبدِ من ثَلْمِه، وإمَّا أنْ تُذْهِبَ مالًا بقاؤُه خيرٌ له من ذهابِه، وإمَّا أنْ تضعَ قَدْرًا وَجَاهًا قيامُه خيرٌ من وَضْعِه، وإمَّا أن تسلُبَ نعمةً بقاؤُها أَلَذُّ وأَطْيَبُ من قضاءِ الشهوةِ، وإمَّا أنْ تُطَرِّقَ لوَضِيعٍ إليكَ طَريقًا لم يَكُنْ يَجِدُها قبل ذلك، وإمَّا أن تجلبَ همًّا وغَمًّا وحُزْنًا وخوفًا لا يُقَارِبُ لَذَّةَ الشهوةِ، وإمَّا أنْ تنسَى علمًا ذِكْرُه أَلَذُّ من نيلِ الشَّهْوَةِ، وإمَّا أن تُشْمِتَ عدُوًّا وتُحْزِنَ وَلِيًّا، وإمَّا أن تقطعَ الطَّريقَ على نِعْمةٍ مُقْبِلَةٍ، وإمَّا أنْ تُحْدِثَ عَيْبًا يبقَى صِفَةً لا تزولُ، فإنَّ الأعمالَ تورِثُ الصِّفاتِ والأخلاقَ»[1].

فاللهمَّ ارزُقنا حُسْنَ النَّظر في العواقب.

وصدقَ رسولُ الله ﷺ، وهو الصَّادقُ المصدوقُ؛ فقد قال: **«ومن يستَعْفِفْ يُعِفُّهُ الله، ومن يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله، ومن يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله، وما أُعْطِيَ أَحَدٌ عطاءً خيرًا وأوسعَ من الصَّبْرِ»**[2].

---

(١) «الفوائد» (ص٢٠٢ ـ ٢٠٣).

(٢) رواه البخاري (١٤٦٩) ومسلم (١٠٥٣).

وقال: «**إن الرجل ليكون له المنزلة عند الله؛ فما يبلغها بعمل؛ فلا يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلِّغه إياها**»[1].

قال البقاعي: «لا كرامة أعظمُ مِن حِفظِ المكلَّف لحدود الشَّرع مع المنافاة لطَبعِه، فيكون جامعًا للإيمان بنصفَيه: الصَّبر والشُّكر»[2].

وقال شيخ الإسلام: «كثير من المرضى يُشفَون بلا تداوٍ بدعوة مستجابة أو رقية نافعة أو قوة للقلب وحسن التوكل»[3].

وقال ابن القيم: «لولا محن الدنيا ومصائبها لأصاب العبد من أدواء الكِبْر والعُجْب والفَرعَنَة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلًا وآجلًا»[4].

وقال ابن حجر: «الله يجعل لأوليائه عند ابتلائهم مخارج، وإنما يتأخر ذلك عن بعضهم في بعض الأوقات تهذيبًا وزيادة لهم في الثواب»[5].

وقال الشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ: «من انتظر الفرج أثيب على ذلك الانتظار؛ لأن انتظار الفرج حسن ظن بالله، وحسن الظن بالله عمل صالح يثاب عليه الإنسان»[6].

* * *

---

(١) حسنه شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٢٥٩٩).

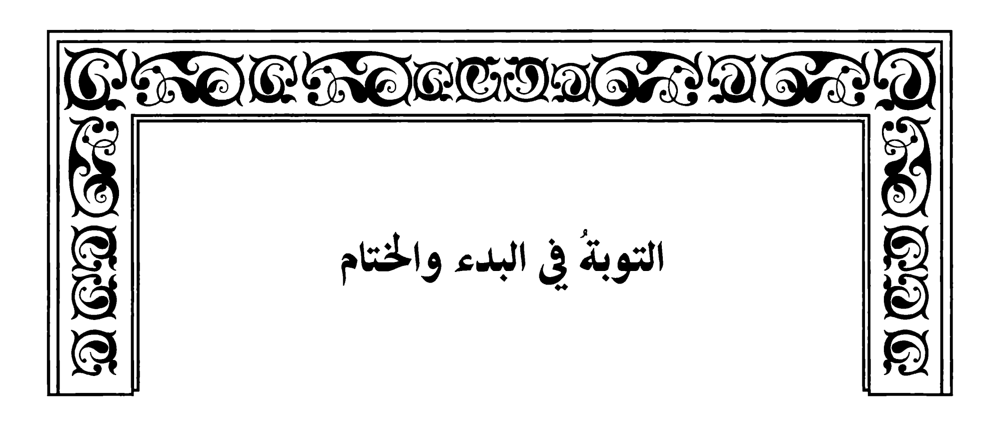
(٢) «نظم الدرر» (٨/ ١٥١).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٥٦٣).

(٤) «زاد المعاد» (٤/ ١٧٩ ط الرسالة).

(٥) «فتح الباري» (٦/ ٤٨٣).

(٦) «فتاوى نور على الدرب» (٢٢٥).



التوبةُ في البدء والختام

اعلم ـ رحمك الله ـ أنَّك لا تصل إلى مُبْتَغَاك في تحقيق التَّوبةِ، والشفاء من أثر الذَّنبِ ظاهرًا وباطنًا؛ حتى تكون لك خمسةُ أطوارٍ تمرُّ ببعضِهَا، ويتفضَّل الله ـ وهو ذو الإنعام والفضل ـ ببعضِها الذي لا تملكُه أنت، وما لم يشأ الله؛ لم يكن:

الأوَّل: استشعار وطأةِ الذَّنبِ، وحُرْقَتِه، ونَكَدِه، ومرارَتِه، فمن أين يتوب من يستمرئُ ذنبَه ويتلذَّذ به؟! قال ـ تعالى ـ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾.

الثاني: حسن الظن بالله؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾.

الثالث: أن يتوب الله عليك؛ ومعناه أنْ يوفِّقك إلى التوبة إذا رأى صِدْقَ إرادتك وقوَّة توجُّهك، قال ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: وفَّقهم للتوبة.

الرابع: توبتك أنت إلى الله؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾.

الخامس: قبول توبتك من الله؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وهذا كلُّه منتزعٌ على نحوٍ واضحٍ ظاهرٍ بيِّنٍ من قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

ومع ذا؛ فالغفلةُ والنِّسيانُ جِبِلَّةٌ في بني آدم، فقد خرَّج الطَّبراني[1] عن ابن عباسٍ عن النبي ﷺ قال: «**ما من عبدٍ مؤمنٍ إلَّا وله ذَنْبٌ يعتادُه الفَيْنَةَ بعدَ الفَيْنَةِ، أو ذنبٌ هو مقيمٌ عليه لا يفارقُه حتى يفارقَ، إنَّ المؤمنَ خُلِقَ مُفَتَّنًا توَّابًا نَسِيًّا، إذا ذُكِّرَ ذَكَرَ**».

وصدقَ الله: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ** ﴾[الأعراف: ٢٠١].

فطريقُ الرجوعِ واضحةٌ، مسلوكةٌ، عامرةٌ، ومقام التوبةِ والأَوْبَةِ محبوبٌ لله، والتَّائبُ من الذَّنبِ كمن لا ذنبَ له.

«وقال سفيان بن عيينة: «التوبةُ نعمة من الله أنعم بها على هذه الأمـة دون غيرهم من الأمم، وكانت توبة بني إسرائيل القتل».

وقال الزهري: لما قيل لهم: ﴿ **فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ** ﴾[البقرة: ٥٤] قاموا صفَّيْن وقتَلَ بعضُهم بعضًا، حتى قيل لهم: كُفُّوا! فكانت لهم شهادةً للمقتولِ وتوبةً للحيِّ»[2].

وإنَّما رفعَ الله عنهم القتـل لما أعطَوْا المجهود في قتل أنفسهم، فـما أنعـم الله على هذه الأمة نعمةً بعد الإسلام هي أفضل من التوبة، إنَّ الرجل ليفنى عمره أو ما أفنى منه في المعاصي والآثام، ثم يندم على ذلك ويقلع عنه ويقوم وهو حبيـب الله، قال ـ تعالى ـ: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ** ﴾[البقـرة: ٢٢٢]، وقال ﷺ: «**التائبُ من الذَّنب كمَنْ لا ذنبَ له**»[3].

---

(١) في «المعجم الكبير» (١١٨١٠)، وصححه شيخنا في «الصحيحة» (٢٢٧٦).

(٢) القائل: «فكانت شهادة للمقتول...» هو قتادة؛ كما في «المجالسة» (٤/ ٣٦٢ ـ بتحقيقي).

(٣) رواه ابن ماجه (٤٢٥٠)، وحسَّنه شيخنا الألباني ـ رحمه الله ـ.

وقال ابن المبارك: «حقيقة التوبة لها ستُّ علاماتٍ؛ **أوَّلها**: النَّدم على ما مضى، **والثانية**: العزم على أن لا تعود، **والثالثة**: أن تعمد إلى كلِّ فرضٍ ضيَّعْتَه فتؤدِّيه، **والرابعة**: أن تعمد إلى مظالم العباد فتؤدِّي إلى كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، **والخامسة**: أن تعمد إلى البدن الذي ربَّيْتَهُ بالسُّحْتِ والحرام فتذيبه بالهموم والأحزان، حتى يلصق الجلد بالعظم، ثم تنشئُ بينهما لحمًا طيِّبًا إنْ هو نشأ! **والسادسة**: أنْ تذيقَ البَدَنَ أَلَمَ الطَّاعةِ كما أذقتَه لذَّةَ المعصيةِ».

وقال ميمون بن مهران عن ابن عباس: «كم تائبٍ يُرَدُّ يومَ القيامةِ يظُنُّ أنَّه تائبٌ وليس بتائب؟! لأنَّه لم يُحكِم أبوابَ التوبةِ».

وقال عبدالله بن سُميط: «ما دام قلبُ العبد مصرًّا على ذنبٍ واحد، فعمله معلَّقٌ في الهواء، فإنْ تابَ من ذلك الذنبِ، وإلا بقيَ عملُه أبدًا معلَّقًا»»[1].

روى البخاري في «صحيحه»[2] عن أبي هريرةَ؛ قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ قالَ:

«**إنَّ عبدًا أَصابَ ذَنْبًا** ـ ورُبَّما قَالَ: أَذْنَبَ ذَنْبًا ـ، **فقالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ** ـ ورُبَّما قَالَ: أَصَبْتُ ـ؛ **فاغْفِرْ لي. فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ويَأْخُذُ به؟ غَفَرْتُ لعَبْدي.**

ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَصابَ ذَنْبًا ـ أَو أَذْنَبَ ذَنْبًا ـ، **فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ** ـ أَوْ أَصَبْتُ آخَرَ ـ؛ **فاغْفِرْهُ. فقالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ويَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدي.**

---

(١) «شرح ابن بطَّال على صحيح البخاري» (١٠/ ٨٠ ـ ٨١)، ويُنظر: «التوضيح» (٢٩/ ٢٠٠) لابن الملقِّن.

(٢) برقم (٧٥٠٧) في (التوحيد، باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾).

ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا ـ ورُبَّما قـالَ: أَصَابَ ذَنْبًـا ـ، قـالَ: رَبِّ أَصَبْتُ ـ أَوْ أَذْنَبْتُ آخَرَ ـ؛ فاغْفِرْهُ لِي. فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّـا يَغْفِـرُ الـذَّنْبَ ويَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ـ ثَلاثًا ـ، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ».

ومن فوائد هذا الحديث:

أنَّ توبة المرء بعد مقارفته الذنوب في كل حين تخرجه من حدِّ الإصرارِ عليها.

ومنها: أن الله ـ عـز وجـل ـ يغفر للمـرء ما أناب إليه وتاب، وإن واقَعَ الذنوب بعد ذلك، وذلك لأنه لا يغفر الذنوب إلا الله ـ تعالى ـ، فهو غافر الذنب، وقابل التوب، قال الإمام النووي: «لو تكرر الذنب مئة مرة، أو ألف مرة، أو أكثر، وتاب في كلِّ مرة؛ قُبِلَتْ تَوْبَتُهُ، وسقطت ذنوبه، ولو تاب عن الجميع توبةً واحدةً بعدَ جميعِها؛ صحت توبته»(١).

ومنها: أن هذا الحديث يدل على عظيم فائدة الاستغفار، وعلى عظيم فضل الله، وسعة رحمته وحلمه وكرمه، لكنَّ هذا الاستغفار هو الذي ثبت معناه في القلب مقارنًا للسان؛ لينحلَّ به عقد الإصرار، ويحصل معه، فهو ترجمة للتوبة، لا من قال: (أستغفر الله) بلسانه وقلبه مصرٌّ على تلك المعصية، فهذا الذي استغفاره يحتاج إلى استغفار.

ومنها: أنَّ العود إلى الذَّنب وإنْ كان أقبح من ابتدائه؛ لأنه انضاف إلى ملابسة الذنب نقض التوبة، لكن العود إلى التوبة أحسن من ابتدائها؛ لأنه انضاف إليهـا ملازمة الطَّلب من الكريـم، والإلحاح في سؤاله، والاعتراف بأنه لا غافر للذَّنب سواه.

---

(١) «شرح النَّووي على صحيح مسلم» (١٧/ ٧٥).

ومن المناسبِ أن نذيِّلَ هذه الفوائد المهمَّة بهذا التفصيل في (فقه التَّوبة) من شيخ الإسلام، وله ـ كعادته ـ رحمه الله ـ من التدقيقِ والتحقيق ما لا يقاربه فيه أحدٌ؛ قال:

«الإنسان قد يستحضر ذنوبًا فيتوب منها، وقد يتوب (توبة مطلقة) لا يستحضر معها ذنوبه، لكن إذا كانت نيته (التوبة العامة) فهي تتناول كل ما يراه ذنبًا؛ لأن التوبة العامة تتضمن عزمًا عامًّا بفعل المأمور وترك المحظور، وكذلك تتضمن ندمًا عامًّا على كل محظور، فمن تاب (توبة عامة) كانت هذه التوبة مقتضية لغفران الذنوب كلها، وإن لم يستحضر أعيان الذنوب.

إلا أن يعارض هذا العام معارض يوجب التخصيص، مثل أن يكون بعض الذنوب لو استحضره لم يتب منه؛ لقوة إرادته إياه أو لاعتقاده أنه حسن ليس بقبيح.

فما كان لو استحضره لم يتب منه؛ لم يدخل في التوبة، وأما ما كان لو حضر بعينه؛ لكان مما يتوب منه، فإن التوبة العامة شاملته.

وأما (التوبة المطلقة): وهي أن يتوب توبة مجملة، ولا تستلزم التوبة من كل ذنب فهذه لا توجب دخول كل فرد من أفراد الذنوب فيها ولا تمنع دخوله، كاللفظ المطلق، لكن هذه تصلح أن تكون سببًا لغفران المعيَّن، كما تصلح أن تكون سببًا لغفران الجميع، بخلاف (العامة) فإنها مقتضية للغفران العام، كما تناولت الذنوب تناولًا عامًّا.

وكثير من الناس لا يستحضر عند التوبة إلا بعض المتصفات بالفاحشة أو مقدماتها أو بعض الظلم باللسان أو اليد، وقد يكون ما تركه من المأمور الذي يجب لله عليه في باطنه وظاهره من شعب الإيمان وحقائقه أعظم ضررًا عليه مما

فعله من بعض الفواحش، فإن ما أمر الله به من حقائق الإيمان التي بها يصير العبد من المؤمنين حقًّا أعظم نفعًا من نفع ترك بعض الذنوب الظاهرة؛ كحب الله ورسوله، فإن هذا أعظم الحسنات الفعلية.

وحينئذ فأي ذنب تاب منه ارتفع موجَبه، وما لم يتب منه فله حكم الذنوب التي لم يتب منها، فالشدة إذا حصلت بذنوب وتاب من بعضها، خفف منه بقدر ما تاب منه، بخلاف ما لم يتب منه، بخلاف صاحب (التوبة العامة).

والناس في غالب أحوالهم لا يتوبون (توبة عامة) مع حاجتهم إلى ذلك.

فإن التوبة واجبة على كل عبد في كل حال؛ لأنه دائمًا يظهر له ما فرط فيه من ترك مأمور أو ما اعتدى فيه من فعل محظور، فعليه أن يتوب دائمًا»[1].

وقد زاد شيخ الإسلام ابن تيميَّة الأمرَ بيانًا بالتفريق بين مقَام (التوبة) ومقام (التَّرك)، وهو تفريقٌ مهمٌّ جدًّا؛ فقال ـ رحمه الله ـ:

«وقد يَظُنُّ الظَّانُّ أنَّه تائبٌ ولا يكونُ تائبًا، بل يكونُ تاركًا، **والتَّارِكُ غيرُ التَّائِبِ**، فإنَّه قد يُعْرِضُ عن الذَّنبِ لعدمِ خُطُورِه ببالِه أو لعجزه عنه، أو تنتفي إرادتُه له بسببٍ غيرِ دينِيٍّ، وهذا ليس بتوبة، بل لا بدَّ من أنْ يعتقدَ أنَّه سيِّئةٌ، ويكره فِعْلَه لنهي الله عنه، ويدَعَه لله ـ تعالى ـ لا لرغبةِ مخلوقٍ ولا لرهبةِ مخلوقٍ؛ فإنَّ التوبةَ من أعظمِ الحَسَنَاتِ؛ والحَسَنَاتُ كلُّهَا يشترطُ فيها الإخلاصُ لله، وموافقةُ أمرِه»[2].

قال إبراهيم بن أدهم: «أثقلُ الأعمالِ في المِيزَانِ أثقلُها على الأبدان، ومَنْ

---

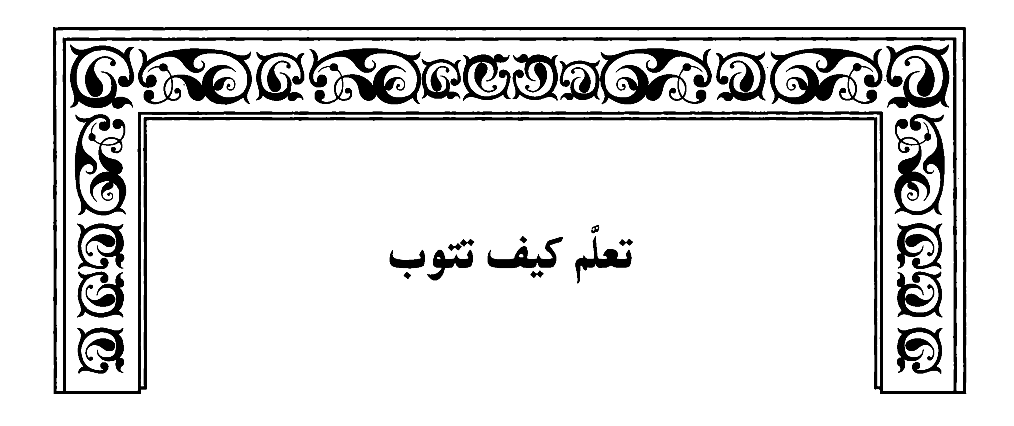
(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٢٥ وما بعدها).

(٢) «الفتاوى الكبرى» (٥/ ٢٧٦).

وفَّى العَمَلَ وُفِّيَ له الأجر، ومن لم يعمل؛ رحلَ من الدُّنيا إلى الآخرةِ بلا قليلٍ ولا كثيرٍ»[1].

* * *

(1) «حلية الأولياء» (٨/١٦).



تعلَّم كيف تتوب

عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ - رضي الله عنه - عن النبيِّ ﷺ قال: «كانَ في بَنِي إسرائيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسعَةً وتِسعينَ إِنْسانًا، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ، فأَتَى راهِبًا، فسَأَلَهُ، فقالَ لهُ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قالَ: لا. فقَتَلَهُ، فجَعَلَ يَسْأَلُ، فقالَ لهُ رَجُلٌ: ائْتِ قريَةَ كَذا وكَذا. فأَدركَهُ المَوْتُ، فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَها، فاخْتَصَمَتْ فيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ ومَلَائِكةُ العَذاب، فأَوْحَى اللهُ إلى هذهِ أَنْ تَقَرَّبِي، وأَوْحَى إلى هذهِ أَنْ تَباعَدِي، وقالَ: قِيْسُوا مَا بيْنَهُما، فوُجِدَ إلى هذهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ، فغُفِرَ لهُ»(١).

«وهذا إرشادٌ منه ﷺ لمن وقع في كبيرة أو كبائر إلى الطريق التي يتخلص بها من الكبائر، وهي التوبة التي عرضَها الله على العباد، حيث أمرهم بها، وأوجبها عليهم، وأخبر - سبحانه - عن نفسه أنَّه يقبلها، كلُّ ذلك فضلٌ من الله ولُطف بالعبد لِـمَا علم من ضعفه عن مقاومة الحوامل على المخالفات، التي هي النَّفس والشيطان الإنسيُّ والجنِّيُّ، وأيضًا فإنَّه أوجبَ على النُّصَحاءِ أن يعرضوها على أهل المعاصي ويحثُّوهم عليها»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٠) ومسلم (٢٧٦٦).

(٢) «شرح سنن أبي داود» (١٨/ ٢١٨) لابن رسلان الرملي.

«ومن لُطف الله ـ تعالى ـ أنَّ انقلاب النَّاس من الشرِّ إلى الخير كثيرٌ، ومن الخير إلى الشرِّ في غاية النُّدور»[1].

فقضت سنَّته في شرعه وفي كونه أنَّه يحبُّ التوبة ويوفِّق العبادَ لها، وما زالوا مجتهدين في الإخلاص، متحرِّزين من الرياء، تاركين العُجب بالأعمال، والرُّكون إليها، خوفًا من سوء الخاتمة.

وفي الحديث المتقدم من معالم التوبة وفقهها فوائدُ كثيرةٌ مهمَّةٌ:

منها: أنه يجب على المرء لزوم الندم على ما كان منه رجاء مغفرة الله ـ تعالى ـ ذنوبه، وتكفيره عن سيئاته.

ومنها: أن القتل ـ وهو من أعظم العظائم المردية ـ يُرْجَى العفو عن مرتكبه إذا تاب وأناب إلى الله ـ عز وجل ـ، ومن الوارد في ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ** ﴾[النساء: ٤٨].

ومنها: أن بيئة المرء لها أكبر الأثر في نفسه، فهو كالشجرة إذا نبتت في أرض سوء أخرجت ثمرًا خبيثًا، وإن نبتت في أرض طيبة آتت أكلها طيبًا بإذن الله، وقد صرَّح العلماء باستحباب مفارقة التائب المواضع التي أصاب بها الذنوب، ومقاطعة الحاثِّين له على ذلك ما داموا على حالهم، وأن يستبدل بهم صحبة أهل الخير والصلاح من العلماء والمتعبِّدين الورعين ومن يقتدى بهم وينتفع بصحبتهم، فتتأكد بذلك توبته؛ فإن مزايلة أماكن السوء ومواطن الضلال، والركون إلى أهل الخير والعيش معهم، ومنابذة الفجار والأشرار؛ كلها من علامات ثبوت التوبة.

---

(١) «شرح سنن أبي داود» (١٨/ ٢٦٨) لابن رسلان الرملي.

ومنها: أن فيه إشارة إلى أن التائب ينبغي له مفارقة الأحوال التي اعتادها في زمن المعصية.

ومنها: أن الله ـ تعالى ـ يجازي عبده حسب نيته وعزمه، وإن لم يعمل، فإن الله ـ تعالى ـ قد رحم هذا الرجل قبل أن يصل إلى القرية الصالحة، وقبل أن يعمل شيئًا من الصالحات.

ومنها: أن فيه دليلًا على أهمية السؤال، والتثبت فيه، وأنه ينبغي أن يكون ذلك للعلماء، فهم الذين يبيِّنوا المخرج، ويحلُّوا المعضل، ويوضِّحوا المشكل.

وعن أبي سعيد الخدريِّ ـ رضي الله عنه ـ أيضًا ـ عن النبيِّ ﷺ قال:

«**أَنَّ رَجُلًا كَانَ قَبْلَكُمْ رَغَسَهُ**(١) **اللهُ مَالًا، فقالَ لِبَنِيهِ لَـمَّا حُضِرَ: أَيَّ أَبٍ كنْتُ لكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرُ أَبٍ. قالَ: فإِنِّي لَمْ أَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فإذا مُتُّ؛ فأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ ذَرُّونِي في يوم عاصِفٍ، ففَعَلوا، فجَمَعَهُ اللهُ ـ عز وجل ـ، فقالَ: ما حَمَلَكَ؟ قالَ: مَخافَتُكَ، فتَلَقَّاهُ برَحْمَتِهِ**»(٢).

ففي هذا الحديث:

أنَّ مَن ملأَ الخوفُ من عاقبةِ ذنوبِه قلبَه، وخافَ مقامَ ربِّه حقَّ الخوفِ، وعلمَ اللهُ صِدْقَه في ذلك، فإنَّه تُرجى رحمتُه.

فالحمد لله الرَّحيم الرحمن على فضله ونِعَمِهِ ورحمته، وعلى بابٍ للتوبة مفتوحٌ لا ينغلقُ إلَّا إن غرغرت الرُّوح.

وتذكر دائمًا أنَّ «للتوبة أركانٌ: الندم على ما وقع، والعزم على ألا تعود،

---

(١) الرَّغسُ: السَّعةُ في النعمة والبركة فيها.

(٢) رواه البخاري (٣٤٧٨) ومسلم (٢٧٥٧).

والإقلاع عن المعصية، فإن تعلَّقَت بآدمي توقف على استحلاله منه، وهي فرض على الإنسان إجماعًا في كل وقت وآن، ومن كل ذنب أو غفلة أو تقصير في كمال، وما منَّا أحدٌ خلا من ذلك بالقلب والجوارح واللسان، وأصلها الرجوع، وعلامتها حسن الحال، وصدق المقال، وخلق الله لها في الحال، وتجب في الحرام، وتستحب في المكروه، وتوبة الزهاد عن الشهوات، والمقربين عن الشبهات، فمن لطفه بنا توبةُ من قبلَنا بالقتلِ بالمحدَّد، وتوبتنا بإظهار الندم والتجلُّد، وتلك في لحظةٍ، وتوبتنا مستمرة ولله الحمد.

وفي التوبة والاستغفار معنى لطيف؛ وهو استدعاء محبة الله ـ كما سلف ـ، لا جرم جرى عليها السلف والخلف، والأنبياء أكثروا منها ومن الأوبة والإنابة في كل حين، والبراءة من الحوبة استدعاء للمحبة، والاستغفار في معنى التوبة؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾[التوبة: ١١٧]، ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾[النصر: ٣]»(١).

وعياذًا بك اللهمَّ من اغترارٍ بحلمك، ومن طمع كطمع المفاليس في عفوك.

فيا عبدالله! في الخلوةِ مع الله لا تحتاجُ إلى حجزِ ميعادٍ مُسبَق، فكلُّ الأوقاتِ لك.

ويا عبدالله! في دعاءِ الله كَرِّر حاجتَك ما شئتَ، فإذا مَلَّ البشرُ الإعادةَ فإنَّ اللهَ لا يَمَلُّ سماعَك.

ويا عبدالله! في خلوتك بالله لا أحدَ يُعْجِلُكَ، ولا أحدَ يطلبُ منك المُغادَرَةَ لأنَّك طوَّلْتَ في اللقاء، بل كلَّما أَطَلْتَ كنتَ أقربَ إلى ربِّك.

---

(١) «التوضيح» (٢٠٢ ـ ٢٠٣) لابن الملقِّن.

ويا عبدالله! لا عليكَ في خلوتكَ بالله لو دمَعَت عيناكَ وحَشْرَجْتَ وتلَعْثَمْتَ، فإنَّ الانكسارَ له والتذَلُّل بين يديه هو القوَّة والعزُّ.

ويا عبدالله! بُحْ بما شئتَ، واعترف بما شئتَ، فإنَّكَ إذا خلوتَ بربِّكَ بين يَدَيْ السِّتِّير الذي لا أحدَ يحبُّ العُذْرَ أكثر منه.

قال ابن القيم: «فليس للعبد إذا بُغي عليه وأُذي وتسلَّط عليه خصومُه؛ شيءٌ أنفع له من التوبة النصوح.

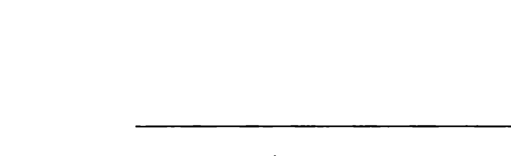
وعلامةُ سعادته: أن يعكس فِكرَه ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه، فيشتغل بها وبإصلاحها والتوبة منها، فلا يبقى فيه فراغٌ لتدبُّر ما نزل به، بل يتولَّى هو التوبة وإصلاح عيوبه، والله يتولَّى نُصرته وحِفظَه والدَّفعَ عنه ولا بُدَّ.

فما أسعدَه من عبدٍ!

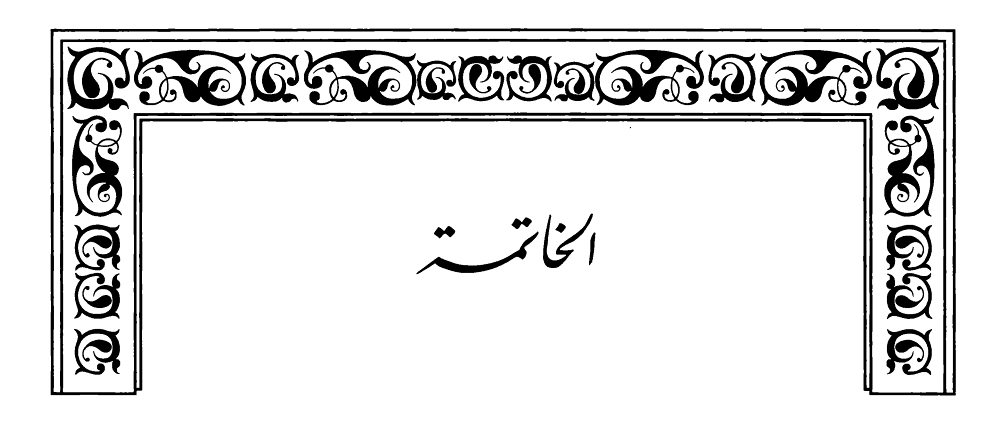
وما أبركها من نازلةٍ نزلت به!

وما أحسن أثرها عليه!

ولكنَّ التوفيق والرُّشد بيد الله، لا مانع لما أعطى، ولا مُعطيَ لِما منع، فما كلُّ أحدٍ يُوفَّق لهذا، لا معرفةً به، ولا إرادةً له، ولا قدرةً عليه، ولا حَول ولا قوَّة إلَّا بالله»(١).



(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٧٧١).



الخاتمة

قال عمر بن ذرٍّ: «يا أهلَ معاصي الله! لا تغترُّوا بطولِ حلمِ الله عنكم، واحذروا أسَفَه[1]، فإنَّه قالَ ـ جلَّ مِن قائلٍ ـ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]»[2].

وقال الفضيل بن عياض: «تفكَّروا واعملوا من قبل أن تندموا، ولا تغتروا بالدنيا، فإنَّ صحيحها يَسْقَمُ، وجديدَها يَبْلَى، ونعيمها يفنى، وشبابها يهرَم»[3].

وإنْ لم تعزم الآنَ على التَّوبةِ وإصلاحِ نفسِكَ؛ فقد قدَّمتُ لك ما أرجو أن يكونَ رادعًا لي ولكَ ـ أخي في الله ـ عن كلِّ تفريطٍ وإهمالٍ، فقد هدانا ربُّنا النَّجدَين، وبيَّنَ السَّبيلَيْنِ، وليسَ لأحدٍ أن يستنكِرَ إلباسَهُ ثوبًا في العاقبةِ غَزَلَه على مغزَلِه، ولا أن يستوحِشَ دارًا بَنَاها بيديه.

فلا تَجْزَعَنْ من سِيرةٍ أنتَ سِرْتَهَا
فأوَّلُ راضٍ سُنَّةً من يسيرُهَا

(١) أي: غضبه.

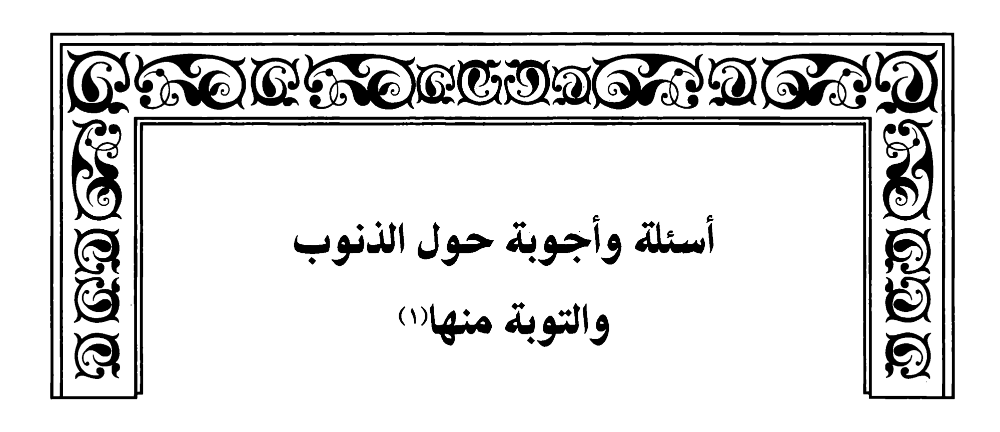
(٢) «تاريخ دمشق» (٤٥/ ٢٢).

(٣) «الزهد الكبير» (١/ ١٩٧) للبيهقي.

آخره، والحمد لله رب العالمين.

وصلَّى الله وسلَّم وبارَك على نبيِّنا محمَّدٍ، وآلِهِ وصحبِهِ أجمعين.

❑ ❑ ❑



أسئلة وأجوبة حول الذنوب والتوبة منها[1]

السؤال الأوَّل: شيخ بارك الله فيك، كيف يتخلص الإنسان من معاصي الخلوات؟

الجواب: أخرج ابن ماجه[2] من حديث ثوبان ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**لأعلمَنَّ أقوامًا مِنْ أمَّتي، يأتون يوم القيامة بحسناتٍ أمثالِ جبالِ تِهامَةَ بِيضًا، فيجعلها الله ـ عز وجلَّ ـ هباءً منثورًا**».

قال ثوبان: يا رسول الله! صِفْهُم لنا، جَلِّهِمْ لنَا، أنْ لا نكونَ منهم ونحن لا نعلم!

قال: «**أَمَا إنَّهم إخوانُكم ومن جلْدَتِكُم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنَّهم أقوامٌ إذا خَلَوْا بمحارم الله انتهكوها**».

أسباب الثبات، وأسباب وجود لذَّة الطاعة وحلاوة الإيمان، بل سبب الخير كلِّه في هذه الدُّنيا هو أن يكون ظاهر الإنسان كباطنه، وأن يكون حاله في الخلوات

---

(١) تمَّ اختيارها من (مجالس فجر الجمعة) للسؤال والجواب، والتي تنعقد على نحوٍ مستمرٍّ منذ نحو عشر سنواتٍ، والحمد لله.

(٢) (٤٢٤٥)، وصححه شيخنا الألباني ـ رحمه الله ـ.

كحاله في الجلوات، فإنَّ كلَّ من اقترف الذنوب في الخلوات لا يكتب له الثبات إلَّا أن يشاء الله، فالله لا يُخادَع؛ لأنَّه هو العزيز الحكيم، والعربُ في أمثالها تقول: «من عَزَّ بَزّ»؛ أي: من غلبَ سَلَب، فالله هو القويُّ الغالبُ على أمره، وهو الذي يهدي إلى الاستقامة ويثبِّتَ عليها، وإذا شاء فهو الذي يسلبها ـ أيضًا ـ.

فهذا الذي هو في خلوته شيطان، وفي جلوته إمامٌ من أئمَّة المسلمين، طريقُه إلى الانتكاسة ولا بدَّ، فإنَّ أكثر ما يرفع درجة العبد، ويعزُّه، ويُشعره بقوَّة نفسه؛ طاعاته في الخلوات، فإذا انعكست حالُه نال جزاءَه.

والخلاص منها بأنْ تُدْرِكَ أنَّ نظر الله إليك أسرع من نظرك إلى ما تشتهي، وأنَّه أقدَر عليك من قُدرتك على ما تشتهي، فتنظُر إليه نظر الخشية والتعظيم، ثمَّ تتجنَّب الخلوة أصلًا ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، فإنَّ الخلوة مع فراغ النَّفس من معالي الهِمَم؛ ثُلمةٌ في حصن النَّفس، يدخل منها الشيطان بسهولة، فتجنَّب ذلك.

❋ ❋ ❋

السؤال الثاني: كيف يأتي انتقام الله إذا اعتدى أحدهم على شرعه بمسائل الحلال والحرام؟

الجواب: هذا شأن الله ـ تعالى ـ وحده، وكيفيَّة عقابه ليس اختيارُها إلينا ولا العلمُ بها من صفاتنا، فإذا اعتدى إنسانٌ على حكم الله ـ عز وجلَّ ـ، فالله ـ تعالى ـ يربِّي عبادَه ويخوِّفهم بما يشاء؛ كما قال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال: ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾[سبأ: ١٦]، هذا أرسله

على سبأ، وعلى غيرهم، وقد يرسل على اليهود أو الروافض أو النَّصارى ولا يقع شيءٌ إلا على وفق حكمته.

طالما المعاصي موجودة، فنحن خائفون على ديننا، وعلى وطننا، فنحن نخاف على بلادنا وأنفسنا ورزقنا وأمننا؛ لأنَّ المعاصي هي التي تُزيلُ النِّعَم، وتستنزلُ النِّقَم.

فالواجب علينا أن نتوب إلى الله، وأن يكون حديثنا وهجِّيرانا أنَّه لا ينزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا يرفع إلى بتوبة، فهذا هو أهم ما نحتاج إلى فقهه الآن، وفي كلِّ وقت.

* * *

السؤال الثالث: نرى في هذه الأيَّام أنَّ بعض الشباب يكون في ركب الملتزمين، ثمَّ إذا به ينقلب فجأة على عقبيه، فأوَّل ما يظهر التقصير من لحيته، ثمَّ سماع الأغاني، ثمَّ ينهار سلوكه بالكليَّة ويتنكَّر لالتزامه السابق، فما هي نصيحتكم لهم ولغيرهم؟

الجواب: أوَّلًا أسأل الله التوفيق للجميع، وأسأله الثَّبات للجميع، وهذا الذي وصفتُم من نتائج الغفلة عن دعاء النبيِّ ﷺ: «**يا مقلِّب القلوب! ثبِّت قلبي على دينِك**»، فقد كان النبيُّ ﷺ كثيرًا يدعو بهذا الدُّعاء، وكان شديد اللهج بهذا التضرُّع إلى الله، ولـمَّا سمعه أنسٌ ـ رضي الله عنه ـ يكثر منه، قال: يا رسول الله! آمنَّا بك وبما جئتَ به، فهل تخافُ علينا؟

قال: «**نعم؛ إنَّ القلوبَ بين إصبعين من أصابع الله، يقلِّبها كما يشاء**»[1].

---

(١) رواه الترمذي (٢١٤٠)، وصححه شيخنا الألباني ـ رحمه الله ـ. =

حينما يغفل الإنسان عن تفقُّد نيَّته وباعثه على العبادة، وعلى الصلاة في المسجد، وعلى قيام الليل، وعلى طلب العلم؛ تصبح هذه الأعمال ـ التي هي من أجلِّ القربات ـ تُؤَدَّى كأنها أعمال اعتياديَّة لا روح فيها، وكأنَّها لا باعث عليها إلَّا العادة، حينئذ يذهب بهاؤها، ويتلاشى تأثيرها، ومن مثل هذه الحال تتولَّد الغفلة.

والغفلةُ ـ عمومًا ـ من أشرِّ الأشياء التي تطرأ على صاحب الدِّين وطالب العلم، لكن أن يبلغ الحالُ إلى أداء العبادة دون أن تتأثر بشيٍ منها؛ فتجدُك تقرأ القرآن ولا تتأثر، وتسبِّح ولا تتأثر، وتكبِّر ولا تتأثر، بل الذي يدعوك ـ غالبًا ـ إلى المسجد جارُك أو صديقُك، ولو لم يدْعُكَ لتردَّدتَ في المجيئ أو تركتَه؛ فهذه غفلةٌ خطيرة، ونيلٌ عظيمٌ، وحظٌّ وافرٌ قد حصَّله الشيطان من قلبِك، وهكذا يكون الحال إذا أوصَلَكَ إلى حدِّ أن تكون غافلًا وأنت بين يدي الله تصلِّي له، فهذه بداية الانتكاسة.

ثمَّ تبدأ ـ أعاذك الله ـ في استثقال الطَّاعات والنُّفور منها، ولا تجدُ لك فيها قلبًا حاضرًا، وحينئذ يسهُلُ عليك التخلِّي عن المظاهر، كاللِّحية ولباس السُّنَّةِ من قميصٍ أو عمامةٍ ونحوها، بل لشدَّة الانفصام بين ظاهره وباطنه سيعدُّ أنَّ بقاء هذه المظاهر التي كان يعدُّها من أسباب سعادته؛ صارت الآن من أسباب شقاءه وحرمانه، والله المستعان.

ومن نعمة الله علينا أنْ جعل الله ـ تعالى ـ لنا إسنادًا متصلًا بالنبيِّ ﷺ

= ويزيد النَّاس من كيسهم في هذا الدعاء: (والأبصار)، وليست من الحديث، وليست من السُّنَّة في شيء.

وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ في الظَّاهر، ونطمعُ في أن يبقى هذا الإسناد متَّصلًا في الباطن كذلك، ونطمع بهذا الحرصِ على التأسِّي الكامل ـ ظاهرًا وباطنًا ـ أن يكون مآلُنَا كمآلهم ـ إن شاء الله ـ، فإنَّنا لا نقدِّم على حُبِّهم حبًّا لأحد.

والشيطان لأنَّه يطمع في أن يصل بك إلى مصيرٍ آخَر غير هذا المصير، نسأل الله السلامة، يبدأ بمحاولات التَّلاعب بباطن الإنسان، فإذا أفسدَه عليه ولم يداوِ الإنسانُ جراحات قلبِهِ، ورضي بالانحدارِ من نقصٍ إلى نقصٍ، انتهى الأمرُ إلى سلخِهِ من الظَّاهر الذي كان يظهر به أنَّه من أهل الالتزام، لأنَّ الشيطان يُريه أنَّ عليه قيودًا لا يستطيع تحمَّلها، فهذا لا يكون إلا لأنَّ باطنه قد تغيَّر.

فنصيحتي هي الإخلاص، والنيَّات الحسنة، واحتساب الأجر، والصُّحبة الطيِّبة، وأن تتضرَّع إلى ربِّك بأن يثبِّتك على الإسلام، وأن يميتك على الإسلام، فأسأل الله ـ تعالى ـ الثبات وحُسن الختام لنا جميعًا.

* * *

السؤال الرابع: هل صحيح أنَّ ذنوب الخلوات تكفِّرها طاعات الخلوات؟

الجواب: نعم.

الذنوب قسمان: ذنوبُ خلوات، وذنوب جلوات.

والإنسانُ مؤهَّلٌ للعافية ما دام لم يجاهر بذنبه؛ لأنَّه ما دام لا يجرؤ على إظهار ذنوبه ويحمله الحياء على سترها، فذلك يعني أنَّ واعظَ الله في قلبه ما زال حيًّا لم يمُت، ومن جاهر بالمعصية فعليه أن يجاهر بالتَّوبة.

ولابن القيِّم ـ رحمه الله ـ كلماتٌ مهمَّاتٌ تنفع المسلمين لا سيما الشباب

والشَّابَّات، ملخَّصها ومعناها أنَّ من أكبر أسباب الثَّبات فعلُ الطَّاعات في الخلوات، ومن أكبر أسباب الانتكاسات معصية الله في الخلوات.

لكنَّ الإنسان الذي إذا خلا بالمعصية غرقَ فيها ولم يزجر نفسَه عنها، فهذا الذي وُصِفَ حالُه في حديث ثوبان ـ رضي الله عنه ـ، وهم الذين تكون لهم حسناتٌ عظيمةٌ كأمثال جبالِ تهامة، لكنَّ الله ـ تعالى، الغنيُّ عن عباده ـ يجعلُهَا يوم القيامة هباءً منثورًا، لأنَّهم اجترؤوا عليه في الخلوات، ولم يعظِّموه، واستهانوا بنظره إليهم ومراقبته لهم.

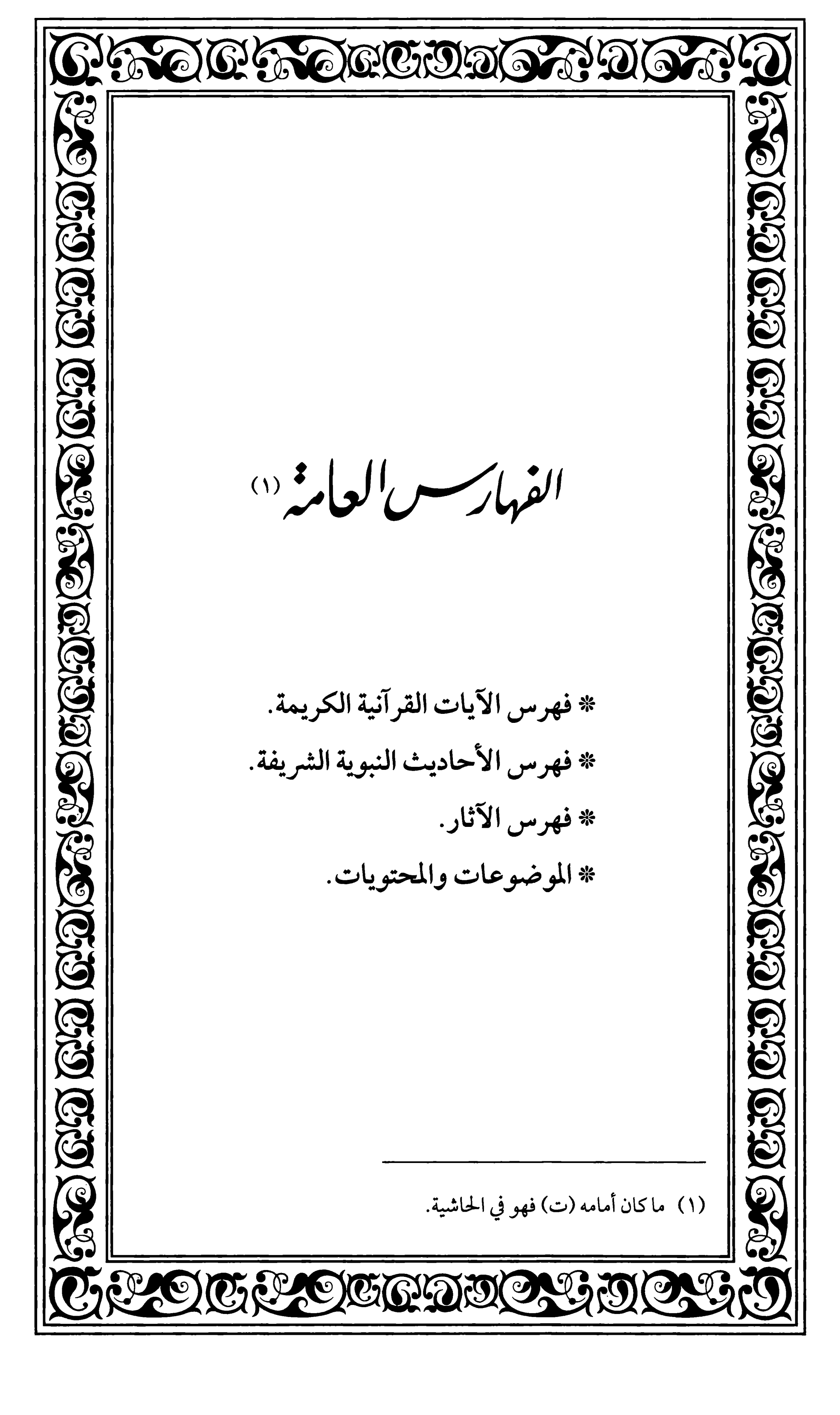
وقد حدَّثني بعض التجَّار، أنَّه دعاهُ تاجرٌ إلى الإفطار عنده في رمضان، والدَّاعي متصدِّق، ومطلق للحيته، ومُصلٍّ، ويذهب للعُمرة على نحوٍ مستمرٍّ متكرِّرٍ، قال: فلمَّا فرغنا من الإفطار، إذا به قد أحضر بعض الراقصات! ولا حول ولا قوَّة إلا بالله.

فأيُّ فهمٍ منكوسٍ هذا؟ رجلٌ صنعَ وليمةً لصائمين يبتغي بها الأجر، ثمَّ إذا رُفعَ طعامُه دعاهم ودعا نفسَه إلى الفسق؟!

هكذا يفعل هذا الصِّنف من النَّاس، وهكذا يكون الحالُ إذا كانت كلُّ الطَّاعات ظاهرة، ولكن في الخلوةِ يكون الطريق بينك وبين الله مغلقًا، والسِّكَّة مهجورة، فإنَّ الطاعات الظاهرة تصبح في الآخرة لا وزن لها ما لم تنتفع بها في باطنك، ويكون الذي بينك وبين ربِّك في السرِّ والخلوة عامرًا بالخير والخشية والتعظيم.

والله ـ تعالى ـ أعلم.

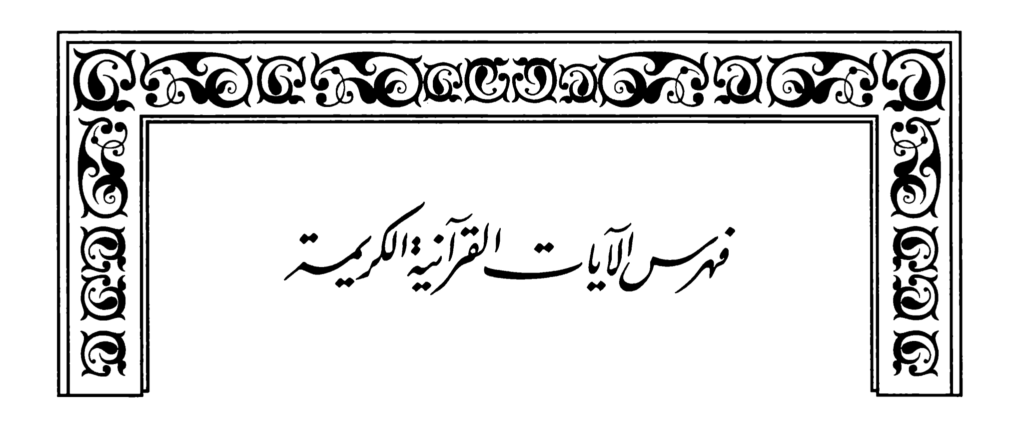




الفهارس العامة[1]

* فهرس الآيات القرآنية الكريمة.
* فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.
* فهرس الآثار.
* الموضوعات والمحتويات.

(١) ما كان أمامه (ت) فهو في الحاشية.



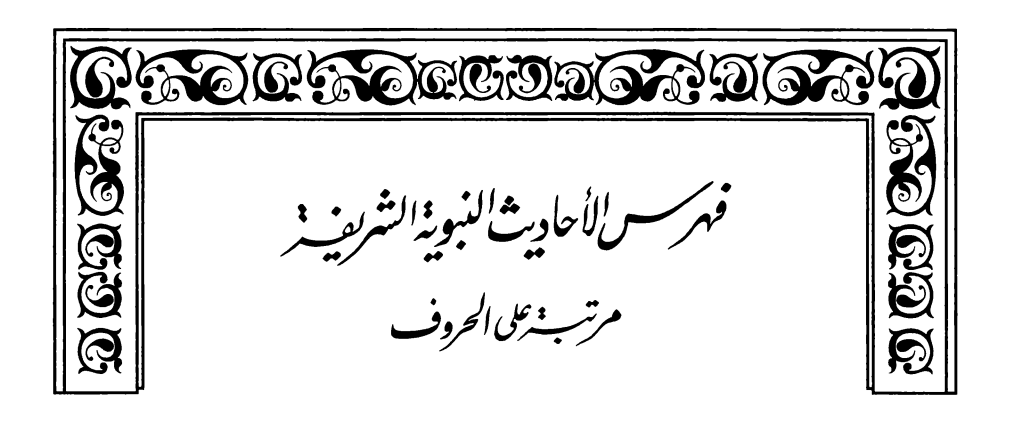
فهرس الآيات القرآنية الكريمة

سورة الأنفال

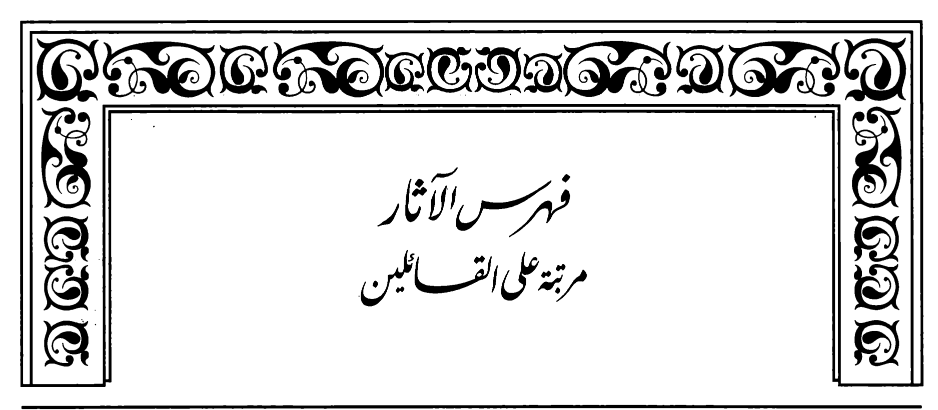
رقم الآية	الصفحة

سورة النصر

□ □ □


فهرس الأحاديث النبوية الشريفة
مرتبة على الحروف

❑❑❑



فهرس الآثار مرتبة على القائلين

طرف الأثر	الصفحة

الألف

إبراهيم بن أدهم

إبراهيم بن ميسرة

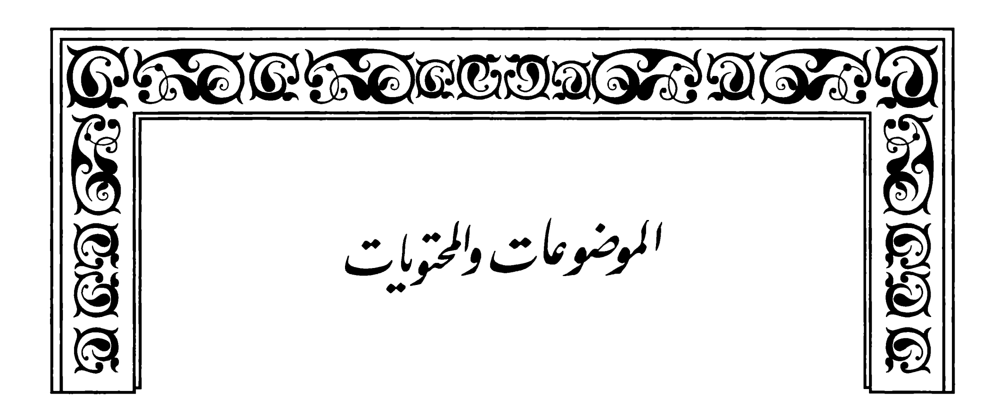
إبراهيم التيمي

إبراهيم النَّخعي

أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ

طرف الأثر	الصفحة
لا يفقه الرَّجل كل الفقه؛ حتى يمقت النَّاسَ	٣٥٥
ويلٌ لمن يعلم مرَّةً، وويلٌ لمن علم ولم يعمل	١٧٨
أبو سليمان الدَّاراني	
قَلَّت ذنوب القوم، فعرفوا من أين أُتُوا	٣١٤
من أحسن في نهاره كُوفِيَ في ليله	٣٤١
أبو عبدالرحمن العمري	
من ترك الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر	٦٢
أبو الغريف	
كُنَّا مقدِّمة الحسن بن علي، اثني عشر ألفًا بمسكن مستميتين	٥٥
أبو قحذم	
وُجد في زمن زياد أو ابن زياد صُرَّةٌ فيها حب	٤٢ت
أبو نضرة والد عبدالملك	
كُنَّا بالمدينة، فسبَّ رجلٌ عثمان	٢٥٦
أبو هريرة	
أنَّه سمع رجلًا يقول: إنَّ الظَّالم لا يضر	١٨٦
بلى والله! حتى الحبارى تموت في وكرها	١٨٦
الأبناء	
ابن سمعون	
رأيتُ المعاصي نذالة؛ فتركتُها مروءة	٣٥٨
المبهمون	
جد صدقة بن المثنى	
أنَّ النَّاس اجتمعوا إلى الحسن بن علي بالمدائن	٥٨

❑ ❑ ❑



الموضوعات والمحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفهارس العامة

الموضوع	الصفحة

□□□

